

تاريخ الشعوب العربية

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبوشادى

تاريخ الشعوب العربية

الجزء الأول

تأليف

د. ألبورت حوراني

ترجمة

نبيل صلاح الدين

مراجعة

د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

A HISTORY OF THE

ARAB PEOPLES

By : Albert Hourani

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٧
مقدمة المراجع	٩
مقدمة	٢٣
تمهيد	٢٥
الجزء الأول :	
عالم يتشكل بين القرنين السابع والعاشر الميلادى . .	٢٩
الفصل الأول :	
قوة جديدة فى عالم قديم	٣٣
الفصل الثانى :	
خلافة محمد صلى الله عليه وسلم - تكوين الامبراطورية . .	٥٢
الفصل الثالث :	
مجتمع يتشكل	٧٨
الفصل الرابع :	
ركائز الاسلام	١٠١
الجزء الثانى :	
المجتمعات الاسلامية	١٢٣
الفصل الخامس :	
العالم الاسلامى العربى	١٢٦
الفصل السادس :	
الريف	١٤٢

الصفحة

الموضوع

الفصل السابع :

١٥٤ حياة المدن

الفصل الثامن :

١٧٨ المدن وحكامها

الفصل التاسع :

١٩٧ طرق الاسلام

الفصل العاشر :

٢٠٩ تراث العلماء

الفصل الحادى عشر :

٢٢٤ اسلام الفلاسفة

الفصل الثانى عشر :

٢٤٢ ثقافة القصور والشعب

كلمة المترجم

كتابى الأول بين أيديكم ، له قصة تحكى .. فمنذ الطفولة المبكرة .. كانت القراءة عشقى الأول .. قلبى معلق بها .. قلبى معلق بالكتاب .. قلبى معلق بالكتابة .. أحب فعل الكتابة لذاته .. قرأت بنهم قبل أن أفهم ما قرأته .. أنهى الكتاب نلوا الكتاب .. كل ما تقع عليه يداى .. ورغم الحصيلة الضئيلة ، الا أنى لم أتوقف يوما .. والآن وأنا على أعتاب الخمسين .. ما تزال هى الحب الحقيقى .. والصديق والأثير ..

عندما حان أوان اختيار المستقبل العملى .. اختاروا لى دراسة الهندسة .. جريا على عادة المتفوقين آنذاك .. لم أقو على اعلان حقيقى .. فلم أتبينها أو أتيقن منها ، على الأقل بهذا الوضوح ، سوى الآن ..

حاولت لفترة تربو على ربع قرن ، أن أعمل بالهندسة .. وأن أكتفى ، من حين لآخر ، بالكتابة كقارىء لا كاتب .. فلم أحقق ذاتى ولا أذكر أن خامرنى شعور بالانجاز ، أو احساس بالرضا عن النفس على تباين واختلاف ما مارسنت من أعمال .. واستقر بى المطاف فى وظيفة .. سرعان ما تبينت أنها ليست مجزية ولا هى مشبعة ، عندها حزنت وساء حالى .. والتوت سحتنى بتعبير جلى مقبم من التبرم والاستياء ، لم يكن فى حقيقته ، الا انعكاسا لحالة انتابتنى ، من عدم الرضا ، بل واحتوتنى ..

كنت مدركا على الدوام ، أن الكتابة راحتى ، فيها راحتى وخلاصى .. حسنا فلأبدأ بالترجمة .. وكان على أن أبهج عن كتاب كبير .. عمل ضخم .. وقد وفقنى الله لهذا الاختيار الرشيد بعد بحث وتدقيق ، كان المعيار الأساسى فى الاختيار ، أن يحظى العمل باهتمام أعرض قاعدة ممكنة من القراء .. وعندى أن للترجمة سبع فوائد (ان لم تزد) : -

- ١ - انجليزية أفضل .
- ٢ - عربية أفضل .
- ٣ - معارف جديدة .
- ٤ - قضاء الوقت بشكل ايجابي .
- ٥ - عائد مادي .
- ٦ - مهمة قومية .. (لمن استطاع اليه سبيلا) .
- ٧ - صدقة جارية .

وبدأت متوكلا على العلیم الخیر .. لم ألزم نفسي
ببرنامج عمل يومي أو منتظم .. أينما وحيثما وجدت الفرصة
سائحة ، كنت أعمل بهمة واستمتاع ، يتزايد حماسي مع كل
صفحة أنتهى منها ، ويشند تصميمي وعزمي على اتمام هذا
العمل الكبير ليكون أول أعمالی المنشورة .

استغرقني العمل سنة كاملة .. لكن رحلة النشر
دامت خمسة أعوام .. وخلال نفس الفترة انتهيت بحمد الله
من ترجمة « أينشبتين » لمؤلفيه ، هابيش هوفمان وهيلين
دوكاس ، وهو ما يزال نحت المراجعة .. علاوة على ست
مقالات للموسوعة الاسلامية (من إصدارات الهيئة ٩٧) .
وبعد ، فلا يبقى الا توجيه الشكر لكل من قدم يد
العون ، أخص منهم بالذكر ، الصديق العزيز والمثقف الكبير
الأستاذ عمر الفاروق عمر فله اسهام كبير فى الجهد المبذول .
كذلك الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الرحمن الشيخ الذى
تعلمت منه الكثير خلال فترة عملنا المشترك .. على قصرها .
وأ أسرة العاملين فى سلسلة « الألف كتاب » ، فلولا ترحيبهم
واهتمامهم وصدق عونهم ، لما خرج الكتاب للنور .

عفوا .. أنا لم أقدم للكتاب ، ففى المقدمة الضافية
للدكتور الشيخ أوفى التقديم .

وختاما .. أهدي باكورة أعمالى ، لكل من آمن صدقا
وحقا بقدرتي على التصدى لمثل هذا العمل الكبير .. عرفانا
وامتنانا .. ووعدا بالسعى لتقديم المزيد والجديد .
رب بارك عملي ، وهب الحصاد الوفير .. انك نعم
المولى ، ونعم النصير .

نبيل صلاح الدين

القاهرة ، فبراير سنة ١٩٩٧

مقدمة المراجع

يستعرض هذا الكتاب تاريخ العالم العربى منذ ظهور الاسلام حنى التاريخ المعاصر ، مع عدم اغفال للروابط بينه وبين امتداده الاسلامى شرقا . تلك الروابط التى وصلت لدرجة كبيرة من التلاحم الثقافى فى مرحلة من المراحل ، وتبادلت التأثير والتأثر معه . فالعالم العربى - فيما يرى حورانى - جزء من العالم الاسلامى ، كما أن الاسلام مدون أساسى من مكونات الحضارة العربية فيما يرى حورانى أيضا ، كما تشكل المسيحية واليهودية مكونا أساسيا من مكونات العالم العربى ، بل والعالم الاسلامى ، وقد أشار المؤلف بشئ من التفصيل الى دور العلماء والأدباء النصارى فى الحضارة الاسلامية ، وكذلك أشار لدور بعض العلماء اليهود . وقد تفاعل أصحاب الديانات السماوية الأخرى مع الحضارة الاسلامية ، لسبب بسيط وهو أن الحضارة الاسلامية - بما فيها الدين الاسلامى - لم تكن غريبة على الديانات الأخرى وانما تمثل امتدادا لها .

وكان من الطبيعى وقد تناول المؤلف - فى كتاب واحد - منطقة شاسعة كالعالم العربى فى فترة زمنية طويلة ممتدة (منذ ظهور الاسلام حتى الأحداث المعاصرة) ألا يهتم بالتفاصيل ، ومن ثم لم يكن كتابه هذا من نوع التاريخ الاخبارى أو الذى يهتم بأحداث فردية بعينها ، وانما من نوع التاريخ التحليلى الشامل الذى يبحث عن الصورة العامة، بصرف النظر عن التفاصيل ، ويبحث عن الروابط أو أوجه الشبه العامة بصرف النظر عن الاختلافات الجزئية التى لا تؤثر كثيرا فى المسار العام للأحداث . والتاريخ الاخبارى الذى يحقق حادثة أو واقعة فرسانه كثيرون ، أما التاريخ التحليلى ذو الرؤية الشاملة فرسانه قليلون ، أو لنقل إن القادرين على خوض غماره قليلون .

ومن هنا فقد أرخ حورانى للعالم العربى ، وأحيانا للعالم الاسلامى من خلال مجتمعاته وثقافته وخصائصه العامة ، فليس بدعا اذن أن يرى فيه كيانا واحدا ونسيجاً متشابك الخيوط حتى فى أكثر مراحل التفكك السياسى وضوحا ، ومن هنا لم يعر حورانى التفاتا لتفكك الدولة العباسية

أو حتى لوجود خلافتين : عباسيه فى بغداد ، و فاطمية فى القاهرة ، ولم ير فى اجتياح المعول للعالم الاسلامى حدنا غير من وحدة ثقافته المنطقه لسبب بسيط وهو أن المغول - فى نهايه المطاف - أصبحوا جزءا من العالم الاسلامى . ولم يؤرخ حورانى للطوائف المسيحية فى العالم العربى بعيدا عن الفكر الاسلامى وانما جعلها فى حوار معه ، وذكرنا بكتابات جورج قسوانى الذى ألف عن دور المسيحية فى الحضارة الاسلامية ، وكتابات نويس شيخو عن الشعراء المسيحيين فى الحضارة العربية والاسلامية . وقد أدلى حورانى بدلوه فى كتير من القضايا الفكرية المتعلقة بالتاريخ الاسلامى والتي كانت تنور أو تنار على الساحة النفاية بين الحين والحين ، ووجدنا أنفسنا فى كثير من الأحيان فى اتفاق كامل معه . وهذا لا يمنع أن الرجل قد أورد بعض الأفكار التى اختلف معه فيها آخرون ، وقد علقنا على ذلك فى حواشى الكتاب .

وبقدم لنا ألبرت حورانى تفسيرات لأمر كان يتناولها المثقفون - بل والمتخصصون - الى عهد قريب ، على أنها من المعضلات التى تحتاج الى شرح وتعليل وتفسير ، ومن ذلك : كيف استنطاع العرب وكانوا بدوا - بالمفهوم التقليدى للبداءة - أن يحققوا انتصارات ساحقة على امبراطوريتين عريقتين هما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية ، والأهم من ذلك كيف قبل المسيحيون والزرادشتيون والمانيون أن يعيشوا فى ظلال الحكم الاسلامى ، بل ويرحبون به ؟

هنا يوضح ألبرت حورانى (وقد سبقه الى هذا التوضيح آخرون) أن العرب الفاتحين لم يكونوا مجرد طغمة من البدو أو الرعاة ، وانما كانوا جماعات منظمة لها تراث حضارى نشأ عن التفاعل الحى مع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . ويعتبر حورانى أن مقدرة هؤلاء العرب على استخدام الابل أفادتهم فى نقل البضائع والعنادر عبر مساحات شاسعة ، بالإضافة لحرارة الايمان ، مما أتاح لهم الانتصار . هذا القول الذى انتهى اليه ألبرت حورانى ، ودلل عليه ، ووجد فيه اجابة شافية لسر انتصار العرب على الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية - سبقه اليه باحثون آخرون ربما كان شرحهم أعمق بحكم ما لديهم من تفاصيل ثرية كثيرة . ولعل من الممتع أن نستعرض بعض أفكار شبيهة ساقها باحث آخر هو الدكتور جورج شحاتة قنواى (١) ، الذى يرى أن الجنس النقى خرافة ، وعن ثم قالحدث

(١) فى كتابه المسيحية والحضارة العربية ، القاهرة ، دار الثقافة المسيحية ،

عن جنس عربى خالص غير مخلط هو بالتالى من قبيل الاكاذيب (١) ، وقد رحل العرب قبل الاسلام الى مناطق واسعة خارج شبه الجزيرة العربية ، وقد ورد فى سفر أعمال الرسل (٢ : ١١) أنه كان يوجد عرب فى اورشليم ، لا شك أن بعضهم قد اعتنق اليهودية (٢) . وكان حاكم دمشق على أيام بولس القديس هو الحارث Aretas وهو عربى تابع لقيصر الرومان واستمر حكم الحارث منذ سنة ٩ ق.م . الى سنة ٤٠ م. وبعد سنة ١٠٥ م أسس الرومان مقاطعة جديدة أسموها أرابيا Arabia ، وامتدت هذه المقاطعة بعد ذلك الى شمال حوران . وكان للعرب أسقف عربى فى بصرى (٣) ، ولم يكن بين العرب قبل الاسلام أساقفة مسيحيون فحسب ، وانما نجد أنه فى الفترة من ٢٤٤ الى ٢٤٩ اعتلى الكرسي الامبراطورى مسيحي عربى (أصله عربى) وهو فيليوس ، ورغم أنه هذا حذو الأباطرة السابقين وتصرف كامبراطور وثنى الا أنه - فيما يقول قنواتى - لم يحدد عقيدته المسيحية (٤) . وعندما استولت الزباء على زمام الحكم فى ندمر كوصية على ابنتها وادبلاتوس أثينودورس Ouadaballatus Athenadorus نسامحت كثيرا مع المسيحيين مع أنها كانت متعاطفة أكثر مع اليهودية . والمتأمل لاسم ابنتها يجد أنه منسوب للالهة العربية اللات - والالهة اليونانية أنينا ، وحضر مجمع خلقدونية عرب (٥) ، وكان فى جزيرة يوتابى ، وهى جزيرة تبران فى مدخل خليج العقبة أسقف مسيحي قبل الاسلام (٦) ، واعتنق عدد كبير من العرب الغساسنة الذين شكل الرومان منهم دولة عازلة الدين المسيحي (٧) ، وكان فى مملكة الحيرة يبيع (معابد) ورجال دين وعباد وهم المستقرون ، أما الرحل فكانوا من قبائل يدين بعضها بالمسيحية (٨) .

أما فى الحجاز فيحدثنا جورج قنواتى معتمدا على مصادر اسلامية عن مسيحيين فى أيلة (ايلات) ودومة الجندل وتيماء وتبوك ووادي القرى ويثرب ، وأن هؤلاء المسيحيين كانوا عربا ، بل وكان بعضهم من العرب

-
- (١) نفسه ، ص ٥٧ .
 - (٢) نفسه ، ص ٥٨ .
 - (٣) نفسه ، ص ٥٩ .
 - (٤) نفسه ، ص ٦٠ .
 - (٥) نفسه ، ص ٦٢ .
 - (٦) نفسه ، ص ٦٥ .
 - (٧) نفسه صص ٦٧-٧٣ .
 - (٨) نفسه . صص ٧٤-٧٩ .

البداية ، كما يحدثنا عن « أساقفة المضارب » أى الأساقفة البدو الذين ينتقلون بين مضارب (خيام) البدو الرحل (١) ، وكان فى مكة المكرمة بغض المسيحيين منهم مينا القبطى نجار الرسول ، وهو الذى صنع له منبرا ، وكان هناك باخوم البناء الذى اشترك فى بناء البعثة المنسرفة قبل الاسلام (٢) . وان بدا أن أمثال هؤلاء غير عرب فانهم عاشوا حياة العرب ، وليس هناك ما يمنع - بل هو الأرجح - أن يكونوا عربا بالفعل .

لم تنشأ دولة الاسلام اذن بين أصحاب أوثان فقط ، ولكنها نشأت وانتشرت منذ البداية بين أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، بالإضافة طبعاً للوثنيين وأصحاب الديانات غير السماوية .

فمن غير المنطقي اذن أن نعتبر العرب الفاتحين مجرد طغمة بدو انتصروا بطريقة اعجازية على حضارات عريقة ، وانما لابد أن يكونوا هم أنفسهم على قدر راق من الفكر وعلى قدر كبير من الامام بتراث الأديان الأخرى .

ولا يبعد انجاه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام (٣) ، ومجموعة كنبه الأخرى عن منحى ألبرت حوراني ، وجورج قنوتى ، الا أن قنوتى أورد كثيراً من التفاصيل وأشار لكثير من المصادر وتتبع شعراء النصرانية ، معتمداً على كتابات لويس شيخو وغيره .

وقد أكد هؤلاء الباحثون أن النصرانية أو اليهودية لم تشكل أى منهما مستقرات أو مستوطنات منعزلة ، وانما هناك عرب أقحاح كانوا على النصرانية أو اليهودية ، أو تسربت اليهم أفكار نصرانية أو يهودية ، أو حتى أفكار من ديانات أخرى كديانات فارس وغيرها .

واذا أخذنا بالدليل الانثروبولوجي فى البحوث التاريخية بمعنى الاسترشاد بأحداث ووقائع حديثة أو معاصرة (أى فى أيامنا هذه) لنقرأ منها وقائع الماضى ، فاننا نجد بعض الرحالة الذين زاروا شبه الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر ، بل وبعد ذلك يحدثوننا عن جماعات بدو

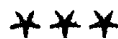
(١) نفسه ، صص ٨٠ - ٨٣ .

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى : سيرة الرسول وتأسيس الدولة الاسلامية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧ ، تحقيق محمد عمارة ، ص ٧٣٧ .

(٣) فجر الاسلام ، ط ١٢ ، صص ٢٥-٢٩ .

الصلب (بتشديد الصاد وفتحها وفتح اللام) أو الصلبة (١) ، وهم بدو يستخدمون الصليب سعارا لهم في بعض المناسبات رغم أنهم من المسلمين ، وقد صور لنا الرحالة (بلي) ما يرجح أنه بقايا مبنى ديني نقشت عليه بعض الصليبان ، في منطقة نجد ، وقد أرجعه الى فترة ما قبل الاسلام (٢) ، ويحدثنا توماس أرنولد (٣) عن بعض نصارى ظلوا في شبه جزيرة سيناء حتى بدايات القرن العشرين ، وان احدى البدويات المسيحيات دفنت في هذه الفترة في دير سانت كاترين .

اذن ، فالعرب الذين فتحوا مصر لم يكونوا - في جانب كبير منهم - مجرد بدو يعرفون التوحيد أو الأديان السماوية للمرة الأولى ، وإنما كان منهم البدوي المسيحي الذي أسلم ، والبدوي اليهودي الذي أسلم ، والبدوي الزرادشتي الذي أسلم ، بالإضافة طبعاً الى البدو الوثنيين الخالص عبدة اللات والعزى ، وحتى هؤلاء فإن بعض آلهتهم تعود لأصول يونانية فيما يرى بعض الباحثين (٤)



ثم نأتى الى القضية الثانية وهى مرتبطة بالأولى ، وهى كيف قبل أصحاب الديانات السماوية حكم المسلمين ، بل ورحبوا به فى بعض الأحيان ؟ وهنا نجد ألبرت حورانى يقدم لنا تفسيراً مقنعاً سبقه اليه باحثون آخرون . يقول حورانى : « ربما كان هناك تفسير آخر لقبول سكان البلاد المفتوحة لحكم العرب ، ذلك أنه لم يكن هناك فارق كبير عند كثير منهم بين أن يحكمهم ايرانيون أو يونانيون أو عرب ، باستثناء المسئولين والحكام والطبقات ذات المصالح المرتبطة بهم . . . فسكان المدن لم يكونوا يبالون بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون فى سلام ويدفعون ضرائب معتدلة ، أما سكان الريف . . فقد عاشوا تحت امرة زعمائهم وفقاً لعاداتهم الخاصة ، وكان حلول العرب محل اليونانيين أو الايرانيين ، وضعاً أفضل بالنسبة لهم . . أما الذين تجلت معارضتهم للحكم البيزنطى فى صورة انشقاق دينى ، فقد كان من الأسر لهم أن يعيشوا تحت امرة حاكم لا ينحاز لأى مذهب من المذاهب ، خاصة وأن الدين الجديد لم يكن قد اتضح . . » .

(١) رحلة الكولونيل لويس بلى للرياض • ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ ود. عريضة
الجبني ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٦ ، ١٥٢.

(٣) فى كتابه الدعوة للإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعبد - المجيد عابدين ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ .

(۴) العزى فيما يرى جورج قنواى هي أفروديت

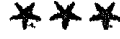
لقد رحب أصحاب المذاهب المسيحية المختلفة - اذن - بحكم المسلمين لأسباب أوضحها - بايجاز - ألبرت جوراني ، لكن باحثين آخرين يزيدون هذا الأمر تفصيلا ، ومن هؤلاء جورج قنواتي الذي يفصل ما أوجزه جوراني ، فيبين لنا أن السبب الجوهرى لقبول الحكم الاسلامي والعيش مع المسلمين بتألف هو وجود أرضية عقائدية مشتركة واسعة ، فالمسلمون والمسيحيون - فيما يقول الدكتور قنواتي - يؤمنون بالله واحد ، وأنه حي قيوم ، وأنه خالق السموات والأرض ، وأنه محب للبشر ، وأنه غفور رحيم وحמיד مجيد وأنه يحيى ويميت ويرضى الأنفس ويرسل الرسل ، ويسوق قنواتي آيات من العهدين القديم والجديد ومن القرآن الكريم لتأكيد هذه السمات المشتركة ، ويقرر أن أهل الكتاب أتبع لهم أن يعيشوا مع المسلمين حياة مدنية مشتركة في ذمة الاسلام (١) ، ولا يرى غضاضة في هذا التعبير الأخير .

وقد وضع بعض الرحالة الأوروبيين المثقفين هذه الفكرة وأعطوها أبـأدا أعمق ، ومن هؤلاء الأمير ردولف من الهبسبرج الأسرة الحاكمة النمساوية الشهيرة ، اذ انه يذكر لنا عند زيارته لمصر والقدس الشريف في أواخر عهد اسماعيل أن الاسلام يضم الأديان الأخرى بين جانبيه وهو يكملها أكثر من كونه يعاديه ، لذلك فلم يكن غريبا ما رآه وقرره في القدس الشريف من أن المسيحيين واليهود يعيشون معا في وئام ويمارس كل منهم شعائر دينه بحرية ، ولم يندهش ردولف عندما وجد أن المسلمين يوقرون كثيرا من المزارات التي يوقرها المسيحيون واليهود ، فموسى عليه السلام والمسيح عليه السلام كلاهما من أنبياء الله من وجهة نظر اسلامية (٢) .

والحقيقة أن كثيرا من الأفكار التي ترددت في الفكر المسيحي قبل الاسلام وجدت لها صدى في الاسلام نفسه ، فكثير من أفكار الآريوسيين (أتباع آريوس الذي عاش في القرن الثالث للميلاد - ولد سنة ٢٥٦ م) وأفكار النسطوريين أو النساطرة (أتباع نسطور الذي انتخب لكرسى القسطنطينية سنة ٤٢٨) لا تبعد كثيرا عن الفكر الاسلامي فيما يتعلق بطبيعة المسيح عليه السلام . ومن الطريف أن بعض المفكرين المزمانيين لحركة مارتن لوتر الاصلاحية كانوا يعتبرون الاسلام مذهبا مسيحيا ، لأن

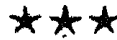
(١) جورج قنواتي : المسيحية والحضارة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦-٢٣ .
(٢) ترجمت رحلة ردولف الى مصر والقدس ، ونشرت في سلسلة الالف كتاب الثاني ٣ ج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، راجع مقدمة المترجم (د . عبد الرحمن الشيخ للحزائين الاول والثالث) .

أفكاره لا تختلف كثيرا عن أفكار كثير من المصلحين والمسيحيين ، وهي مشابهة تماما من حيث التوحيد الخالص لحركة زامنت لوثر وعرفت بحركة الموحدين المسيحيين Unitarianism (١) .



قضية أخرى لا تغلو من طرافة ، فحوراني لم يعتبر الملة العربى أو حركة البدو سببا فى تدهور الأراضى الزراعية فى العالم العربى والاسلامى (المناطق المفتوحة) حتى قبل الإسلام ، وانما هو يرى العكس ، بمعنى أن تدهور الزراعة فى العراق والشام - وربما مصر - هو الذى شجع العرب البداءة على الحركة ، وجعل حرفة الرعى تطغى على حرفة الزراعة فى وقت من الأوقات .

ونرى أن ذلك قول لا يخلو من صحة ، فلا شك أن أحد أسباب انتصار المسلمين على الدولتين الساسانية والبيزنطية هو الضعف الذى حاق بهاتين الدولتين ، ولا شك أن تدهور الزراعة كان أحد مظاهر هذا الضعف .

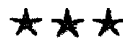


وكثير من الأفكار التى أوردها حوراني عن الشريعة الاسلامية وعلم الكلام ، نجد لها نظيرا لدى باحثين آخرين ، ونفضل هنا الرجوع لتراث الاسلام تأليف شاخت وبوزورت (٢) : « لقد شهد النصف الثانى من القرن الأول للهجرة (٦٧٠ - ٧٢٠م) بعنا للمعتقدات والعادات العربية التى لم يستطع علم الكلام الاسلامى ولا الشريعة الاسلام Islamic Religious Law التخلص منها بصورة كلية ، وبقي البحث عن التوازن بين العنصرين سمة مميزة للحياة الفكرية لدى المسلمين مدة طويلة من الزمن . وقد استبدل بذلك فى العصر الحديث البحث عن التوازن بين قيم القومية (أو أية ابدولوجية سياسية أخرى) وقيم الاسلام .

ويمكن القول بصورة عامة ان المسائل الكبرى التى تواجه المفكرين

(١) انظر تفصيل هذه الحركة فى : حركة اصلاح دينى أدبية لم تلق الاهتمام الكافى . تأليف د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ . مجلة الآداب - جامعة الملك سعود .
(٢) ترجمة محمد زهير السيمهورى ومراجعة فؤاد زكريا ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - عالم المعرفة - ٨ .

المسلمين في العصر الحديث (١) هي نفسها التي واجهتهم في القرنين الأول والثاني للهجرة (القرنين السابع والثامن للميلاد) ٠٠٠ وهناك توترات عديدة ظلت بلا حل طوال تاريخ الاسلام ، ومعظمها ناجم عن أن المثل الديني الأعلى لا يمكن تحقيقه في العالم كما هو ، وأهمها ذلك التنازع القائم بين التقوى والاستقامة ، أو في المصطلح الدقيق بين التصوف والشرعية ٠٠٠ وبعد ذلك (أى بعد القرن الحادى عشر للميلاد) أصبح كل من الشريعة الاسلامية وعلم الكلام الاسلامى يميلان لأن يكونا ضربا من التمارين التقنية (خليا من الروح) وحل الأمر نفسه في التصوف الاسلامى ٠٠٠ وكان الاسلام منذ بدايته دين عمل أكثر منه دين ايمان ، ولم يكن النصف الأول من اعلان الايمان الاسلامى وهو (لا اله الا الله محمد رسول الله) ليشكل أية مشكلة لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الوثنيين ، بل كان أقل اشكالا بالنسبة لاتباع الأديان السماوية في الأراضى المحيطة بها ، حتى اعتنقوا دين الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربى للبلاد ٠٠٠ ولهذا السبب نفسه نجد أن الشريعة – وليس علم الكلام – كانت دائما محور العلوم الدينية الاسلامية ، فحتى الغزالى ٠٠ رغم أنه اعتبر الشريعة علما دنيويا وليست من علوم الآخرة ، فقد ظل يعدها علما دنيويا وليس دنيويا ٠٠٠ وكذلك فإن أنصار الاتجاهات العصرية من رجال التشريع الذين يقسون على الشريعة الاسلامية التقليدية برمتها ٠٠ لا يستطيعون التهرب من المبدأ الأساسى القائل بأن القانون (الشريعة) ليس مؤسسة دنيوية بل يجب أن يخضع للدين ٠٠٠ ، .



مسألة أخرى ثار بشأنها خلاف بين الباحثين العرب أدلى فيها البرت حورانى بدلوهم ، وهى الدولة الأموية التى تحول على يديها نظام الخلافة من الشورى والمبايعة الى الوراثة أو الى حكم الأسرة ، وأصبحت عملية المبايعة مسألة شكلية لا تغير من جوهر كون الحكم وراثيا . وحورانى يلتمس العذر للدولة الأموية فى هذا التغيير الجوهرى الذى ترك بصماته فترة طويلة على التاريخ الاسلامى ، وهو كمؤرخ ينظر للأمور نظرة واقعية من خلال الظروف التى سادت هذه الحقبة ، فقد كان العرب الفاتحون أقلية بالنسبة للشعوب

(١) يرى شاخت وبوزورث أن العصور الوسطى الاسلامية تمتد حتى سنة ١٨٠٠ أى بدايات القرن التاسع عشر ، وهو رأى غير مأخوذ به فى التقسيمات التاريخية المعمول بها ، أما حورانى فهو يقسم كتابه التقسيم المعتاد ، ويعتبر تاريخ الدولة العثمانية مرحلة جديدة ، لذا فهو يدرجها فى الجزء الثانى من كتابه هذا الذى يتناول التاريخ الحديث – (المراجع)

كثيرة العدد التي ضمتها الدولة الإسلامية ، وكان معاوية بن أبي سفيان يخشى هذه الكثرة (١) ونرى أنه من غير المنطقي - من وجهة نظر تاريخية وسياسية لا من وجهة نظر مثالية - أن يتم تعيين الولاة أو الحكام أو قادة الجيوش من هؤلاء في هذه المرحلة الباكرة من تكوين الدولة ، فواء مثل هذه العناصر في هذه المرحلة لازال تحت التجربة ، ولا وجه للمقارنة بالاستشهاد بسلامان الفارسي وبلال بن رباح وغيرهما في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فهؤلاء كان إسلامهم قد حسن ، وكانوا صحابة ولا مجال للشك في ولائهم .

وكان معاوية بن أبي سفيان يخشى أيضا من التكتلات القبلية ضده فعمل على استمالة القبائل والتودد الى شيوخها (٢) . والاخذ بالشورى بمعناها المثالي الخالد هنا لا معنى له أيضا ، لأن الشورى أو المباحة أو أخذ رأى الرعية أو أهل الحل والعقد أو حتى الديمقراطية بمعناها المعاصر تحتاج الى بيئة مهيئة لذلك ، والى نوع من التجانس يضم الشعب أو الرعية كلهم في نسيج متشابه ، ولم يكن الأمر كذلك في عهد الدولة الأموية ، فقد كان من الرعية فرس وروم وقبائل عربية مختلفة الأهواء والمشارب . لقد التزم حوراني بعقلية المؤرخ وحكم على الأمور من خلال الظروف التاريخية . وهو في هذا على أية حال ليس متفردا وإنما ينحو منحاه باحثون آخرون ، ننقل هنا قبسا من كتاباتهم :

« فالدولة الأموية كانت بالفعل دولة عامة أكملت بناء العالم الإسلامي في دور توسعه الأول ، ووصلت بحدوده من فرغانة والسند في الشرق الى المحيط الأطلسي في الغرب وتخطت جبال البرت المعروفة بالبرانس وواصلت ففتحت بلاد غالة (فرنسا) حتى أوقف تقدمها الفرنجة بانتصارهم على المسلمين في واقعة بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ - أكتوبر ٧٣٢ م . وقد بدأت الدولة الأموية حكمها سنة ٤١ هـ - ٦٦١ م وعلى رأسها معاوية ابن أبي سفيان في نهاية الفتنة التي بدأت في منتصف خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه حوالى ٣٠ هـ - ٦٥١ م وبولايته عاد نشاط التوسع والفتوح واستمرت خلافته من ربيع الأول سنة ٤١ هـ - يونيو ٦٦١ م الى رجب ٦٠ هـ - أبريل ٦٧٩ م ، وخلفه ابنه يزيد الذى حدث في عهده مأساة استشهاد الحسين بن على ١٠ محرم ٦١ هـ - ١١ أكتوبر ٦٨٠ م التي حولت التشيع لعل بن أبى طالب وآل البيت الى حركة سياسية خطيرة

(١) انظر ما نقله أحمد أمين عن العقد الفريد لابن عبد ربه في كتابه فجر الاسلام ط ١٢ القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٠ .
(٢) انظر : أحمد أمين : فجر الاسلام ، ط ١٢ ، ص ١٨٧ .

استمر نطاقها يتسع حتى قسمت العالم الاسلامى الى سنة من ناحية وشيعة
من ناحية أخرى ، (١) .

★★★

وبين الحين والحين كانت الساحة الثقافية فى مصر تشهد آراء على
شاكلة أن الاسلام مرتبط ببيئة بعينها ، أو أنه دين صحراوى مقتصر على
البدو ولا يصلح الا لهم ، وسواء أكانت مثل هذه القضايا تنار على سبيل
المزاج ، أم أن القائلين بها جادون ، فإن باحثا مثل ألبرت حوراني يستخر
من مثل هذه الآراء ويعتبرها آراء خطيرة بعيدة عن منهج البحث العلمى
(لاحظ أن حوراني يخاطب القراء الأوروبين) ، ويرى من خلال الحقائق
التاريخية أن الاسلام دين عالمى غير مقتصر على جنس دون جنس أو بيئة
مناخية دون أخرى . ونفضل هنا نقل عبارات حوراني بنصها الانجلىزى :

... It has sometimes been claimed that these two factors
were closely Connected that the religion of Islam was particu-
larly suitable to a certain kind of environment, or indeed had
created it : that Muslim Societies were dominated by the
désert, or at least by a certain relationship between the désert
and the city. Such theories are dangerous,, however, there
are countries with a different kind of climate and Society,
such as parts of south and southeast Asia, Where Islam has
spread and taken root ...

وحوراني هنا يثبت فعلا أنه باحث موضوعى بعيد عن الهوى ، فمن
الناحية الاحصائية الواقعية نجد أن الاسلام قد تركز فى شرق أوروبا حتى
قبل سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح ، وليس بى أو لآخر فإن
المجتمعات الاسلامية فى شرق أوروبا لم تحظ بالدراسة الكافية (٢) ،
كذلك جمهوريات نهر الفولجا ، وهى داخله ضمن الحدود الجغرافية
لأوروبا باعتبار الأورال هى الفاصل المتفق عليه - جغرافيا على الأقل -
بين آسيا وأوروبا

★★★

-
- (١) حسين مؤنس : اطللس التاريخ الاسلامى ، ص ١٥١ .
(٢) حاولنا سد القصور فى هذا المضمار بقدر ما نستطيع بترجمة كتاب « العثمانيون
فى أوروبا » للمؤرخ بول كولز ، ونشر فى سلسلة الألف كتاب الثانى (الهيئة المصرية
للغامة للكتاب) ، ١٩٩٤ - (المراجع) .

ملاحظات حوراني عن انتشار الاسلام :

لاحظ حوراني (كما هو واضح في الباب الثاني يفصوله المختلفة) ان العالم الاسلامي وان بدا - من ناحية الشكل الخارجي على الأقل - في حالة تفكك وانهار بعد سقوط بغداد ، الا أن هذا الشكل الخارجي لم يكن يمثل الجوهر الحقيقي للأمور » فلم تقض الخلافات السياسية على الوحدة الثقافية لعالم الاسلام ، وقد عبر الدين عن نفسه في نظم التفكير وفي المؤسسات « وحتى بعد سقوط غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس كانت حقيقة الأمر رغم كل هذا أن الاسلام يزداد انتشارا وأن خريطته في انساع ، وإذا كان حوراني قد أشار لذلك بإيجاز ، فإنا نود في هذه المقدمة أن نوضح هذه النقطة المهمة ونحاول شرحها شرحا تاريخيا واضحا قدر الامكان .

فمنذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، كان الوجود الاسلامي في تقهقر مستمر في شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) ، ففي سنة ١٠٨٥ سقطت طليطلة ، لكن في الفترة ذاتها تقريبا كان ألب أرسلان السلاجوقي (١٠٦٣ - ١٠٧٢) يطرد البيزنطيين من معظم آسيا الصغرى (لاحظ : تقهقر في الغرب يوازنه تقدم في الشرق) ، وطوال هذه الفترة وما بعدها كان الأتراك يهاجرون من أواسط آسيا الى آسيا الصغرى متتبعين آثار السلاجقة أبناء عمومتهم (لاحظ : المسلمون يخرجون من الأندلس في غرب العالم الاسلامي ، والمسلمون يزحفون على آسيا الصغرى في شرق العالم الاسلامي) . وفي سنة ١٢٣٦ سقطت قرطبة الاسلامية في الأندلس ثم سقطت اشبيلية سنة ١٢٤٨ وبدا الاسلام في الأندلس مضطربا وبدأت دولته في الأندلس على وشك الانهيار ، وفي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك العثمانيين ، وفزعت أوروبا كلها واستدارت تاركة الانتصارات المسيحية في ايبيريا لتواجه نكسات وهزائم خطيرة عقب سقوط القسطنطينية .

ان الاسلام من هذا الباب القسطنطيني صار أقرب لقلب أوروبا من جبل الوريد . توازن غريب ومدعش . وعندما سقطت آخر القلاع الاسلامية في الأندلس ، وتبعني بها غرناطة ، سنة ١٤٩٢ كان الاسلام متمركزا في شرق أوروبا في مرحلة بحث وانتشار . وهكذا لم تنقص مساحة العالم الاسلامي ولا تقلصت عملية انتشار الاسلام .

مثال آخر يؤكد ما ذهب اليه البرت حوراني ، فبعد سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٦ ، والذي كان قد اجتاحت بجيشه المغولي المناطق

المحيطة ببحر قزوين (الخزر) وبحر آرال بحيرة خوارزم) وضم كل مناطق وسط آسيا التي تعرف باسم بلاد ما وراء النهر Trans oxania ووصل جنوبا حتى ما بعد ممر خيبر (في أفغانستان الحالية) ، وكانت سيطرتهم تمتد من كاشغر شرقا (ضمن الصين الحالية) ، وكان الاسلام أثناء هذه الغزوة النثرية موجودا ، بل ومنتشرا في كل هذه المناطق ، وكان في صفوف التتر (المغول) أنفسهم عدد من المسلمين وصلوا لدرجة الوزارة وتولوا حكم بعض الولايات ، بل لقد كان بركة التتري أو المغولى - منافس هولاكو على العرش - مسلما . وتولى بركة التتري المسلم حكم منطقة واسعة عرفت بالأورد الذهبي في الفترة من سنة ١٢٥٧ الى سنة ١٢٦٦ ، وتولى مباركشاه التتري المسلم حكم خانية آل جفتاي بصفة غير رسمية قبل سنة ١٢٦٦ (١) .

والمهم أن حركة المغول هذه قد أدت الى انتشار الاسلام ، وليس العكس ، فمع أول هزيمة حاققت بالمغول ، انصرفوا الى تعمير الأراضي التي خربوها دون رحمة . يقول روم لاندو - وهو أستاذ للتاريخ الاسلامي بجامعة كاليفورنيا : « ان هذا التغيير المدهش الذي طرأ على سياسة المغول ، إنما هو ثمرة من ثمار نفوذ الاسلام المرسخ الممددين ، فبعد أن احتل المغول الامبراطورية الاسلامية وجدوا أنفسهم في وضع كالوضع الذي جابهه كثير من المنتصرين قبلهم : لقد خضعوا لدين ضحاياهم وثقافتهم » . وهكذا كان من نتائج الغزو المغولي مزيد من التفاعل بين رقعة العالم الاسلامي (٢) .

★★★

وقد اهتم حوراني في هذا الجزء بالعلاقات بين القوى المختلفة . وبالجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، مما جعل كتابه مقروءا ممتعا للقارئ الأوروبي والأمريكي ، ونرجو أن يكون كذلك بالنسبة للقارئ العربي .

ولم يستخدم حوراني المصطلحات التاريخية غير المفهومة للقارئ العام ، وإنما استخدم الألفاظ والمصطلحات المعاصرة في حالات كثيرة ليشير للأماكن والبلدان ، فقد كان حوراني يكتب عن الماضي وعينه على الحاضر ،

(١) اعتمدنا في تحقيق التواريخ وضبط الوقائع على . تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي تأليف فاسيلي فلاديمير بارتولد . ترجمه عن الروسية هلال الدين عثمان هاشم . نشره المجلس الوطني للثقافة بالكويت ، ١٩٨١ . وهو من الكتب المهمة .

(٢) روم لاندو . الاسلام والعرب . ترجمة منير البعلبكي . بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٧٧ .

وعند تعرضه للمحبة الثقافية والاجتماعية أفاض فى الحديث عن المذاهب الدينية المسيحية والاسلامية وأحيانا اليهودية ، مبينا الفروق بينها ببساطة شديدة ، ودون أن يغرق فى التفاصيل اللاهوتية ، وانما ركز على الفروق التى تؤدى الى نتائج عملية . فالنساطرة لايماهم بطييعتين منفصلتين للسيد المسيح ، فد جعلهم هذا أكثر نفاعلا مع المجتمعات الاسلامبة فى العراق وايران ، كما فصل حورانى بين اليهود التلموديين واليهود غير التلموديين ، وهذه أمور - كما قلنا - لها مردود عملى ، ولبست مجرد خلافات لاهوتية أو فقهية .

وقد يهتم القارئ العربى بمعرفة بعض التفاصيل عن المذاهب والفرق الاسلامية المختلفة ، لذلك أوردنا فى الحواشى بعض التعليقات الموجزة جدا ، وعلى القارئ المهتم مراجعة الممل والنحل للشهرستانى زدائرة المعارف الاسلاميه . وقد آثرنا أن تكون الحواشى موجزة قدر الامكان لنعطى للكتاب ما أرادته له المؤلف - وهو طابع العمومية .



ولا شك أن الأستاذ نبيل صلاح الدين قد بذل جهدا كبيرا فى ترجمة هذا الكتاب ، وسعدت عندما كلفت بمراجعة هذا العمل المهم ، وكنت حريصا على أن تكون تعديلاتى وتعليقاتى فى أضيق الحدود ، واحترمت تماما منهج المترجم ، مع تعليقات فى الهوامش أحيانا ، فقد لا يوافق بعض القراء مثلا على عبارات مثل (القانون المالكى أو القانون الحنفى ٠٠٠) Hanafi law ، لكن هذا فى الواقع ما يريد المؤلف قوله للقارئ الأوروبى ، لذا أشرنا للمصطلح العربى (الفقه المالكى ، الفقه الحنفى ٠٠٠) فى الهوامش عند المراجعة ، مع ابقاء النص المترجم كما هو ، وعند الحديث عن علوم الحديث وعلوم القرآن ، أقررنا الترجمة غير الاصطلاحية مع اشارات للمصطلحات فى الهوامش ، وبالتالى فلم يستخدم المترجم فى النص عبارات مثل (علم الرجال) ، وانما (سيرة رواة الحديث) أو (الجرح والتعديل) وانما (الحكم على رواة الحديث) ، وعند الحديث عن التصوف لم تستخدم فى النص عبارات مثل (العلم اللدنى) وانما العلم المستوحى من الباطل بالتأمل ٠٠٠ بل عند ترجمته نصوصا عن العمارة الاسلامية آثر المترجم الاشارة الى فناء مكشوف للمسجد بدلا من (الصحن) والى المساحات المغطاة بدلا من (الأروقة) ٠٠٠٠٠ وهكذا .

وأجد من واجبي أن أنوه هنا بتشجيع الأستاذ أحمد صليحة وهيئة
تحرير هذه السلسلة لمثل هذه الجهود الطيبة في ترجمة الأعمال المهمة
في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية .

وعلى الله قصد السبيل

د. عبد الرحمن عبد الله الشينخ

مقدمة

موضوع هذا الكتاب هو تاريخ الأجزاء الناطقة بالعربية من العالم الاسلامى منذ ظهور الاسلام وحتى وقتنا الحالى ، الا أننى اضطررت خلال بعض الفترات للخروج عن الموضوع ، على سبيل المثال عندما تعرضت للتاريخ المبكر للخلافة ، وكذلك عند تعرضى للامبراطورية العثمانية أو للتوسع فى التجارة أو للامبراطورية الأوروبية ، فقد يقال ان الموضوع أكبر أو أصغر مما ينبئى . أو ان تاريخ المغرب مختلف عن تاريخ الشرق الأوسط ، أو ان تاريخ البلاد الناطقة بالعربية لا يمكن النظر اليه بمعزل عن البلاد الاسلامية الأخرى ، ولا بد من وضع فاصل ، ورغم أن الموضوع الذى اخترته لهذا الحط راجع جزئيا لحدود معرفتى الشخصية ، الا أننى آمل أن يوضح هذا الكتاب أن هناك وحدة كافية من التجربة التاريخية بين المناطق المختلفة التى يغطيها مما جعل من الممكن النظر اليها ، أو الكتابة عنها فى اطار واحد .

وقد وضع هذا الكتاب للقراء الذين يرغبون فى معرفة بعض الأمور عن العالم العربى وللدارسين الذين يبدؤون فى دراسة هذا الموضوع ، وسيكون واضحا للمتخصصين أن كتابا بهذا الاتساع فى مجال البحث مبنى على أبحاث الآخرين ، وقد حاولت بيان الحقائق الأساسية وترجمتها فى ضوء كتاباتهم وعبرت عن كونى مدينا لهم بادراج أعمالهم فى قائمة المراجع .

وأود أن أعبر عن شكرى تجاه باتريك سيل الذى شجعنى على انجاز هذا الكتاب وساعم فى الترتيب لنسره ، والأصدقاء الذين قضوا ساعات طويلة فى قراءته وتصحيح الأخطاء واقتراح كيفية تحسينها ، وهم بانريشنا كرون ، وبول دريسنى ، ولبنى فواز ، وكورنيل فليشر ، والمرحوم مارتن هانيدز ، وشارلز عيسوى ، وطارف خالدى ، وفيليب خورى ، وايرالبيدوس ، وويلفريد ماديلونج ، وباسم مسلم ، وروبن أوستل ، ودوجر أوين ، ومايكل روجرز ، ومارى ويلسون ، وأخص من بينهم

بول دريتش بدين خاص ، اذ انه تابع خطى الفكر برؤية عميقة
ومعرفة واسعة .

وأوجه بالشكر للأصدقاء والزلاء الذين ساهموا فى امدادى
بالمعلومات التى احتجتها ، وللقائمين على كتابة المسودات والتحرير
والتصحيح والاعداد والطباعة ، وللناشرين الذين تكرموا بالسماح
باستخدام فقرات من منشوراتهم لنصوص مترجمة عن العربية .

الاسماء الجغرافية

وعندما وضعت كتابا يغطى مثل هذه الحقبة الطويلة من الزمان ،
كان على اتخاذ قرارات بخصوص الاسماء ، فاستخدمت الاسماء الحديثة
للبلدان عند الاشارة الى مناطق جغرافية حتى لو لم تكن هذه الاسماء
مستخدمة فى الماضى ، وكان من الأسهل استخدام نفس الاسماء خلال الكتاب
بدلا من تغييرها من فترة لأخرى ، وعليه فان « الجزائر » تعبر عن منطقة
معبنة فى شمال أفريقيا ، رغم أن هذا الاسم لم يستخدم الا فى القرون
الحديثة ، وبشكل عام فقد استخدمت الألفاظ التى ألفها قراء الانجليزية ،
فلفظ « مغرب » قد يكون مألوفا وأكثر استعمالا من « شمال غرب
أفريقيا » ولكن لفظ « المشرق » ليس كذلك ، ولهذا فقد استخدمت لفظ
« الشرق الأوسط » بدلا منه ، وأطلقت أيضا على الجزء الاسلامى من شبه
جزيرة (أيبيريا) لفظ الأندلس ، فمن الأسهل أن نستخدم لفظة واحدة
بدلا من جملة بأكملها ، وعندما أستخدم اسما ، أصبح الآن لدولة
ذات سادة ، عند الكتابة عن الفترة قبل ظهور هذه الدولة ، فان المقصود
هو الاشارة الى منطقة معينة محددة تقريبا ، الا أنه عند الكتابة عن الفترات
الحديثة يكون المقصود هو المنطقة التى تشملها حدود هذه الدولة ، وعلى
سبيل المثال فان (سوريا) خلال معظم الكتاب تعنى منطقة محددة لها
خصائص مشتركة طبيعية واجتماعية ، وكانت لها بشكل عام تجربة
تاريخية واحدة ولكنى أشير بها فقط الى دولة (سوريا) منذ ظهورها
فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولست بحاجة للقول ان مثل هذه
الاستخدامات لا تتضمن أى آراء سياسية حول وجود أية دولة أو مواقع
حدودها .

والاسماء الجغرافية المستخدمة مبينة فى الخريطة رقم (١) .



تمهيد

فى عام ١٣٨٢ م التمس عالم الاذن من حاكم تونس للقيام بالرحيل الى مكة ، وعندما سمح له بذلك استقل السفينة قاصدا الاسكندرية بمصر ، عندما غادر كان فى الخمسين من عمره وكان خروجه من بلاد المغرب - التى لعب هو وأسلافه فيها دورا مهما ومتغيرا - خروجا بلا عودة .

ينحدر عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) من عائلة انتقلت من جنوب الجزيرة العربية الى أسبانيا بعد الفتح العربى واستقرت فى اشبيلية ، وعندما توسعت الممالك المسيحية من شمال أسبانيا باتجاه الجنوب نزحت العائلة الى تونس كشأن العديد من العائلات ذات العراقة والتقاليد والثقافة والمناصب الرفيعة فى الدولة ، وشكلت هذه العائلات فى بلاد المغرب العربى (الجزء الغربى من العالم الاسلامى) طبقة من النبلاء تقدم خدماتها للحكام المحليين ، وقد لعب الجد الأكبر لابن خلدون دورا كبيرا فى سياسات القصور فى تونس حتى فقد الحظوة وقتل فى النهاية ، كذلك كان جده مسئولا فى الدولة ولكن والده هجر السياسة وعاش حياة طالب العلم المعتزل ، وتلقى ابن خلدون تعليما جيدا بمقاييس ذلك العصر عن أبيه وعن العلماء بالمساجد والمدارس فى تونس ، وواصل تعليمه خلال شبابه المبكر عندما عاش فى مدن أخرى لأن ذلك كان جزءا من التقاليد التى توارثها ، فقد كان على الرجل أن يبحث عن العلم فى أى مكان . وفى سيرته الذاتية يورد أسماء أولئك الذين حضروه والموضوعات التى تعلمها عنهم : القرآن الذى هو كلمة الله الموحاة باللغة العربية من خلال النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، والحديث ، والسيرة حول ما فعله أو قاله النبى صلى الله عليه وسلم ، والتشريع والأخلاق الاجتماعية على أسس من القرآن والحديث ، واللغة العربية التى لولاها لما أمكن فهم علوم الدين والعلوم العقلانية والحساب والمنطق والفلسفة ، كما يذكر أمورا عن حياة وشخصيات أساتذته ، ويحكى عن أغلبهم ، وكذلك عن أبويه اللذين قضيا فى « الموت الأسود » وهو الطاعون الكبير الذى اكتسح العالم فى منتصف القرن الرابع عشر .

وفد تمكن ابن خلدون فى سن مبكرة من اللغة والتشريع مما أهله للخدمة لدى حاكم تونس ككاتب فى البداية ثم تحمل فيما بعد مسئوليات أكبر ، ولكن فى مناصب غير مستقرة ، ونلا ذلك عشرون عاما من الأحداث الجافلة ، فقد غادر تونس وعمل لدى حكام آخرين فى المغرب ، ثم انتقل الى غرناطة عاصمة آخر الممالك الاسلامفة فى أسبانيا حيث اكتسب حظوه هناك ، وأرسل فى مهمة رسمية للحاكم المسيحى لمدينة اشبيلية موطن أسلافه ، ولكن حامت حوله الشكوك فاضطر الى الاسراع بالانفقال الى الجزائر حيث حصل مجددا على عمل حكومى فى الصباح وبعده يقوم بالتدريس فى المسجد ، وفد لعب ابن خلدون دورا فى اجتذاب العرب وزعماء البربر من السهوب والجبال للتحالف السياسى مع الحكام الذين عمل لديهم ، وكان للنفوذ الذى استطاع اكتسابه منهم فائدة كبرى عندما تكرر ما حدث كثيرا طيلة حياته من فقدان الخطوة لدى مستخدميه ، وفى احدى هذه المرات قضى أربع سنوات (١٣٧٥ - ١٣٧٩ م) فى قلعة فى ريف الجزائر فى حماية زعيم قبيلة عربية ، وخلال هذه السنوات نحرر من انشغالات الدنيا وعكف على كتابة تاريخ الأسر الحاكمة فى المغرب من خلال منظور واسع .

وفد ظل الجزء الأول من هذا التاريخ (مقدمة ابن خلدون) يحظى باهتمام كبير حتى الآن ، وفيه حاول شرح صعود وانهار هذه الأسر الحاكمة بطريقة يمكن أن تكون محكا للحكم على مصداقية الروايات التاريخية ، وقد بين أن أبسط وأول أشكال المجتمعات الانسانية هى تلك التى يتميز بها سكان السهوب والجبال الذين يزرعون المحاصيل أو يربون الماشية ويسعون زعماء ليس لهم قوة مسيطرة مظمة ، يتمتعون بالطبفة الطبيعية التلقائية والطاقة والحيوية ، ولم يكن بإمكانهم تكوين حكومات مستقرة أو مدن ذات ثقافة رفيعة عالية ، ولا يمكن لأحدهم فرض نفسه الا اذا تمكن من السيطرة على مجموعة من التابعين حوله ممن تتوافر فيهم العصبية ، وهى روح جماعية ننحو للحصول على السلطة أو القوة والتمسك بهما ، وكان من الأفضل تجنيد هذه المجموعة من الأتباع من بين رجال الوديان والجبال ذوى النشاط والحيوية ، والذين يمكن ضمان تماسكهم والتفافهم حوله من خلال الاحساس بالأسلاف المشتركة صحيحة كانت أو مختلقة ، أو روابط الاعتماد المتبادل ، ويدعمها القبول المشترك بالدين ، وكان بإمكان الحاكم الذى يتمتع بمجموعة قوية متماسكة من الأتباع أن يؤسس أسرة حاكمة ، وباستقرار حكمه تزدهر المدن ونكتظ بالسكان وننمو ونتكون فيها الحرف المتخصصة وأنماط الحياة المرفهة والثقافة ، وقد

حملت كل أسرة حاكمة بداخلها بذور انهيارها ، فيمكن أن يضعفها الطفيان أو الاسراف أو غياب مقومات الزعامة ، وقد تتحول السلطة الفعلية من الحاكم الى بعض أفراد جماعته ، ولكن عاجلا أو آجلا تخلف الأسرة أسرة أخرى تشكلت بدس الطريقة ، وعندما يحدث ذلك لا يختفى الحاكم فقط وانما أيضا جماعة الناس الذين قام عليهم سلطانه وكذلك نمط الحياة الذي أوجده ، وكما يقول ابن خلدون : « عندما يكون هناك تغير عام في الظروف فكأن الحلق كله قد تغير ، ونعدل العالم بكامله » (١) ، فاليونان والفرس وهما القوتان الأعظم في العالم في ذلك الوقت حل محلهما العرب الذين أوجدت قوتهم وبماسكهم أسرة حاكمة امتد سلطانها من الجزيرة العربية حتى أسبانيا ، والعرب بدورهم خلفهم البربر في المغرب وأسبانيا والأترار في المشرق (٢) .

وما جرى للحكام جرى أيضا للعاملين تحت امرتهم ، فعندما غادر ابن خلدون الى الاسكندرية كان على أعتاب مستقبل جديد ، فلم يذهب للحج آنذاك رغم أنه قام به فيما بعد ، لكنه انتقل الى القاهرة التي أذهلته كمدينة على مستوى مختلف ، عما شاهده من المدن ، فكتب عنها أنها : حاضرة العالم وحديقة الدنيا وموقع التقاء الأمم والشعوب ومركز الاسلام ومكمن القوة (٣) ، وكانت القاهرة عاصمة للسلطة المملوكية - احدي أعظم الدول الاسلامية - في ذلك الوقت وتشمل الشام الى جانب مصر . وتقدم للحاكم واكتسب ثقته ، فمنحه معاشا . وحصل فيما بعد على وظيفة مدرس في بعض المدارس السلطانية عندها أرسل في طلب أسرته ، ولكنهم غرقوا جميعا خلال الرحلة البحرية من تونس .

وعاش ابن خلدون في القاهرة حتى مماته ، وأنفق جل وقته في الكتابة والقراءة ، ولكن نمط حياته المبكرة تكرر من تغير السلطة وفقدان الخطوة التي كان يلقي فيها اللوم على أعدائه ، ويحنمل أنه كانت لها أسباب كاهنة في شخصيته نفسها ، فقد اختاره الحاكم عدة مرات كقاض في المحاكم الرئيسية ولكنه فقد المنصب أو تركه في كل مرة ، ورافق السلطان الى الشام وزار الأماكن المقدسة وحيفا ، وزارها مرة أخرى عندما كانت دمشق محاصرة بقوات « تيمور لنك » أحد كبار الغزاة الآسيويين الذين أسسوا امبراطورية تمتد من شمال الهند الى الشام والأناضول ، وكانت له حوارات مع « تيمور لنك » حيث رأى فيه مثالا لقوة الزعامة المبنية على قوة الجيش والشعب مما مكنه من تأسيس أسرة حاكمة جديدة ، ولم يستطع انقاذ دمشق من السلب والنهب ، ولكنه أمن لنفسه طريقا للعودة الى مصر ، وفي طريق عودته تعرض للسرقة في تلال فلسطين .

كانت حياة ابن خلدون كما يصفها معبرة عن العالم الذى ينتمى اليه ، عالم مليء بعوامل الضعف ، وأظهر مساره الشخصى مدى عدم ثبات المصالح والتحالفات التى اعتمدت عليها الأمور الحاكمة فى الحفاظ على سلطتها ، وأوضح لقاءه مع « تيمور لنگ » خارج دمشق ، كيف يمكن أن يؤثر قيام قوة جديدة على حياة المدن والشعوب ، أما خارج المدن فقد كان الأمن مزعزعا ، فيمكن لملدوب الحاكم أن يتعرض للسرقة والنهب ، ويمكن عند فقدان الحظوة ، أن يجد أحد جلساء أو ندماء الحاكم لنفسه ملجأ خارج حدود المناطق الحضرية ، وقد علمته وفاة الأبوين بالوباء والأسرة فى الحادثة البحرية درسا عن عجز الانسان حيال تصاريق القدر . شئ واحد كان مستقرا أو على الأقل كان يبدو كذلك ، وهو أن عالما تنتقل فيه عائلة من جنوب الجزيرة العربية الى أسبانيا ثم يعود بعد ستة قرون الى مكان قريب من المنشأ لتجد نفسها فى محيط مألوف ، مثل هذه الأسرة كانت على حال من التوحد يسمو على انقسامات الزمان والمكان ، اذن يمكن للغة العربية أن تفتح الأبواب للمناصب والنفوذ فى أنحاء العالم ، وقد حافظ كم العلوم الذى انتقل عبر القرون خلال سلسلة معروفة من المعلمين على وحدة أخلاقية برغم تغير الحكام ، وظلت أمباكن الحجج : مكة والقدس قطبين لم يتبدلا فى العالم الانسانى ، وان انتقلت مراكز القوة من مدينة الى أخرى ، فالإيمان بالله الذى خلق ونظم الكون يمكن أن يعطى معنى لضربات القدر .

الجزء الأول

عالم يتشكل

بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين

فى بدايات القرن السابع للميلاد ظهرت حركة دينية على حدود الامبراطوريتين الكبيرتين : البيزنطية والساسانية اللتين حكمتا النصف العربى من العالم ، ففي مكة ، وهى مدينة فى غرب الجزيرة العربية ، بدأ النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوة الرجال والنساء الى اصلاح أخلاقى ، والخضوع لارادة الله ، كما عبر عنها فيما يقبله هو ومن انبعوه ، الوحي السماوى الذى أبلغ اليه ، والذى احتواه فيما بعد كتاب هو القرآن الكريم (*) ، وباسم هذا الدين الجديد « الاسلام » قهرت الجيوش المؤلفة من سكان الجزيرة العربية الدول والبلدان المحيطة وأسست امبراطورية جديدة . وتوسعت الخلافة التى شملت معظم مناطق الامبراطورية البيزنطية ، وكل الامبراطورية الساسانية وامتد الاسلام ليشمل المناطق من آسيا الوسطى حتى أسبانيا ، وقد انتقل مركز القوة من الجزيرة العربية الى دمشق فى الشام فى ظل الخلفاء الأمويين ، وبعدها الى بغداد بالعراق فى ظل العباسيين .

وبحلول القرن العاشر للميلاد بدأت الخلافة فى التمزق ، وظهرت (خلافتان) متنافستان فى مصر وأسبانيا ، وإن استمرت الوحدة الثقافية التى نمت بداخلهما ، وأصبح قسم كبير من السكان مسلمين رغم بقاء الجاليات اليهودية والمسيحية وجاليات أخرى ، وانتشرت اللغة العربية

(*) للقصود كما لا يخفى على فطنة القارئ أنه جمع فى (مصحف) أو (امام) كما كان يطلق عليه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه . فالقرآن الكريم لم يظهر (فيما بعد) وإنما نزل منجما أى متفرقا وفقا للحوادث أو رغبة فى استيعابه جزءا جزءا أو آية آية ، ومن المعروف تاريخيا أن القرآن الكريم بدأ ينزل مع بداية نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت أول آية هى « اقرأ » فالقصود إذن هو جمع القرآن فى مصحف متفق عليه . وهذا حقيقة تم (فيما بعد) أى فى عهد عثمان رضى الله عنه . (المراجع) .

وأصبحت وسيلة التعبير عن ثقافة تضمنت عناصر من تراث الشعوب التي انضمت للعالم الاسلامى ، وعبرت عن نفسها فى الآداب والنظم القانونية والدينية والروحية ، ثم تطورت المجتمعات الاسلامية فى بيئات طبيعية مختلفة من خلال مؤسسات مميزة ، أوجدت روابط بين دول حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى فى نظام تجارى واحد ، وجلبت تغييرات فى الزراعة والحرف ، ووفرت أسس نمو المدن الكبرى فى مدينة حضرية نجلت فى المباني ذات الطابع الاسلامى المميز .

الفصل الأول

قوة جديدة فى عالم قديم

عالم ما قبل الاسلام

لابد وأن عالم ابن خلدون بدا لكل من عاصره ، كما لو كان أذليا ، ولكن ابن خلدون نفسه كان يعرف أنه عالم حل محل عالم آخر سابق عليه . فقبل زمن ابن خلدون بسبعة قرون كان للبلدان التى عرقها وجه مختلف فى ظل تبادل سيطرة القوتين العظميين عليها .

لقد ظلت دول حوض البحر المتوسط لعدة قرون جزءا من الامبراطورية الرومانية ، وريفا مستقرا ، ينتج الحنطة والفواكه والنبيد والزيوت ، وكانت للتجارة طرق مأمونة فى المدن الكبيرة ، وعبر مسارات بحرية آمنة ، وكانت هناك طبقة موسرة ذات أصول متعددة أسهمت فى الثقافة اليونانية اللاتينية للامبراطورية ، ومنذ القرن الرابع من الحقبة المسيحية انتقل مركز القوة الامبراطورى شرقا ، فحلت القسطنطينية محل روما كعاصمة حيث الامبراطور بؤرة الولاء ورمز التماسك ، وفيما بعد ظهر ما سمي « بالانقسام الأفقى » الذى استمر موجودا بشكل أو بآخر حتى وقتنا الحاضر ، وحكم ملوك برابرة فى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا وشمال إيطاليا ، ورغم ذلك ظل الاحساس بالانتماء للامبراطور الرومانى موجودا ، بينما ظل جنوب إيطاليا وصقلية وساحل أفريقيا الشمالى ومصر وسوريا والناضول واليونان كلها تحت حكم امبراطورى مباشر من القسطنطينية ، وفى هذا الوضع المنكمش كانت الامبراطورية يونانية أكثر منها رومانية ، وفى مراحلها اللاحقة شاعت تسميتها (بالبيزنطية) أكثر من انتسابها الى الرومانية وذلك نسبة الى الاسم السابق للقسطنطينية وهو (بيزنطة) ، وقد حكم الامبراطور المدن الكبرى فى شرق البحر المتوسط : أنطاكية فى سوريا ، والاسكندرية فى مصر ، وأصبحت تلك المدن مراكز للثقافة والحضارة اليونانية أمدت الامبراطورية بأعضاء من الصفوة المحلية للعمل فى مجال الخدمات الامبراطورية .

وحدث تطور آخر أكثر عمقا ، فقد أصبحت الامبراطورية مسيحية ، ليس فقط بمرسوم رسمي من الحاكم ، لكن بفضل تغير العقيدة في مستويات اجتماعية مختلفة ، وأصبحت غالبية السكان من المسيحيين رغم أن فلاسفة الوثنية ظلوا يدرسون في مدرسة أثينا حتى القرن السادس ، وعاشت الطوائف اليهودية في المدن ، إلا أن ذكريات آلهة الوثنية ظلت تحوم في المعابد التي تحولت الى كنائس ، وقد أعطت المسيحية بعدا جديدا للاخلاص والولاء للامبراطور ، وظهر اطار جديد من الوحدة للثقافات المحلية للخاضعين له ، ووجدت الأفكار والصور المسيحية نصيرا عنها في اللغات الأدبية المحلية للمناطق المختلفة من الامبراطورية الى جانب اليونانية في تلك المدن : الآرامية في شرق الأناضول والسريانية في سوريا والقبطية في مصر ، وكان من الممكن أن تحتفظ مقابر القديسين ومزارات الحج بالمعتقدات والممارسات القديمة للمنطقة ، وان كان ذلك في اطار مسيحي .

وقد اختفت مؤسسات الادارة الذاتية للمدن اليونانية مع توسع البيروقراطية الامبراطورية ، ولكن كان من الممكن أن يقوم الأساقفة بدور الزعامات المحلية . وعندما كان الامبراطور يغادر روما كان في وسع مطران المدينة والبابا ممارسة السلطة بطريقة تستحيل على المطارنة والقساوسة في المدن الرومانية الشرقية ، الذين كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالحكومة الامبراطورية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستطيعون التعبير عن مشاعر السكان والدفاع عن مصالحهم المحلية ، كذلك كان الناسك أو القديس صاحب الكرامات يعيش على أطراف المدينة أو في الأراضى المهولة في الأناضول أو سوريا ، وكان بإمكانه التحكيم في منازعات السكان المحليين والنطق باسمهم ، كما كان الراهب في الصحارى المصرية نموذجيا لجمع مختلف عن ذلك العالم الحضري . وإلى جوار الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية ظهرت كنائس أخرى اختلفت عنها في المذهب والنحائر ، وكانت بمثابة تعبير من غير الناطقين باليونانية عن اعتراضهم على السلطة أو ولائهم لها .

وكانت الاختلافات المذهبية الأساسية تتعلق بطبيعة المسيح ، حيث كان مجدهم خلقة دونه في عام ٤٥١ م قد عرف الاقنوم الثاني في الثالوث المقدس ، بأن له طبيعتين : قدسية وأخرى بشرية وهي الصيغة التي قبلتها المؤسسة الرئيسية للكنيسة سواء في الشرق أو الغرب ، كما كانت تدعمها الحكومة الامبراطورية ، ولكن حدثت فيما بعد وبالتدريج انقسامات حول قضية السلطة بين الكنيسة في المناطق البيزنطية هي : الكنيسة

الأرثوذكسية الشرقية ، وبطاركتها على رأس الكهنوت ، وبين تلك الدنانس في غرب أوروبا التي ارتضت السلطه للبسايا في روما ، وكانت هناك بعض الطوائف التي تعتقد بأن للمسيح طبيعة واحدة مؤلفة من عنصرين وهو ما عرّف بمذهب الطبيعة الواحدة الذي اعتنقته الكنيسة الأرمنية في الأناضول ، وكذلك معظم المسيحيين من المصريين (الذين يعرفون بالاقباط نسبة للاسم القديم لمصر) ، والكثير من مسيحيي سوريا من متحدثي السريانية - ويعرفون بالسوريين الأرثوذكس أو اليعاقبة نسبة لأبرز علماء اللاهوت لديهم . كما أن هناك آخرين فصلوا وصلا حادا بين الطبيعتين وذلك لتأكيد الطبيعة البشرية الكاملة للمسيح ، واعتقدوا أن كلمة الله تسكن المسيح الانسان منذ حملت به أمه ، وكان ذلك هو مذهب أولئك الذين عرفوا بالنسطوريين نسبة الى المفكر الذي ارتبط بهذا ، وكانت لكنيستهم أهمية كبرى بين المسيحيين في العراق فيما وراء الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، وفي القرن السابع ظهرت جماعة أخرى كنتيجة لمحاولة التوفيق بين الأرثوذكس وأتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، وفي رأى هذه الجماعة أن للمسيح طبيعتين وهشئة واحدة فقط .

والى الشرق من الامبراطورية البيزنطية وعبر نهر الفرات كانت هناك امبراطورية عظيمة أخرى هي الامبراطورية الساسانية ، التي امتد حكمها لينمحل ما يعرف الآن باسم ايران أو بلاد فارس فكانت تضم مجموعة من المناطق المتحضرة ومدنا قديمة تسكنها مجموعات عرقية مختلفة يفصلها عن بعضها البعض وديان أو سهوب ، وليست بها أنهار كبيرة توفر اتصالات سهلة ، ومن حين لآخر كانت تحكمها أسر حاكمة قوية مستقرة كان آخرها الساسانيون الذين كانت قوتهم الأصلية تكمن في الشعوب الناطقة بالفارسية في جنوب ايران ، وكانت تلك أسرة حاكمة تحكم من خلال هيكل من المسؤولين الذين حاولوا توفير أسس ثابتة قوية من الوحدة والولاء بأحياء الدين القديم لايران والمرتبطة تقليديا بالمعلم (زرادشت) ، وبالنسبة لهذا الدين فإن العالم هو ساحة قتال - تحت مظلة الاله الأعلى - بين الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة حيث ينتصر الخير في النهاية ولكن الرجال والنساء من ذوى الفضيلة والطهر في العبادة يمكن أن يعجلوا بالنصر لقوى الخير .

بعد أن فتح الاسكندر الأكبر ايران في ٣٣٣ - ٣٣٤ قبل الميلاد وربطها بأواصر أقوى مع عالم شرق البحر المتوسط - اتجهت أفكار من اليونان شرقا بينما اتجهت أفكار (ماني) غربا ، وهو معلم من العراق حاول يضم وتوحيد كل الأنبياء والمعلمين في نظام ديني واحد عرّف

بالمناوية (*) . وتحت حكم الساسانيين ، جرى احياء النعائيم المرتبطة
بزرادشت في شكل فلسفى مع مزيد من التركيز على ثنائية الخير والشر
وصار لها كهتوت وأصبحت عبادة رسمية تعرف باسم المازدية أو
الزرادشتية . وساندت المازدية ، باعتبارها دينا رسميا للدولة ، سلطة الحاكم
الذى كان ينظر اليه كملك عادل يحافظ على الانسجام بين طبقات المجتمع
المختلفة (**) .

ولم تكن عاصمة الساسانيين واقعة فى هضبة ايران وانما كانت فى
المدائن Ctesiphon (***) فى المنطقة الخصبة المزدحمة بالسكان فى وسط
العراق التى يروىها نهرا دجلة والفرات ، وإلى جانب الزرادشتيين والمناويين
كان بالعراق مسيحيون من أتباع الكنيسة النسطورية وكان لهم
أهميتهم فى خدمة الدولة ، وكانت هذه المنطقة أيضا هى المركز الرئيسى
للتسليم الدينى لليهودى وملجأ للفلاسفة الوثنيين وعلماء الطب من المدن
اليونانية . وفى شرق البحر المتوسط انتشرت أشكال مختلفة من اللغة
الفارسية عرف المكتوب منها ذاك الوقت بالبهلوية ، كما انتشرت أيضا
الآرامية ، وهى إحدى اللغات السامية ذات الصلة باللغتين العربية والعبرية ،
رشاع فى الشرق الأوسط فى الوقت نفسه أحد فروعها الذى عرف
بالسريانية .

(*) الماثوية أحد فروع الديانات الثنوية نسبة الى الاثنين الأزيين : النور والظلمة ،
وقد ظهر مائى بن فاثك فى زمن سابور بن أردشير ، ويقول الشهرستانى فى كتابه
المعروف (الملل والنحل) انه حاول التوفيق بين المجوسية والمسيحية . الملل والنحل ،
ج ١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ - (المراجع) .

(**) الزرادشتية أحد فروع المجوسية ، وهى نسبة الى زرادشت (تومى سنة
٥٥١ ق م) ، وسميت الزرادشتية بالمازدية أو الأورمزدية نسبة الى أورمزد وهو الاله
أو المعبود عند زرادشت ، ويقال ان الزرادشتية كانت فى بدايتها من أديان التوحيد .
الملل والنحل للشهرستانى . ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ . ويرى آرثر كريستسون فى كتابه
ايران فى عهد الساسانيين ان الزرادشتية ما هى الا تطوير للديانة المزدية التى أسسها
الحكيم الايرانى مزدا ، لذا سميت الزرادشتية بالمازدية ، ص ١٩ - (المراجع) .
(***) وهى طيسفون Ctesiphon أو المدائن . والواقع انها لم تكن عاصمة
للدولة الساسانية منذ بدايتها إذ كانت أخطر هى العاصمة ، ثم نقلت العاصمة بعد
ذلك (بعد القرن الثالث للميلاد) الى طيسفون . يقول كريستسون فى كتابه الشهير عن
ايران فى عهد الساسانيين : « .. ولكن اقليم فارس وعاصمته أخطر لم يعهدا صالحين
لاقامة الشاهنشاه ، فقد صارت بلاد ما بين النهرين المركز الرئيسى للامبراطورية الشرقية
تبعاً لضرورات التطور التاريخي ، وانتقل دور بابل التاريخي الى سلوقية - طيسفون ..
التى كانت خارج الاراضى الايرانية بالمعنى الحقيقي » ص ٨٢ وما بعدها -
(المراجع) .

وقد شملت الامبراطوريتان المناطق الرئيسيه للحياة المستقرة والثقافة الرفيعة فى النصف الغربى من العالم . ولكن الى الجنوب ، وعلى جانبى البحر الأحمر كان هناك مجتمعان آخران لهما تراث من السلطة المنظمة وثقافة دعمتها الزراعة وكذا التجارة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط . الأولى كانت أثيوبيا وهى مملكة قديمة ديانتها الرسميه المسيحية فى صورتها القبطية ، والأخرى كانت اليمن فى جنوب غرب الجزيرة العربية وهى : أراض من وديان الجبال الخصبة ، ونقطة التقاء للتجارة بعيدة المدى . وفى مرحلة معينة اتحدت دويلاتها الصغيرة المحلية فى مملكة كبيرة تعرضت للضعف عندما كسدت التجارة فى بدايات الحقبة المسيحية ، ولكنها عادت للازدهار فسمما بعد .

وكانت لليمن لغتها الخاصة المختلفة عن العربية المنتشرة فى بقية الجزيرة ، كما كانت لها ديانتها الخاصة المرتكزة على عدة آلهة يفوم على خدمتها كهان فى معابد ، كانت مزارات للوفاء بالندور وتقديم القرابين والصلوات الخاصة غير الجماعية ، كما كانت مراكز للضياع التساسعة . ولعدة قرون تالية انتقلت التأثيرات المسيحية واليهودية من سوريا خلال طرق التجارة أو عبر البحر من أثيوبيا الى اليمن . وفى القرن السادس دمر أحد الملوك الذى كان يميل الى اليهودية أحد المراكز المسيحية ، ولكن الغزوات الأثيوبية اسنعات بعضا من النفوذ المسيحى ، وقد شاركت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية فى هذه الأحداث .

وفيما بين الامبراطوريات الكبرى فى الشمال ، وممالك البحر الأحمر — كانت هناك أرض من نوع مختلف ، فكان الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية سهوبا وصحارى مع واحات معزولة بها ماء كاف للزراعة المنتظمة ، وكان سكانها يتحدثون لهجات محلية مختلفة ولهم أنماط معيشة مختلفة وبعضهم كان من البدو الرحل من رعاة الابل والأغنام والماعز اعتمادا على مصادر المياه المتواضعة فى الصحراء وهم من عرفوا تقليديا بالبدو . أما البعض الآخر فكانوا مزارعين مستقرين قائمين على زراعة القمح وأشجار النخيل فى الواحات أو تجارا وحرفيين فى مدن الأسواق الصغيرة ، فى حين جمع بعضهم بين أكثر من مهنة من هذه المهن ، أما التوازن بين الشعوب الرحل والشعوب المستقرة فكان مزعزا ، فرغم أن الرعاة الرحل كانوا أقلية بين السكان الا أنهم كانوا يتحركون مسلحين ، وقد سيطروا هم وجماعات التجار فى المدن على المزارعين الحرفيين ، كانت خصالهم السائدة هى الشجاعة والكرم والانتماء والولاء للقبيلة والفخر بالانساب والأسلاف ولم يكونوا محكومين بسلطة مهيمنة مستقرة أو ثابتة ، ولكن يقودهم زعماء

من القبائل التي تجمعت حولها جماعات من الأنصار يعبرون عن تماسكهم وإخلاصهم بلهجة أو لغة الأسلاف .

وقد مارس زعماء القبائل سلطتهم من الواحات حيث كانت لهم روابط ونيقة بالتجار الذين نظموا التجارة خلال المناطق التي سيطرت عليها القبيلة ، وفي الواحات كان بإمكان العائلات الأخرى فرض سيطرتها بشكل مختلف من خلال قوة الدين ، ولم يكن لديانات الرعاة أو المزارعين شكل واضح ، فالآلهة المحلية التي كانت تعرف بكواكب من السماء كان من المعتقد أنها تتجسد في الأحجار والأشجار والأنشياء الطبيعية الأخرى ، وكان من المعتقد أيضا أن أرواح الخير والشر تهيم في العالم على صورة حيوانات ، وادعى العرافون أنهم يتحدثون بلسان حكمة ما وراء الطبيعة ، وعلى أسس الممارسات الحديثة في جنوب الجزيرة كان من المعتقد أن الآلهة تسكن قدسا أو محرابا (حرما) وهو مكان أو بلدة تحرم فيها الصراعات القبلية وتعتبر مزارا لتقديم القرابين وملتقى للتحكيم تشرف عليه عائلة تحت حماية من القبيلة المجاورة (١) ويمكن لهذه العائلة أن تكتسب سلطة أو قوة بالاستغلال الذكي لسمعتها الدينية ودورها كمحكم في المنازعات القبلية وكذلك فرص التجارة .

وقد تغير الكثير في عالم الشرق الأدنى هذا خلال القرن السادس وبدايات القرن السابع، حين انشغلت الامبراطوريتان البيزنطية والساسانية في حروب طويلة دامت مع بعض التوقيفات من ٥٤٠ الى ٦٩٢م وجرت المعارك أساسا في الشام والعراق ، وفي مرحلة معينة وصلت الجيوش الساسانية الى حوض البحر المتوسط بعد احتلالها للمدن الكبرى انطاكية والاسكندرية ومدينة القدس المقدسة ، ولكن في العشرينات من القرن السابع تدهورت هذه الجيوش أمام الامبراطور هرقل ، وفي مرحلة أخرى امتد حكم الدولة الساسانية ليشمل جنوب غرب الجزيرة العربية حيث فقدت مملكة اليمن الكثير من قوتها السابقة بفعل الغزو الأثيوبي وتدهور الزراعة ، أما المجتمعات المستقرة تحت الحكم الامبراطوري فكانت تزخر بالأسئلة حول معنى الحياة وكيف يجب أن تعيش كما عبرت عنها لغات الديانات الكبرى .

وقد مست قوى ونفوذ هذه الامبراطوريات أجزاء من شبه الجزيرة العربية ، ولقرون طويلة كان الرعاة الرحل العرب من شمال وأوسط شبه الجزيرة يتحركون في المنطقة التي تسمى الآن بالهلال الخصيب وهو : الجزء الداخلي من سوريا ، والأرض الواقعة غرب الفرات في جنوب العراق ، والمنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة في شمال العراق (الجزيرة) وكان

أغابهم من العرب الذين جلبوا معهم خصالهم وأخلاقياتهم وأنماطهم في التنظيم الاجتماعي . ومارس بعض زعماء القبائل منهم الزعامة من مدن في الواحات واستخدمتهم الحكومات الامبراطورية لابعاد البدو الرحل الآخرين عن الأراضي المستقرة وفي جباية الضرائب ، لذلك كانوا فادرين على تكوين وحدات سياسية أكثر استقرارا كتلك التي أقامها المناذرة (*) وعاصمتها (الحيرة) في منطقة لم يكن للساسانيين فيها تأثير مباشر ، كذلك الغساسنة في منطقة مماثلة من الامبراطورية البيزنطية . وقد اكتسبت شعوب هذه الدول المعرفة السياسية والعسكرية وكانوا منفتحين على الأفكار والمعتقدات السائدة في الأراضي الامبراطورية ، فقد كانت الحيرة مركزا مسيحيا . وقد دخلت الجزيرة العربية بعض المعارف عن العالم الخارجي وثقافته عن طريق هذه الدول ، ومن اليمن ، وأيضا بعبور التجارة ، ومن خلال المسارات التجارية ، وكذلك بعض من وفد للاستقرار بالجزيرة ومنهم: الحرفيون اليهود والتجار والزراعي في واحات الحجاز في غرب الجزيرة العربية ، والرهبان المسيحيون والحنفاء في أواسط الجزيرة .

لغة الشعر

يبدو أنه كان هناك احساس متنام بالهوية الثقافية بين الرعاة من رجال القبائل تهجى في ظهور لغة شعرية مشتركة من اللهجات العربية ، وكانت لغة رسمية تميزت بالتهذيب في القواعد والمفردات والتي تطورت تدريجيا ربما من خلال بلورة إحدى هذه اللهجات المحلية وربما بتجميع العديد منها ، وقد سبر بها شعراء من مختلف القبائل أو من مدن الواحات، وقد يكون شعرهم قد تطور من استعمال الايقاع المتصاعد للغة التعاويذ المسجوعة المقفاة ، والرقيات السحرية ، لكن ما وصلنا منه ليس بدائيا بأي شكل ، فهو نتاج طويل من أحاديث منقولة وتقاليد متراكمة أثرت فيها الاجتماعيات القبلية وأسواق المدن ، وأيضا قصور الأسر الحاكمة العربية على حدود الامبراطوريات الكبرى مثل : الحيرة على نهر الفرات بوجه خاص ، لما كانت عليه من انفتاح أمام التأثيرات المسيحية والمزدية .

وكانت المصطلحات الشعرية التي برزت من خلال هذه التقاليد محكمة الصنعة ، وكان أرقى هذه الأشكال القصيدة وهي : مقطوعة شعرية تصل الى مائة بيت ، منظومة من أحد بحور الشعر المتعارف عليها ، وكل بيت ينقسم الى شطرين وينتظم الشطر الثاني في قافية موحدة على طول القصيدة . . واجمالا كان البيت وحدة المعنى ونادرا ما كان المعنى

(*) أو اللخميون Lakhmids (المراجع) .

يعتمد من بيت الى بيت يليه ، ولكن ذلك لم يمنع استمرارية الفكرة ،
أو الاحساس من بيت لآخر على مدى القصيدة .

ولم يكن الشعر مكتوبا رغم أن ذلك كان ممكنا ، لأن الكتابة كانت
معروفة في شبه الجزيرة ، فالمخطوطات بلغات جنوب الجزيرة تعود الى عدة
قرون سابقة وأول المخطوطات العربية مستند باللغة الآرامية يعود الى القرن
الرابع ، وبعدها تطور الخط العربي ، فالى جانب النفوش كانت الكتابة
معروفة ومستخدمة في تجارة البلاد البعيدة ، وكان الشعر مؤلفا ويلقى
على الجماهير اما بواسطة الشاعر نفسه أو الراوى أو القارئ ، وكان ذلك
يعنى : نقل الاحساس فى بيت واحد يمكن من خلاله للمستمعين أن
يستوعبوا المعنى ، وكان كل أداء مختلفا ومتفردا عن الآخرين، وكان للشاعر
أو الراوى مجال للارتجال فى اطار من الأنساق المتعارف عليها واستخدام
كلمات معينة أو تركيبات منها للتعبير عن أفكار أو مشاعر محددة ، لهذا
قد لا يكون هناك نص واحد أصلى للقصيدة الواحدة ، وعندما وصلتنا فإن
النصوص قد وضعها فيما بعد علماء اللغة أو نقاد الأدب فى ضوء المعايير
والنماذج والقواعد اللغوية أو الشعرية السائدة فى وقتهم ، وخلال ذلك
قد يدخلون بعض العناصر الجديدة للقصائد مع تغيير اللغة لتلائم
أفكارهم حول ما هو صحيح ، حتى انهم قد يذهبون الى تشكيل قصائد
بتجميع قطع صغيرة الى بعضها البعض ، وفى العشرينات من القرن الحالى
بنى عالمان انجليزى ومصرى على أساس هذه الحقائق الثابتة نظرية بأن
القصائد نفسها كانت نتاجا لفترة لاحقة لكن معظم من تصدوا بالدراسة
لهذا الموضوع يتفقون الآن على أنه من حيث الجوهر فإن هذه القصائد هى
من نفس العصر الذى نسبت اليه (*) .

وقد كان من الشائع بين الدارسين والنقاد فى الفترات المتأخرة أن
يسار الى قصائد محددة من بين هذا الكم الذى عاش مع الزمن كنماذج كاملة
رفيعة للشعر العربى القديم وهى التى عرفت فيما بعد (بالمعلقات) ،
وهو اسم مبهم المصدر والمعنى ، والشعراء الذين كتبوها : لبيد ، الزهير ،
القيس وبعض شعراء آخرين يعتبرون من أساتذة هذا الفن ، وكان من
المعتاد أن يطلق على شعر ذلك العصر « ديوان العرب » وهو سجل لأعمالهم
أو تعبير عن الذاكرة الجمعية ، ولكن البصمة الشخصية الفردية للشاعر
ظلت باقية .

(*) يشير المؤلف هنا الى قضية وضع الشعر الجاهلى أو انتحاله ، والمصرى
المشار اليه هنا هو الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) وقد استقر الباحثون الآن
على أن وضع سد أو بيتين أو قصيدة أو قصيدتين لا يعنى أن كل الشعر الجاهل منحول
وهو تقريبا ما ذكره المؤلف - (المراجع) .

وفيما بعد اعتاد الدارسون والنقاد التفريق بين ثلاثة عناصر في القصيدة ، وكان ذلك لاعطاء الشكل أو الصيغة لممارسات كانت فضفاضة ومتنوعة وغبر محددة ، وكانت القصيدة تبدأ بانارة ذكريات عن الأماكن التي كان بها الشاعر ومن الممكن أن تكون ذكريات حب ضائع ، ولم يكن التعبير جنسيا أو حسيا ولكن يهدف الى التذكير بأن الحياة انبشيره عابرة :

فتصف القصيدة الأطلال المهجورة التي توقف فيها الركب في منى والغيل والريحان ، ومجرى نهر الريان الذي نحرفته السيول فبات عاريا أملس ، كما لو كان كتابة على حجر ، وكادت تنمحي آثار من سبق لطول العهد عليها منذ أن سقتهم ينابيع تفيض من الكواكب ، وغذتهم أمطار تهطل من بروق السحب ، سحب الليل التي تكسو سماء الصبح ، وسحب النهار التي تتجاوب بالرعود (٢) .

بعدها قد تكون هناك رحلة على ظهر البعير وفيها يتحدث الشاعر عن الجمل والريف وصيد الحيوانات ويتعرض ضمنا لاستعادته لقوته وثقته بنفسه حيال قوى الطبيعة ، ثم تبلغ القصيدة ذروتها عندما يمدح الشاعر قبيلته :

فتتحدث القصيدة عن بيت شامخ العلو ، يحاول الكبير والصغير أن يرتفع الى سمته ، يدرأون الخطوب عن القبيلة ، فهم فرسانها وحكامها الذين يفيض نبعمهم على طالبيه ، يواسون الأرامل اللائي طالبت بهن سنوات الحداد ، انها قبيلة لا ينال منها الحسد ، وليس فيها من يزدرية عدو (٣) .
وتبدو ، بالرغم من ذلك الفخر والمديح ، نغمة يتغنى فيها الشاعر بقصور قوى الانسان عن مواجهة قوى الطبيعة اللانهائية .

فيصف الشاعر سأمه من هموم الحياة بعد أن جاوز الثمانين (*) ، ويعلم ما يحدث اليوم وما مضى بالأمس ، ولكنه لا يعلم ما يأتي به الغد ، بعد أن عاصر المنايا التي تدهس كالبعير مصائر الناس ، فيموت من تناله ويطعن في السن من ينجو منها (٤) .

(*) اشارة الى قول زهير بن أبي سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش	ثمانن حولا - لا أبا لك - يسأم
وأعلم ما في اليوم والامس فله	ولكنى عن علم ما في غد عم
رايت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

(المراجع) .

معتمد صلى الله عليه وسلم وظهور الاسلام

فى بدايات القرن السابع كانت هناك تركيبة من عالم مستقر ولكنه فاقد لبعض من قوته وثقته بذاته ، وعالم آخر على حدوده أقرب اتصالا بجيرانه فى الشمال ومنفتح على ثقافتهم ، وكان اللقاء الفاصل بينهما فى منتصف ذلك القرن حين تخلق نظام سياسى جديد شمل كل شبه الجزيرة العربية ، وكل اراضى الساسانيين والأقاليم المصرية والسورية من الامبراطورية البيزنطية ، بحيث اختفت الحدود القديمة ووضعت حدود جديدة ، وفى هذا العالم الجديد لم تكن المجموعة الحاكمة من شعوب هاتين الامبراطوريتين وانما من العرب من غرب شبه الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص من مكة .

وقبل نهاية القرن السابع كانت هذه الجماعة العربية الحاكمة تضع نظامها الجديد من خلال هدى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو مواطن من مكة - فى شكل كتاب مقدس هو القرآن (*) ، وهو الوحي الذى أكمل رسالات الأنبياء والرسل ، ووضع ديناً جديداً هو الاسلام منفصلاً عن اليهودية والمسيحية (**). ، وهناك مجال للمناقشات العلمية حول كيفية تطور هذه المعتقدات ، والمصادر العربية التى تقص سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وتكون المجتمع من حوله فى فترة لاحقة . وأول كتاب سيرة معروف لم يكتب الا بعد قرن ونيف من وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمصادر المكتوبة بلغات أخرى تشيد بالامبراطورية التى سادها العرب ، ولكن ما تقوله عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مختلف عما يقوله التراث الاسلامي ، مما يحتاج الى المزيد من الدراسة والمناقشة ، ومن ناحية أخرى ، فليس هناك ما يدعو للشك بأن القرآن هو أساساً وثيقة من الجزيرة العربية فى القرن السابع رغم أنها قد تكون قد احتاجت بعض الوقت لتأخذ شكلها الأدبي المحدث (***) ، والأكثر من ذلك ، فثمة عناصر

(*) ذكرنا فى حاشية سابقة أن القرآن الكريم لم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة - (المراجع) .

(**) لم ينفصل الاسلام أبداً عن الديانات السابقة ، وانما تشير آيات القرآن الكريم الى أن الاسلام مجرد تصويب لبعض ما ورد فى الديانات السابقة .

(المراجع) .

(***) هذا خطأ تاريخي فادح وقع فيه المؤلف ، فالتص القرآنى كان محفوظاً ومكتوباً فى عهد الرسول ، وقام أبو بكر بجمعه فى مكان واحد ، وقام عثمان - الذى اتسعت القويع فى عهده - بإعداد نسخ منه أرسل الى كل مصر نسخة عرفت بالامام أو مصحف عثمان ، ولم يحدث تغيير فى النص القرآنى أو تعديل لأسلوبه ، وكل ما فى =

من السير التقليدية التاريخية يرجح أنها ليست مختلفة ، وبلا شك ، فإن هذه الكتابات تعكس محاولات لاحقة لتصوير محمد صلى الله عليه وسلم على النسق الشرق أوسطى للرجل الصالح المقدس ، وعلى النسق العربى للرجل نبيل المنبت والمحتد ، وتعكس أيضا الخلافات المذهبية لذلك العصر والمكان والزمان اللذين وجدت فيهما ، أى العراق فى القرن الثامن ، وأنها نحوى بلا شك حقائق عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم وعائلته وصحابته التى لا يمكن أن تكون مختلفة ، ولذلك يحسن الأخذ بتلك الوقائع التاريخية عن منشأ الاسلام وان يكن بتحفظ ، وفى ذلك ميزة حيث انه اذا كان وصف وذكر تلك الوقائع ونصها قد بقيت فى القرآن بلا تغيرات تذكر ، فى عقول وتصورات المؤمنين بديانة الاسلام فان تصديقها واتباعها يجعل من الممكن تفهم نظرتهم للتاريخ وما يجب أن نكون عليه حياة البشر .

وقد كان أكثر جوانب حياة محمد صلى الله عليه وسلم غموضا وإبهاما، كما يقص كتاب السيرة ، هو الجزء المبكر منها ، اذ يقولون لنا بأنه ولد فى مكة ، وهى بلدة فى غرب الجزيرة فيما يعتقد أنه فى عام ٥٧٠ تقريبا ، وتنتمى عائلته لقبيلة قريش ، وان لم تكن من أكثر أفخاذها قوة ، كان وجهاء القبيلة من التجار الذين لهم تحالفات مع القبائل الرعوية حول مكة ، ويقال أيضا ان لهم روابط بالشام وجنوب غرب الجزيرة ، كما يقال ان لهم صلة بمعبد البلدة (الكعبة) حيث كانوا يحتفظون بصور آلهتهم المحلية ، وقد تزوج محمد صلى الله عليه وسلم خديجة وهى أرملة تمارس

= الامر أن الرسول عليه الصلاة والسلام رخص بقراءة القرآن الكريم بلهجات القبائل وهو احد تفسيرات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منها » فحتى هذه القراءات لم تظهر فى وقت متأخر وانما كانت منذ البداية ، أما ما قيل وما يقال عن حذف بعض آيات القرآن الكريم ، أو وجود آيات أو سورة أخرى لم تصلنا فيما يعرف بمصحف فاطمة ، فان هذه اقوال لم يقم عليها دليل ، والاهم من كل هذا أن احدا لم يذكر لنا آية واحدة من هذه الآيات المحذوفة سواء اكان من الشيعة أم السنة . ولاننا فى مجال التعليق على مبحث تاريخى فى المقام الاول فمن الاهمية بمكان أن نشير الى أن الكتاب الأوربيين الذين اطلعنا على كتاباتهم لم يشيروا لشيء كهذا ، فلم يشر اليه آرثر جفرى فى كتابه :

Materials for the history of the text of the Quran. Leiden, 1937.

ومن خلال الكتابات العربية التى عرضت كتاب نولدكه عن تاريخ القرآن Geschichte des Quran, 1961. وطبعته الاولى ١٨٦٠ ، ولم نقرأ هذا الكتاب وانما قرأنا عرضا لأفكاره لأكثر من مؤلف (على سبيل المثال : د. عبد الصبور شاهين فى كتابه تاريخ القرآن ، ص ١٠٠) - (المراجع) .

التجارة ، وتولى ادارة أعمالها نيابة عنها ، وتشمل الحكايات القصص المختلفة التى سجلها أولئك الذين كتبوا حياته فيما بعد ، ونصور عالما ينظر هاديا ، ورجلا يبحث عن رسالة ، باحثا عن الله ينبس عن رغبته فى أن يتعلم « الهى لو كنت أعلم كيف ترى أن تعبدك لبيدتك . ولكنى لا أعلم » ، وقد تكهن الأحبار اليهود والرهبان المسيحيون والكهنة والعرفاء العرب جميعا بمجى نبي كما أن أحد الرهبان المسيحيين الذين قابلهم محمد صلى الله عليه وسلم خلال رحلة تجارية الى جنوب الشام نقلوا الى ظهره ورأى خاتم النبوة بين كتفيه ، وكانت الأشياء فى الطبيعة تتنبه وما من حجر أو شئ إلا وحياء قائلا « عليك السلام يا رسول الله » (*) .

ثم انه أصبح هائما وحيدا بين الجبال ، وفى يوم عندما كان عمره قرابة الأربعين عاما حدث شئ ما : اتصال مع قوى ما وراء الطبيعة فيما عرفته الأجيال اللاحقة بليلة القدر ، وفى إحدى الروايات أن ملاكا على هيئة رجل فى الأفق دعاه ليكون رسول الله ، فى رواية أخرى سمع صوت الملك يدعو للقراءة فسأل : « ماذا أقرأ ؟ » وأجاب الصوت :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ اقرأ وربك الأكرم ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ علم الإنسان ما لم يعلم) .

عندها حدث شئ عرفته حياة كل من اتصل بقوى ما وراء الطبيعة ، إذ آمن به بعض من عرفوا وصدقوا . أولئك الذين صدقوا كانوا قلة فى العدد وشملوا زوجته السيدة خديجة التى قالت : « اخرج يا ابن عم وكن سعيدا والذى نفس خديجة بيده سوف تكون نبي هذه الأمة » .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ محمد صلى الله عليه وسلم فى نقل سلسلة من الرسائل لمن تبعه، والتى نقلها اليه ملك من عند الله ، وتقول بأن العالم سوف ينتهى ، وأن الله القادر الذى خلق بنى الانسان سوف يحاسبهم جميعا ، وقد صور لهم مسرات الجنة وعذابات النار بألوان واضحة ساطعة ، فاذا التزموا فى حياتهم ورضخوا لمشيشة الله وارادته ، يمكنهم الاعتماد على رحمته عندما يأتون للحساب ، وأن ارادة الله أن عليهم اظهار

(*) البرت حوراني هنا يخاطب القارئ الأوربي وهو يعلم - بالتاكيد - انه

- أى القارئ الأوربي - سيرفض هذا الكلام ، ولكن المؤلف يعرضه بطريقة يبدو فيها حياديا ، لكن الحقيقة أن السنة الصحيحة لا تؤيد شيئا كهذا ، وليس بين أيدينا ما يفيد أن الأحبار كانت تكلم الرسول ، وهذه روايات ظهرت بعد ذلك روج لها القصاصون ورواة الأخبار ، وهى غير موثقة تاريخيا ، ولا نفى عندها المثقفون المسلمون كثيرا - (المراجع) .

عرفانهم بالصلاة المنتظمة والعاليم الأخرى وعمل الخير والتعفف، كان اللفظ المستخدم للرب هو (الله) وهو اسم أحد الآلهة المحلية (*) (يستخدمه الآن متحدثو العربية من اليهود والمسيحيين) ، وأولئك الذين يرضخون لمشيئته أصبحوا يعرفون فيما بعد بالمسلمين واسم دينهم الاسلام مشتق من نفس هذا المصدر اللغوى .

وتكونت تدريجيا جماعة صغيرة حول محمد صلى الله عليه وسلم بصحبة بعض الشباب من العائلات النافذة من قريش ، وبعض الأعضاء من العائلات الصغيرة ، وخلفاء من قبائل أخرى وضعوا أنفسهم تحت حماية قريش ، مع بعض الحرفيين والعبيد ، وبتصاعد التأييد لمحمد (ص) ، ساءت علاقته مع العائلات النافذة من قريش ، فلم يقبلوا ادعاءه بأنه مبعوث من الله ، من ناحيتهم ، كانوا يرون فيه رجلا يهاجم نمط حياتهم ، فقالوا لعمه وحميه أبى طالب : « يا أبا طالب لقد سب ابن أخيك آلهتنا وأهان ديننا وسخر من طريقة حياتنا ، واتهم أجدادنا بالضلال » وزاد من سوء موقفه موت زوجته خديجة وعمه أبى طالب فى العام نفسه .

ومع تطور تعاليمه ، وضحت الاختلافات عن معتقداتهم الثابتة الموروثة ، فقد هوجمت الطقوس المتعلقة بهم وما كانوا يعبدون ، ومورست أشكال أخرى من العبادة ، وبالتحديد الصلاة العامة المنتظمة على وجه الخصوص ، وأشكال جديدة من حسن السلوك ، ووضع نفسه فى صورة أكثر وضوحا على خط أنبياء اليهودية والمسيحية .

وفى النهاية أصبح وضعه غاية فى الصعوبة حتى انه هاجر من مكة فى ٦٢٢ قاصدا واحة تبعد مائتى ميل الى الشمال هى « يثرب » ، والتي عرفت فيما بعد بالمدينة ، وقد مهد لهذه الرحلة رجال من يثرب كانوا قد أتوا الى مكة للتجارة ، وكانوا ينتمون لقبيلتين ، وفى احتياج لمحكم فى النزاعات القبلية ، ولأنهم عاشوا جنبا الى جنب مع السكان من اليهود فى الواحة ، فقد كانوا مستعدين لقبول تعاليم فى شكل نبي وكتاب مقدس ،

(*) هذه سقطلة خطيرة للأستاذ المؤلف ، فاش (لفظ الجلالة) ليس له صلة البنية بالوثن المعروف باسم اللات ، واللفظ الجلالة خواص لغوية واضحة ، فكتابته أو رسمه لا تختلف فى كل الاحوال وهو لا يجمع ، فكلمة (الهة) هى جمع (اله) وليست جمعا لكلمة (الله) كما أن لفظ الجلالة (الله) لا ينون أما اله فتتوزع وتجمع كسائر الكلمات ، كذلك لفظ « الله » لا يمكن حذف لام التعريف منه ، وقد وردت اللات والعزى وغيرهما فى القرآن الكريم كأوثان ، ولم نسمع أحد قال ان الله Allah ما هو الا تطوير للوثن اللات . واللات لفظ مؤنث وهو اسم الهة ، والعزى هى أفروديت فيما يقول الباحث جورج قنواى - (المراجع) .

هذه النقلة الى المدينة والتي اتخذتها الأجيال من بعدها بداية التقويم الاسلامي تعرف بالهجرة ، وليس للفظه بساطة المعنى السلبي للهروب من مكة ، لكن المعنى الايجابي من ناحية البحث عن الحماية بالاستقرار في مكان آخر ، وفي القرون الاسلامية اللاحقة أصبح للكلمة معنى هجرة المجتمع الونني أو الفاسد الى مجتمع آخر يعيتس وفقا للتعاليم الأخلاقية للاسلام ، ويورد كتاب السيرة المبكرون نصوص الانقافات التي أبرمت بين محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من القبيلتين الكبيرتين من ناحية ، ومع بعض الجماعات اليهودية من ناحية أخرى ، وهي اتفاقيات لم تكن مختلفة عما كان معمولاً به في جنوب الجزيرة حديثاً عندما يتفق على حرم للجميع ، ويكون على كل فريق أن يحافظ على قوانينه الخاصة وعاداته ، ولكن منطقة الحرم تظل بكاملها منطقة سلام ، ولا تحل المنازعات أو تسوى بالقوة ، ولكن القاضي ، كلمة الله وسنة محمد (ص) وإن على هذا التحالف أن يعمل متوحداً حيال أولئك الذين ينتهكون السلام .

ومن المدينة بدأ محمد صلى الله عليه وسلم في جمع قوة انتشرت خلال الواحة والصحارى المحيطة ، وسرعان ما اضطر الى خوض صراع مسلح مع قريش ، ربما كان ذلك للسيطرة على الممرات التجارية . في مسار الصراع نشأت طبيعة المجتمع ، حيث توصلوا الى قناعة أن من الضروري أن يتقاتلوا في سبيل الحق ، وعندما تخطرت قريش على الله ورفضته ، أعطى الاذن لمبعوثه بالقتال دفاعاً عن نفسه ، واكتسبوا الايمان من الاعتقاد بأن الله والملائكة تقاتل الى جانبهم وتقبلوا المحن والمصاعب عندما حلت باعتبارها اختباراً من الله للمؤمنين .

وفي هذه الفترة من الصراعات القوية المتنامية ، اتخذت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم شكلها النهائي ، وفي سور القرآن التي نزلت حتى ذلك الحين ، ظهر اهتمام متزايد بتعريف الالتزام بالمسعى والأخلاق الاجتماعية ، وقواعد السلام الاجتماعي والملكية الخاصة والزواج والميراث ، وقد كانت هناك تنبيهات محددة في بعض الشئون ، ومبادئ عامة في بعضها الآخر ، وفي نفس الوقت أصبح للتعاليم صيغة أكثر عالمية ، اتجهت الى مخاطبة كل الوثنيين في الجزيرة العربية ، وبالتالي للعالم كله ، وتفصل نفسها بشكل أكثر وضوحاً عن تعاليم اليهودية والمسيحية .

وربما كان التطور في تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم متطابقاً بالتغيرات في علاقاته مع اليهود في المدينة ، فرغم أنهم كانوا جزءاً من التحالف الأول الأصلي إلا أن موقفهم أصبح أكثر صعوبة بانتشار دعوة محمد

صلى الله عليه وسلم فلم يستطيعوا قبوله كرسول حقيقى للاله فى اطار تقاليدهم . ومن ناحية أخرى يقال انه انهمم بتحريف الوحى الذى نزل عليهم « لقد أخفيتم ما أمرتم بكشفه » ، وفى النهاية طردت بعض هذه الجماعات اليهودية وقتل البعض الآخر .

وربما كان من ظواهر التناقض مع اليهود أن تغير اتجاه الجماعة فى الصلاة من القدس الى مكة (القبلة) واصبح التركيز على خط من السلالة الروحية التى تربط محمدا صلى الله عليه وسلم بإبراهيم عليه السلام ، ولقد كانت الفكرة القائلة بأن إبراهيم هو مؤسس دين التوحيد والبيت المقدس (الكعبة) فى مكة موجودة بالفعل ، أما حينئذ ، فلم يعد ينظر اليه كيهودى أو مسيحي ، ولكن باعتباره السلف المشترك لكليهما وكذلك للمسلمين ، وكان هذا الاختلاف مرتبطا أيضا بعلاقات محمد (ص) بقريش مكة . فحدث نوع من التوفيق أو التسوية بين مصالح الطرفين . فقد كان تجار مكة معرضين لفقدان تحالفهم مع زعماء القبائل وسيطرتهم على التجارة ، وفى المدينة نفسها كان هناك عدد متزايد من أتباع الاسلام ، بشعر الجميع بأن عقد اتفاقية مع القوة الجديدة سوف يزيل مخاطر معينة ، بينما لم يكن مجتمع محمد صلى الله عليه وسلم من ناحيته يشعر بالأمن طالما ظلت مكة عداوية ، وكانوا فى احتياج لقدرات أشرف مكة ، ولما كان المعتقد أن الحرم فى مكة قد أسسه إبراهيم ، فمن الممكن القبول به كمزار للحج وان كان المسعى مختلفا .

وبحلول عام ٦٢٩ ، أصبحت العلاقات وثيقة بما يسمح لجماعة المسلمين بالذهاب الى مكة للحج ، وفى العام التالى سلم زعماء مكة ، مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم الذى فتحها فعليا وواقعيا بلا مقاومة ، وأعلن مبادئ النظام الجديد « إلغاء كل ادعاءات النسب والممتلكات ما عدا السيطرة على الحرم وسقاية الحجيج » ، رغم ذلك ظلت المدينة عاصمته حيث مارس نفوذه على أموانه بالمناورات السياسية والسفوة والنفوذ الشخصى ، أكثر منها بوسائل الحكم المعتادة (*) ، ومن بين زيجاته العديدة بعد وفاة

(*) ليس من المتوقع أن يحكم (نبي) بأساليب الحكم المعتادة فى عصره (ملك وحاشية وحجاب ووزراء ..) فهو نبي يأتيه الخبر من السماء ، وهو لا يضع تشريعا وانما تأتيه التشريعات من السماء ، وان كان هذا لا يمنع من أنه استشار أصحابه وأولى الراى فى كثير من الأمور . والنبي - أى نبي - إذا أمر بصرب فانما هو يتحدث عن الله ، وإذا حرم أو حل فهو يجعل ذلك كله باسم الله ، أما النفوذ الشخصى فهو كلمة غير مزعجة ، فالنبي - أى نبي - له من الهيبة والقبول ما يجعل الناس يتحلون حوله ويطيعونه ويسلمون عقولهم له ، فالتراث اليهودى والاسلامى لا يتكران =

خديجه كان بعضها - وليسست جميعها - لأسباب سياسية ، ولم يكن هناك نظام حكم مدروس أو جيش ، فقد كان محمد (ص) ببساطة قاضيا أعلى يعاونه عدد من النواب ، ونشأ تجنيد عسكري عام للمؤمنين ، وبيت مال تغذيه الركاة ، وفرض الخراج والجزية على القبائل التي رضخت ، وخارج هذه البلدان انتشر الاسلام على مساحة واسعة ، وكان زعماء القبائل محتاجين لاتفاق معه ، لأنه كان مسيطرا على الواحات والاسواق ، وقد اختلفت طبيعة هذه الاتفاقيات ، ففى بعض الحالات كان هناك مجرد تحالف ونبذ للصراعات ، وفى حالات أخرى كان القبول بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم والالتزام بالصلاة والاسهام المالى المنتظم لبيت المال بالزكاة .

وفى عام ٦٣٢ قام محمد صلى الله عليه وسلم بزيارته الأخيرة لمكة وأصبحت خطبته فى الكتابات التقليدية البيان الأخير لرسالته :
.. أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله لا ربا اللهم هل بلغت » .

وتوفى عليه الصلاة والسلام فى ذلك العام وترك أكثر من ميراث :
 الأول شخصيته كما رآها صحابته ورفاقه المقربون وان كانت شهاداتهم

= النفوذ الشخصى أو التأثير لموسى عليه السلام ، والتراث المسيحى وكذلك الاسلام لا ينكران الجاذبية الشخصية أو النفوذ الشخصى ، (والمعنيان قريبان) لعيسى يسوع عليه السلام ، فقد قال للعشار « قم فاتبعنى » فتبعه العشار وترك أمواله ، دون سؤال عن السبب .
 والنبي - أى نبي - يستخدم المعجزة لاقناع الناس ، وليس استخدام المعجزة من أساليب الحكم المعتادة (حديث عيسى فى المهد ليس من الأمور المعتادة ، وان كان التراث المسيحى لا يوافق على حديثه فى المهد ولا يقره ، وانما يقر بمعجزات أخرى كإحياء الموتى ، وإبراء المرضى باذن الله .. الخ ، ومعجزات موسى عليه السلام معروفة فى التراث اليهودى والاسلامى ، أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فتجلت فى القرآن الكريم الذى أتاه من عند الله ، والحقيقة أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو أقل الأنبياء استخداما للمعجزة بمعناها المادى - أى الأمر الخارق للعادة وقراءتين الطبيعية - وانما خاطب الناس بمبادئ الحق والعدل فأطاعوه (كل هذا لا يمنع من أن النبي - أى نبي - قد استخدم أيضا الأساليب التى ألفها الناس فى الحياة ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ان « الحرب خدعة » وكانت قمة الدبلوماسية هى التى تجلت فى قول المسيح عليه السلام (أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله) ولم يكن معناها الحرفى هو المقصود بالتأكيد .
 والخلاصة أنه ليس فى عبارات حررانى تجاوز كبير ، وان كان من الممكن استخدام الفاظ أكثر دقة حتى لا ينزعج القارئ المسلم - (المراجع) .

التي انتقلت شفاهة ، لم تأخذ شكلها النهائي الا بعد ذلك بكثير ، وكانت بالتأكيد موشاة بالمبالغات ، ولكن يبدو من المعقول الاعتقاد بأنه منذ وقت مبكر حاول أولئك الذين عرفوه واتبعوه أن يقتدوا بتصرفاته وسلوكه ، وبمرور الوقت تطور نمط من الشخصية الانسانية هو الى حد كبير انعكاس لشخصيته في أعين أتباعه ، كرجل باحث عن الحقيقة منذ بواكير حياته وقع في حيرة بفعل قوى علوية ، وهو حريص على توصيل ما أوحى اليه مكتسبا الثقة في رسالته من احساس بالسلطة والقوة بتخلق الأنصار من حوله ، وكان قاضيا ومحكما لتحقيق السلام وتسوية المنازعات في ضوء مبادئ العدل التي يؤمن بأنها من مصادر الهية قدسية ، وكان مناورا بارعا بين القوى السياسية ، ورجلا لم يتخل عن أنماط وعادات التصرف الانساني لكن مع محاولة حصرها ضمن الحدود التي آمن بأنها مفروضة بمشيئة الله .

وتشكلت صورة محمد صلى الله عليه وسلم تدريجيا وانتقلت من جيل الى جيل ، كذلك كان الحال مع المجتمع الذي أنشأه وأوجده ، فقد صورته عصور لاحقة بأنه كان مجتمعا وقر محمدا (ص) واعتز بذكرياته محاولا اتباع سيرته وطريقته ، وجاهد على طريق الاسلام في سبيل الله ، وربطت أركان الدين هذا المجتمع ببعضه البعض ، وكلها ذات صبغة جماعية ، فالحج في موعد واحد ، والصيام خلال شهر واحد (رمضان) ، ومتوحدين أيضا خلال الصلاة المنتظمة ، وهو النشاط الذي ميزهم بشكل واضح عن بقية العالم .

وقبل كل شيء كان تراث القرآن ، وهو كتاب يصور في بلاغة لغوية ذات جمال وتأثير عظيمين ، جلال الله المتعالى ، مصدر كل القوة والخير في العالم البشري الدنيوى الذي خلقه ، وتنزيل رسالته على أنبياء متتابعين أرسلهم لتحذير الناس واعادتهم الى ذواتهم الحقيقية كمخلوقات مطبوعة حامدة ، ثم يحكم الله على الناس في نهاية الزمان بالثواب والعقاب .

وقد آمن المسلمون السنة دائما بأن القرآن هو كلمة الله تجلت باللغة العربية من خلال ملك الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي أوقات مختلفة بطرق تناسب احتياجات المجتمع . وقلة من غير المسلمين يمكنهم القبول الكامل بهذا الاعتقاد ، وعلى أحسن الفروض ، فإن البعض منهم يعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم تلقى الهاما من خارج العالم البشري انتقل من خلال شخصيته وعبر عنه بكلماته هو ، وليس هناك من طريقة عقلانية بحتة يمكن بها حل ذلك الخلاف في الاعتقاد ، ولكن أولئك المنقسمين نحوه يمكنهم

الاتفاق بشكل مشروع حول بعض النقاط التى يمكن مناقشتها فى القرآن .

ويرد أولا السؤال حول متى وكيف اتخذ القرآن شكله النهائى ؟ اذ ان محمدا (ص) قد نقل الوحي الى أتباعه فى أوقات مختلفة ، وقاموا بنسجيله أو حفظه فى ذاكرتهم ، ويتفق معظم الدارسين أن العملية التى تم بها جمع الروايات المختلفة ثم وضع النص الذى اتفق عليه ، لم تتم الا بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم (*) ، أما الروايات التقليدية فتقول بأن ذلك حدث خلال عهد ثالث من خلفه فى زعامة الجماعة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦) وهناك اعتقاد بوفوع ذلك فى تواريخ لاحقة ويتهم بعض فرقاء الاسلام آخرين بادخال اضافات على هذه النصوص ليست مأخوذة مما روى عن محمد صلى الله عليه وسلم (**).

(*) ليس فى كتب تاريخ القرآن التى بين أيدينا على اختلاف مذاهب مؤلفيها ما يشير من قريب أو بعيد الى أن النص القرآنى كان محل جدال أو خلاف فى حياة الرسول أو بعد وفاته . راجع : أبو القاسم الموسوى الخولى : البيان فى تفسير القرآن . النجف ، ١٩٥٧ (والمؤلف شيعى) ، ومحمد بن عبد الله الزركشى . البرهان فى علوم القرآن . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ١٩٥٧ ، وأبو عبد الله الزنجانى : تاريخ القرآن . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٥ ، وراجع أيضا كتاب عبد الله ابن أبى داود السجستانى المعروف بكتاب المصاحف ، وطبعته الاولى حققها ونشرها المستشرق آرثر جفرى ، وتعرض الشهرستانى فى كتابه الشهير الملل والنحل لكل المذاهب والفرق الاسلامية بل وغير الاسلامية ، وقد تصفحنا الكتاب صفحة صفحة فلم نجد ما يشير الى أن أصحاب مذهب قالوا ان خلافا حدث أو سديلا تم (الملل والنحل ، لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر الشهرستانى . مجلدان . بيروت ، ١٩٨٠) . ولم نسمع أو نقرأ أن موضوعا كهذا أثير فى عهد الراشدين ، ورغم كثرة الخارجيين على الدولة الاموية فإن كل المصادر لا تشير الى أن فرقة أو مذهبا قالت ان هناك آيات أو حتى آية من القرآن الكريم قد أضيفت اليه . وكل كتب حوليات التاريخ الاسلامى (ابن خياط ، الطبرى ، ابن كثير . الخ) لم تشر لشيء كهذا لكننا سمعنا أن بعض فرق الشيعة منذ القرن الثالث الهجرى تحدثوا عن أن القرآن الكريم كان به بعض آيات عن حق فاطمة رضى الله عنها ، وحق الامام على فى الخلافة وأن هذه الآيات قد حذفت ، لكن أحدا لم يذكر لنا هذه الآيات بنفسها ، ولم يفسر لنا سر السكوت على هذا الحذف لمدة تزيد على مائتى سنة ، أما الاختلاف فى طريقة القراءة فيما يعرف بالقراءات فاهم ، وارد - (المراجع) .

(**) ليست هناك اتهامات باضافات ، وإنما اتهامات بحذف . لكن الذين اتهموا أبا بكر وعثمان رضى الله عنهما بحذف بعض الآيات لم يذكروا مثلا واحدا أو آية واحدة . والقرآن الكريم يقرؤه الآن كل المسلمين سنة وشيعة وتردده الاذاعات بسور متفق عليها وآيات لا يحيدون عنها - (المراجع) .

ويدور السؤال الأهم حول أصالة القرآن ، فقد حاول الدارسون وضعه في سياق الأفكار السائدة في ذلك الزمان والمكان ولا شك أن به أصداء من تعاليم الأديان السابقة (*) : الأفكار اليهودية في مذهبها ، وبعض الانعكاسات من ورع وتقى من المسيحية الشرقية في الأديرة من التأمل وإطالة التفكير في هول يوم القيامة وأوصاف الجنة والجحيم (مع قليل من الاشارات للدين المسيحي وشعائره) ، القصص التوراتية في أشكال مختلفة عن تلك التي جاءت في العهدين القديم والجديد ، وهناك صدى للفكرة المانوية عن تعاقب الرسالات والوحي الذي نزل على مختلف الشعوب ، هناك أيضا آثار من التقاليد المحلية ، حيث ان الأفكار الأخلاقية بشكل ما هي استمرار لتلك السائدة في الجزيرة العربية وان كانت تختلف عن بعضها . وفي بدايات النبوة كان الوحي يصدر كما لو كان على لسان الكهان أو العرافين العرب المغيبين عن وعيهم نتيجة لقائهم مع قوى ما وراء الطبيعة ، ومثل هذه الآثار من الماضي لا تسبب ازعاجا للمسلم الذي يعتبرها علامة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء في نهاية سلسلة من الأنبياء الذين علموا نفس الحقيقة لتكون فعالة ، فان الوحي النهائي قد استخدم صورا وألفاظا معلومة معروفة ومفهومة ، واذا كانت القصص والأفكار قد أخذت شكلا مختلفا في القرآن ، فان ذلك راجع لأن أتباع الأنبياء السابقين قد حرقوا الرسالات التي نزلت عليهم ، وبعض الدارسين من غير المسلمين توصلوا الى استنتاج آخر ، بأن القرآن يحتوي على القليل مما يزيد عما كان متاحا لمحمد صلى الله عليه وسلم في الزمان والمكان (**) ، والقول بهذا المعنى سوء فهم لما هو حقيقى ، فان ما أخذ من التراث والثقافة الدينية لذلك العصر قد تحول وانصهر ، لذلك كان الاسلام بالنسبة لأولئك المؤمنين بالرسالة هو نفس العالم المعهود قد خلق من جديد .

(*) من وجهة النظر التاريخية فان الاسلام لابد أن يشتمل على عناصر من الديانات التي سبقتة ، فهو يضم كل التراث السابق عليه بين أحضانه ، وهذا يفسر قسامة المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى ، كما يفسر عدم إعانهم في سفك الدماء أثناء حركة الفتوح - (المراجع) .

(**) وهو ما يعرف بالاعجاز التاريخي والعلمي للقرآن الكريم - (المراجع) .

الفصل الثاني

خلافة محمد صلى الله عليه وسلم - تكوين الامبراطورية (الدولة الاسلامية)

أعقبت وفاة محمد صلى الله عليه وسلم حالة من البلبلة بين أتباعه ، وأعلن أبو بكر أحد زعماء الجماعة : « أيها الناس ٠٠ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » . وتحت المستوى الإلهي كان هناك دور لا بد من ملئه : التحكيم في النزاعات واتخاذ القرارات بين الجماعة ، وكانت هناك ثلاث مجموعات رئيسية بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : الصحابة الأوائل الذين هاجروا معه وهم مجموعة ارتبطت فيما بينها بالتزاوج ، وكبار رجالات المدينة الذين أبرموا معه الاتفاقية هناك ، وأفراد العائلات المكية النافذة الذين أسلموا حديثاً . وفي اجتماع للزعماء والأعوان المقربين وقع الاختيار على أحد أفراد المجموعة الأولى ليكون خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو « أبو بكر » رفيقه الذي أسلم منذ البداية الأولى ووالد عائشة إحدى زوجاته .

ولم يكن الخليفة نبياً وإنما قائداً للجماعة وليس رسولا من الله بآية صورة ولم يكن بامكانه التحدث باسم الوحي المستمر ، ولكن هالة من القدسية ظلت تحيط بشخصية ومكانة الخلفاء الأوائل ، وكان بإمكانهم القول بأن لهم نوعاً من السلطة الدينية ولكن سرعان ما وجد أبو بكر وخلفاؤه أنفسهم مطالبين بممارسة القيادة في مجال أوسع من المجال الذي مارسها الرسول فيه ، وكانت لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله صبغة عالمية وطالب بسلطة عالمية ، كما أن الحرم الذي أنشأه لم تكن له حدود طبيعية (*) ، وفي سنواته الأخيرة أرسل حملاته العسكرية إلى

(*) استخدم المؤلف هنا اللفظ العربي Harem (حرم) وذكر أن الحرم الذي أنشأه النبي لم تكن له حدود طبيعية

The harem which he established had no natural limits.

ومن الواضح هنا أنه لا يقصد الحرم المقدس المحيط بالكعبة المشرفة وإنما هو يقصد أن الإسلام دين عالمي النزعة لا تقف دعوته عند حد ، أو بعبارة أخرى أنه دين ليس مقتصرًا على العرب . وإن كان هذا هو المعنى المقصود ، فهو قول صحيح ، ويصبح =

الحدود البيزنطية ، ومن المعتقد أنه بعث رسلا الى حكام الدول الكبرى يدعوهم للاعتراف برسالته ، وعندما توفي كاد التحالف الذى أبرمه مع زعماء القبائل أن ينفرط ، وبدأ بعضهم فى رفض مبدأ نبوته (*) أو على الأقل سيطرته السياسية على المدينة ، وفى مواجهة هذا التحدى فرضت الجماعة تحت قيادة أبى بكر نفوذها بالعمل العسكرى (حروب الردة) وخلالها تشكل جيش حملته قوة الدفع الى مناطق الحدود مع الامبراطوريات الكبرى وبعدها - وبفعل ضعف المقاومة - الى قلب تلك الامبراطوريات ، وبنهاية حكم الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) كانت كل الجزيرة العربية وجزء من الامبراطورية الساسانية ، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الامبراطورية البيزنطية قد تم فتحها ، واكتمل فتح بقية الامبراطورية الساسانية بعد ذلك بقليل .

حينئذ وفى غضون بضعة سنوات تغيرت حدود الشرق الأدنى وانتقل مركز الحياة السياسية من الأراضى الغنية المأهولة فى الهلال الخصيب ، الى بلدة صغيرة واقعة على حافة عالم الثروة والثقافة الرفيعة ، وكان التغير مفاجئا وغير متوقع الى الحد الذى يتطلب تفسيراً ، وتشير الدلائل التى كشف عنها علماء الآثار أن قوة عالم البحر المتوسط كانت فى انحدار بفعل الغزوات البربرية والاختفاق فى الحفاظ على المناطق الرعوية والزراعية وانكماش السوق الحضرية ، كما أضعفت الأوبئة والطاعون والحروب الطويلة كلا من الامبراطورية الساسانية والبيزنطية ، وقد استعاد البيزنطيون سيطرتهم على سوريا بعد هزيمة الساسانيين فى ٦٢٩ وان ظلت دولتهم ضعيفة ، ولم يكن العرب الذين غزوا الامبراطوريتين مجرد طغمة قبلية من البدو الرحل وإنما قوة منظمة اكتسب بعض أفرادها المهارة والخبرة العسكريتين ، من خلال خدمة الامبراطوريات أو فى القتال فى أعقاب موت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان استخدام الابل فى النقل قد أفادهم فى حملات القتال على مساحات واسعة من الأرض وحفز الطموح الى الثروة نوعاً من التحالف المبنى على المصالح بينهم ، كما أن حرارة الايمان أعطت البعض قوة من نوع خاص .

= فهم ألبرت جورانى لروح النصوص الاسلامية ومسار التاريخ الاسلامى أكثر اعتدالا من رأى باحثين آخرين رأوا فى الاسلام ديناً مقتصرًا على العرب - (المراجع) .

(*) أصبح معروفا الآن أن حركة المرتدين التى عرفت بهذا الاسم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن فى مجملها حركة خروج عن الاسلام أو ارتداد منه - وإنما أطلق عليها هذا الاسم اصطلاحاً ، فقد كانت هذه الحركة فى جميعها حركة قبلية ضد وحدة الدولة الاسلامية . بدليل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان من رايه فى البداية عدم خوض الحرب ضد المرتدين أو من أطلق عليهم اصطلاحاً اسم المرتدين =

= على أساس أن الخليفة أبا بكر لا طاقة له بصربهم ، لكن الخليفة الرقيق الرديع قريب الدمع قال له قوله المشهورة (أجبار في الجاهلية ، خوار في الإسلام) ثم قال أبو بكر قوله الشهيرة أيضا التي تبين طبيعة الحركة التي أطلق عليها تجاوزا اسم حركة المرتدين ، قال أبو بكر : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » . المعنى إذن أن هناك أقواما رفضوا دفع الزكاة لأبي بكر أنفة وعصبية إذ كان قائلهم يقول مستنكرا : « أنعطى الزكاة لابن أبي قحافة ! » ومعنى هذا أنه على استعداد لدفعها لكن ليس لابن أبي قحافة . إنها إذن حركة انفصالية وليست حركة ارتداد عن الإسلام للعودة إلى عبادة اللات واعزى ومناة الثالثة الأخرى . كانت حرب المرتدين إذن حربا وطنية لتأكيد سلطة الدولة والزام القبائل بطاعتها .

أما فيما يتعلق بأن اتجاهها ظهر بين المسلمين في أواخر حياته بانكار نبوته ، فهو قول يخالف بشكل صارخ روح النصوص التاريخية المتاحة كما يخالف بشكل صارخ تطورات الحركة التاريخية ، فالإسلام بعد وفاة الرسول لم يضعف وإنما انتشر ، ومن الطريف أن نوضح أنه حتى مسيلمة الكذاب ، وهو النجدي المعروف الذي ادعى النبوة لم ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإنما قال له (أشركت في الأمر معك) يعني أنا نبي وأنت نبي ، فالتأمل في النصوص يقضى بنا إلى حقائق جديدة غير تلك الأفكار التي خرج بها من النصوص نفسها باحثون آخرون . ولتأكيد هذه المعاني الواردة في هذا التعليق أجد من المفيد نقل نص كامل عن حروب الردة من كتساب فتوح البلدان للبلاذري ، وهو نص لا يختلف في معناه عما ورد في الكتب التاريخية التراثية الأخرى إلا في أنه موجز :

ملاحظات مبدئية على النص

(١) ما أورده البلاذري عن حروب الردة لا يختلف في مضمونه عما أورده كتب التاريخ الإسلامي التراثية الأخرى (ابن خياط ، الطبري ، ابن كثير ، ابن الأثير .. وغيرهم) ولكننا تخيرناه دون غيره لأنه موجز - بما يتناسب مع حجم كتابنا هذا .

(٢) استخدم البلاذري - مثل غيره من المؤلفين التراثيين بعض الاختصارات قد يكون من المفيد ذكرها للقارئ العادي :

- رحه : رحمه الله .
- رضه . رضى الله عنه .
- رضها : رضى الله عنها .
- رضهما . رضى الله عنهما .

(٣) يفهم من النص بشكل عام - أن الحركة التي سميت بحركة المرتدين - لم تكن خروجاً عن الإسلام بقدر ما هي خروج عن الدولة - أي أنها حركة انفصالية أو حركة قبلية يقصد بها عدم دفع الزكاة والصدقات للحكومة المركزية في مكة المكرمة . ونقتبس من نص البلاذري ما يفيد ذلك :

- قال قوم من المرتدين : « نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة » .
- قول أبي بكر الصديق . « لو منعوني عقالا لقاتلتهم عليه » .

= - بعض رءوس المرتدين كطليحة بن خويلد رجع عن دعواه وحارب في صفوف المسلمين وأبلى بلاء حسنا . وعندما عاتبه عمر بن الخطاب على ما كان منه قال : ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه .

- قال قره بن هبيرة الذى كان قد امتنع عن أداء الزكاة : « والله ما كفرت منذ آمنت » . الخ .

- ارقدت كندة فقاتلهم المسلمون . « حتى أقروا بالصدقة » .

(٤) لا يفهم من النص ان حروب الردة تمثل مذابح جماعية . واسما كانت حروبا بين ممثلى الدولة من ناحية والانفصاليين من ناحية ، وأن الحرب كانت تتوقف على الفور عند أداء الزكاة .

(٥) دخل في حروب المرتدين قوم من قطاع الطرق والصعاليك الذين لا يهمهم المسلمون أى غير المسلمين - وانما جل همهم الافساد والسلب والنهب ، ومن ذلك رجل يقال له الفجاءة وهو بجير بن اياس السلمى ، وكان يهاجم جيوش الدولة وجيوش المرتدين على سواء ، وقد قتله أبو بكر الصديق .

(٦) يقال ان بعض التجاوزات قد حصلت في هذه الحروب ، ومن ذلك أن مالك بن نويرة قال لخالده بن الوليد : « والله ما اردت » ومع ذلك مله خالد بن الوليد ، ومد مال عمر بن الخطاب لأبى بكر معترضا : « أبعث رجلا يقتل المسلمين » .

(٧) لم ترو المصادر أن احراقا بالنار تم ، الا فى حالات قليلة جدا ، ومن ذلك قول أبى بكر الصديق :

« ثلاث تركتهن ، ووددت أنى لم أفعل ، ووددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه ، فإنه تخيل الى أنه لا يرى شرا الا سعى اليه وأعان عليه . ووددت أنى يوم أتيت بالفجاءة قتلته ولم أحرقه » . الخ .

خبر ردة العرب فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قالوا . لما استخلف أبو بكر « رحمه » ارتدت طوائف من العرب ومنتعت بالصدقة ، وقال قوم منهم نقيم الصلاة ، ولا تؤدى الزكاة ، فقال أبو بكر « رضه » لو منعونى عقالا لقاتلتهم . وبعض الرواة يقول : لو منعونى عناقا . والعقال صدقة السنة .

وحدثنى عبد الله بن صالح العجلي ، عن يحيى بن آدم ، عن عوانة بن الحکم ، عن جرير بن يزيد ، عن السعبي قال . قال عبد الله بن مسعود ، لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله من علينا بأبى بكر اجتمع رأينا جميعا على ألا نقاتل على بنت مخاض وابن لبون ، وأن نأكل قرى عربية ونعد الله حتى يأتينا اليقين ، وعزم الله لأبى بكر « رضه » على قتالهم فوالله ما رضى منهم الا بالخطة المخزية ، أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فإن أقروا بأن من قتل منهم فى النار ، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فإن يخرجوا من ديارهم .

حدثنا ابراهيم بن محمد عن عرعرة قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدى قال أخبرنا سفيان الثوري . عن قيس بن مسلم . عن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال قدم وفد بزاخة على أبى بكر فخيرهم بين الحرب المجلية ، والسلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية فما السلم المخزية ؟ قال : ان ننزع منكم الحلقة والكرع ونغنم ما أصابنا =

= عنكم ، وتريدوا اليينا ما أصبتم منا ، وتدوا قتلانا ويكون قتلاككم في النار . حدثنا شجاع ابن مخلد الفلاس قال حدثنا بشر بن المفضل مولى بني رقاش قال عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون ، عن عبد الواحد ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن عمته عائشة أم المؤمنين « رضاها » أنها قالت توفي الرسول والنفاق بالمدينة ، وارتدت العرب فوالله ما اختلّفوا في واحدة إلا طار يحظها وغنائها عن الاسلام . قالوا فخرج أبو بكر إلى القصبة من أرض مصارب لتوجيه الزحف إلى أهل الردة ، ومعه المسلمون ، فسار إليهم خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، ومنصور بن زياد بن سيار الفزاري أحد بني العشاء في غطفان فقاتلوه قتلًا شديدًا ، فانهزم المشركون واتبعهم طلحة بن عبيد الله القيني فلحقه بأسفل ثنانيا عوسجة ، فقتل منهم رجلاً وفاته الباؤون فأعجزوه هرباً فجعل خارجة بن حصن يقول : ويل للعرب من ابن أبي قحافة ، ثم عقد أبو بكر وهو بالقصبة لخالد بن الوليد بن المغيرة المخرومي على الناس ، وجعل على الانصار ثابت بن قيس بن شماس الانصاري ، وهو أحد من استشهد يوم اليمامة إلا أنه كان من تحت يد خالد ، وأمر خالد أن يصمد لطليحة بن خويلد الأسدي وكان قد ادعى النبوة ، وهو يومئذ ببزاعة ، وبزاعة ماء لبنى أسد بن خزيمه ، فسار إليه خالد وقدم أمامه عكاشة بن محصن الأسدي ، حليف بني عبد شمس ، وثابت بن أقرم البلوي . حليف الانصار ، فلقيهما ، حبال بن خويلد ، فقتلاه وخرج طليحة وسلمه أخوه ، وقد بلغهما الخبر فلقيا عكاشة وثابتاً فقتلتهما فقال طليحة :

ذكرت أخى لما عرفت وجوههم وأيقنت أنى شائر بحبـال
عشية غادرت ابن أقرم ثاويًا وعكاشة الغنمى عند مجال

ثم التقى المسلمون وعدوهم واقتتلوا قتلًا شديدًا ، وكان عيينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر مع طليحة في سبعمائه من بني فزارة ، فلما رأى سيوف المسلمين قد استلحمت المشركين أتاه فقال له . أما ترى ما يصنع جيش أبي الفصيص ، فهل جاءك جبريل يشيّر قال نعم جاءني فقال : إن لك رحا كرجاه ، ويوما لا تنساه فقال عيينة أرى والله أن لك يوما لا تنساه ، يا بني فزارة هذا كذاب ، وولى عن عسكره فانهزم الناس وظهر المسلمون ، وأسر عيينة بن حصن فقدم به المدينة فحقن أبو بكر دمه وخلي سبيله وهرب طليحة بن خويلد فدخل خباء له فاغتسل ، وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ثم مضى إلى مكة ثم أتى المدينة مسلماً وقيل بل أتى الشام ، فأخذه المسلمون ممن كان غادياً ، ويعثوا به إلى أبي بكر بالمدينة فأسلم ، وأبلى بعد في فتح العراق ونهاوند ، وقال له عمر أقتلت العبد الصالح عكاشة بن محصن فقال إن عكاشة بن محصن سعد بن شقيت به وأنا أستغفر الله .

وأخبرني داود بن حبال الأسدي عن أشياخ من قومه أن عمر بن الخطاب قال لطليحة : أنت الكاذب على الله حين زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أذباركم شيئاً ، فاذكروا الله أعف قياماً فإن الرغبة فوق الصريح ، فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هداه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر . قالوا : وأتى خالد بن الوليد رمان وأبانين ، وهناك فل بزاعة فلم يقاتلوه وباعوه لأبي بكر ، وبعث خالد بن هشام بن العاص بن وائل السهمي أخاً عمرو بن العاص ، وكان قديم الاسلام ، وهو من مهاجرة الحبشة إلى بني عامر بن صعصعة ، فلم يقاتلوه وأظهروا =

« الاسلام والادان فاصرف عنهم ، وكان مرة بن هبيرة العشيري امتنع من اداء الصدقة .
وامد طليحة فاخذه هشام بن العاص واتى به حالدا فحمله الى ابي بكر فحباله « والله
ما كفرت منذ امنت ولقد مر بي عمرو بن العاص مبصرفا من عمان فأكرمته وبررته »
فسال ابو بكر عمرا « رصهما » عن ذلك فصدقه فحقن ابو بكر دمه . ويقال ان
حالدا كان سار الى بلاد بني عامر فاخذ مرة وبعث به الى ابي بكر . قال ، ثم سار حالدا
ابن الوليد الى الغمر وهناك جماعة من بني اسد وعطعان وغيرهم ، وعليهم خراجة بن
حصن بن حديفة ، ويقال انهم كانوا متسايدين قد جعل كل قوم عليهم رئيسا منهم
قاتلوا حالدا والمسلمين فقتلوا منهم جماعة ، وانهزم الباقون ، وفي يوم الغمر يقول
الحطيئة العيسى :

ألا كل أرماح قصار اذله فداء لأرماح الفوارس بالعمر
ثم أتى خالد جو قراقرم ويقال أتى النقرة وكان هناك جمع لبني سليم عليهم أبو
شجرة عمرو بن عبد العزى السلمي وأمه الخنساء ، فقاتلوه فاستشهد رجل من المسلمين ،
ثم فض الله جمع المشركين ، وجعل خالد يومئذ يحرق المرتدين فليل لأبي بكر في ذلك
فقال لا أشيم سيفاً سله الله على الكفار . وأسلم أبو شجرة فقدم على عمر وهو
يعطى المساكين فاستعطاء فقال له أليس القاتل :

ورويت رمحي من كتيبة خالد وأنى لأرجو بعدها أن أعمر

وعلاه بالدرة فقال : قد محا الاسلام ذلك يا أمير المؤمنين .

قالوا . « وأتى الفجاءة وهو بحير بن اياس بن عبد الله السلمي أبا بكر فقال .
احملنى وقونى اقاتل المرتدين ، فحمله وأعطاه سلاحا ، فخرج يعترض الناس ، فيقتل
المسلمين والمرتدين وجمع جمعا فكتب أبو بكر الى طريفة بن حازمة أخى معين بن
حازمة يأمره بقتاله ، فقاتله وأسره ابن حازمة ، فبعث به الى ابي بكر فأمر أبو
بكر باحرافه فى ناحية المصلى . ويقال ، ان أبا بكر كتب الى ممن فى امر الفجاءة ،
فوجه معن اليه طريفة أخاه فأسره ، ثم سار خالد الى من بالبطح والبعضة من بني
تميم فقاتلوه ففرض جمعهم ، وقتل مالك بن نويرة أخا متمم بن نويرة ، وكان مالك عاملا
للنبي ص على صدقات بني حنظلة ، فلما قبض خلى ما كان فى يده من الفرائض .
وقال شاتكم بأموالكم يابنى حنظلة وقد قيل ان حالدا لم يلق بالبطح والبعضة أحدا
ولكنه بث السرايا فى بني تميم ، وكانت منها سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدي
فلقى ضرار مالكا فاقتتلوا ، وأسره وجماعة معه فأتى بهم حالدا فأمر بهم فضربت أعناقهم
وتولى ضرار ضرب عنق مالك . ويقال ان مالكا قال لخالد والله ما ارتددت وشهد أبو
قتادة الانصارى ان بني حنظلة وضعوا السلاح ، واذنوا ، فقال عمر بن الخطاب لأبي
بكر « رصهما » بعثت رجلا يقتل المسلمين ، ويعذب بالنار . وقد روى أن متمم بن
نويرة دخل على عمر بن الخطاب فقال له ما بلغ من وجدك على أخيك مالك ، قال بكيته
حوالا حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة وما رأيت نارا الا كدت انقطع لها أسفا
عليه لأنه كان يوقد ناره الى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه ، قال فصنفه
لى « قال : كن يركب الفرس الجرور ويقود الجمل الثفال - وهو بين الزادتين
الغضوحين ، فى الليلة القرة ، وعليه شملة فلوت معنقلا رمحا خطلا فيسرى ليلته .
ثم يصبح ، وكان وجهه فلقة قمر ، قال فأنشدنى بعض ما قلت فيه فأنشده مرثيته
=

التي يقول فيها :

= وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فقال عمر : لو كنت أحسن قول الشعر لرثيت أخى زيدا ، فقال مقيم ولا سواء
يا أمير المؤمنين لو كان أخى صرع مصرع أخيك ما يكيته ، فقال ما عزانى أحد بأحسن
مما عزيتنى .

قالوا : وتنبت أم صادر سجاح بنت أوس بن حن بن أسامة بن الغيز
ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . ويقال هى سجاح بنت الحارث
ابن علفان بن سويد بن خالد بن أسامة وتكهنه فاتبها قوم من بنى تميم ، وقوم من
أخوالهم بنى تغلب ، ثم انها سجدت ذات يوم فقالت : ان رب السحاب ، يأمركم
أن تغزو الرباب ، فغزتهم فهزموها ولم يقاتلها أحد غيرهم فأتت مسيلمة الكذاب وهو
بحجر فتزوجته ، وجعلت دينها ودينه واحدا فلما قتل صارت الى اخوانها فماتت عندهم .
وقال ابن الكلبي أسلمت سجاح وهاجرت الى البصرة وحسن اسلامها . وقال عبد الأعلى
ابن حماد النخعي سمعت مشايخ من البصريين يقولون ، ان سمرة بن جندب الفزاري
صلى عليها وهو على البصرة من قبل معاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان
ورلايته البصرة . وقال ابن الكلبي كان مؤذن سجاح الجنبية بن طارق بن عمرو بن حوط
الرياحي وقوم يقولون ان شيبث بن ربعي الرياحي كان يؤذن لها .

قالوا وارندت خولان باليمن ، فوجه أبو بكر اليهم يعلى بن منية ، وهى أمة وهى
من بنى مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر
وأبوه أمية بن أبى عبيدة من ولد مالك بن حنظلة بن مالك حليف بنى نوفل بن عبد مناف
فظهر بهم وأصاب منهم غنيمة وسبايا ويقال لم يلق حربا فرجع القوم الى الاسلام .
رده بنى وليعة والأشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية الكندى .

قالوا . ولي رسول الله ص زياد بن لبيد البياض « من الأنصار » حضرموت ثم
ضم اليه كندة ، ويقال ان الذى ضم اليه كندة أبو بكر الصديق . وكان زياد
ابن لبيد رجلا حازما صليبا ، فأخذ فى الصدقة من بعض كندة قلوفا ، فسأله الكندى
ردا عليه وأخذ غيرها وكان قد وسمها بميسم الصدقة فأبى ذلك ، وكلمه الأشعث
ابن قيس فيه فلم يجبه وقال لست براد شيئا قد وقع الميسم عليه . فانتقضت عليه
كندة كلها الا السكون فانهم كانوا معه فقال شاعرهم :

ونحن نصرنا الدين اذ ضل قومنا شقاء وشايعنا ابن أم زياد
ولم نبغ عن حق البياضى من خلا وكان تقى الرحمن أفضل زاد

وجمع له بنو عمرو بن معاوية بن الحارث الكندى فبيتهم فيمن معه من
المسلمين فقتل منهم بشرا فيهم مخوس ، ومشرح ، وجمد وأبضعة بنو معدى كرب
ابن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن حجر القرد (والقرد الجواد فى كلامهم) بن الحارث
الولادة من عمرو بن معاوية بن الحارث وكانت لهؤلاء الأخوة أودية يملكونها فسموا
الملوك الأربعة ، وكانوا وقدوا على النبی صلى الله عليه وسلم ثم ارتدوا وقتلت أخت
لهم يقال لها العمدة وقاتلها يصحبها رجلا ثم ان زيادا أقبل بالسبي ، والأموال فمر على
الأشعث بن قيس وقومه فصرخ النساء والصبيان ، وبكوا فحمى الأشعث أنفا وخرج
فى جماعة من قومه فعرض لزياد ومن معه ، فأصيب ناس من المسلمين ثم هزموا
فاحتضمت عظماء كندة الى الأشعث بن قيس ، فلما رأى زياد ذلك كتب الى أبى بكر =

= يستمده ، وكتب أبو بكر الى المهاجر بن ابي امية يأمره بانجاهه هلفيا الأشعث ابن قيس فيمن معهما من المسلمين ففضا جمعه ، وأوقعا بأصحابه مقتلاً منهم مقتلة عظيمة ، ثم انهم لجأوا الى السجبر وهو حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى جهدوا ، فطلبوا الأشعث الأمان لعدة منهم ، وأخرج نفسه من العدة ، وذلك أن الجفشييش الكندي ، واسمه معدان بن الأسود بن معد يكر ب ، أخذ بحقوه وقال : أجعلني من العدة فأدخله وأخرج نفسه وأزل الى زياد بن ليبيد والمهاجر فبعثا به الى أبي بكر الصديق فمن عليه وزوجه أخته أم هروة بنت أبي قحافة ، فولدت له محمدا واسحاق وقريبة وحبابة وجمدة ، وبعضهم يقول . زوجة أخته قريبة ولما تزوجها أتى السوق فلم ير بها جزورا الا كشف عرقوبيها وأعطى ثمنها وأطعمها الناس ، وقام بالمدينة ثم سار الى الشام والعراق غاريا ، ومات بالكوفة وصلى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب بعد صلحه معاوية ، وكان الأشعث يكنى أبا محمد ويلقب عرف الناز . وقال بعض الرواة : ارتد بتو وليعة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت زياد بن ليبيد وفاته صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى بيعة أبي بكر فبايعوه ، خلا بني وليعة فبيتهم وقتلهم . وارتد الأشعث وتحصن في النجير فحاصره زياد بن ليبيد والمهاجر اجتمعا عليه ، وأمدهما أبو بكر « رخصه » بعكبة بن أبي جهل بعد انصرافه من عمان فقدم عليهما وقد فتح النجير . فسأل أبو بكر المسلمين أن يشركوه في الغنيمة ففعلوا . قالوا وكان بالنجير نسوة شعثن بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب أبو بكر « رخصه » في قطع أيديهن وأرجلهن ، منهن الثبجاء الحضرمية ، وهند بنت يامين اليهودية .

وحدثني بكر بن الهيثم قال : حدثني عبد الرزاق بن همام اليماني ، عن مشايخ صدثوه من أهل اليمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولي خالد بن سعيد بن العاص صنعاء ، فأخرجه العنسي الكذاب عنها ، وأنه ولي المهاجر بن أبي أمية على كندة وزياد بن ليبيد الانصارى على حضرموت والصدف وهم ولد مالك ابن مرتع بن معاوية بن كندة ، وانما سمي صدفا لأن مرتعا تزوج حضرمية ، وشرط لها أن تكون عنده ، فاذا ولدت ولدا لم يخرجها من دار قومها ، فولدت له مالكا ، فقضى الحاكم عليه بأن يخرجها الى أهلها ، فلما خرج مالك عنه معها قال صدف عنى مالك فسمي الصدف . وقال عبد الرزاق ، أخبرني مشايخ من أهل اليمن قالوا : كتب أبو بكر الى زياد بن ليبيد والمهاجر بن أبي أمية المخزومي ، وهو يومئذ على كندة يأمرهما أن يجتمعا فتكون أيديهما يدا ، وأمرهما واحدا فيأخذ العاصيين له البيعة ويقاؤا من امتنع من أداء الصدقة ، وإن يستعيننا بالمؤمنين على الكافرين ، وبالمطيعين على العاصيين والمخالفين ، فأخذا من رجل من كندة في الصدقة بكرة من الإبل فسالهما أخذ غيرها فسامحه المهاجر وأبو زياد إلا أخذها ، وقال ما كنت لأردها بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة ، فجمع بنو عمرو بن معاوية جمعا فقال أبو زياد للمهاجر قد ترى هذا الجمع ، فلبس الرأي أن نزول جميعا عن مكاننا لكن انفصل من المعسكر في جماعة فيكون ذلك أخفى للأمر وأستر ، ثم أبيت هؤلاء الكفرة ، وكان زياد حازما صليبا ، فصار الى بنى عمرو والفاهم في الليل فبيتهم فأتى على أكثرهم وجعل بعضهم يقتل بعضا ، ثم اجتمع والمهاجر ومعهما السبي والأسارى فعرض لهما الأشعث بن قيس ووجوه كندة فقاتلهم قتالا شديدا . ثم ان الكنديين تحصنوا بالنجير فحاصروهم حتى جهدهم الحصار وأضر بهم ، ونزل الأشعث على الحكم . قالوا : « وكانت حضرموت »

= أتت كعدة منجدة لها مواعدهم رياء والمهاجر فظهر بهم وارتدت حولان ، فوجه اليهم أبو بكر يعلى بن مسية فقاتلهم حتى اذعنوا واقرؤا بالصدقة ، ثم اتى المهاجر ختاب أبي بكر بتوليته صنعاء ومخاليقها وجمع عمله لزياد الى ما كان فى يده فكانت اليمن بين ثلاثة : المهاجر ، وزياد ، ويعلى ، وولى أبو سفيان بن حرب ما بين آخر هذه الحجاز وآخر حد نجران . وحدثنى أبو نصر التمار ، قال : حدثنى شريك قال عن ابراهيم بن مهاجر عن ابراهيم النخعي قال ، ارتد الأشعث بن قيس الكندي فى ساس من كندة فحوصروا فاخذ الأمان لسبعين منهم ولم يأخذه لنفسه ، فأتى به أبو بكر فقال : أنا قاتلك لانه لا أمان لك اذ أخرجت نفسك من العدة ، فقال : بل تمن على يا خليفة رسول الله وتزوجنى ففعل وزوجه أخته .

وحدثنى القاسم بن سلام أبو عبيد ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح الليث بن سعد ، عن علسوان بن صالح ، عن صالح بن كيسان ، عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبي بكر الصديق أنه قال : ثلاث تركتهن ووددت أنى لم أفعل ، وددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه فانه تخيل الى أنه لا يرى شرا الا سعى فيه وأعان عليه ووددت أنى يوم أتيت بالفجاءة قتلتها ولم أحرقه ، ووددت أنى حيث وجهت خالد الى الشام ، وجهت عمر بن الخطاب الى العراق فاكون قد بسطت يمينى وشمالى جميعا فى سبيل الله .

أخبرنى عبد الله بن صالح العجلي عن يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح عن فراس أو بنان عن الشعبي أن أبا بكر رده سبابا النجير بالفدا ، لكل رأس أربعمائة درهم ، وأن الأشعث بن قيس استسلف من تجار المدينة فداهم ، ثم رده لهم وقال الأشعث بن قيس يرثى بشير بن الأودج وكان ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد ، ويزيد بن أمانة ومن قتل يوم النجير :

لعمري وما عمري على بهين لقد كنت بالقتل أحق ضنين

فلا غرو الا يوم يقسم سبيهم وما الدهر عندي بعدهم بأمين

وكننت كذات الميو ريعت فاقبلت على بوها ان طربت بحنين

عن ابن أمانة الكريم وبعده بشير الندى قليجر دمع عيون .

أمر الأسود العنسي ومن ارتد معه باليمن : قالوا : كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي ومن ارتد معه باليمن قالوا : كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي قد تكهن وأدعى النبوة ، فاتبعه عنس ، وأسم عنس زيد بن مالك بن أدد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ ، وعنس ، أخو مراد بن مالك ، وخالد بن مالك وسبعه العشيرة بن مالك ، واتبعه أيضا من غير عنس ، وسمى نفسه رحمان اليمن وتسمى مسيلمة رحمان اليمامة ، وكان له حمار معلم يقول له اسجد لربك يسجد ، ويقول له ابرك فيبرك فسمى ذا الحمار ، وقال بعضهم ذو الخمار لانه كان مختمرا معتما أبدا . وأخبرنى بعض أهل اليمن أنه كان أسود الوجه ، فسمى الأسود للونه وإن اسمه عيهلة . قالوا فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله البجلي فى السنة التى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، وفيها كان اسلام جرير ، الى الأسود يدعوهم الى الاسلام فلم يجبه ، وبعض الرواة ينكر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم جريرا الى اليمن ، قالوا : « وأتى الأسود صنعاء فقلب عليها وأخرج خالد بن سعيد بن العاص عنها ويقال انه انما أخرج المهاجر بن أمية وانحاز خالد الى ناحية زياد =

وربما كان هناك تفسير آخر لقبول سكان البلاد المقهورة لحكم العرب فلم يكن هناك فارق كبير عند كثير منهم بين أن يحكمهم إيرانيون ، أو يونانيون أو عرب . وبخلاف المسئولين والطبقات ذات المصالح المرتبطة بهم والكهنة في بعض المجتمعات الدينية ، فإن سكان المدن لم يكونوا يباليون بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون في سلام ويدفعون ضرائب معتدلة ، أما سكان الريف والسهوب فقد عاشوا تحت إمرة زعمائهم وفقا لعاداتهم

== ابن لبيد البياض . وكان عنده حتى اتاه كتاب أبي بكر يأمره بمعاونة زياد ، فلما فرغا من امرهما ولاد صنعاء وأعمالها ، وكان الأسود متجبرا فاستنزل الأبناء وهم أولاد أهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع ابن ذى يزن وعليهم وهرز واستخدمهم فأنصر بهم وتزوج المَرْزَبَانَةَ امرأة باذام ملكهم ، وعامل أيرؤيز عليهم ، فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن هبيرة المكشوح المرادى لقتاله وإنما سمي المكشوح لأنه كوى على كشحه من داء كان به وأمره باستمالة الأبناء وبعث معه فروة بن مسيك المرادى ، فلما صاروا الى اليمن بلغتهما وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنظر قيس للأسود أنه على رأيه حتى خلى بينه وبين دخول صنعاء فدخلها في جماعة من مدحج وهمدان وغيرهم ، ثم استمال فيروز بن الديلمي أحد الأبناء ، وكان فيروز قد أسلم ثم أتيا باذام رأس الأبناء ، ويقال ان باذام قد كان مات ورأس الأبناء بعده خليفة له يسمى دأزويه وذلك أثبت ، فأسلم دأزويه ولقى قيس ثات ين ذى الحرة الحميري فاستماله وبث دأزويه دعائه في الأبناء فأسلموا فتطابق هؤلاء جميعا على قتل الأسود واغتياله ، ودسوا الى المَرْزَبَانَةَ امرأته من أعلمها الذي هم عليه ، وكانت شائعة له فدخلتهم على جدول يدخل اليه منه فدخلوا سحرا ويقال بل نقبوا جدار بيته بالخيل فقبوا ثم دخلوا عليه في السحر وهو سكران فأنهم فذبحه قيس ذبحا ، فجعل يخور خوار الثور حتى أفرغ ذلك حرسه فقالوا ما شأن رحمان اليمن فبدرت امرأته فقالت ان الوحى ينزل عليه فسكنوا وأمسكوا واحتز قيس رأسه ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال .. الله اكبر الله اكبر أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الأسود كذاب عدو الله ، فاجتمع اصحاب الأسود فالقى اليهم رأسه فتفرقوا الا قليلا ، وخرج أصحاب قيس ففتحوا الباب ووضعوا في بقية أصحاب العنسى السيف فلم ينج الا من أسلم منهم . وذكر بعض الرواة ان الذي قتل الأسود العنسى فيروز بن الديلمي وإن قيسا أجهز عليه واحتز رأسه ، وذكر بعض أهل العلم ان قتل الأسود كان قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أيام ، فقال في مرضه قد قتل الله الأسود العنسى ، قتله الرجا . الصالح فيروز بن الديلمي ، وإن الفتح ورد على أبي بكر بعدما استخلف بعشر ليل . وأخبرني بكر بن الهيثم قال حدثني ابن انس اليماني عن أخبره ، عن النعمان بن بَرْزَج أحد الأبناء ان عامل النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الأسود عن صنعاء . ابان بن سعيد بن العاص ، وان الذي قتل الأسود العنسى فيروز الديلمي ، وإن قيسا وفيروز ادعيا قتله وهما بالمدينة فقال عمر قتله هذا الاسد يعنى فيروز . قالوا ثم ان قيسا اتهم بقتل دأزويه ، وبلغ أبا بكر أنه على اجلاء الأبناء عن صنعاء فأنغضيه بذلك وكتب الى المهاجر بن أبي أمية حين دخل صنعاء وهو عامله عليها يأمره بحمل قيس الى ما قبله فلما قدم به عليه أجلفه خمسين يمينا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما قتل دأزويه فلف ، فخلى سبيله ووجهه الى الشام - (المراجع) .

الخاصة • وكان حلول العرب محل اليونانيين أو الإيرانيين وضعاً أفضل بالنسبة لبعضهم • أما أولئك الذين تجلت معارضتهم للحكم البيزنطي في صورة الانشقاق الديني، فقد كان من الأيسر لهم أن يعيشوا تحت إمرة حاكم لا ينحاز لأى من الجماعات المسيحية المختلفة خاصة وأن الدين الجديد لم يكن قد انضح بعد ، نظاماً متكاملًا كمذهب أو قانون ، وكذا لم يكن غريباً عنهم فى تلك الأجزاء من سوريا والعراق فقد حكمها أفراد ذوو أصول ولسان عربى ، وكان من السهل على قادتهم تبديل ولائهم من الأباطرة الى التحالفات العربية الجديدة خاصة وأن السيطرة السابقة عليها كان يتبادلها اللخميون والغساسنة ، وهكذا اختفت الدولتان العربيتان العميلتان للامبراطوريتين الكبيرتين (*) [أسس عمرو بن عدى اللخمى دولة اللخمين « بنى نصر » أو « المناذرة » فى الحيرة نحو القرن الثالث الميلادى ، وكانوا فى حروب متواصلة مع الغساسنة ، واعتنق المناذرة المسيحية ، وتحالفوا مع الفرس ، وتلاشت دولتهم بوفاة النعمان الثالث عام ٦٠٢ م ، ودخلوا الاسلام بعد الفتح العربى] •

وكان لابد من تغيير نظام الحكم فقد فرض الغزاة سلطتهم ونفوذهم من معسكرات جنود عرب مسلحين ، وفى سوريا كانت هذه المعسكرات تقام فى المدن الموجودة بالفعل ، ولكن فى الأماكن الأخرى كانت تنشأ المستوطنات مثل البصرة والكوفة فى العراق ، والفسطاط فى مصر (والتي أصبحت فيما بعد القاهرة) وأخرى على الحدود الشمالية الشرقية لخراسان ، وكانت هذه المراكز أقطاب جذب للمهاجرين من شبه الجزيرة أو للبلاد المقهورة حيث كانت مواقع القوة ، وتنامت لتصبح مدناً بكل منها مقر للحاكم وفى قلبها مكان للتجمع الشعبى هو المسجد •

فى « المدينة » وفى المدن المعسكرات الأخرى المرتبطة بشبكة من طرق برية كانت القوة فى أيدي الجماعات الجديدة الحاكمة ، وكان بعض أعضائها من صحبة النبی صلى الله عليه وسلم الأولين المخلصين ، ولكن كانت هناك نسبة كبيرة من أفراد العائلات المكية بما لهم من مهارات عسكرية وسياسية ومن عائلات مماثلة فى مدينة (الطائف) القريبة ، وبينما تزايدت الغزوات انضم آخرون من كبار العائلات القوية من القبائل

(*) يمكن القول ان العرب المناذرة فى غالبيتهم متعاطفين مع المسيحية ويمكن القول ايضا ان بعضهم قد اعتنقها ، لكن من المستبعد أن يكون المناذرة قد كونوا دولة مسيحية من الناحية الرسمية على الأقل ، لسبب بسيط وهو أنهم حلفاء لدولة فارس ، ومعنى تدشين مملكتهم كمملكة مسيحية ، أنهم أصبحوا ببساطة مثل الغساسنة =

الرغوية حتى من أولئك الذين كانوا يريدون التخلص من حكم « المدينة » بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وقد مالت الجماعات المختلفة الى الاختلاط مع بعضها البعض ، وأوجد الخليفة عمر نظاما من الرواتب والمعاشات ، لكل من حارب من أجل قضية الاسلام ، طبقا لأولوية الانضمام للدين ومدة الخدمة ، وزاد تماسك النخبة الحاكمة ، أو على الأقل انفصالهم عن المحكومين ، أما بين أعضاء النخبة الجدد الأغنياء وبين الأفقر منهم ، فقد كانت العلاقات متوترة منذ وقت مبكر .

وبالرغم من تماسك الجماعة بشكل عام فقد كانت منقسمة بفعل الخلافات الشخصية والطائفية ، وكان الصحابة الأول ينظرون باستخفاف وارياب لأولئك الذين حققوا القوة والمكانة برغم تأخرهم في الاسلام . وتتضارب ادعاءات السبق بالدخول في الاسلام ومدى القرب لمحمد صلى الله عليه وسلم مع ادعاءات نبيل المحتد ورفعة النسب ، وقد شهد شعب المدينة انسحاب القوة الى الشمال حيث الأراضي الأغنى والأكثر عمرانًا بالسكان في الشام والعراق ، حيث كان الولاة يحاولون جعل سيطرتهم أكثر استقلالية .

طفا هذا التوتر على السطح في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤م - ٦٥٦م) ، وقد اختاره عدد قليل من قریش بعد اغتيال عمر بسبب ثأر شخصي (*) ، وقد أوحى عثمان اليهم بالأمل في التقريب بين الفرقاء

= حلفاء للبيزنطيين (الروم) . ونفضل هنا الاستعانة بباحث محقق هو جورج قنواى . يقول الأب الدكتور قنواى : « ... والغريب في الأمر أن الملك نفسه كان وثنيا بالرغم من أنه كان متزوجا من مسيحية ، وكان يقدم الى الهيكله قرايين بشرية حية .. ومرة استولى على أربعمئة راهبة من حمص وقدمهن قرايين بدون رحمة ، ولعل زوجته هند أرادت أن تكفر عن جريمة زوجها فأسست في الحيرة ديرا .. أما أول ملك من المناذرة اعتنق المسيحية فهو النعمان الثالث (بعد سنة ٥٧٠ م) ومع هذا ، فقد احتفظ بأكثر من زوجة واحتفظ ببعض الأخلاق الوثنية ، وقد أنهى القرس امارة اللخمين بالقبض على هذا الملك وسجنه في فارس ، وقد مات بالفعل سنة ٦٠٢ م .. أما اللغة التي كانت تستخدم في الحيرة فهي العربية والسريانية وهما لغتان ساميتان متقاربتان .. ومن المؤكد أن العباد (بضم العين وتشديد الباء) وهم مسيحيو الحيرة هم أول من استعملوا الخط العربي ... جورج قنواى : المسيحية والحضارة العربية ، ص ٧٥ - ٧٦ . (القاهرة ، دار الثقافة) ط ٢ ، ١٩٩٢ - (المراجع) .

(*) قل أبو لؤلؤة فروز الفارسي غلام المغيرة بن شعبه « عمر بن الخطاب ولا نعرف ثأرا شخصيا بينه وبين الفاروق عمر رضي الله عنه ، وإنما هو التعصب . لم يشر الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن خياط ولا غيرهم من كتاب الحواريات لثأر شخصي بين عمر رضي الله عنه وفيروز - (المراجع) .

لأنه ينحدر من قلب قريش ورغم ذلك كان من أوائل من اعتنقوا الاسلام ، وكانت سياسته هي تعيين أعضاء أسرته كحكام للأقاليم مما أثار المعارضة بين كل من أبناء رفاقه وأقارب زوجة النبي عائشة في الكوفة والفسطاط ، وقد رفضت بعض القبائل سيطرة هؤلاء الرجال المكيين ، وبدأت القلاقل في المدينة مؤيدة بجند من مصر وأدت الى قتل عثمان في ٦٥٦ م .

بهذا بدأت أول فترة من الحرب الأهلية في الجماعة . وقد كان المطالب بالخلافة هو (علي بن أبي طالب) (٦٥٦ - ٦١) من قريش ومن أوائل من آمنوا ، وابن عم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة ، وقد وجد نفسه في مواجهة معارضة مزدوجة من أقارب عثمان الذين كانوا ضده وكذلك الذين جادلوا في شرعية اختياره ، وانتقل الصراع الدائر حول السلطة في المدينة الى المدن والمعسكرات ، ونصب (علي) نفسه خليفة في الكوفة وتركز المنشقون في البصرة ، وهزمهم ولكنه واجه تحدياً جديداً من سوريا حيث كان الحاكم (الوالي) معاوية بن أبي سفيان على صلة قرابة بعثمان وتقابل الفريقان في موقعة (صفين) في أعالي الفرات ، وبعد قتال لفترة إتفق الطرفان على التحكيم عن طريق ممثلين يختارهما الجانبان ، وعندما وافق (علي) على ذلك تخلى عنه بعض أنصاره لأنهم لم يكونوا مستعدين لحل وسط وانما الخضوع لمشيئة الله كما كانوا يرونها كبشر ، اذ ان شرف الانتساب المبكر للاسلام كان في خطر ، وفي شهور المفاوضات بين المحكمين أظهر ممثل (علي) ضعفاً واغتيال (علي) في النهاية في مقره بالكوفة ، وأعلن معاوية نفسه خليفة وأذن لذلك الحسن الابن الأكبر لـ علي .

الخلافة في دمشق

يعتبر وصول معاوية الى السلطة (٦٦١ - ٦٨٠) في نظر الكثيرين علامة على نهاية مرحلة وبداية أخرى ، فقد كان الخلفاء الأربعة الأول من أبي بكر حتى علي يعرفون لغالبية المسلمين بالراشدين ، وفيما بعد أصبحت النظرة للخلفاء مختلفة تماماً ، فقبل كل شيء أصبحت الخلافة وراثية منذ ذلك الحين ، ورغم بقاء شكل من التفكير الاختياري أو على الأقل الاعتراف الرسمي والشكلي (البيعة) من زعماء المجتمع ، الا أن الحقيقة أن السلطة أصبحت في أيدي عائلة ، سميت بالأموية نسبة الى الجد الأعلى « أمية » وعندما توفي معاوية خلفه ابنه لفترة وجيزة تلتها فترة ثانية من الحرب الأهلية وانتقل العرش بعدها الى فرع آخر من العائلة .

ولم يكن التغير قاصرا على الحكام ، اذ انتقلت عاصمة الامبراطورية الى دمشق ، وهى مدينة واقعة وسط منطقة ريفية حيث يمكن توفير الفائض اللازم لقيام مقر وحكومة وجيش، وهى منطقة يمكن منها التحكم فى الاراضى الساحلية شرق المتوسط والاراضى الواقعة شرقها بشكل أكثر سهولة من « المدينة » . وكان ذلك عظيم الأهمية فقد كانت الخلافة فى مرحله نوسع ، وتقدمت القوات الاسلامية عبر المغرب ، وأنشأت أول قاعدة مهمة فى القيروان فى أفريقيا فيما كان أحد أقاليم الامبراطورية الرومانية (تونس حاليا) ، ومنها اتجهوا غربا حتى بلغوا سواحل الأطلس فى المغرب بنهاية القرن السابع ، وسرعان ما عبروا الى أسبانيا ، وفى الناحية الشرقية استطاعوا فتح ماوراء خراسان، حيث وصلوا الى وادى نهر جيحون وكانت بدايات التقدم الاسلامى نحو شمال غرب الهند .

وتطلبت هذه الامبراطورية نمطا جديدا من الحكم ، وهناك رأى انتشر فى الأجيال اللاحقة ، عندما خلف الأمويين سسلالة معادية لهم ، بأنهم أسسوا حكما موجها لأهداف دنيوية تحكمها المصالح الشخصية بدلا من حكم الخلفاء الذى كان مكرسا لمصالح الدين ، وقد يكون من العدل القول ان الأمويين وجدوا أنفسهم فى مواجهة مشاكل حكم امبراطورية عظمى ، ولذا ، تورطوا فى الحلول الوسط للحفاظ على القوة وتطوروا تدريجيا من زعماء قبائل بدوية الى أن صاغوا نمطا من الحياة يشبه الشكل التقليدى السائد بين حكام الشرق الأدنى ، يستقبلون ضيوفهم والتابعين وفقا للممارسات الاحتفالية كممثل الامبراطور البيزنطى أو ملك ايران، واستبدلت الجيوش العربية الأولى بقوى نظامية جديدة تتقاضى أجورا ، وتشكلت مجموعة حاكمة جديدة معظمها من قادة الجيش وزعماء القبائل ، وفقدت العائلات صاحبة النفوذ فى مكة والمدينة أهميتها السابقة حيث كانوا بعيدين عن كرسى السلطة ، وحاولوا الثورة أكثر من مرة . ومدن العراق أيضا كان ولاؤها مشكوكا فيه وكان لابد أن يحكمها ولاية أقوىاء مواليون للخليفة ، وكان الحكام من أهل الحضر الملتزمين بالحياة المستقرة والمعادين لدعاوى السيطرة والسيادة المعتمدة على العصبية القبلية ، وكما حذر أول الولاة الأمويين للعراق « أنتم تملكون شأن القراية عن شأن الدين » ، أما الحجاج - وهو واحد من الولاة الأمويين الذين أتوا بعد ذلك - فقد تعامل بشكل أكثر حزما مع وجهاء وأعيان القبائل وأتباعهم .

ورغم أن القوة المسلحة كانت بين أيديهم جديدة ، الا أن الادارة المالية ظلت كما كانت فى أيدي كتبة من نفس المجموعات التى خدمت الحكام

السابقين ، يستخدمون اللغة اليونانية فى الغرب والایرانية فى الشرق •
ومنذ التسعينات من القرن السابع تغيرت لغة الادارة الى العربية ولكن
ذلك لم يتمخض عن تغير كبير فى الأشخاص أو طرق العمل ، واستمر
أفراد العائلات الوظيفية بخبرتهم فى العمل وأصبح كثير منهم مسلمين
وخاصة فى سوريا •

وقد فرض الحكام الجدد أنفسهم بقوة ليس فى المدن فقط ولكن فى
الريف السورى فى الأراضى التى كانت تابعة للحكم الرومانى أو الأراضى
التى هجرها أصحابها ، خاصة فى المناطق الداخلية المواجهة للسهوب
العربية الشمالية ، وقد اعتنوا بالمحافظة على نظم الرى والزراعة التى
وجدوها هناك ، والبيوت والقصور التى بنوها لتكون مراكز للسيطرة
الاقتصادية والضیافة أيضا ، جهزت وزينت على طرز الحكام الذين خلفوهم
بما فيه صالات العرض والاحتفالات والحمامات • وأراض من الموزاييك
وأبواب وأسقف منقوشة •

فى هذا ، وفى غيره كان الأمويون يشبهون ملوك البربر من غرب
الامبراطورية الرومانية ، اذ لم يستقروا بسهولة فى عالم معاد ، واستمرت
حجبتهم مرهونة بقوتهم ، ولكن كان هناك فارق ، فالحكام فى الغرب جلبوا
معهم القليل مما يمكنه الصمود حبال قوى الحضارة اللاتينية المسيحية
التى انجذبوا اليها ، أما الجماعة العربية الحاكمة فقد جاءت بشىء تمسكت
به فى خضم الثقافة الرفيعة المشرق الأدنى (*) ، هى الايمان بوحي نزل من
السماء على النبی محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، وقد وفرت لهم
تلك الثقافة تركيبة خاصة يعبرون بها عن أنفسهم •

وكان أول تأكيد واضح لخلود ودوام وتميز هذا النظام الجديد فى
التسعينيات من القرن السابع فى عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥م)
حيث تواكب دخول العربية كلغة للادارة مع ظهور نمط جديد من العملة ،
وكانت لذلك دلالة ملحوظة ، فالعملة رمز القوة والهوية ، وبدلا من
العملة التى تحمل صورا للأشخاص والتى أخذت عن الساسانيين أو
التى سكها الأمويون فى دمشق ، سكبت عملات جديدة تحمل فقط كلمات
تعبر عن وحدانية الله وصحة الدين الذى أتى به الرسول صلى الله
عليه وسلم •

وقد كان بناء الصروح المعمارية العظيمة فى حد ذاته شاهدا شعبيا
بأن الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية هو الأخير والأكثر
كمالا وأن مملكته ستبقى الى الأبد •

(*) وتطور بفعل تلك الثقافة ليصبح لغة يمكن من خلالها أن تعبر عن نفسها ..

كان أول أماكن العبادة الجماعية هو المسجد ، (اللفظ الانجليزي مشتق من اللفظ الأسباني) يستخدم لعقد اجتماع المجتمع بأسره لتدارس الشئون العامة ، ولم تكن هناك علامات تميزها عن أنواع المباني الأخرى ، فبعضها كان مباني قديمة استخدمت لهذا الغرض ، والبعض الآخر كان مباني جديدة في قلب المستوطنات الإسلامية ، وقد احتفلت الأماكن المقدسة لليهود والمسيحيين بتأثيرها على خيال الحكام الجدد ، فقد زار عمر بن الخطاب القدس بعد الاستيلاء عليها ، ونودي بمعاوية خليفة هناك . وفي التسعينات من القرن السابع أقيم أول بناء كبير أكد بوضوح أن الإسلام متميز وبارق ، وكان ذلك البناء هو « قبة الصخرة » ، والذي بنى على موقع لمعبد يهودي في القدس ، وتحول إلى حرم إسلامي كان مقدودا أن يكون مزارا للحجاج حول الصخرة ، وطبقا لعقيدة اليهود الربانيين ، فإن الله طلب من إبراهيم عليه السلام التضحية باسمه (*) ، وبناء الصخرة في هذا المكان أصبح يفسر بشكل مقنع كفعل رمزي ، يوطد للإسلام موضعه من سلالة إبراهيم منفصلا عن اليهودية والمسيحية ، كانت النقوش الداخلية أقدم نجس حتى لمقتطفات من القرآن ، نعبر عن عظمة الله « القوى الحكيم » رتلن « أن الله وملائكته يصلون على النبي » ، وتدعو المسيحيين للاعتراف بالمسيح كرسول الله وكلمته وروحه وليس ابنه (١) .

بعدها بقليل بدأ بناء سلسلة من المساجد العظيمة صممت لمواجهة احتياجات شعائر الصلاة ، في دمشق وحلب والمدينة والقدس وبعدها في القيروان ، أول مركز عربي في المغرب ، وفي قرطبة العاصمة العربية لاسبانيا ، وكلها تتبع نفس التصميم الأساسي من الساحة الواسعة المفتوحة التي تؤدي إلى فراغ مغطى مصمم بحيث تقف صفوف طويلة من المصلين الذين يؤمهم امام باتجاه مكة ، ومحراب كعلامة مميزة للحائط الذي يواجههم ، وبجواره المنبر تلقى من فوقه خطبة الجمعة ، وملحق بالمبنى أو أعلاه المنصة ومنها يؤذن المؤذن داعيا المؤمنين للصلاة في المواقيت المحددة .

ولم تكن المباني مجرد علامات على القوة فقط ، وإنما كانت تعبيرا عن نمو مجتمع جديد متميز . وتطور الدين من مجرد ايمان مجموعة حاكمة إلى انتشار تدريجي وقبول عام بالروحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه

(*) يعتقد غالب المسلمين أن التضحية كانت بإسماعيل عليه السلام عند موقع

بئر زمزم بمكة المكرمة - (المراجع) .

وسلم ، وقد لانعرف الكثير عن طبيعة هذا الانتشار الا أننا يمكن أن نتأمل المسار الذي اتخذته ، فالعرب الذين يعيشون في ريف العراق وسوريا كان قبولهم نابعا من التضامن مع الحكام ، (ما عدا فرعا واحدا من الساسنة) ، ثم ان المستوليين الساسانيين لدى العادة الجدد ، كان ولاؤهم نابعا من المصلحة الشخصية أو الانجذاب الطبيعي للنفوذ ، وكذلك خلال الفتوحات الاسلامية أو جنود الساسانيين المنضمين للعرب ، كذلك المهاجرون للمدن الجديدة يمكن أن يتحولوا للإسلام تفاديا لضريبة الرأس المفروضة على غير المسلمين ، وقد كان من الأيسر على الزرادشت (الديانة الإيرانية القديمة) أن يصبحوا مسلمين ، من أولئك المسيحيين، حيث ضعفت مؤسساتهم الدينية بسقوط الحكم الساساني ، ثم ان بعض المسيحيين الذين تأثروا بالجدل والخلاف حول الطبيعة الالهية والوحي كان يمكن أن تجتذبهم بساطة رد الفعل الاسلامي المبكر لمثل هذه التساؤلات ضمن ما كان يشكل عام من نفس العالم الفكري . وكان التحول للإسلام عملية بسيطة ، في ظل غياب مؤسسة دينية اسلامية ، مع عدم وجود طقوس للتحول الى الدين الجديد ، فلا يتطلب الأمر سوى ترديد بعض الكلمات البسيطة مما جعلها عملية سهلة ، وبرغم سهولته الا أنه كان يعنى التزاما بقبول العربية التي نزل بها الوحي ، اضافة الى أن الاحتياج للتعامل مع الحكام العرب والجنود وأصحاب الأراضي تضمن القبول بها كلغة تخاطب يومية . وانتشرت اللغة العربية أينما حل الإسلام ولكن الانتشار كان ما يزال في بداياته خارج الجزيرة العربية فقد حكمت الدولة الأموية بلادا معظم سكانها من غير المسلمين ومن غير المتحدثين بالعربية .

ولم يكن اتساع المجتمعات الاسلامية ولا زيادة قوتها ، يعملان لصالح بنى أمية ، فسوريا التي تمثل المنطقة المركزية لحكم الأمويين كانت حلقة ضعيفة في سلسلة البلدان التي شملتتها الامبراطورية (الدولة الأموية) ، وهي بذلك - أي سوريا - تختلف عن ايران والعراق وبلدان أفريقيا ذات المدن الجديدة ، فقد كانت مدن سوريا قد ظهرت قبل الإسلام، وانتعشت الحياة فيها مستقلة عن الحكام ، وكانت تجارتها قد انقطعت بانفصالها عن الأناضول التي ظلت في حوزة البيزنطيين ، بسبب الحروب الحدودية بين الدولتين الأموية والبيزنطية . (بين العرب والبيزنطيين) .

وقد تركزت القوة الرئيسية للمجتمع الاسلامي الى الشرق من سوريا . وكانت مدن العراق متنامية في الحجم بوصول المهاجرين من ايران ومن شبه الجزيرة العربية ، وكانوا يغترفون من ثروة الأراضي القابلة للرى

فى جنوب العراق ، حيث فرض بعض العرب أنفسهم كأصحاب للأراضى ، وكانت المدن الجديدة مملوءة بالعرب أكثر من تلك التى فى سوريا وأصبحت حياتهم أكثر ثراء بانضمام أعضاء من الطبقة الحاكمة الايرانية السابقة للعمل كمستولين أو جبة للضرائب .

وكان الوضع مشابها فى خراسان فى أقصى الشمال من الامبراطورية التى كانت واقعة على حدود التوسع الاسلامى فى آسيا الوسطى ، وكانت بها حامية كبيرة ، كما أن أراضيتها الصالحة للزراعة والمراعى اجتذبت المستوطنين العرب ، ومنذ وقت مبكر كان هناك كثير من العرب يعيشون جنبا الى جنب مع الايرانيين الذين احتفظ كبار ملاكهم وحكامهم بمواقعهم ، وبدأ تدريجيا سوح من النخامل بينهم بعد توقف نشاطهم العسكرى واستقرارهم فى الريف وفى مدن نيسابور وبلخ ومرو . ودخل العرب فى المجتمع الايرانى واحتل الايرانيون موقع المجتمعات الحاكمة .

وقد أدى تنافى المجتمعات الاسلامية فى المدن والولايات الشرقية الى توترات نتجت عن الطموحات الشخصية والمظالم المحلية والصراعات الحزبية والتى تجلت فى أكثر من شكل من الصراعات العرقية والقبلية والدينية ، ونظرا لبعده هذه المناطق عن قلب العالم الاسلامى ، كان من الصعب ادراك كيفية حدوث الانقسامات أو معرفة مسارها .

كان هناك أولا وقبل كل شئ نوع من الكراهية بين الايرانيين الذين اعتنقوا الاسلام حياء الامتيازات المالية وغيرها الممنوحة لأصحاب الأصول العربية ، ويزيد هذا السخط بضعف ذكريات الانتصارات الأولى، وربط بعض الداخلين للاسلام أنفسهم بزعماء العرب كعملاء ، وهم (الموالى) ولكن هذا لم يزل الفاصل بينهم وبين العرب (*) .

كما ظهرت الانقسامات أيضا على شكل خلافات ومعارضات ونزاعات قبلية . فقد جلبت الجيوش الآتية من الجزيرة العربية معها النعرات القبلية التى تزايدت وقويت مع الظروف الجديدة ، وتجمعت فى المدن مواقع المهاجرين من الجماعات التى تدعى وحدة السلف بشكل أكثر قربا مما كانت عليه فى السهوب العربية ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يدعون

(*) الموالى مصطلح أطلق على غير العرب (من فرس وغيرهم) ، ولم يكن قصرا على فئة اظهرت ولاءها أو لم تظهر ، فالفرس الذين أسلموا يطلق عليهم اسم الموالى ، وقد تكون للكلمة دلالة لغوية ، لكن المعنى الاصطلاحي هو الذى غلب فى النهاية - (المراجع)

نبيل المحتد والنسب أكثر أنصارا ، وقد مكن الميل السياسى الموحد ، هؤلاء الزعماء والقبائل من الارتباط ببعضهم فى مساحات كبيرة من الأراضى مما أوجد فى بعض الأحيان مصالح مشتركة ، واستغلت خلال الصراع للسيطرة على الحكومه المركزية ، الأسماء القبليه والولاءات التى كانت تتبعها ، فقد ارتبط أحد فروع الأمويين بالمصاهرة « ببني كلب » الذين كانوا قد استقروا فى سوريا قبل فتحها ، وكانت مجموعة أخرى من القبائل تؤيد أحد المطالبين بالخلافه من سير الأمويين بسد وفاة ابن معاوية ، فقد كان يحدث فى بعض الأحيان أن تجسد المصالح العامة فكرة الأصل المشترك الذى ننتمى اليه كافة القبائل من وسط شبه الجزيرة العربية أو جنوبها . (ومازالت أسماء قيس واليمن باقية فى بعض أجزاء سوريا حتى القرن الحالى رمزا لتلك الصراعات المحلية السحيقة) .

وقد كانت النزاعات حول الخلافة وطبيعة السلطة فى المجتمع الاسلامى أكثر دواما ، فقد نازعت مجموعتان ادعاءات معاوية وعائلته رغم أن كلا منهما لم تكن محسدة أو واضحة المعالم لدرجة أن من الأفضل أن نصفها بأنها ميول ، كان أولهما المجموعات المختلفه المسماة بالخوارج ، وكانت بدايتها هى أولئك الذين انسحبوا من جانب « على » عندما وافق على التحكيم فى معركة صفين ، وقد سحقوا نتيجة ذلك ، ولكن بعض الحركات المتأخرة استخدمت نفس الاسم خاصة فى المناطق الواقعة تحت حكم البصرة وقد عارضوا زعامة شيوخ القبائل بأنه لا فضل فى الاسلام الا بالتقوى ، فالمسلم التقى هو الذى يمكن أن يحكم كامام أما اذا انحرف فلا طاعة له ، وسواء أكان « عثمان » الذى جعل الأولوية لمطالب العائلة أم « على » الذى وافق على التسوية فى قضية مبدأ فكلاهما مخطيء ، ولكنهم أم يتوصلوا من ذلك جميعا لنفس الاستنتاج ، فرضخ البعض للحكم الأموى وثار البعض عليه واعتقد البعض أن على المؤمنين أن يحاولوا تأسيس مجتمع فاضل بهجرة جديدة الى مكان بعيد .

وكانت الجماعة الأخرى هى التى آمنت بأحقية محمد صلى الله عليه وسلم فى الحكم ، وهى فكرة اتخذت أشكالا عدة ، وكان أكثرها أهمية على المدى الطويل ، تلك التى اعتبرت « عليا » ونسبته زعماء شرعيين للمجتمع « أئمة » ، وحول هذه الفكرة تجمع آخرون ، جاء بعضهم من ثقافات دينية من البلاد التى دخلها الفتح الاسلامى ، وكان المعتقد أن عليا وخلفاءه قد انتقلت اليهم ، من خلال محمد صلى الله عليه وسلم ، نفحة روحية وخاصة المعرفة بالمعاني الباطنة للقرآن بصفتهم أكثر من بشر . وأن أحدهم سوف يعود ليحقق

سيادة العدل ، وقد ظهرت التوقعات بمجيء « المهدي » مبكرا في تاريخ الاسلام ، ففي عام ٦٨٠ انتقل « الحسين » الابن الثاني لعلی الى العراق مع مجموعة صغيرة من عشيرته واتبعه أملا في تأمين دعم من الكوفة وما حولها ، لكنه قتل في معركة كربلاء بالعراق ، وأعطى موته قوة لذكریات الشهادة بين أتباعه (شيعة علي أو الشيعة) ، وبتد بضع سنوات كان هناك عصيان وتمرد لصالح « محمد بن الحنفية » وهو أحد أبناء علي من زوجة أخرى غير فاطمة .

وخلال العقود الأولى من القرن الثامن قام الحكام الأمويون بسلسلة من المحاولات للتعامل مع هذه الحركات المعارضة التي عبرت عن نفسها بأشكال مختلفة ، ومواجهة الصعوبات اللازمة لحكم مثل هذه الامبراطورية الهائلة غير المتجانسة ، واستطاعوا تقوية وتدعيم الأسس المالية العسكرية لحكمهم ، وتعين عليهم مواجهة عدة حركات تمرد كبيرة ، وفي الأربعينيات من القرن الثامن انهار حكمهم فجأة في مواجهة حرب أهلية جديدة وتحالف من الحركات ذات الأهداف المختلفة ، وان وحدها العداء المشترك لهم ، كانت هذه الحركات أكثر قوة في شرق الامبراطورية منها في غربها ، وخاصة في خراسان بين بعض الجماعات العربية التي كانت على وشك الذوبان في المجتمع الإيراني وكذلك بين « الموالي » من الإيرانيين ، كما ظهر في مناطق أخرى تعاطف وسيل وجداني شيعي (٢) واسع الانتشار ولكن بلا تنظيم .

وقد ظهرت قيادة أكثر فعالية في فرع آخر من فروع عائلة النبي صلى الله عليه وسلم هي ذرية نسل عمه « العباس » الذين ادعوا أن ابن محمد بن الحنفية قد أولاهم حقه في الخلافة ، ومن موقعهم على حافة الصحراء السورية استطاعوا خلق تنظيم مركزه في الكوفة وأرسلوا مبعوثا لهم مجهول الأصل الى خراسان وقد يكون إيراني الأصل هو « أبو مسلم الخراساني » الذي استطاع تشكيل جيش وتحالف من العناصر

(*) ليس كل من أحب آل البيت شيعة ، والتشيع - بمعناه الاصطلاحي - لم يعد مجرد حب لآل البيت ، وإنما أصبح المصطلح ينطوي على نظام خاص في العبادة (لم تعقد صلاة الجمعة في مراحل كثيرة عند الشيعة لغيبة الإمام) ، وتتم الصلاة بدون تسليم (أي قول السلام عليكم ورحمة الله ذات اليمين وذات الشمال) بالإضافة الى تفاصيل أخرى ، أما الشيعة الغلاة فقد خلطوا بين التوحيد الخالص الذي هو السمة الرئيسية للإسلام وبين معتقدات من ديانات أخرى ، لكن المسار العام أصبح الآن هو التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة - (المراجع) :

المنشقة ومن العرب وغيرهم للتمرد والعصيان تحت الراية السوداء التي أصبحت رمزا لهذه الحركة ، وباسم أحد أفراد عائلة النبي (ص) ، ولم يذكر اسما محددا ، وبذلك استطاع تعزيز الدعم لهذه الحركة . واتجه هذا الجيش غربا واستطاع هزيمة الأمويين في عدة معارك بين (٧٤٩ - ٧٥٠ م) وطارده آخر الحلفاء الأمويين مروان الثاني حتى مصر حيث قتل ، وفي نفس الوقت نودي بالقائد غير المعروف « أبو العباس » خليفة في الكوفة ولم يكن من نسل علي وإنما من نسل العباس .

وقد وصف المؤرخ الطبري (٨٣٩ - ٩٢٣) هذا الاعلان عندما اعلى أخو أبو العباس داود درجات المنبر في الكوفة وخاطب المؤمنين قائلا :

« الحمد لله شكرا شكرا شكرا ، الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس ، الآن انقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها ، وأشرفت أرضها وسسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبرزه ، وأخذ القوس ياربها ، وعاد السهم الى منزعه ، ورجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم . . وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون واليه تتشوقون ، فأظهر منكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام ، . . ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، وأسار بيده الى أبي العباس » (٢) .

الخلافة في بغداد

خلقت عائلة عائلة أخرى في الحكم واستبدلت سوريا كمركز لخلافة المسلمين لتحل محلها بغداد ، وكان نفوذ «أبو العباس» (٧٤٩ - ٧٥٤ م) وخلفائه الذين عرفوا بالعباسيين محدودا في دول شرق المتوسط وفي الحجاز التي كانت امتدادا لحكمهم بخلاف نفوذهم في المناطق الساسانية سابقا في جنوب العراق وواحات وهضبة إيران وخراسان والأراضي الممتدة وراءها حتى آسيا الوسطى ، وكان من الصعوبة على الخليفة أن يحكم المغرب ولكن المغرب كان أقل أهمية .

ولم يختلف حكم العباسيين عن حكم الأمويين الذين سبقوهم في نواح كثيرة ، ومنذ البداية وجدوا أنفسهم متورطين في مشكلة لا فكاك منها حول

الأسرة الحاكمة الجديدة وكيف يمكن تحويل القوة المحدودة الناشئة من تحالف المصالح المنفصلة الى شيء أكثر استقرارا ودواما ، لقد وصلوا الى السلطة على يد نركيبة من القوى اتحدت فقط في معارضتها للأمويين ، وكان عليهم تجديد علاقات القوى ضمن هذا التحالف . وكان على الخليفة التخلص من أولئك الذين أتوا به الى السلطة أولا وقبل كل شيء ، فقتل أبا مسلم وآخرين كما كانت هناك صراعات داخل العائلة نفسها ، وفي البداية أختير بعض أفرادها كولاة ولكن بعضهم تعاضمت قوته أكثر مما ينبغي ، وفي غضون جيل واحد ظهرت صفوة حاكمة من كبار المسؤولين ينحدر بعضهم من عائلات إيرانية ذات نراث من الخدمة في الدولة ، ومن الذين أسلموا حديثا وآخرون من أفراد بيت الحاكم كان بعضهم من العبيد المعتقدين .

وقد تجلى هذا التركيز للقوة في أيدي الحاكم في عهد خلفاء « أبو العباس » خاصة « المنصور » (٧٥٤ - ٧٧٥م) وهارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩م) في انشاء عاصمة جديدة (بغداد) ويسجل الطبري واقعة حول زيارة المنصور لموقع العمل لانشاء مدينة المستقبل :

« ... فخبرت أنه أتى ناحية الجسر في موضع قصر السلام ثم صلي العصر ، وكان في صيف ، وكان في موضع القصر بيعة قس ، ثم بات ليله حتى أصبح ، فبات أطيب مبيت في الأرض ، وأدركه وأقام يومه ، فلم ير الا ما يجب ، فقال هذا موضع أبني فيه ، فانه تأتيه الماء من الفرات ، ودجلة ، وجماعة من الأنهار ، ولا يحمل الجند والعامة الا مثله ، فخطها وقدر بناءها ، ووضع أول لبنة بيده وقال بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله » (٣) .

كانت بغداد واقعة في نقطة يتقارب فيها دجلة والفرات ، حيث وفر نظام القنوات المائية ريفا غنيا يكفى لانتاج الطعام لمدينة كبيرة وكذا عائدات وايرادات للحكومة ، وكانت واقعة على ممرات استراتيجية مؤدية الى ايران وما وراءها والى الجزيرة في شمال العراق حيث كانت تزرع الحنطة ، والى سوريا ومصر اللتين ظلتا على ولائهما للأمويين ، ولما كانت مدينة جديدة فقد نحرر الحكام من الضغوط التي يمارسها السكان العرب المسلمون على الكوفة والبصرة ، ووفقا لثقاليده طويلة كان حكام الشرق الأدنى بمقتضاها متباعدين عن المحكومين ، فقد كان مخططا للمدينة أن

نعبر عن أبهة وسمو الحكام عن محكوميتهم ، وفى المركز على الضفة الغربية
للسجلة كانت تقع «المدينة المستديرة» المكونة من القصور والشكنات والمكاتب
والأسواق ونقع خارجها المناطق السكنية .

يورد المؤرخ «الخطيب البغدادي» (١٠٠٢ - ١٠٧١ م) وصفا لعظمة
القصر واحتفالانه فى وصفه لاستقبال الخليفة المقتدر عام ٩١٧ م لسفير
بيزنطة . عندما أخذ الى حضرة الخليفة بناء على أوامره طاف به رجاله
القصر القاعات والأفنية والساحات والحدائق واستعرض الخصيان والموظفين
ورجال القصر وأمناء خزائن المال والأفيال المزركشة بالمقصب من حرير
الطواويس وفى غرفة الشجرة وجدوا :

شجرة فى وسط بركة كبيرة . مدورة فيها ماء صاف ، وللسحرة
ثمانى عشرة عينا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة . عليها الطيور والعصافير
من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها
مذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، تتحرك كما
يحرك الريح أوراق الشجر ، وكل هذه الطيور يصفر ويهدر .

وأخيرا وصلوا الى حضرة الخليفة :

ووصلوا الى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة .
بعد أن لبس بالثياب الديقية المطرزة بالذهب على سرير ابنوس ، . . .
ومن يمينه السرير تسعة أخرى من أفخر الجواهر ، . . . وبين يديه
خمسة من ولده ، ثلاثة ميمنة واثنتان ميسرة (٤) . وعندما عادوا الى
حضرة الخليفة من هذه القصور المعزولة كان الخليفة يمارس سلطاته وفقا
للأنماط الموروثة من الحكام السابقين ، والتى قلدها الأسر التالية . قصه
فخيم واحتفالات وأبهة تميز حكمه ، ومسئولو البلاط والحراس يحيطون به ،
ويقف الى جواره الجلاد لتنفيذ العدالة الناجزة السريعة . وفى فترات الحكم
الاولى ظهر منصب جديد أصبح مهما فيما بعد هو منصب الوزير ، كان
مستشار الخليفة بدرجات متفاوتة من السلطة والنفوذ وبعدها أصبح على
رأس الادارة ووسيطا بينها وبين الحاكم .

كانت الادارة مقسمة الى عدة وظائف أو دواوين وقدر لها أن تتكرر
فى الأسر الحاكمة التالية فكان هناك ديوان لشئون الجيش وديوان لانشاء
المكاتب والوثائق بالشكل اللائق والحفاظ عليها وديوان لبيت المال

للاشراف على الخزانة وحفظ سجلات المصروفات والايرادات ، ووال على رأس هيكل من المسئولين المنتشرين في رفة واسعة لضمان ألا يحوزوا سلطة أكثر من اللازم أو يسيئوا استخدام السلطة المخولة لهم ، ونظام من الاستخبارات (*) وكلها جعلت الخليفة على علم بما يحدث في الولايات وظل هو وولاته يعقدون الاجتماعات العامة لسماع الشكاوى والمظالم وعلاجها .

وقد كان الحكم المطلق من خلال البيروقراطية بحاجة لايرادات وجيش ، وقد ظهر في العصر العباسي النظام الدستوري (**) للضرائب والمكوس من خلال ما عرف عن العصور الاسلامية المبكرة ، وكان مرتبطا بالمعايير الاسلامية بقدر الامكان ، وانقسمت الضرائب الأساسية الى نوعين : أحدهما يستحق على الأراضى ومحاصيلها وهو الخراج ، وكان هناك نمايز بين معدلات وأنواع الضرائب التى يدفعها المسلم وغير المسلم من ملاك الأراضى وقد أصبح ذلك واقعيا أقل أهمية الا أنه ظل فى كتب القانون ، وكان النوع الثانى هو الجزية ، وهى ضرائب على الرأس تفرض على غير المسلم وثروته وتندرج تهرييا حسب القدرة المادية ، اضافة الى ذلك كانت هناك عدة مكوس على السلع المستوردة والمصدرة وكذلك على الحرف الحضرية وضرائب موسمية تفرض على الأموال فى الحضر عند الحاجة وقد أدانها أولئك الذين التزموا حرقيا بالقانون الاسلامى .

وقد انقسم جنود خراسان الذين أعانوا العباس على الوصول الى السلطة الى مجموعات تحت امرة قادة منفصلين ، ولم يكن سهلا على الخليفة

(*) توضح كتب الاخبار ومنها « نشوار الحاضرة واخبار المذاكرة » للمقاضى القنوخى مدى خطورة أجهزة الاستخبارات العباسية وكيف أن الخبر كان ينتقل سريعا الى الخليفة ، وأحيانا فى غضون دقائق لا تزيد على الساعة اذا كان الخبر متعلقا بواقعة فى داخل بغداد نفسها ، وأظن أن نظم الاستخبارات والمباحث ومسئولى العذاب (صاحب العذاب) من المجالات التى لم يتعرض لها المؤرخون بشكل كاف - (المراجع) .

(**) النص Canonical System of والأولى ، والجملة تعنى مجموعة القوانين المرتبطة بمؤسسة دينية ، ومصطلح Canon law تعنى القانون الكنسى ، ومن ثم فالمقابل العربى المفهوم هو النظام الشرعى (المستند من أحكام الدين) والمتعلق بالمكوس والضرائب . الخ ، أما Law أى القانون فترجمتها فى هذا السياق هى الشرعية ، لكننا أقرنا الأستاذ المترجم على ترجمته لأن المؤلف يريد أن يوضح لقارئه الأولى نظما اسلامية ، ولا بأس من أن نأخذ بتبسيطه هذا كنوع من التشبيه - (المراجع) .

الحفاظ على ولائهم ، ولم يصبحوا القوة العسكرية الفعالة نتيجة اندماجهم في المجتمع السكاني في بغداد ، وبعد وفاة هارون الرشيد فامت حرب أهلية بين ولديه الأمين والمأمون ، ونودي بالأمين خليفة وحارب جيش بغداد في صفه ولكنه هزم ، وفي بداية القرن التاسع أدى الاحتياج الى جيش فعال مخلص الى شراء العبيد او استخدام الجند من القبائل الرعوية الناطقة بالتركية عبر حدود آسيا الوسطى ، وكان هؤلاء الأتراك والجماعات المشابهة على حدود الحكومة المستقرة غرباء بلا روابط بالمجتمع الذي أعانوا على حكمه ، وهو مجتمع قام على علاقة تبعية قبلية وشخصية بالخليفة ، وكان دخول الجنود الأتراك في الخدمة العباسية بداية عملية أعطت شكلا مميزا للحياة السياسية في العالم الاسلامي .

فكان أن انتقل الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢م) بعاصمته من بغداد الى « سامراء » التي تقع الى الشمال على نهر دجلة ، وكان ذلك راجعا جريا الى رغبته في ابعاد الجند عن سكان بغداد الذين أصبحوا معادين لحكم الخليفة ، وظل مقر الحكم هناك لنصف قرن ، ولكن برغم أنه تخلص من الضغوط الشعبية الا أنه سقط تحت تأثير قادة الجند الأتراك الذين سيطروا على حكومة الخليفة ، وكانت تلك الفترة التي استقل فيها حكام الولايات النائية من الامبراطورية عمليا ، وفي العراق نفسها كانت سلطة الخليفة مهددة بفتنة دامت طويلا قام بها العبيد السود في مزارع السكر والمستنقعات الملحية جنوب العراق عرفت بثورة الزنج (٨٦٨ - ٨٨٣م) وبعد بضع سنوات وفي عام ٨٩٢م عاد الخليفة المعتضد الى بغداد .

وكلما تباعد الخليفة وتزايدت قوته ، تزايدت أهمية أن يغررس جذور قوته في وجدان أولئك المحكومين ، وقد حاول العباسيون بصورة أكثر تنظيما من الأمويين تسويغ حكمهم بشكل اسلامي ، وقد اعتمدوا منذ البداية على رموز اسلامية ، فادعى الخليفة الحكم بالسلطة الالهية المقدسة (*) باعتباره أحد أفراد عائلة النبي صلى الله عليه وسلم . كذلك

(*) الادعاء بالحكم بتفويض الهى بدأ في الواقع منذ أيام بني أمية ويتضح ذلك من خلال الحوار الشهير بين أبي ذر الغفاري (جندب بن جنادة) وجماعته من ناحية ، ومعاوية بن أبي سفيان وانصاره من ناحية أخرى ، فقد كان أبو ذر يرى أن المال هو مان المسلمين ومن ثم يجب استشارة المسلمين في انفاقه ، وكان معاوية يرى أن المال (مال الله) وهو مفوض من قبل الله في انفاقه ومن ثم فلا يحق للمسلمين في محاسبته . ورغم أن الفرق بين العبادتين (مال المسلمين) (ومال الله) يبدو شكليا الا أنه يفتوى على أبعاد فكرية مهمة خاصة في مدى سلطة الحاكم - (المراجع) .

ادعى بأنه يحكم وفقا للقرآن وفواعد السلوك القويم والتي عرفت بشكل متزايد طبقا لأقوال وعادات للنبي صلى الله عليه وسلم (السنة) ، وقد ننج عن هذا الادعاء أن لعب علماء الدين والفقهاء دورا فى الحكم ، وكانت لمصعب القاضى أهمية كبرى ، ومهامه منفصلة عن وظائف الوالى ، ولم تكن له واجبات مالية أو سياسية فكان دوره الفصل فى النزاعات واصدار الأحكام فى ضوء ما بدأ ظهوره كنظام للقانون الاسلامى أو الأعراف الاجتماعية . وكان لقاضى القضاة مقام رفيع ذو أهمية فى الهرم الادارى للدولة .

وتعين على العباسيين الأوائل لتأكيد دعواهم بشرعية حكمهم ، مواجهه فرع آخر من عائلة النبي صلى الله عليه وسلم هو سلالة على وأتباعهم من الشيعة ، ولم يكن كل الشيعة معادين للعباسيين ، فجعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥ م) الذى يعتبره الشيعة الامام السادس كان مسالما ، علم أتباعه المقاومة السلبية الهادئة التى يجب أن تسمر حتى يظهر المهدي الذى سيرسله الله ليحكم بالدين والحق . وعلى أية حال ، ففى فترة الجيلين الأولين من حكم العباسيين ظهرت عدة حركات عصيان نستخدم أسماء من أسرة الامام على مما دفع المأمون بن هارون الرشيد للقيام بمحاولتين لتدعيم حكمه واكسابه الشرعية، فقد جعل من على الرضى () أكثر أفراد عائلة النبي صلى الله عليه وسلم استحقاقا للخلافة ، فان كانت الخلافة بالاستحقاق الأخلاقى داخل العائلة ، فبشكل عام يكون نسل « عباس » على نفس التدرج من الاستحقاق كنسل « على » ، وبعدها أعطى المأمون دعمه لأفكار بعض علماء الدين العقلانيين ، وحاول جعل موافقتهم شرطا للخدمة الرسمية . وقوبلت هذه المحاولة بمعارضة من علماء الدين بقيادة أحمد بن حنبل الذين أعلنوا أن فى القرآن وسنة الرسول هديا كافيا اذا اتبعت حرفيا ، وبعد فترة من الاضطهاد والتعذيب انتهت محاولة فرض معيار واحد للايمان بقوة الحاكم ، وهكذا لم تعد بعدها وحدة الاعتقاد لاستيعاب الخلافات فى الآراء القانونية ، وكان من شأن اعتماد أهمية القرآن والسنة النبوية قاعدة ثابتة أن ظهر بالتدريج نمط من الفكر عرف بعدها بالسنة متميزا عن الشيعة .

(★) على الرضى هو على بن موسى الكاظم ، زوجه المأمون ابنته وغير من أجله الذى العباسى الذى هو السواد فجعله أخضر وهذا اللون الأخير هو شعار آل البيت وعهد المأمون له بالخلافة بعده لكن ذلك أدى الى قوضى واضطرابات ، وفى الوقت نفسه مات على الرضى بطريقة غامضة ويقال ان المأمون دس له السم . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الزركلى : الأعلام .

(المراجع) .

الفصل الثالث

المجتمع يتشكل

نهاية الوحدة السياسية

كان نطاق الحكم الفعال للخلافة العباسية محدودا حتى في أقوى عهودها ، وتركز أساسا في المدن والمناطق المنتجة حولها . وكانت هناك مناطق من الجبال والسهوب غير خاضعة له بالفعل ، وبمرور الوقت وقعت سلطة الخليفة فريسة للتناقضات مع النظام البيروقراطي المركزي للحكومة . وكان على الخليفة أن يعطي السلطات والصلاحيات لولايات للسيطرة على الأقاليم الثابتة لجباية الضرائب واستخدام جانب من إيراداتها في الانفاق على القوات المحلية ، وحاول السيطرة عليهم بنظام من الاستخبارات ولكنه لم يستطع منع بعضهم من تعزيز نفوذهم الى درجة أنهم استطاعوا أن يورثوا السلطة لذويهم ، وان ظلوا باقين - على الأقل من ناحية المبدأ - على الاخلاص للمصالح الرئيسية للخليفة ، وبهذه الطريقة تنامت العائلات الحاكمة كالصفارين في شرق ايران (٨٦٧ - ١٤٩٥ م) والسمانيين في خراسان (٨١٩ - ١٠٠٥ م) والطولونيين في مصر (٨٦٨ - ٩٠٥ م) والأغالبة في تونس (٨٠٠ - ٩٠٩ م) ، ومن تونس قهر الأغالبة صقلية التي حكمها أسر عربية حتى استعادها النورمانيون في المصنف الثاني من القرن الحادي عشر ، حينذاك قلت عوائد الإيرادات الى بغداد في وقت تدهور فيه نظام الري وانخفض الانتاج الزراعي في جنوب العراق نفسها ، وكان على الخليفة الاعتماد بشكل أكبر على جيشه من المرتزقة والمحترفين لتقوية وضعه في المحافظات الوسطى والذي كان قاداته بدورهم قد اكتسبوا المزيد من القوة والسلطة ، وفي عام ٩٤٥ استولت عائلة من القواد العسكريين البويهيين (بنى بويه) Buyids ، الذين نزحوا من حدود بحر قزوين ، على السلطة في بغداد نفسها بعد أن دانت لهم بعض المحافظات .

وقد اتخذ البويهيون Buyids لأنفسهم عدة ألقاب منها اللقب الايراني العتيق الشاهنشاه (ملك الملوك) ولكنهم لم يتخذوا لقب الخليفة وظل الحكم العباسي باقيا بعد ذلك ولثلاثة قرون ولكنها كانت مرحلة جديدة من تاريخهم ، منذ ذلك الحين أصبحت السلطة الفعلية في المناطق الوسطى من الامبراطورية في أيدي عائلات أخرى تؤيدها مجموعات مسلحة ، وان ظلت على ولائها للخليفة العباسي الذي كان ينجح أحيانا في فرض بقايا سلطاته والتي أصبحت تمارس على مناطق محدودة عن ذي قبل ، وفي بعض الأجزاء من الامبراطورية كان للحكام المحليين قرونهم الذاتية علاوة على عدم قبولهم للسلطة الشكلية للعباسيين .

وقد نشأت في مناطق معينة حركات انفصالية باسم بعض الدعوات الاسلامية ، وأوجدت هذه الحركات بعض الوحدات السياسية المنفصلة ولكنها ساعدت في نفس الوقت على انتشار الاسلام باعطائه أشكالاً لا تهدد النظام الاجتماعي .

وكانت بعض هذه الحركات باسم الخوارج أو على الأقل أحد روافدها وتسمى (الأباضية) تعتقد بأن الحكم أو الامامة يجب أن تكون لأكثر الناس استحقاقا ، وإذا ثبت عدم استحقاقه يجب أن ينتجى وكان هذا الاعتقاد مناسباً وملائماً لاحتياجات الجماعات القبلية التي تعيش في مناطق منعزلة ونحتاج لزعيم أو قاض من وقت لآخر ، ولكنهم لم يكونوا راغبين في أن تكون له سلطة منظمة دائمة ، وبهذا ظهرت امامة أباضية في عمان في جنوب شرق الجزيرة منذ منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن التاسع عندما أخضعها العباسيون ، وفي جزء من المغرب عارض بعض السكان البربر دخول الحكم الاسلامي ، وعندما أسلموا انتشرت بينهم أفكار الخوارج وكانت هناك سلالة قوية من الامامة الأباضية لفترة وهي (الرستميون) وكانت عاصمتهم في « تهمارت » في غرب الجزائر (٧٧٧ - ٩٠٩ م) واعترف بدعوتهم الأباضية في « عمان » .

كانت حركات تأييد مطالبات نسل علي بن أبي طالب بالامامة أكثر انتشارا ، لكن الجزء الأساسي من الشيعة في العراق وما حولها قبلوا بالحكم العباسي ، أو على الأقل رضخوا له ، واعترف به الأئمة وعاشوا بهدوء تحت حكم العباسيين ، رغم أنهم في بعض الأحيان كانوا محددي الإقامة داخل العاصمة ، وكان « بنو يويه » من غلاة الشيعة ، ولكنهم لم ينافذوا سيادة الخلفاء ، كما لم ينافذوا الحمدانيون - وهم من أسرة محلية في شمال سوريا - الخلفاء العباسيين ، في حق الخلافة .

ورغم ذلك كانت هناك حركات من الشيعة التي أدت الى ظهور بعض الأسر المنفصلة . والزيدون الذين كانوا على الاعتقاد بأن الامام يجب أن يكون أكثر أفراد أسرة النبي استحقاقا وعلى استعداد لمعارضة الحكام غير الشرعيين الذين لم يعترفوا بالامام محمد الباقر (توفي ٧٣١ م) والذي اعترفت به أغلبية الشيعة كالامام الخامس ولكنهم اعترفوا بأخيه (زيد) (واليه يعود أصل تسمية الطائفة الزيدية من الشيعة) أقاموا امامه في اليمن في القرن التاسع كما كانت هناك أيضا امامة زيدية في منطقة بحر قزوين .

وكان التهديد المباشر لحكم العباسيين يأتي من الحركات المرتبطة بفرع آخر من الشيعة « الاسماعيلية » ، وأصولها غير واضحة على وجه التحديد ، ولكن يبدو أنها بدأت كحركة سرية كان مركزها الاول في العراق وخوزستان في جنوب غربي ايران ، ثم في سوريا ، وقد أيدت هذه الحركة دعوى اسماعيل ، الابن الأكبر للامام جعفر الصادق بالامامة ويعتبره أغلبية من الشيعة الامام السادس ، وتوفي اسماعيل في ٧٦٠م قبل وفاة أبيه بخمس سنوات ، واعترف معظم الشيعة في النهاية بأخيه موسى الكاظم (توفي ٧٩٩م) اماما . وقد اعتبر الاسماعيليون أن اختيار اسماعيل كخليفة لأبيه قطعي وغير قابل للنقض أو الطعن، وأن ابنه محمدا أصبح اماما من بعده ، وهم يعتقدون أيضا أن محمدا سيعود ان عاجلا أو آجلا كمهدي منتظر ، لكشف المعاني الداخلية الخبيثة للوحي القرآني وليحكم العالم بالعدل .

وقد نظمت الحركة أنشطة تبشيرية (*) على نطاق واسع وأسست إحدى الجماعات من أتباعها نوعا من الجمهورية في شرق الجزيرة العربية (القرامطة) وجماعة أخرى رسخت نفسها في المغرب وجيشت جندا من البربر واحتلت القيروان . وفي عام ٩١٠م وصل الى تونس (عبيد الله) مدعيا انحداره من نسل علي وفاطمة ، وأعلن نفسه خليفة ، وخلال نصف القرن التالي أسست عائلته أسرة حاكمة مستقرة عرفت بالفاطميين نسبة الى فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأسسباب دينية وسياسية اتجهوا شرقا الى أراضي العباسيين وفي عام ٩٦٩ احتلوا مصر.

(*) المصطلح المستخدم في كتب التاريخ الاسلامي هو « الدعوة الاسماعيلية » ، لكن المؤلف بوضوح المعنى لفرائد الغريبين ، ولأن المعنى لا يخلف ، فقد أوردنا الأستاذ المترجم على ترجمته - (المراجع) .

ورمىها امتد بحكمهم الى غرب الجزيرة العربية وسوريا ، ولكنهم سرعان
ما فقدوا تونس .

وقد استخدم الفاطميون اللفظين « الإمام » و « الخليفة » ، ولكونهم
أئمة فقد طالبوا بالسلطة الروحية والزمنية على المسلمين وأصبحت دولتهم
مركزا لانطلاق البعثات التبشيرية ، وقد استمرت المجتمعات التي أسسها
أولئك الذين كانوا على علاقة بها ، لفترة طويلة بعد انتهاء الدولة الفاطمية ،
وظلت قائمة باليمن وسوريا وإيران وبقدها في غرب الهند .

ولم يكن الفاطميون أئمة فقط ، ولكن حكمها لدولة عظيمة مركزها
وادي النيل ، وهم الذين بنوا القاهرة ، وهي مدينة كبيرة مهيبة بنيت الى
شمال القسطنطينية وكانت رمزا لقوتهم واستقلاليتهم ، وسادت حكومتهم على
الخطوط التي وضعتها الخلافة في بغداد ، وكانت السلطة مركزة في أيدي
الخليفة ، وتحتل في روعة وأبهة الرسميات والتشريفات المثقنة ، وكان من
عادة الخلفاء الفاطميين أن يظهروا للشعب في القاهرة في مواكب احتفالية
مهيبة ، حيث يدخل كبار رجال الدولة الى ساحة القصر ، ثم يظهر الخليفة من
خلف الستائر حاملا في يده الصولجان ، وقد يمتطي جواده متجها الى بوابة
القصر حيث يعزف النفر والأبواق تتقدمه وتتبعه الحاشية والجنود ، فيمضي
خلال الطرقات التي زانها التجار بالأنسجة الحريرية الموشاة . وكانت
هذه المواكب معبرة عن مظاهر الحكم الفاطمي ، بعضها كان دينيا وبعضها
يرمز الى اندماج الحاكم في حياة المدينة والنهر .

وقد كانت العوائد من الأراضي الخاضعة في وادي ودلتا النيل
والحرف في المدينة ، والتجارة من خوضن المتوسط وخوض البحر الأحمر ،
أساس سلطة الفاطميين ، وكان ذلك كافيا للانفاق على الجيش المشكل من
خارج مصر من البربر والزنوج والعبيد السودانيين والأتراك ، ولم يبدل
الخليفة محاولات منظمة لفرض المذهب أو العقيدة الاستيعابية على المصريين
المسلمين ، فظل أغلبهم من السنة يعيشون مع أعداد كبيرة من المسيحيين
واليهود في تكافل وسلام .

وكانت مطالبته الفاطميين بالخلافة تشتت كل تهديدات متناشرا
للعباسيين ، وكان هناك تهديد آخر للفاطميين جاء من أقصى غرب العالم
الاسلامي ، من تلك المناطق التي فتحها العرب ، أي مراكش والجزء الأكبر
من أسبانيا ، فقد كانت المسيطرة عليها من شرق المتوسط صلبة ، كما

كانت مستحيلة من جهة العراق وسرعان ما أصبح للجنود والمستولين العرب مصالحهم الخاصة ، وكان بإمكانهم التعبير عنها بسهولة باحياء ذكريات البواعث التي حملتهم بعيدا عن الجزيرة العربية ، وقبيل نهاية القرن الثامن انتقل «ادريس» أحد أحفاد «علي» الى مراكش حيث اكتسب تأييدا وأسس أسرة حاكمة أصبحت مهمة في تاريخ مراكش ، فالادريسيون هم أول من أوجدوا «الطربوش» وبدءوا به تقليدا ، ظل حتى اليوم ، وهم من الأسر الحاكمة المستقلة التي حكمت مراكش وأكسبت حكمها الشرعية بادعاء انحدرهم من نسل النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان المسار المنفصل الذي اتخذته أسبانيا أو الأندلس باللغة العربية هو الأكثر أهمية لتاريخ العالم الاسلامي ككل ، فقد وصل العرب الى أسبانيا للمرة الأولى في عام ٧١٠ م . وسرعان ما أسسوا اقليما تابعسا للخلافة امتد حتى شمال شبه جزيرة (إيبيريا) ولحقت به العرب والبربر الذين كانوا أول المستوطنين ، وجاءت موجة ثانية من سوريا لعبت دورا مهما في أعقاب الثورة العباسية ، اذ استطاع أحد أفراد العائلة الأموية اللجوء الى أسبانيا حيث جمع أنصارا وبدأ في انشاء أسرة أموية جديدة . حكمت لثلاثة قرون ، رغم أن الحاكم لم يكتسب لقب الخلافة الا في منتصف القرن العاشر .

وقد انغمس الأمويون في مملكتهم الجديدة في نفس عملية التغيير التي حدثت في الشرق حيث حكم المسلمون أغلبية من غير المسلمين ، ثم تغير تدريجي الى مجتمع قبل أغلبية سكانه دين الحكم ولغتهم وتحولت الحكومة التي حكمت في البداية بشكل لا مركزي وبالمناورات السياسية ، الى حكومة مركزية قوية تحكم بالسيطرة البيروقراطية .

ومن جديد ظهرت عاصمة جديدة هي قرطبة . وتقع على نهر الوادي الكبير ، وقد وفر النهر طريقا مائيا لجلب بضائع الأغذية والصناعة ، وفي السهول من حوله كانت تزرع الحنطة والمنتجات الأخرى التي تحتاجها المدينة في الأراضي التي يرونها النهر ، وكانت قرطبة أيضا ملتقى للطرق والأسواق لتبادل السلع بين المناطق ، ومرة أخرى يتزايد استبداد الأسرة الحاكمة وتنسحب من حياة المدينة وينتقل الحاكم من قرطبة الى مدينة ملكية هي « مدينة الزهراء » خارج العاصمة ، وهناك سيطر على الدولة محاطا بالمجموعة الحاكمة التي ضمت عائلات عربية ومستعربة — فلم يكن انفصال الحاكم عن المجتمع كبيرا كما كان الحال في بغداد — كما ضمت

تسوية عناصر من العبيد المستقدمين من منطقة البحر الأسود وإيطاليا وغيرها ، وكذلك كان الحال في الجيش الذي كان ليه من المرتزقة من الخارج ، رغم أنه ضم أيضا العرب والبربر الذين استقروا في البلاد مقابل الخدمة العسكرية .

وقد استخدم الأمويون من سكان المدن ذوو الأصول الحجازية نفوذهم لرعاية مصالح المدن والريف المستقر ، ونمت المدن بدءا بقرطبة وبعدها إشبيلية تدعمها الأراضي القابلة للرى وكانت تغل عائدا طيبا بفضل التقنيات المستوردة من الشرق الأدنى . وقد استمرت هجرة البربر من المغرب إلى إسبانيا. زمنا أطول من هجرة العرب من الشرق ، وربما فاقت أيضا أعدادهم العرب ، وقد تحول جزء من السكان الأصليين إلى الإسلام ، وأصبح معظم سكان الأندلس من المسلمين قرب نهاية القرن العاشر ، ولكنهم عاشوا جنباً إلى جنب مع أولئك الذين لم يسلموا من المسيحيين . وتعداد لا يستهان به من اليهود الحرفيين والتجار ، وقد ألف تسامح الأمويين -حيال اليهود والمسيحيين بين هذه المجموعات المختلفة ، بالإضافة إلى انتشار اللغة العربية التي أصبحت لغة الغالبية بمن فيهم المسيحيين واليهود . وبحلول القرن الحادي عشر كانت عوامل التسامح الديني واللغة المشتركة وراثت طويل من الحكم المستقل قد ساعدت على خلق وعي أندلسي ومجتمع متميز تنامت ثقافته الدينية الإسلامية على محاور مختلفة عن تلك التي تطورت في الدولة الشرقية وأصبحت ثقافتها اليهودية أيضا مستقلة عن تلك التي سادت في العراق التي كانت المركز الرئيسي للحياة الدينية اليهودية آنذاك .

ولم يكن لقب الخلافة الذي اتخذته « عبد الرحمن الثالث » (٩١٢ م) مجرد تعبير عن حكم ومصالح الأسرة الحاكمة ، ولكنه كان أيضا تعبيراً عن الهوية المستقلة للأندلس ، وقد مثل حكمه قمة استقلال الأمويين وقوتهم في إسبانيا ، وسرعان ما تفتتت مملكتهم إلى عدد من الممالك الصغيرة حكمتها أسر من البربر أو العرب ، فيما عرف بملوك الطوائف ، في تطورات شبيهة بتلك التي كانت تجرى في الدولة العباسية .

مجتمع موحد : الأسس الاقتصادية

لم يكن غياب الهيكل الموحد للدولة في الشرق والغرب علامة على ضعف اجتماعي أو ثقافي ، فقد أصبح هناك عالم إسلامي تجمعه روابط كثيرة ، وله العديد من مراكز القوة والثقافة الرفيعة .

فى حينه خلق استيعاب كل هذه المساحة داخل امبراطورية واحدة وحدة اقتصادية مهمة ، ليس فقط من حيث الحجم ولكن لأنها ربطت بين حوضى بحرين عظيمين من العالم المتمدن ، حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى ، وأصبحت تحركات الجيوش وحركة التجار والحرفيين وطلاب العلم والحجيج فيما بينها أكثر سهولة وكذلك انتقال الأفكار والأساليب والتقنيات ، وفى هذا المحيط الهائل من التفاعلات ، كان من الطبيعى أن تنشأ حكومات قوية ومدن كبيرة وتجارة دولية وريف مزدهر ومثمر ، وفرت جميعها شروط الحياة والنماء لبعضها البعض .

وقد أدى قيام الامبراطورية الإسلامية ثم ما تلاها من الدول داخل حدودها المتنامية ، إلى نمو المدن حيث القصور والحكومات وسكان الحضن الذين يحتاجون إلى المواد الغذائية والمواد الخام للصناعة وأدوات الرفاهية والفاخرة لاستعراض الغنى والتفوق ، وقد أدت التغيرات والتعقيدات فى حياة المجتمع إلى الرغبة فى المستحدثات الجديدة ومحاكاة أنماط القوة أو أنماط الغرابة ، وأعطى الطلب على التخصر والسهولة النسبية للاتصالات اتجاهات جديدة وطرق تنظيم جديدة للتجارة البعيدة المدى التى كانت موجودة من قبل ، ولم يكن نقل التجارة ضخمة الحجم ورخيصة الثمن لمسافات طويلة أمراً مربحاً ، وتعين على المدينة الاعتماد على المناطق المتاخمة لها ، ولكن بالنسبة لسلع معينة كان من المجرى أن تنقل لمسافات طويلة ، كالفلل الأسود والبهارات الأخرى والأحجار الشخينة والأقمشة الفاخرة والفخار ، وكانت كلها من الهند والطين ، والفسراء الذى يأتى من بلاد الشمال ، فى حين كان يرسل فى مقابلها المرجان والعاج ، ولم تكن مدن الشرق الأوسط مسهلة فقط ، وإنما منتجة أيضاً وصانعة للسلع المضدرة ، وكذلك لاستهلاكها المحلى ، وكان بعض الانتاج يجرى على نطاق واسع ، مثل صناعات التخليع للحرب فى ترسانات الدول ، والأقمشة الفاخرة للقصور ، وتكرير السكر ومصانع الورق ، ولكن معظمها كان ينتج فى ورش صغيرة للمنسوجات والأشغال المعدنية .

وقبل وجود السكك الحديدية وبعدها السيارة فى العصور الحديثة كان النقل المائى أقل تكلفة وأكثر سرعة وأماناً من النقل البرى ، وكان من الضرورى أن تكون المدن الكبيرة إلى جوار بحر أو نهر صالح للملاحة ، كما كانت الخطوط الرئيسية للتجارة البعيدة المدى أيضاً بحرية ، وخاصة طرق المحيط الهندى فى ذلك الوقت ، وخلال حكم العباسيين كانت المراكز الأساسية المنظمة للتجارة على هذه المسارات الطويلة ، هى « البصرة » فى

جنوب العراق ، و «سيراف» على الساحل الايراني للخليج ، وكانت الاثنتان تحت سيطرة العباسيين وفي وضع يسمح لهما بالوفاء باحتياجات العاصمة . وبحلول القرن العاشر كان جنسك تحول معين للتجارة من الخليج الى البحر الأحمر بفعل تزايد أهمية القاهرة كمركز للتجارة والقوة وتساعد الطلب من المدن التجارية الإيطالية ، ولكن ذلك لم يكن سوى مجرد بداية .

فمن البصرة وسيراف كانت التجارة التي قام بها الايرانيون والعرب أو التجار اليهود الى الشرق تبحر على سفن عربية الى موانئ جنوب شرق آسيا أو ماوراءها وقد وصلت مرة الى الصين، ولكن فيما بعد القرن العاشر لم يصلوا لابتعد من موانئ جنوب شرقي آسيا ، وأبحروا أيضا جنوبا الى جنوب وغرب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، ومن البصرة كانت البضائع تنتقل عن طريق النهر الى بغداد ثم بالطرق الصحراوية السورية الى سوريا ومصر ، أو من خلال الأناضول الى القسطنطينية وطرابزون أو عن طريق البحر الكبير الذي يصل بين بغداد ونيسابور في شمال شرق ايران ، ومنها الى أواسط آسيا والصين ، وعلى مدى مسافات طويلة كانت البضائع تنقل على ظهور الجمال غالبا في قوافل منظمة ، وفي المسافات القصيرة على ظهور البغال والحمير ، وقد اختفى النقل عن طريق العربات بعد ازدهار الامبراطورية الاسلامية في معظم مناطق الشرق الأدنى ولم يستخدم ثانية حتى القرن التاسع عشر ، ولذلك أسباب متنوعة ، منها تدهور الطرق الرومانية واهتمام الجماعات العربية الحاكمة الجديدة بتربية الجمال حيث كان النقل على ظهور الابل أكثر اقتصادا من استخدام العربات .

وقد كانت بدايات التجارة في البحر المتوسط خطيرة ومحدودة . ولم تكن أوروبا قد استعادت عافيتها بعد بما يمكنها من الانتاج الوفير من أجل التصدير أو الاستهلاك المحلي الكبير ، وحاولت الامبراطورية البيزنطية لفترة أن تجد في القوة البحرية العربية أو التجارة المنقولة بحرا ، وقد كان أهمها تلك المتجهة على طول الساحل الجنوبي ، وتربط أسبانيا والمغرب مع مصر وسوريا وتونس كمركز للتوزيع وعلى طول هذا المسار نظم التجار - وأغلبهم من اليهود - تجارة الحرير الأسباني والذهب المستجلب من غرب أفريقيا والمعادن وزيت الزيتون ، وأصبحت التجارة مع البندقية وأمالفي أكثر أهمية في القرن العاشر .

لا يمكن للحكومات القوية أو المدن الكبيرة أن تعيش بلا ريف خصب منتج . كما أن الريف من ناحيته لا يمكن أن يزدهر بلا حكومة قوية ومدن للاستثمار في الانتاج ، وقد نمت طبقة جديدة من ملاك الأراضي في البلاد التي فتحتها العرب وخاصة تلك التي هاجرت اليها جاليات عربية كبيرة ، وكانت تلك الأراضي هي التي صودرت من الملاك السابقين والتي كانت رسميا تابعة للحكام ومنحت للعرب مع التزامهم بدفع الضرائب ، وبعدها في القرن العاشر بدأ التوسع في نظام جباية الضرائب ، وبمقتضاه كانت الجباية على الأراضي تسند للمسؤولين أو قادة الجيش ، الذين أصبحوا بموجب هذا النظام الملاك الفعليين للأرض وبات من صالحهم تنمية الانتاج ، واستمر معظم المزارعين الذين كانوا موجودين في الأرض أصلا في زراعتها الا أن بعض الفلاحين الرعاة هاجروا منها ، وقد عبرت هذه الدلائل عن علاقة مشاركة في المحاصيل بين حائزي الأراضي والمزارعين بشكل أو بآخر ، فبعد دفع الضرائب يقسم الناتج من المحصول بالنسبة المتفق عليها بين من شاركوا بتقديم الأرض والبذور والحيوانات وأولئك الذين قاموا بالعمل ، وكانت هناك ترتيبات أكثر تعقيدا بالنسبة للأراضي التي تحتاج الى رى أو تلك التي تزرع أشجارا .

وكان بإمكان حائزي الأراضي الذين جمعوا الأموال من التجارة أو من طرق أخرى استخدامها في الانتاج الزراعي وجلب تقنيات جديدة برؤوس الأموال المتاحة ، وهناك دلائل على أن توسع الامبراطورية الإسلامية جلب محاصيل جديدة أو على الأقل زاد مما هو موجود بالفعل ، وعموما كان اتجاه الحركة غربا من الصين أو الهند برا حتى إيران ومنها الى حوض المتوسط حيث بدأت زراعة الأرز وقصب السكر والقطن والبطيخ والبادنجان والموالح : البرتقال والليمون ، وكلها كانت تزرع في مساحات واسعة . واحتاج بعض هذه المحاصيل الى استثمارات كبيرة في الري وتحسين الأراضي ، وتم تجديد أعمال الري القديمة ومنها تلك المعروفة في جنوب العراق ونفذت أيضا أعمال جديدة ، وامتدت الحركة الى الغرب لتظهر في إسبانيا التي عرفت الناعورة (الساقية) من سوريا والقنوات المدفونة من إيران ، وأدخلت أنماط أخرى جديدة من الدورة المحصولية .

بمنزل هذه التحسينات تزايد الفائض الزراعي .بالإضافة الى تنامي الصناعة والتجارة مما زاد من أهمية المال في اقتصاد الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط . وقد مكن تنامي نظام نقدي عالمي متعارف عليه ، وتدفق المعادن النفيسة خاصة الذهب الأفريقي الى أراضي الخلافة ، من التوسع في سك

النقود ، وظل الدينار الذهب العباسي لعدة قرون عملة للتبادل . وقد عثر على عملات فضية اسلامية في بلاد اسكندنافيا وغانبات ريتشود في شمال أكسفورد ، ولقد ارتبط نظام الائتمان بعملية سك النقود ، فالتجار الكبار كانوا يقومون بحفظ ودائع مقابل قروض وكذلك بإمكان المقرضين وجامعي الضرائب استخدام النقد المتراكم لديهم في عمليات الاقراض ، وكان بإمكان كبار التجار الذين لهم عملاء أو مراسلون في أماكن أخرى أن يسحبوا الفواتير عليهم أو يصدرُوا خطابات الائتمان .

ولم يكن ممكنا تواجد مثل هذا الاقتصاد الواسع المنفتح بدون نظام من الاتفاق المشترك بين المتعاملين ، أو دون اتصال شخصي أو سابق معرفة ، الا أن الروابط الأسرية مكنت من تخفيفها في بعض الحالات ، فعلى سبيل المثال هناك حالة اليهود الذين كانوا يسافرون في البحر المتوسط وما وراءه في بلاد اسلامية أو مسيحية ، ولولا وجود هذه الروابط لاحتاج الأمر إلى دوائين أو أعراف من الأخلاق الاجتماعية المتفق عليها بشكل عام . وبنفس الطريقة احتاج حائزو الأراضي والمزارعون إلى قواعد واضحة ومقبولة للملكية وتوزيع النتائج والضرائب والحقوق في المياه والأشجار والمعادن تحت الأرض ، وعليه تطلبت العلاقات الاقتصادية نظاما عاما للسلوك وأصبح ذلك ممكنا بتحول غالبية سكان المناطق التي يحكمها المسلمون ليصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وكذا بتأثير الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم على الحياة الاجتماعية .

وحدة العقيدة واللغة

ليس من السهل معرفة الكثير عن المراحل التي مرت بها الشعوب المعنية . خلال تحولها للإسلام ، ولكن الدراسة حول الأسماء الإسلامية تعبر عن حجم معقول لا بأس به ويبدو مقبولا (١) وطبقا لتقديرات هذه الدراسة ، فإنه بنهاية العصر الأموي (أي منتصف القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي) كان أقل من ١٠٪ من التعداد السكاني في العراق وإيران وسوريا ومصر وتونس وإسبانيا من المسلمين ، ولكن النسبة كانت أكبر بكثير في الجزيرة العربية ، فبخلاف القبائل العربية التي كانت موجودة في إيران وسوريا قبل الفتح الإسلامي فإن معظم حالات اعتناق الدين الإسلامي كانت بين المستويات الدنيا للمجتمع ، مثل الجنود من أسرى المعارك أو المسؤولين من الحكومة الساسانية الذين خدموا تحت إمرة الحكام الجدد ، ولم تكن هناك ضغوط أو حوافز ايجابية أمام

الآخرين للتحويل الى الاسلام . وكان معظم من تحولوا للاسلام يعيشون في المراكز الحضرية الرئيسية للسكان العرب حيث السلطة العربية أو بالقرب منها ، وهناك نشأت بواكير المؤسسات الاسلامية المحددة مثل المسجد والمحكمة وأصبحت تلك المدن في العراق وايران والقيروان في أفريقيا وقرطبة في اسبانيا مراكز للاشعاع الاسلامي .

وبنهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تغيرت الصورة وأصبح جزء كبير من السكان مسلمين ، لا سبكان المدن فقط وانما أيضا نسبة ملحوظة من سكان المناطق الريفية . كان أحد الأسباب هو أن الاسلام أصبح أكثر وضوحا وتحديدا ، وتجلت الخطوط الفاصلة بين المسلمين وغير المسلمين ، وأصبح المسلمون يعيشون في نظام محدد من الشعائر والمذاهب والعقيدة والقانون والتبعية وكلها مختلفة بشكل واضح عن تلك التي يعتقد بها ويمارسها غير المسلمين ، وكانوا أيضا أكثر وعيا بذواتهم كمسلمين . أما وضعية المسيحيين والزرادشتيين فكانت أيضا مجددة بشكل واضح وان كانت في مرتبة أدنى من بعض النواحي ، فكان المسلمون يعتبرون أولئك الذين بعثت اليهم الرسل أهل كتاب أو أهل ذمة (الذميون) وهم الذين أبرمت معهم موثيق (أو ما يسمى بعهد عمر) وبشكل عام لم يكونوا مجبرين على اعتناق الاسلام ولكنهم عانوا من بعض القيود ، فقد تحملوا ضرائب خاصة ، ولم يكن مسموحا لهم أن يلبسوا ألوانا معينة ، ولم يكن باستطاعتهم الزواج من المسلمات ، ولم تكن شهادتهم مقبولة في محاكم القانون الاسلامي ، ويجب ألا تكون مساكنهم وأماكن عبادتهم فاخرة ، وكانوا ممنوعين من تولي الوظائف المهمة (رغم أنه في بعض الأماكن عمل اليهود والمسيحيون كنظار وسكرتيرين ومستولين ماليين لدى حكام مسلمين) ، وكانت صرامة تطبيق هذه القواعد متوقفة على الظروف المحلية ، ولكن حتى في أفضل الظروف فان وضع الاقلية لم يكن مريحا ، وكان الحافز على التحول الى الاسلام موجودا .

وبرغم ذلك لم تكن عملية التحول الى الاسلام كاملة فاليهود قد استبعدوا من معظم مناطق الجزيرة العربية في أيام الاسلام الأولى ، ولكنهم ظلوا متواجدين في المدن الكبرى من البلاد الاسلامية الأخرى كتجار وحرفيين ، وكتجار صيفار أيضا في بعض مناطق الريف في شمال العراق واليمن ومراكش ، ولم يكن يقبأهم وازدهارهم عائدا لقوة تنظيمهم الاجتماعي فقط ، وانما أيضا لقدرتهم على احتلال مواقع اقتصادية مجددة

فى ثنایا المجتمع المركب ، وكذلك لكونهم غير مصنفین كاتباع لأى من الدول التى جاربها الحكام المسلمون من وقت لآخر .

أما الوضع المسيحي فكان مختلفا ، كان للبعض روابط دينية مع الإمبراطورية البيزنطية وحامت حولهم الشكوك خلال أوقات الحرب ، ولم يكن لديهم ذلك النسيج المتناسك للتنظيم الاجتماعى الذى ميز اليهود ، وفى بعض الأجزاء من الريف لم يكونوا مسيحيين بعمق ، وفى بعض المناطق اختفت المسيحية نهائيا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وفى مناطق أخرى ظلت عقيدة للأقلية ، وفى أسبانيا ظل جزء كبير من السكان تابعا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وفى غيرها ، أولئك الذين ظلوا على مسيحياتهم مالوا لاتباع عدة كنائس مشقة انفصلت عن الأغلبية بسبب الاختلافات الكبيرة بينهم خلال القرون الأولى للمسيحية حول طبيعة المسيح ، بين النسطوريين وبين أولئك الموحدين المعتقدين بأن للمسيح طبيعة ومشيئة واحدة ، وقد عاش المسيحيون ، ليس فقط فى المدن ، ولكن فى أجزاء من الريف أيضا ، خاصة فى صعيد مصر وجبال لبنان وشمال العراق .

وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام بل وقبله فى بعض الأماكن ، وفى وسط سوريا وغرب العراق كان معظم السكان ، أبان الفتح الاسلامى ، يتحدثون العربية بالفعل ، وأصبحت المدن الجديدة بسكانها من المهاجرين وحكوماتها التى يسيطر عليها العرب مراكز إشعاع للغة العربية ، وانتشرت كلغة تخاطب فى مختلف اللهجات المحلية المتأثرة باللغات الوطنية السابقة ، وكذلك كلغة كتابة بشكل حافظ على وحدة واستمرارية القرآن النبى نزل باللغة العربية .

وفىما يتعلق بلغة التخاطب ، واجهت اللغة العربية حاجزا فى إيران التى استمر فيها استعمال اللغة الفارسية ، أما كلغة كتابة فلم تجد العربية أى حدود داخل عالم الاسلام فقد حمل الدين اللغة معه ، والذين أسلموا من الأصول غير العربية وخاصة الإيرانيين قرأوا القرآن بالعربية ولحبوا دورا كبيرا فى إيضاح وبيان نظام الفكر والقانون المنبثقين عنه . أما أولئك الذين لم يسلموا فقد استمروا فى استخدام لغاتهم الأصلية لأغراض دينية وأدبية ، واحتفظت بعض الكنائس الشرقية باللغات السريانية والقبطية فى الطقوس الدينية وكانت العبرية والآرامية لغات العبادة اليهودية والتدريس الدينى ، وأخذت الكتب والأسفار الدينية المنزلة عند الزرادشتيين شكلها النهائى بالبهلوية (الفارسية المستخدمة قبل الفتح)

بعد مجيء الاسلام . وحتى في ايران أصبحت اللغة العربية لغة العبادة والأديبات الدينية في بعض الكنائس الشرقية ، وفي أسبانيا أقبل اليهود على استخدام العربية في الفلسفة والعلوم والشعر وكان أول عائق جدى أمام انتشار العربية في القرن التاسع ، هو بدء ظهور اللغة الفارسية بشكل اسلامى كلفة للأدب ، ولكن في ايران ظلت العربية أيضا اللغة الرئيسية للتعليم الدينى والقانونى .

ولذا ، ففي الكتابة في تلك الفترة كانت لكلمات مثل « عرب » و « عربية » معانٍ أوسع بحيث حُجبت المعانى القديمة ، فقد تعنى أولئك الذين تعود جذورهم الى شبه الجزيرة العربية وخاصة ذوى الأصول البدوية من القبائل ذات التقاليد العسكرية ، وقد تستخدم فيما يتعلق بكل أولئك من المغرب واسبانيا حتى حدود ايران الذين اتخذوا اللغة العربية كلغة وطنية ، وقد تشمل مدى أوسع من ذلك ، أولئك الذين أصبحت العربية بالنسبة لهم الوسيط الأساسى للتعبير عن الثقافة الأدبية الرفيعة .

وقد استمر ازدهار تراث نظم الشعر في ظل الحكم الأموى ، وكان أشهر شعراء الفترة الأولى من أصول بدوية، مثل الأخطل والفرزدق وجريز ، وأصبح الشعراء تحت رعاية القصور الأموية وزعماء القبائل الأقوياء ، مما وسع من المدى الجغرافى للشعر وغير أيضا من طبيعته ، وأصبح مدح الحكام وذرى النفوذ أكثر انتشارا وفي نفس الوقت اكتسبت أشعار الغزل صبغة أكثر شخصية .

وفيما بعد وخلال العصر الأموى وبدايات العصر العباسى، حدث تحول أساسى كبير ، حيث غير دخول الاسلام من نظرة الناس الى اللغة العربية ، فقد كان القرآن هو أول كتاب يكتب بالعربية، وكان المسلمون يؤمنون أنها اللغة التى نزل بها الوحي وتجلت في اللغة الرفيعة التى صيغت بها أشعار المراحل المبكرة ، ولكنها أصبحت تستخدم في أغراض مختلفة ، وبات لزاما على أولئك الذين آمنوا بالقرآن (كلمة الله) أن يتفهموا اللغة ، فلم يعد ديوان العرب قاصرا على الشعر القديم وإنما أصبح يحتوى على قواعد ونماذج اللغة الصحيحة أيضا .

وأصبحت اللغة العربية وسيطا للتعبير لأولئك الوافدين الى مناطق الامبراطورية المختلفة من شبه الجزيرة العربية ولذوى الأصول الأخرى الذين اعتنقوا الدين الاسلامى أو الذين احتاجوا لاستخدام اللغة فى أغراض

العمل والحياة ، وبخاصة الفرس وغيرهم من المسئولين الآخرين الذين عملوا تحت امرة الحكام الجدد . وانتقل مركز النشاط الأدبي من المدن والواحات ومضارب الخيام البدوية الى المدن الجديدة، البصرة والكوفة أولا، وبعدها العاصمة الامبراطورية بغداد . وتغير الوسط الأدبي واتسع ليشمل الخلفاء وقصورهم وكبار المسئولين والصفوة الجديدة في الحضرة من ذوي الأصول المختلفة ، واستمرت ممارسة النظم الشفهية وتلاوة الشعر كما بدأت كتابة الأعمال الأدبية . ومنذ بداية القرن التاسع ساعد ظهور الورق على تداول الأعمال المكتوبة ، واستخدم البردي والرق ولكن في أواخر القرن الثامن أدخلت صناعة الورق من الصين ، وبدأت هذه الصناعة أولا في خراسان ثم انتشرت في أجزاء أخرى من الامبراطورية ، وبحلول منتصف القرن العاشر حلت تقريبا محل البردي .

وقد كان من الآثار الطبيعية لانتشار اللغة العربية أن أصبح بعض من استخدموها راغبين في فهمها ، فكانت أغلب علوم اللغة من وضع أولئك الذين لم تكن العربية لغتهم والذين تعين عليهم التفكير فيها ، وتطور فن المعاجم والتصانيف اللغوية على يد الدارسين الذين كانوا يختلفون الى الأسواق التي يتردد عليها البدو . وكان أول من شرح وفسر قواعد اللغة بشكل منهجي رجلا من أصول غير عربية هو «سيبويه» (ت ٧٩٣م) ومن كتاباته اشتهرت كل الأعمال اللاحقة ، وقد دفع هذا الزخم بالدارسين الى جمع ودراسة الشعر القديم في الجزيرة العربية ، ومن خلال عملية تصحيح هذه الأشعار وتنقيتها لا بد وأنهم غيروا بعضها ، وفي نفس الوقت درسوا الأشكال الرئيسية والتركيبية الشعرية باتقان وعناية مما كان له أثر كبير على الأشعار اللاحقة ، وأول المنظرين الأدبيين المهمين كان «ابن قتيبة» (٨٢٨ - ٨٨٩م) الذي وضع وصفا للقصيد النبطية التي سار على نهجها اللاحقون . وتبدأ القصيدة عنده باثارة ذكريات الديار المهجورة والحب الضائع ثم تنتقل الى وصف ارتحال أو رحلة ثم تبلغ ذروتها في الموضوع الرئيسي المقصود وهو المدح أو الرثاء أو الهجاء .

وقد كانت كتابة المنظرين أقل أثرا في تطور الشعر من انتاج الشعراء لأشكال جديدة، فكانت أشعارهم أكثر ميلا الى الفردية، من تلك التي نظمها كتاب القصائد قبل الاسلام، واستوعبوا التراث الشعري المتوارث ، ولكنهم استخدموه بوعي أدبي ذاتي ، وتنامت طرق وأنماط جديدة ، وتميزت باستخدام لغة متقنة ومصطلحات بلاغية ومفردات مهجورة ، تضع الكلمات في تضاد دلالي واطار صارم من الوزن والايقاع .

وتعددت موضوعات الشعر أكثر من ذي قبل ، حيث تناول الشعر الحب الجنسي ولم يقتصر على الحب الضائع أو المحرم ، في حين شارك

بعضها في الجدل الأخلاقي أو الديني في القرون الإسلامية الأولى ، فقد كتب الشاعر السوري أبو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) أشعاراً وكذلك نشرنا منمقاً عبر فيه عن الشك في الأفكار التي كانت مقبولة بشكل عام عن الوحي وعن الحياة فيما بعد الموت :

كما كان من الطبيعي أن يشتد التركيز على المدح (التقريظ) ولم يكن أكثره منصباً على قبيلة الشاعر وإنما على الحاكم أو النصير . وانكمش ذلك التفاخر بالأسلاف أو الجزء الأول مما اعتبره ابن قتيبة القصيدة النمطية ، ليصبح ببساطة مجرد مقدمة للموضوع الرئيسي بمدح الحاكم أو النصير بلغة متقنة رسمية تظهر في بعضها أحياناً شخصية وأحاسيس الشاعر .

وقد عاش أبو الطيب المتنبي (٩١٥ - ٩٦٩ م) الذي اعتبره نقاد الأدب اللاحقون أعظم شعراء هذا النوع من الشعر في الكوفة ، وكان من أصول عربية وقضى بعض سنواته الأولى بين أهل القبيلة العربية « بني كلب » وأنفق جزءاً من شبابه في نشاط سياسي ثم شاعراً في بلاط عدة حكام متعاقبين ، وفي أواخر حياته لدى حكام حلب والقاهرة وبغداد وشiraz وقد تكون أفضل سنواته إنتاجاً تلك التي قضها شاعراً لدى سيف الدولة الحمداني حاكم حلب في شمال سوريا وبمناسبة برثه من مرضه يغرق المتنبي في مدحه قائلاً :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم	وزال عنيك إلى أعدائك الألم
وراجع الشمس نوركان فارقها	كانما فقد في جسمها سقم
تفرد العرب في الدنيا بمجده	وشارك العرب في احسانه العجم
وبما اخبئك في برء بتهنئة	إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

(٢) :

وقد اختلط ذلك المدح بفخر الشاعر بنفسه كما هو الحال في قصيدة كتبت عندما فقد الحظوة لدى سيف الدولة :

يا أعدى الناس إلا في معاملي	فيك الخيلام وأنت الخصم والحكم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي	واسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها	ويسهر الخلق جراها ويختصم
بأى لفظ تقول الشعر زعنفه	تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عشابك إلا أنه مقه	قد ضمن الدر إلا أنه كلم (٣)

واستمر الشعراء في احياء التراث القديم ، ولكن الكتابة النثرية العربية كانت شيئاً جديداً . كان القرآن هو أول عمل نثري بالعربية الفصحى (أو على الأقل أول عمل حفظ ليبقى) (*) وكان انتاج الآخرين نتيجة طبيعية له بشكل ما ، وجمعت القصص عن النبي صلى الله عليه وسلم وفتوحات العرب وكتبت ، ووضع الشعراء النثريون بلاغيات متن الأفكار الاسلامية ، وفيما بعد ظهر نوع جديد من النثر الفني يستكشف أفكارا مأخوذة عن ثقافات أخرى ، وكان كتاب « كليلة ودمنة » من أول وأشهر الأمثلة ، وهو مجموعة من الخرافات ذات المعنى الأخلاقي عن حياة الحيوانات كتبت بالسنسكريتية ثم نقلت للبهلوية (الفارسية القديمة) وكتبها نثرا بالعربية مشمول غياثي من أصل إيراني هو « ابن المقفع » (م ٧٢ ت ٧٥٦ ت) .

وكان ابن المقفع مثالا للمستولين المستعربين الذين أسلموا وأدخلوا على العربية أفكارا وضروبا أدبية مشتقة عن ثقافتهم الموروثة ، وإلى جانبهم أيضا كانت هناك مجموعة من الكتاب الذين استمدوا الهامهم من عالم الواقع الجديد الذي نشأ بانتشار الاسلام واتساع امبراطوريته ، وتعددية الشعوب والأمصار ، والتنوع الجديد في الشخصيات الانسانية ، والمشاكل المستجدة في الأخلاق والسلوك ، وقد حاولوا تناول هذا كله في ضوء معايير الايمان الاسلامي الجديد ، ثم التعبير عنه بشكل أدبي مستساغ ، وكان الجاحظ من بين من مارسوا هذا النوع الجديد من الادب باتساع أفقه وكانت ردود فعله المفعمة بالحسوبة تتجلى في لغة نموذجية . وتعود جذور الجاحظ لاحدى الأسر الأفريقية من أصول العبيد التي انتسبت للقبائل العربية واستعربت تماما لفترة طويلة ، وقد نشأ بالبصرة وعاش في حماية الخليفة المأمون (**) وكان فضوله الثقافي بعيد المدى وكانت أعماله مجموعات من المعرفة المشوقة والمثيرة فيما يتعلق بعالم الطبيعة والانسنان ، والبلاد والحيوانات ، وعجائب الكائنات مع مسحة من التعبير الأخلاقي عن الصداقة والحب ، والحقد والكبرياء ، والجشع والزيف والاخلاض :

« ان النبيل لا يدعى النبيل كما لا يدعى البليغ البلاغة وحينما يبالغ المرء في صفاته ، فذلك لأنه يشعر بالنقص في ذاته » ، فالعويل يتظاهر

(*) ينظر المؤلف هنا للقرآن باعتبارها نصا من أدبيات اللغة العربية (المترجم)
 (**) تشير الكتب المتأولة أن الجاحظ من قبيلة كنانة بالبحرة وسمى بالجاحظ لجموح عينيه . ولد ١٥٩هـ / ٧٧٧م ، وتوفي ٢٥٥هـ / ٨٦٨م . أما أن أصله عبد أفريقي (أسود) فالمترجم يفتن أيدينا من المراجع لا يؤيد ذلك . (المراجع) .

بالقوة لأنه يعلم مواطن ضعفه ، والكبرياء قبيحة في كل الناس . . . وهي أصل من القوة وتعتبر كبيرة الكبار ، والتواضع خير من الرحمة التي تعتبر فضيلة الفضائل » (٤) .

اتخذ الأدب في مرحلة بدايات العصر العباسي طابعا من التسلية والتثقيف وقد كتب التنوخي أحد قضاة بغداد (٩٤٠ - ٩٩٤) ثلاثة أجزاء من الحكايات ، فكانت تسلية أدبية وسلسلة من الوثائق الاجتماعية عن عالم الوزراء والقضاة والمستويات الأقل ممن أحاطوا بالقصر العباسي . وفي القرن التالي كتب أبو حيان التوحيدي (ت ١٠٢٣) مقالات وبحوثا ورسائل تناولت نطاقا واسعا من الموضوعات الدارجة التي شاعت بين الدارسين والكتاب في عصره ، صاغها في نمط أدبي جذاب كشف عن معارف واسعة وعقلية متميزة ، وكانت التسلية هي الهدف الرئيسي للمقامات وهي سلسلة من القصص مكتوبة في نثر مسجوع وفيها يتلو القاص حكايات المحتالين المخادعين والمتشردين في مختلف ما يقابلون من مواقف وقد بلغت ذروة عاليا من التطشور على أيدي « الهذاني » (٩٦٨ - ١١١٠) والحريري (١٠٥٤ - ١١٢٢) وقد ظل هذا النوع محببا وشعبيا في دوائر الأدب العربي حتى القرن العشرين .

وقد اكتسبت أخبار الماضي أهمية في كل المجتمعات الانسانية ، وإن كانت لها دلالة خاصة في المجتمعات القائمة على الاعتقاد بأن حوادث فريدة وقعت في أوقات وأماكن محددة ، وقبل ظهور الاسلام كانت للقبائل العربية سجلات شفوية عن أعمال أسلافهم ، وكانت الى حد ما موجودة في أشعار تلك المرحلة ، وفي القرون الأولى للإسلام اكتسب التاريخ نوعا جديدا من الأهمية كما بدأت عملية تسجيله كتابة ، كذلك تطور نوعان مختلفان من الكتابة التاريخية مرتبطان بشكل وثيق كل منهما بالآخر ، فمن ناحية قام اللغويون والنسابون بجمع وكتابة التاريخ الشفهي لرجال القبائل العرب ، ولم يكن ذلك مهما لدراسة اللغة العربية فحسب ، وإنما لسبب عملي آخر متصل بتوزيع الغنائم الناتجة عن حركة الفتوحات وما تفرغ الأرض في المناطق الجديدة التي أقاموا فيها .

ثم إن تسجيل أحداث حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأوائل والفتوحات الأولى والشئون العامة للمجتمع الاسلامي كانت أمورا فائقة الأهمية انتقلت على أيدي علماء جادين ، ومع التفصيرات وحتى الاختلافات والانتحالات التي طرأت عليها أحيانا بفعل الخلافات الدينية والسياسية ومبالغات الرواة - ظهر كم هائل من التحقيقات ومنها نشأت أنواع عديدة من الأدب مثل مقتطفات من الحديث وسيرة النبي ومقتطفات

من حياة ناقل الحديث (*) وأخيرا أعمال القصة التاريخي عن رحمة الله بعبده ، وكانت تحوى عنصرا من القدوة والعبرة ولكن مع جوهر صلب من الحقيقة . كما أدى وضع التاريخ الهجرى الى تأسيس علم التاريخ والتقاويم الذى يبدأ من الهجرة وقد وفر اطارا زمنيا عاما لسجيل الأحداث .

وقد وصلت تقاليد كتابة التاريخ الى مرحلة النضج فى القرن التاسع بظهور مؤرخين ذوى مجالات اهتمام واسعة ، وقدرة أكبر على الفهم منهم البلاذرى (ت ٨٩٢) والطبرى (٨٣٩ - ٩٢٣) والمسعودى (ت ٩٢٨) وقد اتخذ هؤلاء الكتاب التاريخ الاسلامى مجالا لتركيزهم ، لكن ذلك لم يمنع تناولهم كل ما يعتبر له قيمة فى التاريخ الانسانى كله . اذ يتعامل المسعودى مع الحوادث والاخبار التاريخية للشعوب السبعة القديمة ، أى من كان لهم تاريخ حقيقى فى نظره : الفرس ، والكلدانىون واليونانيون والمصريون والآتراك والهنود والصينيون . وكان لابد من ترتيب هذا الكم الهائل من المعلومات ، بالسنوات فى حالة التاريخ الاسلامى ، وفيما عداها بمعايير أخرى كفترات حكم الملوك ، وكان من الضرورى الحكم على تلك المعلومات بمقاييس نقدية ، وكان أكثر المعايير وضوحا هو (الاسناد) : وهو سلسلة من الشهود لواقعة معينة الى أى مدى يمكن الوثوق فى شهاداتهم ، وكانت هناك أيضا معايير أخرى . فالمنقول يمكن اعتباره معقولا أو غير معقول فى ضوء الفهم العام لأسلوب تصرف الحكام وكيفية تغير المجتمعات الانسانية .

كاتب آخر هو البيرونى (٩٧٣ - ١٠٥٠) كان فريدا فى مجال اهتماماته وعلمه ، ويعتبر كتابه عن تاريخ الهند (تحقيق ما للهند) أعظم المحاولات الجادة التى قام بها كاتب مسلم للتحقيق فيما وراء عالم الاسلام مع فرز ما له قيمة فى تراث ثقافى آخر ، ولم تكن أعماله جدلية كما يوضح هو فى مقدمة كتابه :

« وليس هذا الكتاب كتاب جدل ومناقشة يعرض أفكار المخالفين ويفتد ما فيها من الحق والباطل ، ولكنه وصف مباشر لأحوال الهندوس ، أضفت اليه ما يقوله اليونانيون عن أمور مماثلة بغرض المقارنة بينهم(٥) .

وعن الفكر الهندى الدينى والفلسفى فى أفضل تصوير كتب :

وحيث اننا نصف ما فى الهند ، فاننا نذكر خرافاتهم ، ولكننا

(*) وهو ما يعرف بعلم الرجال ، وهو أساس تطور فن التراجم عند العرب - (المراجع) .

نشير الى أن تلك الخرافات قاصرة على عوام الناس فقط ، أما أولئك الذين يتبعون طريق الصدق وجادة العقل ، والذين يكذبون الى الحق ، فيجب عليهم ألا يعبثوا غير الله وحده ، وألا يعبدوا أية صورة ممسوخة له « (٦) » .

وفى النهاية يشير الى معتقدات مشابهة لمعتقدات اليونانيين ومن بينها أيضا أولئك الذين يعبدون أصناما فى عصور الجهل الدينى قبل ظهور المسيحية ، ولكن المتعلمين كانت لهم آراء ووجهات نظر مشابهة لتلك الخاصة بالهندوس . وعلى أية حال ، فالصنوفة الهندية تختلف عن المسلمين فى أمر جوهري ذلك أن « الهنود فى زماننا يجعلون كثيرا من الفروق بين يننى الانسان ، ونحن نختلف عنهم فى ذلك حيث لا فضل لأحد على أحد الا بالقوى وهذا هو الخلاف الأكبر بينهم وبين الاسلام » (٧) .

العالم الاسلامى

بحلول القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) كان قد ظهر وتبلور ما يعرف بعالم اسلامى . وكان بإمكان أى مسافر حول العالم أن يدرك - من خلال ما يرى ويسمع ما اذا كان فى بلاد يسكنها مسلمون أو يحكمها حاكم مسلم ، فهذه الأشكال الخارجية أنجزتها حركات الشعوب : الأسر الحاكمة وجيوشها ، والتجار الذين ينتقلون من خلال عوالم من المتوسط والمحيط الهندى ، والحرفيون الذين ينتقلون من مدينة الى أخرى حسب تشجيع الحكام وطبقة الأغنياء ، وكأنوا ينتقلون أيضا بالسلع المستوردة والمصدرة التى تعبر عن نمط معين ، مثل الكتب والأشغال المعدنية والخزفيات وبشكل خاص المنسوجات ، وهى السلعة الرائدة للتجارة البعيدة المدى .

كانت المباني العظيمة أيضا من الرموز الخارجية المعبرة عن (عالم الاسلام) ، وفى مراحل لاحقة ظهرت الأنماط الاقليمية فى بناء المساجد . ولكن كانت هناك بعض الخصائص المشتركة فى القرون الأولى يمكن تبينها من قرطبة الى العراق وما وراءه . ذلك بالإضافة الى المساجد الصغيرة فى الأسواق والربوع والقرى حيث تؤدى الصلوات ، ولكن صلاة الجمعة لم تكن لها خطبة (*) ، وكانت هذه المساجد تبني بالمواد المحلية وتعكس مزاجا وتراثا محليين .

(*) لا ندرى مدى صحة أن صلاة الجمعة كانت بلا خطبة فى أى وقت من الأوقات ، فخطبة الجمعة وردت فى احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فمن « حضر والامام يخطب فلا الجمعة له » ونهى رسول الله عن « الحبوطة يوم الجمعة والامام يخطب » رواه ابن حنبل وابن داود وابن ماجه . وثمة احاديث أخرى . راجع المعجم المفهرس للالفاظ الحديث النبوي . انتهى اشرف عليه المستشرق فنسنت جادامه (جمع - جمعة) - (المراجع) .

وأصبح المسجد واقعا فى قلب نظام كامل للمبانى الديدية ، بيت القاضى حيث يحكم ، والخان لعابرى السبيل والحجيج ، ومستشفيات للمرضى ، ولانشاء تلك المباني والانفاق عليها كانت أعمال الأوقاف على الخير التى حث عليها القرآن ، وكان هناك نوع آخر من المباني لعب دورا خاصا فى ربط المجتمع الاسلامى بصرف النظر عن الحدود المدنية أو الاقليمية وهى الأحرام (جمع حرم) ، وقد ميزت أماكن محددة للحج والصلاة المأخوذة من التراث الدينى السابق واتخذت معنى اسلاميا ، وهى الكعبة فى مكة ، وقبة الصخرة فى القدس ، وضريح ابراهيم فى الخليل ، وإلى جانبها ظهرت نقاط جذب جديدة ، وهى قبور أولئك الذين ارتبطوا بالتاريخ الاسلامى المبكر . ورغم أن المسلمين يعتبرون محمدا صلى الله عليه وسلم رجلا كبقية الآخرين ، إلا أنه سيتشفع لقومه يوم القيامة ، ويزور المسلمون قبره فى المدينة خلال حجهم إلى مكة ، كما انجذب الحجاج منذ وقت مبكر إلى قبور أئمة الشيعة خاصة أولئك الذين عانوا كثيرا كضريح « على » كرم الله وجهه فى النجف ويحوى عناصر تعود إلى القرن التاسع ، وقد تزايدت فى العالم الاسلامى قبور أولئك الذين اعتبروا « أولياء الله » ولهم القدرة على التوسط والشفاعة ، ولاشك أن بعضها نشأ فى مواقع كانت مقدسة فى أديان سابقة أو بفعل التراث السحيق فى الريف . وهناك نوع آخر من المباني الذى عبر عن قوة وسلطان الحاكم ، من بينها كانت أعمال عظيمة للخدمة العامة ، نزل أو خان على الطريق التجارية ، وقنوات معلقة أو أعمال برى أخرى فى البلاد العطشى من الشرق الأوسط والمغرب ، وكان جلب المياه لسكان هذه المدن من أعمال السياسة الصائبة الراسخة ، كذلك كان رى الأراضى من الممارسات التى انتشرت مع التوسع العربى فى البحر المتوسط . وكانت القصور معبرة عن العظمة الامبراطورية ، وما فيها من أبهاء الأنس المبسوطة وسط الحدائق والمياه الجارية ، وبساتين منعزلة ترمز إلى الجنة ، والقصور الرسمية ، ومراكز الحكم والعدل جنبا إلى جنب مع حياة الرفاهية والفخامة . وهناك أشياء معروفة عن القصور العباسية من الأوصاف المكتوبة ، ومن الأطلال الباقية فى سامراء - فقد كانت المداخل ساحات مفتوحة للاستعراضات وألعاب الفروسية ولها أسوار عالية وطرق خلال الحدائق تؤدى إلى سلسلة من البوابات الداخلية ، وفى المراكز قصر الإقامة والمكاتب الخاصة بالخليفة والقاعة ذات القبة حيث ينعقد المجلس . هذه الابنية تمثل القوة والعظمة والمتعة أيضا والانفصال عن العالم الخارجى وتكررت على طول وعرض العالم الاسلامى بحيث أوجدت نمطا عالميا ظل باقيا لقرون .

وبشكل ما لم يكن هناك ما هو اسلامي بالضرورة في هذه القصور .
الا أن احتواء كل هذه الأمور الدينية (من العالم) في امبراطورية واحدة
جميع عناصر من مواطن مختلفة في وحدة جديدة ، وكان الحكام على اتصال
ببعضهم البعض في العالم الاسلامي وخارجه وتبادلوا الهدايا وجلب الشعراء
عند عودتهم قصصا مشوقة . وكانت الصعوبة والنخب الحاكمة منفتحة
بشكل خاص على كل ما هو جديد ، وعبرت ديكورات القصور عن أشكال
وأفكار تراثية من حياة الأمراء في كل مكان ، مثل مشاهد المعارك والصيد
والنبيذ والرقص .

واستخدمت هذه الأفكار في الرسم على الحوائط وغلبت عليها
الأشكال الانسانية والحيوانية ، أما في المباني ذات الطابع الديني فقد
استبعدت أشكال الكائنات الحية ، وبرغم أن تصوير الكائنات الحية ليس
محرمًا بشكل صريح في القرآن الا أن معظم الفقهاء ، استنادا الى الحديث ،
اعتبروا أن ذلك تعد على القوة الالهية القادرة على خلق الحياة ، وتصور
الفسيفساء في الجامع الأموي في دمشق العالم الطبيعي والمنازل بشكل
أقرب ما يكون للواقع وتذكرنا بالحائطيات (الجداريات) الرومانية ،
ولكنها بلا مخلوقات حية ، ولم تكن حوائط المساجد والمباني العامة الأخرى
خالية من الزخارف . فكانت الأسطح تغطي بزخارف وأشكال من النباتات
والأزهار على طراز راق وانساق من الخطوط والدوائر المرتبطة والمتشابكة
تتكرر بلا نهاية ، كما تطور فن الخط على أيدي بعض المسؤولين في دواوين
الحكم ، وكان له مدلول خاص عنده المسلمين الذين اعتقدوا أن الله اتصل
بالعديد من الناس من خلال كلمته باللغة العربية ، وتطورت كتابة هذه
اللغة على أيدي فناني الخط بطرق مناسبة للزخرفة المعمارية ، فكانت
الكلمات تتكرر في أشكال متغيرة بلا نهاية ، أو تكتب في عبارات متشابكة
في أشكال نباتية أو هندسية ، وبهذا أصبح فن الخط من أهم الفنون
الاسلامية ، ولم تزين الكتابة العربية المباني فقط وانما العملة والمشغولات
النحاسية والفخارية والمنسوجات خاصة تلك المصنوعة في الورش الملكية
والتي كانت تقدم كهدايا ، واستخدمت الكتابة للاعلان عن عظمة وخلود
الاله وعن كرم وسخاء صاحب البناء أو براعة المعماري كتلك النقوش
الموجودة حول قبة الصخرة .

واختفت المساكن التي بناها في تلك الفترة سكان المدن من المسلمين
ولكن تبقى من أثارها ما يكفي للتذكير بالفنون التي استخدمت فيها ولاظهار
أن بعض الأعمال الفنية بها مشابهة للأعمال التي في القصور ، ونسخت
الكتب مزودة بالصور للتجار والعلماء وصنعت الأشغال المعدنية والزجاج

والفخار والخزف ، كانت المنسوجات ذات أهمية خاصة ، فالأرضيات كانت تغطي بالسجاد ، وتغطت المقاعد المنخفضة بالأقمشة ، وكانت السجاجيد تعلق على الحوائط والأقمشة كلها تتميز بنفس الزخارف التي ظهرت على المباني الدينية من أشكال من النباتات والأزهار والتصاميم الهندسية والكلمات العربية ولم يكن هناك الكثير من الشعارات الملكية ، كما أن الشكل الانساني لم يغيب تماما ، وسرعان ما ظهرت الخزفيات المصرية التي رسمت عليها أشكال انسانية ، كما أن النصوص احتوت على أشكال انسانية وحيوانية في تصوير القصص أو الحياة اليومية .

وبحلول القرن العاشر أصبح رجال ونساء الشرف الأدنى والمغرب يعيشون في عالم شكله الاسلام وانقسم العالم الى دار الاسلام ودار الحرب ، وأعطت الأماكن المقدسة عند المسلمين أو المرتبطة بتاريخهم المبكر دار الاسلام خصائصها المتميزة ، وعرف الوقت بالصلوات الخمس اليومية ، وبصلاة الجمعة وبالصيام السنوي في رمضان والحج الى مكة والتقويم الهجري .

كما أعطى الاسلام الناس هوية ميزوا بها أنفسهم عن الآخرين ، وعاش المسلمون ككل الناس على مستويات مختلفة ، فلم يكونوا يفكرون في الحساب أو الجنة طول الوقت ، وعرفوا أنفسهم خلال متطلبات الحياة اليومية فيما يتجاوز كيانهم الفردي بالعائلة أو الدائرة الأوسع من القرابة أو النسب أو وحدة المرعى أو القبيلة أو القرية أو المنطقة الريفية أو الحى أو المدينة ، وكانوا بخلاف ذلك على وعى بأنهم ينتمون الى دائرة أوسع هي مجتمع المؤمنين (الأمة) ، وربطت بينهم الشعائر الجماعية في قبول وفهم مشترك عن قدر الانسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة وفصلتهم عن المؤمنين بديانات أخرى سواء أكانوا يعيشون بينهم في دار الاسلام أم ما وراء حدوده .

كانت هناك هويات في عالم الاسلام ، على مستوى متوسط بين الوحدات الصغيرة المتماسكة للحياة اليومية ، لم تحقق الولاء للأمة بشكل قوى دائم ، ولكن خدمة وطاعة الأسرة الحاكمة خاصة اذا ما سادت لوقت طويل يمكن أن توجد مثل هذا الولاء . واللغة المشتركة أيضا لابد وأنهما أوجدت احساسا بسهولة التواصل ونوعا من العزة والكبرياء . ظل تمييز العرب بالاسلام في القرن الحادى عشر قويا مما دفع البيرونى الى الجذور الإيرانية الى تأكيد هذا بقوله : ان ديننا ودولتنا توأماز يحميهما اله واحد ، ولم تنجح كل المحاولات التي بذلت لتغليب هوية أخرى غير عربية على الدولة (٨) .

ولم يكن مفهوم الوطنية العرقية الحديثة موجودا بالطبع وهو أن أولئك الذين لهم لغة مشتركة يجب أن يعيشوا معا في مجتمع سياسى مغلق عليهم ، كما لم توجد أيضا تلك المفاهيم الخاصة بالدولة الاقليمية التى تعيش فى قطعة من الأرض تفصلها عن الآخرين حدود مرسومة . وغم ذلك كان هناك نوع من الوعي بالسماوات الخاصة للمدينة والأراضى التابعة لها التى يمكن أن تعبر عن نفسها بشكل اسلامى ، وأظهرت دراسة عن مصر أن الوعي بطبيعتها الخاصة ظل نابذا ، بسبب هبات الطبيعة وموقعها فى التاريخ الاسلامى ، وأبطالها من الشهداء والقديسين وما وراء ذلك من الذكريات التى عاشت فى الماضى (ما قبل الاسلام) ومن العجائب التى خلفها العالم القديم ، الأهرام وأبو الهول والمعابد القديمة ، الطقوس والمعتقدات فى الريف التى يلتصقها الرجال والنساء للحماية والأمان (٩) .

الفصل الرابع

ركائز الاسلام *

قضية السلطة

غير انتشار اللغة العربية بين شعوب غير عربية من طبيعة ما عبرت عنه من آداب ، ولم يتبد ذلك في الكتابة غير الدينية فقط وانما في نوع جديد من الكتابات تجلت فيها معانى الوحي الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجد الذين اعتنقوا الاسلام أنفسهم في مواجهة أسئلة لا مهرب منها : أسئلة لم تنشأ عن الفضول الفكرى والعقل فقط ، وانما من انتقادات المسيحيين واليهود والزرادشتيين ، وقبل كل هذا من الحاجة الى تصور الآثار المترتبة على الايمان ، وعلى الحياة فى المجتمع ، وقد حاولوا بطبيعة الحال الاجابة على هذه الأسئلة فى ظل رصيدهم المعرفى وطرقهم فى التفكير التى جلبوها معهم الى مجتمعهم الجديد ، أو الموجودة لدى أولئك الذين لم يتحولوا الى الدين الجديد . وفى القرون الأولى ظل اليهود والمسيحيون والمسلمون أكثر انفتاحا على بعضهم البعض مما أصبح عليه الحال فيما بعد ، وطبعى أيضا أن تلك العملية كانت تتم بشكل مثمر فى تلك الأماكن ذات التقاليد الفكرية الراسخة وأجهزة المعرفة القوية ، وقد كان لتغير الموازين وانتقال مركز الثقل الذى طرأ على الكيان السياسى للإسلام ما يوازيه فى مجال الفكر ، فلم تنتف أهمية المدينة ومكة ، ولكن سوريا اكتسبت أهمية وصار العراق أهمها جميعا بتربته الثقافية الخصبة من اليهودية والنسطورية والمسيحية وديانات ايران .

وقد جرى وبشكل واسع تفصيل الاسلام فى كيان من العلوم الدينية والممارسات فى العراق فى الفترة العباسية ، وكان ذلك استمرارا لحركات الفكر التى بدأت مبكرا قبل ظهور الاسلام ، لكن ذلك لا يعنى أن الاسلام لم يعطها اتجاهات جديدة .

(★) اختار الكاتب عبارة Articulation of Islam عنوانا لهذا الفصل

وقد ترجمتها (تفصيل الاسلام) كما ظهر معناها فى بداية الفقرة الثانية - (المترجم) .

وتنوعت الموارد التي اغترف منها المفكرون والعلماء ، فكان أولها القرآن ، ومنذ أخذ شكله النهائي لم يطرأ شك في أن مادته مستمدة من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو يصور الاله المهيمن القادر ، ورسله الذين بعث بهم الى البشر ، والايمان والعرفان والصلاة والاحسان التي ألزم بها الناس ، وحساب يوم القيامة الذي تتجلى فيه رحمته وعدالته . ثم ذلك التراث الحي عن سلوك المجتمع منذ عصر النبي وما بعده ، تتداولها وتنقيها الأجيال اللاحقة ، وقد وقر في قلبها نوع من الذاكرة الجمعية عن صورة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك أيضا ذكريات التصرفات العامة للمجتمع والخلفاء وسياساتهم وصراعاتهم وعلى الأخص تلك الخصومات والصراعات في عهد عثمان وحركات المعارضة التي نمخضت عنها ، وذكريات على رضى الله عنه والانقسامات الأولى التي حدثت بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم تتغير تقاليد الأدب فقط ، وانما تغيرت أيضا الطبيعة الأولية البسيطة للاسلام والتي ألزمت الذين يرغبون في الامتنال لمنسيئة الله بالبحث عن المعرفة والتدبير فيها من خلال كلمات الوحي وما بنى عليها من الأفكار والمعارف ، فقد بدأ البحث عن المعرفة الدينية (العلم) مبكرا في تاريخ الاسلام وتطور تدريجيا الى كيان من العلماء المنشغلين بفضاياه .

وقد تعددت خطوط الفكر والدرس التي فصل الاسلام من خلالها وان ترابطت بوضوح بعضها ببعض ، وكانت أول مشكلة ملحة هي مشكلة السلطة ، وقد أوجدت مواعظ وخطب محمد صلى الله عليه وسلم جماعة ملتزمة بالعيش وفقا لمعايير القرآن ، وقد فرضت الصراعات والنزاعات في نصف القرن الأول تساؤلا عن : السلطة ولمن تكون في هذا المجتمع ؟ وما نوع تلك السلطة ؟ وقد أجيب على ذلك التساؤل في ضوء التأمل في هذه المشاكل ، فهل يجب أن تكون الخلافة أو الامامة حقا مباحا لكل المسلمين أم تقتصر على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أم هي حق لعائلته فقط ؟ وكيف يجب اختيار الخليفة ؟ وما حدود تصرفاته الشرعية ؟ وإذا انحرف عن العدل فهل يجب طاعته أم يجب عزله ؟ .

وتبلورت تدريجيا مواقف عدة حيال مثل هذه المشاكل ، فكان موقف أولئك الذين سموا فيما بعد بالسنة ، يرى أن من الضروري على كل المسلمين أن يعيشوا جنبا الى جنب في سلام واتحاد ، ويعنى ذلك ضمنا أن عليهم

المعول بما حدث ، وقد قبلوا بشرعية الخلفاء الأربعة وبكونهم أيضا فاضلين راشدين ، فد لا تكون تصرفات الخلفاء اللاحقين هي العدل على الدوام ، ولكن يتعين قبول شرعيتها طالما أنها لا تخالف تعاليم الله الأساسية ، وهناك بعض الدلائل على أن الخلفاء الأمويين ادعوا بأنهم يخلفون النبي صلى الله عليه وسلم في قيادة المجتمع ، كما أنهم خلفاء الله في الأرض والمرجع الأسمى في تفسير الشريعة (١) ، ولم تعتبر جماعة السنة في شكلها المتطور الخليفة كنبى أو مفسر معصوم، وإنما كقائد وزعيم من واجبه حفظ السلام والعدل في المجتمع ، ولهذا فلا بد له أن يتحلى بالفضائل والمعرفة بالشريعة . كما كان أمرا مقبولا لدى الكثيرين أن يكون منحدرًا من قبيلة قريش التى ينتمى إليها النبي صلى الله عليه وسلم .

وبالتدريج طورت الحركات التى نازعت فى سلطة الخلفاء نظرياتها الخاصة حول السلطة الشرعية ، فاعتقد « الأباضية » أنه ليس من الضروري وجود (امام) فى كل الأوقات ، وأن بإمكان كل مسلم أن يصبح اماما بصرف النظر عن عائلته أو منشئه ، ويجب أن يختاره المجتمع ، وأن ينصرف بالعدل وفقا للقانون المشتق من القرآن والحديث ، وإذا ما أثبت أنه ليس عادلا فيجب عزله وتنحيته . كما لم تقبل الشيعة بأحقية الخلفاء الثلاثة الأوائل فى الخلافة ولكنهم اعتقدوا أن عليا بن أبى طالب هو الخليفة الشرعى الوحيد المختار لخلافة محمد صلى الله عليه وسلم كامام ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم حول أقارب على وحول سلطة الأمة ، فالزيديون كانوا هم الأقرب الى السنة فى موقفهم ووجهة نظرهم ، فاعتبروا أن كل من ينحدر من على من زوجته فاطمة يمكن أن يكون اماما على أن يكون عارفا تقيا ، وأن يكون قد أظهر همة فى مناهضة الظلم ، وعليه يمكن أن تكون هناك سلسلة من الأئمة ، متجددة باستمرار ولم يكن الامام فى اعتقادهم معصوما أو تفوق سلطاته السلطة البشرية .

أما الحركتان الشيعيتان الأخريان المهمتان فقد ذهبتا الى أبعد من ذلك، فقد آمنوا بأن الامام يعين الامام الذى يليه ، وأن الامام المختار هو المفسر المعصوم لوى الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الطائفة التى استقطبت أكثر الأتباع فقد اعتقدت أن الخلافة تظل فى نسل على حتى الامام الثانى عشر فى الترتيب ، الذى اختفى عن العيان فى القرن التاسع لهذا سموا بالشعبة الاثنى عشرية ، ولما كان العالم لا يمكن أن يوجد بغير امام ، كان من المعتقد أن الامام الثانى عشر لم يمت لأنه موجود يعيش فى « غيبة » وأنه فى البداية اتصل بالشعب الاسلامى من خلال وسطاء ولكنه

اختفى بعد ذلك عن العالم الذى ظل يتوقع عودته ليعيد سيادة العدل .
أما الاسماعيليون من ناحيتهم فقد اتفقوا على أن الامام هو المفسر المعصوم
للحقيقة ، ولكنهم اعتقدوا بأن خط الأئمة المرثيين انتهى مع الامام السابع
« محمد بن اسماعيل » الا أن بعضهم عدل من معتقده عندما أعلن الخلفاء
الفاطميون أنهم أئمة .

وكان من المتوقع أن تكون لهذه الآراء المختلفة فى الخلافة أو الامامة
تداعيات متباينة فى طبيعة الحكومة وموقعها فى المجتمع ، فكل من الإباضية
والزيديين كانتا جماعتين انسحبتا من المجتمع الاسلامى العام ، ورفضتا
الطاعة لسلطة الحكومات الظالمة ، وكانتا ترغبان فى العيش تحت حكم دينى
حسب تفسير كل منهما ولم تكونا راغبتين فى اعطاء الامام أو (أى حاكم
آخر) القوة والسلطة التى قد تجعله يتصرف بلا عدل ، ومن ناحية أخرى
كان السنة والشيعة الاثنا عشرية والاسماعيليون كل منها على طريقته يريد
سلطة القانون والحفاظ على النظام فى المجتمع . وبنهاية العصر الأول
تكرس الانفصال الحتمى بين أولئك الذين حافظوا على القانون (العلماء
بالنسبة للسنة والامام الغائب عنده الشيعة) من ناحية (ورجال السيف)
الذين لديهم القوة لفرض السلطة الزمنية من ناحية أخرى .

عدل الله وقوته

كانت قضية السلطة الزمنية بشكل من الأشكال انعكاسا لمسائل
أكثر أصولية ، هى التى انبثقت من القرآن : الأسئلة حول صفات
الله وتعامله مع الجنس البشرى ، وعن وحدانيته وعدالته .

فالله فى القرآن واحد متعال فوق الوجود المادى ، ولكن القرآن يتحدث
عن صفات المشيئة والعلم والسمع والبصر والكلام ، والقرآن كلمته .
فكيف يمكن التوفيق بين تعدد صفاته مع وحدانيته ؟ وكيف يمكن وصف
هذه القدرات ، وهى أيضا قدرات الانسان ، بمفردات تحافظ على لا نهائية
المسافة بين الله والانسان ؟ وما علاقة القرآن بالله ؟ وهل يمكن القول
انه كلمته دون أن يعنى ذلك أن له قدرة على التخاطب مماثلة لقدرة
مخلوقاته ؟ . هذه المشكلات هى من النوع الموروث فى أى دين يؤمن بأن
هناك قوى أسمى تتجلى على شكل ما للمخلوقات البشرية ، وكان التجلى
فى المسيحية على صورة انسان وعليه كان السؤال اللاهوتى الأساسى فى
القرون المبكرة يدور حول علاقة هذا الانسان بالرب ، وكان التجلى عند
المسلمين على هيئة كتاب ولهذا فمشكلة وضعية هذا الكتاب لابد وأن تصبح
أساسية .

والتساؤل عن طبيعة الرب يؤدي منطقيا الى التساؤل عن طبيعة تعاملاته مع الناس ، وهناك انطباعات لابد وأن يتخلقا في ذهن كل من قرأ القرآن أو استمع اليه مرتلا ، الله قوى عليم ، ولكن الانسان مسئول عن عمله بشكل ما وسيحاسبه الله على أعماله ، كيف يمكن لهاتين المقولتين أن تتفقا ؟ مرة أخرى هي مشكلة موروثه في الفكر والايان التوحيدى ، اذا كان الله هو الأقوى كيف يمكن أن يسمح بالشر ؟ وكيف يمكن أن يكون محقا وعادلا في ادانة الأفعال الشريرة ؟ ٠٠ بشكل عام هل الانسان مخير في القيام بأفعاله أم انها جميعا من عند الله ؟ ، اذا لم يكن مخيرا فهل من العدل أن يحاكمه الله ؟ واذا كان حرا ويمكن عندئذ أن يحاسبه الرب ، فهل يمكن أن يدرك مبادئ العدل التى سوف يحاسب على أساسها ؟ واذا كان الأمر كذلك أفلا يعنى ذلك أن هناك مبادئ للعدل تحكم أفعال الرب ؟ وعليه فهل يمكن القول بأن الله مطلق القوة ؟ وكيف يكون حساب المسلمين ؟ هل بالايان فقط ؟ ، أم بالايان مع التعبير الشفهى عنه ؟ أم أيضا بالعمل الطيب ؟ ٠

يتضمن القرآن مثل هذه الأسئلة التى تواجه كل من أخذ الأمر بجديّة ، ولكن التفكير المنظم فيها لا يعنى فقط التمعن فى النص ولكن فى المنهج أيضا ، والاعتقاد بأن المعرفة يمكن اكتسابها بالعقل الانسانى الذى يعمل وفقا لقواعد معينة ، هذا الايمان بالعقل الموجه بشكل سليم هو الذى شكل الحياة الثقافية فى المناطق التى انتشر فيها الاسلام بما فيها الحجاز ، وهناك آثار من التفكير والاستنتاج الجدلى فى القرآن ذاته ٠ وليس من المستغرب عندئذ أنه بنهاية القرن الاسلامى الأول أو السابع الميلادى أظهرت الوثائق الباقية أنه مطبق فى شرح القرآن فى الحجاز وسوريا ويران ، وظهرت أول مجموعات ما يمكن أن يسمى بمدارس الفكر : أولئك الذين جادلوا بأن الانسان له ارادة حرة وهو المسئول عن أفعاله الخاصة ، وأولئك الذين أكدوا أن ليس له ارادة حرة وأن ليس لله صفات يشارك فيها البشر ٠

٠ وفى منتصف القرن الاسلامى الثانى (الثامن الميلادى) ظهرت مدرسة بمعنى أكثر اكتمالا، تكونت من مفكرين لهم وجهات نظر واضحة ومتماسكة حمال مجمل المشاكل ، ولكن اعتبارهم مدرسة واحدة لا يعنى أن لديهم جميعا نفس الأفكار بالتحديد أو أن أفكارهم لم تتطور من جيل لآخر ، أولئك كانوا (المعتزلة) الذين آمنوا بأنه من الممكن التوصل للحقيقة بالتفكر فيما ورد بالقرآن وبهذا الطريق توصلوا الى اجابة عن أسئلة قائمة بالفعل ، أن الله واحد ، وليس له صفات بشرية تتعلق

يجوهره وأنه لم يخلق القرآن الذى لابد وأنه قد (خلق) بطريقة أخرى ، والله عادل ، وهو ملتزم بمبدأ العدالة ، ولهذا فالإنسان لابد وأن يكون حرا (مخيرا) فليس من العدل محاسبة البشر بأفعالهم ان لم يكونوا مخيرين فى ارتكابها ، وإذا كانت الأفعال البشرية حرة وعرضة للمحاكمة والحساب ، فان ذلك يعنى أن الايمان ليس كافيا بدون العمل الصالح ، والمسلم مرتكب الكبائر لا يمكن اعتباره كافرا أو مؤمنا حقا ولكن له منزلة بين المنزلتين •

فى نفس الوقت ظهرت طريقة أخرى للنظر فى هذه المشاكل ، وهى أكثر حذرا وترددا حول امكانية التوصل الى حقيقة مقبولة ، أو يتفق عليها بالتفكير والاستنتاج • كما كانت أكثر وعيا بخطورة انخراط المجتمع فى الجدل والنقاش ، أولئك الذين فكروا بهذه الطريقة وضعوا أهمية الحفاظ على وحدة المسلمين قبل أهمية التوصل الى اتفاق حول مسائل المذاهب والعقيدة • وكانت كلمة القرآن عندهم هى الأساس المحدد المتين الذى يقوم عليه الايمان والسلام الاجتماعى ، وأن القرآن يجب أن يفسر عندما يكون التفسير ضروريا وفى ضوء الممارسات الاعتيادية للرسول وصحابه (السنة) كما تناقلتها الأجيال اللاحقة ، كان ذلك الميل الفكرى موجودا فى فترة مبكرة ، ولكنه تبلور فى زمن متأخر بحكم طبيعته فى مجموعة من المذاهب اختلفت عن المذاهب التأملية ، وقد كان أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) هو المسئول الأول عن تشكيل ذلك الميل الفكرى ، وقد مسه الاضطهاد نتيجة ذلك ، وقال ان المرجع الوحيد هو القرآن والسنة ، وهما بينان لنا أن الله مطلق القدرة ، وأن عدله ليس كعدل البشر • وإذا كان القرآن ينسب اليه بعض الصفات ، فيجب قبولها كصفات الهية وليس بالمقارنة بمشيلاتها فى الانسنان ، وبدون السؤال عن كيفية تواجدها وتلازمها ، [ومن هذه الصفات « القرآن » الذى هو كلمته • فهذا ما يقوله القرآن نفسه ، وعليه فانه قديم وليس مخلوقا] ويجب على الانسان الامتنال لارادة الله بالأفعال كما بالايمان • وهذا المفهوم عن اله يحكم بطرق غامضة قد يبدو حكما قاسيا • ولكنه يتضمن نوعا من التأكيد على الرعاية الالهية للعالم حتى وان كانت طرقه ليست مما يعلمه الانسان ، وأن ما حدث لهم فى تاريخهم هو جزء من ارادة الله وما كتبه عليهم ، وبهذا البناء الفكرى أصبحت السنة مفصلة ميسرة •

واستمر الخلاف بين العقلانيين واتباع ابن حنبل لفترة طويلة وتغيرت فضايا الجدل ، وكان اللاحقون من المعتزلة متأثرين بعمق بالفكر اليونانى ، ولكن أهميتهم تضاءلت مع تبلور المجتمع السننى ، وان استمر تأثيرهم

قويا بين مدارس الشيعة مع تطورها في بداية القرن الحادى عشر ، وكان الأشعرى (ت ٩٣٥) أحد المفكرين الذين أيدوا موقف التقليديين ، واستخدم طريقة الجدل العقلانى للدفاع عنها ، حيث التزم بالمعنى والتفسير الحرفى للقرآن ولكنه أكد على امكانية تفسيره بالعقل والمنطق ، أما فيما يتجاوز العقل فلا بد من قبوله على علانه . فالله واحد ، وصفاته جزء من جوهره ، ولكنها ليست الله كما أنها ليست شيئا خلاف الله . ومن بينها السمع والبصر والكلام التى ليست كسمع وبصر وحديث الانسان وانما يجب قبولها بدون أسئلة فالله هو العلة المباشرة لكل ما يحدث فى الكون ، وهو ليس محددًا بأى شئ خارج ذاته . وهو الذى يعطى الانسان القدرة على الفعل فى لحظة الفعل ، وهو ينبأ ويخلق ما هو خير وما هو شر فى الدنيا ، والاستجابة السليمة الصائبة لوحى الله المنزل هى الايمان ، وحتى اذا كان لدى المرء ايمان بلا عمل صالح فهو مؤمن وسوف يشفع له النبى يوم القيامة .

ويتأكد فى فكر الأشعرى أهميه عدم الجدل فى الدين ، كما تتأكد ضرورة القبول بحكم الامام أو الخليفة وعدم مناهضته بالسيف ، ورغم ذلك ظهرت خلافات فى الآراء حول شرعية استخدام المجاز والاستعارة فى مواجهة التفسير الحرفى للقرآن ، وعن المعنى المحدد لكون القرآن قديم غير مخلوق ، وهل يعنى هذا النص نفسه أم يعنى انتقال النص الى الناس ، وحول ضرورة الأعمال الصالحة جنباً الى جنب مع الايمان ، الا أن هذه الاختلافات ورغم ذلك لم تؤد الى صراعات داخل المجتمع السنى .

الشريعة

لا تشير آيات القرآن - الا ضمناً - الى بناء (نظام) عقيدى (*) . ولكنه يقول للناس ما شاء الله أن يعلموا ، فهو قبل كل شئ وحى لارادته سبحانه ، وتفصيل لأعمال الناس التى ترضيه ، وكيف سيكون حسابهم فى الآخرة ، كما أنه يحتوى على الأوامر التى تتعلق بنظام الزواج والمواثيق ، ولكن هذه الأوامر محدودة ، حيث ان ارادة الله تتجلى فى شكل مبادئ عامة ، كما تتناول الأوامر والنواهي طرق العبادة والمعاملات ، الا أن

(*) النص :

Except by implication, the Quran does not Contain Within Itself a system of doctrines.

والمعنى كما نفهمه أنه ليس مجرد تنظير أو بناء فكري وانما توجيهات عملية - (المراجع) .

الفرق بينهما فارق طفيف حيث ان للعبادة جوانبها الاجتماعية ، كما ان العدالة والاحسان أعمال تبتغى وجه الله .

وقد أدى التفكير فى القرآن وسلوكيات المجتمع الاسلامى الأول الى بلورة اتفاق عما هو واجب على المسلم فيما يسمى بأركان الاسلام وتشمل الشهادة الشفهية « أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » والثانى هو الصلاة بنصوص محددة من الكلمات التى تتكرر مرات معينة مع أوضاع معينة للجسم خمس مرات يوميا ، والأركان الأخرى كانت دفع نسبه من الدخل لأنواع من أعمال الخير أو النفع العام ، وصيام تام من شروق الشمس حتى غروبها على مدى شهر كامل فى السنة هو شهر رمضان الذى ينتهى بالعيد ، ثم أخيرا حج البيت فى مكة فى موسم الحج وتشمل عددا من المراسم ، ثم ينتهى بعيد يحتفل به المجتمع كله ، وبالإضافة لكل هذه الشعائر وأمر وتوصيات عامة للسعى فى سبيل الله (الجهاد) وقد يتسع معناها أو يتبلور فى مفهوم أضيق هو القتال فى سبيل توسيع رقعة الاسلام .

وقد احتاج الأمر منذ البداية الى أكثر من مجرد اتفاق حول أركان العبادة الأساسية . فمن ناحية كان هناك من أخذوا القرآن بجدية واعتقدوا بأنه يحتوى ضمنا مفاهيم للحياة ككل ، حيث ان لكل أفعال البشر معنى عند الله وكلها ستتؤخذ فى الاعتبار فى يوم الحساب ، ومن ناحية أخرى كان هناك الحاكم ونوابه الذين احتاجوا الى اتخاذ قرارات فى اطار من المشاكل ، وقد تؤدى بهم قناعاتهم والشروط التى يبررون بها أحكامهم الى اتخاذ قرارات لا تتناقض مع ما جاء فى القرآن من معان وارشادات .

وفى فترة الخلفاء الأوائل والأمويين تواكبت عمليتان معا : هما أن الحاكم ونوابه وقضاته طبقوا العدل وفصلوا فى الخلافات على ضوء العادات والقوانين فى المناطق المختلفة ، وفى نفس الوقت حاول المسلمون الجادون والمهتمون اخضاع كل الأفعال الانسانية لحكم الدين لوضع نظام مثالى للسلوك الانسانى ، وكان عليهم أخذ كلمات القرآن فى الاعتبار وتفسيرها ، وكذلك الذكريات المتوارثة فى المجتمع عن السنة النبوية التى جاءت فى الحديث الشريف ، وكيف كان الخلفاء الأوائل يتخذون قراراتهم ، وكيف تراكمت الحكمة فى المجتمع فيما صار يعتقد أنه الطريق السوى فى السلوك أو سنة المجتمع .

ولم تكن العمليتان مختلفتين اختلافاً كلياً ، فقد كان على الخليفة أو الوالى أو القاضى تعديل العادات السائدة فى ضوء الأفكار المتطورة لمتطلبات الاسلام ، فى حين حاول الدارسون ادماج بعض موروثاتهم فى صلب ذلك الفكر المثالى ، الا أن هاتين العمليتين ظلتا منفصلتين تماماً أثناء المراحل المبكرة من ظهور الاسلام ، كما كان داخل كل عملية منهما توجهات مختلفة ، ولا بد أن عادات ونظم المناطق المختلفة كانت تتناقض مع الطريقة التى نشأت بها الامبراطورية وأديرت ، والدارسون من جانبهم كانوا متناثرين فى عدة مدن هى مكة والمدينة والكوفة والبصرة ومدن سوريا ، وكان لكل منها طريقة فى التفكير تعكس ذكرياتها الموروثة كما تعكس احتياجات وممارسات المنطقة مبلورة فى تفاهم عام فيما يمكن أن يكون اجماعاً محلياً .

وبظهور العباسيين فى منتصف القرن الاسلامى الثانى (الثامن الميلادى) تغير الموقف . فقد نشأت دولة مركزية تحكمها البيروقراطية مما جعل من الضرورى التوصل الى اتفاق حول طرق تسوية المنازعات وتنظيم المجتمع ، وقد أدى ادعاء العباسيين بوجود مسوغ دينى لحكمهم الى ضرورة الاتفاق على تعاليم الاسلام ، وبهذا تقاربت العمليتان وأصبح القاضى مستقلاً عن القوة التنفيذية - على الأقل نظرياً - يتخذ القرارات فى ضوء تعاليم الدين .

لقد تزايد الاحتياج اذن الى صياغة اجماع حول التطبيق العملى لمبادئ الاسلام ، وقد كان القرآن والحديث وآراء العلماء وسنة المجتمعات وتقاليدها من المصادر المهمة ، ولكن لم يكن هناك اتفاق عام حول العلاقة بينها ، فقد استند أبو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧) الى التركيز على أهمية الاجتهاد ، فى حين استند مالك (٧١٥ - ٧٩٥) الى أهمية مصالح المجتمع المرسل بالرسالة بالرغم من أهمية رأى الفردى .

وقد جاءت الخطوة الحاسمة فى تعريف العلاقات بين القواعد المختلفة للقرارات القانونية على يد الشافعى (٧٦٧ - ٨٢٠) عندما أكد أن القرآن هو الكلمة الحرفية لله ، وهى تعبر عن ارادته سواء أعلقت بمبادئ عامة أم تعاليم محددة عن الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وأن سنة النبى كما تسجلها الاحاديث من الأعراف المتراكمة للمجتمعات ، كانت تعبيراً واضحاً عن إرادة الله ، وأنها تأكدت بآيات القرآن : [يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول] (٢) ، وأفعال وأقوال النبى عبرت عن المغزى الخاص

للمعنى العام للقرآن ، وأعطت أيضا دليلا عن المسائل التي أغفلها القرآن ، فالقرآن والسنة عند الشافعي معصومان بنفس القدر ، فلا السنة قادرة على نسخ القرآن ولا القرآن ينسخ السنة ، ولا يمكن أن يتناقض أحدهما مع الآخر ، ويمكن تسوية الخلافات الظاهرة بينهما ، كما أن الآيات المتأخرة أو السنة يمكن أن تنسخ ما جاء قبلها (٣) .

وبالرغم من وضوح التعبير عن منسيئة الله في القرآن أو السنة تبقى بعض أسئلة معقدة عن التفسير أو عن تطبيق المبادئ على المواقف الجديدة ، والطريقة الفكرية التي فضلها الشافعي هي أن الوسيلة الوحيدة أمام المسلمين العاديين لتفادي الخطأ هي أن يتركوا الفكر لأولئك المؤهلين لاستخدام الفكر لشرح ما يحتويه القرآن والحديث ، على أن يكون ذلك في أضيق الحدود ، وعلى أولئك المؤهلين لأعمال فكرهم أن يعملوا بالقياس بين عناصر المواقف الجديدة وبين عناصر تشبهها في قضايا سبق الحكم فيها ، وقد سميت هذه الممارسة المنضبطة بالاجتهاد الذي يسوغه الحديث الشريف « العلماء ورثة الأنبياء » وعندما يحدث اتفاق عام نتيجة مزاوله المنطق بهذا الشكل ، يكتسب ذلك الاتفاق العام (الاجماع) صفة الحقيقة المؤكدة التي لا تمارى .

وقد عبر الشافعي نفسه عن هذا المبدأ على أوسع شكل في قوله : « عندما تصل الأمة الى اجماع حول مسألة ما ، تغلق القضية الى الأبد » ، الا أن حديث المفكرين اللاحقين في فترة معينة بمن فيهم من اتخذ الشافعي معلما ، وضع المبدأ بشكل مختلف وهو أن الاجماع الصالح الوحيد هو اجماع العلماء القادرين على ممارسة الاجتهاد .

وقد أضاف الشافعي الى تلك المبادئ في التفسير اضافة حازت قبولا جماعيا هي أن ليس بوسع مفسري القرآن والسنة التفسير دون معرفة كافية باللغة العربية ، وقد استند الى آيات من القرآن هي : [**انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**] (٤) وعلى كل مسلم عند الشافعي أن يتكلم العربية بالقدر الذي يمكنه من نطق الشهادة وترتيل القرآن والتكبير باسم الله (الله أكبر) . ولكن على طالب العلم أن يحصل أكثر من ذلك .

وحين لاقت هذه المبادئ قبولا عاما ، أمكن ربط مجموعة من القوانين والمبادئ والتوصيات والأوامر الأخلاقية بها ، وقد عرفت هذه العملية الفكرية بالفقه وأنتجت ما عرف بالشرعية .

ونشأت بالتدريج مجموعة من المدارس فى القوانين تدعى المذاهب ، وقد اكتسبت أسماءها من كتابها الأوائل حيث انتسب الحنفية الى أبى حنيفة ، والمالكية الى مالك ، والشافعية الى الشافعى ، والحنابلة الى ابن حنبل ، وغيرها مما لم يكتب لها البقاء ، واختلفوا فيما بينهم حول نقاط أساسية محددة فى القانون ، وحول مبادئ التفكير الشرعى (أصول الفقه) واختلفوا على الأخص على مكانة الحديث وشرعية وحدود وطرق الاجتهاد .

وتقع المدارس الأربع فى اطار السنة ، أما المجموعات الاسلامية الأخرى فكانت لها أنظمتها فى القانون والأخلاقيات الاجتماعية . ولم يختلف الأباضية والزيدية بشكل كبير عن مدارس السنة ، ولكن الشيعة الاثنى عشرية عرفت القوانين بطرق مختلفة ، فاجماع الأمة يصح فقط اذا شمل الامام نفسه ، كما كانت هناك أيضا أمور متميزة فى القانون الأساسى للشيعة .

وبرغم الطبيعة النظرية للشرعية أو ربما بسببها ، كان من المقدر على أولئك العلماء الذين علموها وفسروها وطبقوها (العلماء) أن يتبوؤا مراتب مهمة فى الأقطار والمجتمعات الاسلامية . فقد أمكنهم ، باعتبارهم حراسا على سلوكيات ومتواضعات اجتماعية صلبة ، أن يحدوا من تصرفات الحكام بدرجة أو أخرى ، أو أن يقدموا اليهم النصيحة على الأقل ، كما كان بإمكانهم التعبير عن الأمة أو بالأحرى الششق الحضرى منها ، الا أنهم حاولوا أن ينفصلوا عن الحكام والمجتمع محافظة منهم على الاحساس بأنهم مجتمع خاص ترشده السماء . ويعلو على الزمن ولا يرتبط بمصالح الحكام أو بنزوات الجماهير .

سنة الرسول صلى الله عليه وسلم

استغلت الخلافات السياسية والدينية للقرون الثلاثة الأولى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما اعتمد نظام التشريع المتطور على الحديث كأحد مصادره ، الا أن العلاقة بين الحديث وبين علماء التوحيد والحديث والقانون كانت أكبر تعقيدا من ذلك ، فلم يكتفوا باستخدام الحديث ، ولكنهم قاموا ببناء الاسناد الى رواة الحديث طوال العهود التى حملته اليها ، وقد أدت هذه العملية الى نشأة علم دينى آخر هو فقه السنة ، وهو وضسع المعايير وتطبيقها لتمييز الحديث الصحيح عن الضعيف أو الموضوع .

وقد كان للمجموعة التي التفت حول الرسول صلى الله عليه وسلم نظام للسلوك الاعتيادي الذي كان «سنة» بمعنيين مختلفين، فقد أنشأت ، باعتبارها مجتمعا ، نظمها السلوكية القويمة التي نمت وتطورت بضمان نوع من الاجماع أى سنة المجتمع ، ثم ان هذه المجموعة ضمت أناسا حاولوا حفظ السنة عن الرسول فيما قال أو فعل ، فلا بد أن صحابته كانوا يذكرونه لمن تلاهم من أجيال ، وتناقلوا حديثه شفاهة وكتابة منذ وقت مبكر ، وفي حين نظر بعض المخلصين من المسلمين شذرا الى الحديث باعتبار ما يمكن أن يسببه من تشتيت لنقاء القرآن وتفردده ، فقد شجعه البعض الآخر ، وقد اتخذ الحديث وسيرة الرسول شكلهما المكتوب فى نهاية الدولة الأهوية .

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد ، فقد حدث اختلاف فى كل من السنة الاجتماعية وسيرة الرسول من مكان الى مكان ومن زمن الى زمن ، فقد بهتت الذكريات ، وتغيرت الحكايات فى الرواية ، ولم يكن جميع الرواة من الثقات الصادقين ، وكانت السنة الاجتماعية فى أول الأمر أكثر السنتين أهمية ، ولكن مع تقادم الزمن أسند بعض المشرعين وعلماء الدين أهمية أكبر لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان المشرعون يرغبون فى اسناد العادات الاجتماعية والنظم الادارية التي نشأت الى مبادئ الدين ، وكان الاسناد فى الحديث هو أحد الطرق لتحقيق ذلك ، أما أولئك الذين انشغلوا بالقضايا الكبرى عن السلطة أو عن طبيعة الله والقرآن ، فقد حاولوا اثبات آرائهم بدلائل من حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهكذا توسعت دائرة الأحاديث المنسوبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء القرنين الثانى والثالث الهجريين (حوالى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) وقد كان ذلك مقبولا الى حد ما باعتباره أداة أدبية يبروها الحديث الشريف « ما من قول طيب الا وكنت قائله » وقد اتضحت منذ وقت مبكر خطورة ذلك التوسع ، وبدأت حركة تحقيق الحديث بهدف التمييز بين الأحاديث الصحيحة والزائفة ، ونمت هذه الحركة فى نهاية القرن الاول الهجرى على يد المتخصصين الذين سافروا بطول البلاد وعرضها ، وكانوا ضمن تلقوا تراث الحديث على أيدي آبائهم أو معلميهم ، وحاولوا اسناد السيرة والحديث عكسيا وصولا الى شهود للرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته ، وهكذا تم على أيديهم توحيد متون الأحاديث وروايات السيرة .

وقد اتخذ الحديث الشكل الذى استقر عليه الى الآن من خلال تلك العملية التي اعتمدت جزئيا على التذكر وعلى الانتحال جزئيا ، وكان لكل

منهما شقان : أولهما نص يحفظ أمرا قاله الرسول أو فعله ، وثانيهما سجل لسلسلة من الاسنادات وكلا العنصرين قابل للشك ، فقد يكون النص منتحلا ، أو حدث خطأ في تذكره ، وكذلك سلسلة الاسنادات ، ويبدو في كثير من الحالات أن طول سلسلة الاسناد يمكن أن يكون أداة من أدوات المشرعين أو المحدثين ، وهكذا نشأ الاحتياج الى علم فقه السنة بحيث يمكن عن طريقه تمييز الصحيح عن المنحول استنادا الى مبادئ واضحة .

وقد تركز انتباه الدارسين الذين أخذوا على عاتقهم فحص الحديث ونقده على الاسناد الى سلسلة الشهود بما يشمل محال وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ، وأجيالهم المتعاقبة بما يثبت امكان تلاقيهم ، وما اذا كانوا محلا للثقة ، ولا بد أن تجرى هذه العملية بدقة ، وأن ننضمّن نوعا من السعور بأصالة أو معقولية النص في حد ذاته ، وهو أمر يتميز به المجربون في دراسة الأعراف .

وقد تمكن فقهاء السنة من تصنيف الأحاديث حسب درجة صحتها بناء على تلك المؤشرات ، وقد احتوى أعظم مرجعين للحديث وهما للبخارى (٨١٠ - ٨٧٠) ومسلم (٨١٧ - ٨٧٥) على الأحاديث الصحيحة فقط ، ولكن المراجع الأخرى للحديث لم تكن على نفس الدرجة من الصرامة بالرغم من أن بعضها يعتبر من أصول المراجع ، كما كانت للشيعة مراجعهم من أحاديث الأئمة .

وقد يشعر معظم الدارسين الغربيين وبعض المسلمين المحدثين بشك أكثر مما عانى منه البخارى ومسلم بصدد الكثير من الأحاديث الصحيحة ، حيث يمكن أن تكون نتاجا للجدل حول السلطة أو المذهب أو تطور الشرائع ، ولكن هذا القول لا يصح أن يثير الشك في الدور المهم الذي لعبته هذه الأحاديث في تاريخ المجتمع الاسلامي ، ولا تقل أهمية الطريقة التي استخدمت بها عن أهمية أصولها ، فقد يلجأ الحاكم في أوقات التوتر السياسي عندما يكون العدو على الأبواب الى أن يطلب من العلماء قراءة مختارات من البخارى في المسجد الكبير كنوع من التأكيد على ما قدره الرب لعباده ، كما أن دارسي القانون والفقه والعلوم العقلية اللاحقين قد يلجئون الى تدعيم مقولاتهم ببعض الأحاديث التي بقيت في مخزون ضخم حتى بعد أن نبذها كل من البخارى ومسلم من صحيحيهما .

طريق التصوف

انطلقت علوم التوحيد والشريعة والحديث جميعا مما جاء في القرآن الكريم ، وانتهت الى تأكيد مفاهيم الاسلام، ووضعت حاجزا مرتفعا بينه وبين ديانات التوحيد الأخرى التي كان الاسلام قريبا منها أو متصلا بها. إلا أنه - على أية حال - ظهرت بعض المسالك الفكرية التي بدأت من المنطق نفسه ، ولكنها مالت الى تأكيد أمور يشترك فيها المسلم مع غيره من أصحاب الديانات الأخرى .

وقد كان التصوف هو أحد تلك المسالك الفكرية (وهو أصل الكلمة الانجليزية Sufism) ، ويحتمل أن تكون اشتقاقا من ثوب (الصوف) الذي كان على الناسك أن يرتديه في المراحل الأولى لهذه الجماعات ، ومن المتفق عليه حاليا أن التصوف يستلهم القرآن ، فالْمُؤْمِنُ الذي يتأمل معانيه قد يمتلئ بشعور مفعم بسمو الله عز وجل ، وتوكل كافة المخلوقات عليه ، الله القوى المستغلق على الفهم ، يهدي من آمن به ، وبالرغم من عظمته فهو حاضر قريب من روح كل انسان يتوكل عليه « أقرب اليه من حبل الوريد » ، ويحتوى القرآن على صور بالغة القوة عن قرب الله للانسان ، وعن الطرق التي يستجيب بها للانسان ، ويقال انه قبل خلق العالم أخذ الله عهدا على البشر ، فجاء في سورة الأعراف « وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » (٥) ، ويقال ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد أسرى به في حياته الى القدس وعرج به الى السماء حيث سمح له بالاقتراب من الله ومشاهدة وجهه .

كان هناك نوعان من التفاعل شديدا الاندماج أحدهما بالآخر في تاريخ الاسلام المبكر ، فهناك حركة تتوجه الى التدين والصلاة التي تهدف الى التطهر في النوايا والزهد في الملذات ومتع الدنيا ، وهناك حركة أخرى للتأمل في معاني القرآن ، وقد تلازمت الحركتان في سوريا والعراق أكثر من تعايشهما في الحجاز ، وكان طبيعيا أن ينهلا من توجهات الفكر والأخلاق التي وجدت في العالم الذي يعيش فيه المسلمون ، ففد اتخذ كل من اعتنق الاسلام شيئا من طرائقه الأولى ومن بيئته التي كان يعيش فيها ، والتي كانت في معظمها مسيحية ويهودية في بداية الاسلام وقد كان ذلك العهد هو آخر عهد عظيم في المسيحية النسيكية الشرقية ، وفي الفكر والحياة الرهبانية ، وقد أنكر صلى الله عليه وسلم الرهبنة حينما قال في حديث مشهور : « لا رهبانية في الاسلام » وقال بعض الفقهاء ان الرهبنة الاسلامية هي الجهاد ، الا أن نفوذ الرهبان المسيحيين كان

مغريا خاصة فى أفكارهم عن عالم فاضل مغلق ، أسمى من ذلك العالم
الاتباعى بقوانينه المنضبطة ، وتتأخص عقيدتهم فى أن هجر الدنيا وهزيمة
الجسد وتكرار اسم الله فى الصلوات قد يؤدى بعون من الله الى تنقية
القلب ، وخلصه من هموم الدنيا ، وتقدمه نحو عالم من العرفان البصرى
بالله (*) .

وتبدو أصول مثل هذه الأفكار فى شكلها الإسلامى واضحة منذ
القرن الهجرى الاول فى قول الحسن البصرى :

« ان المؤمن يصبح حزينا ولا يسعه غير ذلك ، لأنه بين
مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين
أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك ... فاحذروا
- ولا قوة الا الله - ذلك الموطن ، [واذكروا الحياة
الآخرة »] (٦) .

وقد تجلت مشاعر البعد والقرب الى الله فى صيغة الحب : حيث
كان الله هو الوحيد الجدير بأن يكون مقصدا للحب الانسانى لذاته فقط ،
ويجب أن تكون حياة المؤمن طريقا لمعرفته جل جلاله وكلما اقترب الانسان
من الله اقترب الله منه فيصير هو سمعه وبصره ويده ولسانه .

ونجد فى فقرة من سيرة الترمذى الذاتية فى القرن الثالث الهجرى
(التاسع الميلادى) ، وهو كاتب فى المسائل الروحية ، كيف أن الروح
تنجذب الى الطريق ، فحين كان فى الحج يصلى فى الحرم انتابته نوبة
فجائية من الندم على خطاياهم ، وحين بحث عن طريق قويم يعيش عليه
صادف كتابا للأنطاكى عاونه على كبح النفس ، وحقق تقدما تدريجيا على
طريق كبح شهواته واعتزال الناس ، وعاونته فى ذلك أيضا رؤيا فى المنام
للمرسول ، كما كانت زوجته تنتابها رؤى وأحلام ، وقد تعرض للاضطهاد
والتشنيع على يده أولئك الذين ادعوا عليه بأنه يستحدث فى الدين ما ليس
فيه ، ولكن تلك النوائب ساعدته على نقاء قلبه ، ثم كان أن انتابه أثناء
عودته من خلوته حالة انفتح فيها قلبه وفاض بالعدوبة (٧) .

(*) النص : intuitive knowledge ، وقد تعنى العرفان اللدنى نسبة
الى العلم اللدنى الذى يعطيه الله لمن يشاء الذى لا يحتاج الى أسباب واضحة بالمقاييس
الدنيوية ، كالعلم الذى أعطاه الله للحضر عليه السلام . ومصطلح العلم اللدنى شائع بين
المصوفية - (المراجع) .

وقد شهد القرن التالى امتدادا للكشف عن الطريق الذى يجب أن يرتاده الناس رجالا ونساء ، والتكهنات النسي ارتبطت بنهاية ذلك الطريق ، وربما شهد القرن الثامن الميلادى بدايات طقس الذكر بتكرار اسم الله بمصاحبة حركات ايقاعية وتمارين فى التنفس والموسيقى ، ولم يكن ذلك بهدف الوصول فى شكل آلى الى حالة من الوجد يرى الله فيها رأى العين ، ولكنها كانت طريقا الى تحرير الروح من أسر الدنيا ، وقد حفظت نسايم أساتذة التصوف شفها عن طبيعة العرفان الذى قد يحدث فى نهاية الطريق ، ثم سجلت تلك التعاليم فيما بعد كتابة لأولئك الذين اتوا بعد ذلك ليتعلموا علوم الطريق ، وبهذه الطريقة تنامت لغة جماعية عبرت عن طبيعة الاندماج والتجربة الصوفية ، كما عبرت عن هوية مؤتلفة بين أولئك الذين ارتادوا رحلة العرفان .

وقد وصل التعبير عن طبيعة العرفان بالله الى شكل منهجى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فقد جاء فى كتابات المحاسبى (ت ٨٥٧ م) وصف لطرائق حياة الباحث عن العرفان الحقيقى ، كما جاء فى كتابات الجنيد (ت ٩١٠ م) تحليل لطبيعة الخبرة التى تتحقق فى نهاية الطريق ، فيقول ان السالك قد يجد نفسه فى حضرة الرب وجها لوجه كما كان الناس جميعا فى حضرته حين أخذ عليهم العهد ، وان صفات الله سوف تكون صفاته ، وان وجوده الشخصانى (*) سوف يتبدد ، كل ذلك للحظة واحدة يعود بعدها الى وجوده فى الدنيا ، ولكنه يحمل ذكرى هذه اللحظة ، التى اقترب فيها من الله واستشعر جلاله :

وحب الله فى جوهره هو استنارة القلب بالبهجة لقربه
من محبوبه ، وعندما ينعم القلب بتلك البهجة يجد سعادته
فى الوحدة مع ذكرى حبيبته ، ... وهينما يتغاطب فى
سريته مع محبوبه تفيض البهجة على القلب حتى انه يخلص
من هموم الدنيا وما فيها (٨) .

وقد عاش المحاسبى والجنيد وكتبوا أسفارهما فى اطار من التقاليد السننية الراسخة ، وكانا رجلين يعرفان الشريعة ، وانصب كل اهتمامهما على تأكيد أنه مهما تقدم المسلم على طريق التصوف فلا بد له من الاخلاص

(*) أو المادى أو الذاتى - النفس :

and his individual existence disappears .

ومقابلة الله عز وجل - وجها لوجه غالبا ما تكون على سبيل المجاز بمعنى القرب منه ، ويستخدم الصوفية ألفاظا كثيرة على هذه الناحية ولكنهم لا يعنون معناها الحرفى - (المراجع) .

فى انباع فرائض الشريعة ، وقد كانت مساعريهم حيال عظمة الله وقوته المهيمنة لا تبعد كثيرا عن رؤيه فقيه كالأشعري الذى كان يرى أن القدرة على الفعل من عند الله ، وأن للمؤمن أن يأمل فى هدايته ، وفى كلا التناولين يسيطر شعور بهيمنة الرب على الحياة الانسانية ، وبالايمان بالرعاية الالهية لحياة الانسان حسب ما قدره الله له ، وقد كان للشعور فى الذوبان فى حضرة الله ولو للحظة واحدة أنر مسكر ، حتى ان بعض الصوفيين الذين لم يختلفوا كثيرا عن « الجنيد » حاولوا التعبير عما لا يمكن التعبير عنه بلغه متسامية غنية أنارت الاعتراض ، وقد حاول أبو اليزيد البسطامي (ت ٨٧٥ م) أن يصف لحظة النشوة التى يتجرد فيها الصوفى من وجوده ويمتلىء بالحضرة الالهية ، وبالرغم من ذلك فقد فهم على أنه لا يعدو وهما فى الحياة الدنيا ، وأن الحياة الانسانية فى أفضل الأحوال تتأرجح بين الامتلاء بوجود الله وبين غيابه ، وتعتبر حالة الحلاج (٨٥٧ - ٩٢٢ م) حالة شهيرة ، وقد أعدم فى بغداد بتهمة الهرطقة ، وكان تلميذا للبنفيس ولم يكن مذهبه مختلفا عن مذهب أستاذه ، وقد عبر عنها (الحالة) كنشوة حب عارمة ، وربما لم تكن مقولته (أنا الحق) أى الله سوى محاولة للتعبير عن شعور صوفى تحل فيه صفات الله موضع صفات المخلوق ، ولكنها يمكن أن تفسر بأكتر من ذلك ، كما كانت دعوته الى أن الحج الحقيقى ليس الى مكة ، ولكنه الرحلة الروحية التى يرتحلها الصوفى فى خلوته ، وهى دعوة قد تفسر حرفيا بأن الانجاز الحرفى لأركان الشريعة ليس مهما ، وربما كان فى دخيلته أمر يجعله حريصا على ايجاد سوء فهم ، فقد تأثر بتيار صوفى يعرف بالملامتية كان مصدره من الرهبنة المسيحية الشرقية ، ومؤداه الرغبة فى الحط من الذات بأفعال تثير سخط الناس ، كطريق لقتل الغرور فى النفس .

طريق التذلل

وقد قدر للتأملات الصوفية المتأخرة فى كيفية خلق الله للانسان . وكيف يمكن للانسان أن يعود الى خالقه ، أن تتأثر بحركة فكرية أخرى نشأت مبكرا ، وهى محاولة تعريب التراث اليونانى من العلوم والفلسفة ، كما يمكن أن يقال انها كانت استمرارا وتطويرا لذلك التراث فى وسيط من اللغة العربية .

وكان تغرب الدول الحاكمة فى مصر وسوريا والعراق وايران لا يستنبح انقطاعا حادا فى الحياة الثقافية ، واستمرت مدرسة الاسكندرية ردها من الزمن الا أن طلابها نزحوا فى النهاية الى شمال سوريا ، كما استمرت أيضا

مدرسة الطب فى جنديسابور جنوب ايران وهى مدرسة أسسها المسيحيون النسطوريون تحت رعاية الساسانيين ، وقد كان الفكر والعلم اليونانى حيا فى تلك المدارس وغيرها بالرغم من أن الاهتمام بهما قل عن ذى قبل ، وكانت اللغة السورىانية أكثر استعمالا من اليونانية ، وكانت فى العراق تقاليد مستقرة للتعاليم اليهودية ، كما نضجت فى ايران حضارة باللغة البهلوية تضمنت بعض العناصر المهمة من الهند .

ولم يكن من الضرورى خلال الجيل الأول من الحكم الاسلامى أن تتم الترجمة من اليونانية الى السورىانية - ومن ثم للعربية حيث كان معظم حملة هذا التراث هازالوا على دينهم المسيحى أو اليهودى أو الزرادشتى ، وحتى أولئك الذين أسلموا منهم احتفظوا بمعارفهم فى لغتها الأصلية ، أو على أقل تقدير احتفظوا بصلاتهم مع الذين يتعاطونها فى لغتها الأصلية ، وربما لم يكن الحكام العرب يابهون كثيرا بما يدرسه رعاياهم ولم يكن فى وسعهم أن يهتموا بذلك ، حيث ان اللغة العربية لم تكن قد امتلكت بعد القدرة على التعبير عن مفاهيم العلوم والفلسفة بشكلى دقيق .

وقد بدأت أعمال الترجمة بشكل مكثف من نهايات القرن الثانى الى القرن الرابع الهجرى (حوالى القرن الثامن الى العاشر الميلادى) تحت رعاية بعض الخلفاء العباسيين - وهى ظاهرة نادرة ، وقد أنجزت معظم الأعمال على يد مسيحيين كانت لغتهم الأولى السورىانية ، وقد ترجموها الى العربية ، ولكن بعض الأعمال ترجمت من اليونانية الى العربية مباشرة ، وقد كان الهدف الجوهرى من تلك الأعمال هو توسيع موارد اللغة العربية من المفردات والتعابير ، بحيث تصير وسيطا كفوًا لحياة العصر الذهنية والثقافية ، وقد أدى المترجم العظيم حنين بن اسحق (٨٠٨ - ٨٧٣ م) دورا كبيرا فى هذه المهمة .

وهكذا جرى استيعاب الثقافة اليونانية كلية بالصورة التى كانت عليها فى مدارس ذلك الزمن فى هذه اللغة المنتشرة . وقد كانت الثقافة اليونانية ثقافة منكمشة على نحو ما ، فلم تعد الخطابة ولا الشعر ولا المسرح ولا التاريخ تدرس كما كان فى الماضى ، ولكن الدراسات المألوفة شملت الفلسفة وتناولت معظم أعمال أرسسطو وبعض محاورات أفلاطون ذلك بالاضافة الى الطب ثم العلوم المنضبطة كالرياضة والفلك ، ثم العلوم الغامرية مثل التنجيم والسيمياء والسحر ، ولم تكن الفلسفة والعلوم ودراسات السحر والتنجيم قد تميزت عن بعضها بالقدر الذى نراه الآن فحدود ما كان ينظر اليه على أنه (علمى) لم تعد حدودا ثابتة وانما راحت

تتغير من عصر الى عصر ، وكان مما يتفق تماما مع ما كان معروفا عن طبيعة الكون أن يعتقد المرء أن الطبيعة تنظم حياة الانسان وأن الآلهة هي التي تحكم ما يحدث في العالم تحت القمر ، وأن يحاول المرء فهم كل هذا القوى وتسخيرها .

وربما كانت دوافع المترجمين ومن رعاهم من الخلفاء عملية بشكل جزئي ، فقد كانت المهارات الطبية مطلوبة ، كما أن التحكم في القوى الطبيعية قد يجلب القوة والنجاح ، كما كان هناك أيضا نطلع ثقافي عريض مثل الذي عبرت عنه أعمال الكندي (٨٠١ - ٨٦٦ م) وهو المفكر الذي بدأت على يديه بواكير تاريخ الفلسفة الاسلامية .

« ويجب ألا نخجل من الاعتراف بالحق من أى طريق جاء ، حتى ولو جاءنا من أسلاف سبقونا أو من أمم أخرى ، فغاية الباحث عن الحق هو الحق ذاته » (٩) .

تعبّر هذه الكلمات عن مدى الاثارة التي تحققت باكتشاف التراث اليوناني كما تمثل الثقة في النفس التي وصلت اليها حضارة امبراطورية تعتمد على القوى الدنيوية والعون الالهي .

وقد احتلت هذه الترجمات نقطة البدء في التراث العلمي باللغة العربية ، وقد استمرت وتطورت الى حد بعيد لتنتج التراث اليوناني المتأخر، ونعتبر ترجمة مؤرخ العلوم الطبية العربي ابن أبي أصيبعة برهانا على ذلك الاستمرار حين ترجم النص الكامل لقسم « أبوقراط » الذي كان يؤديه أطباء اليونان : « أقسم بالله رب الحياة والموت ٠٠٠٠ وأقسم بأسكليبيوس، وأقسم بكل القديسين » (١٠) .

وقد اختلطت بعض الموارد العلمية من أصول فارسية وهندية بالعلوم اليونانية ، فنجد الخوارزمي (٨٠٠ - ٨٤٧ م) الرياضى يكتب عن استخدام الأرقام الهندية وهي المعروفة حاليا بالعربية - في الحساب الرياضى ، وقد كان لذلك الخلط مغزى عميق ، فكما وحّد الخلفاء العباسيون البحر المتوسط والمحيط الهندي والأراضي الواقعة عليهما في منطقة تجارية واحدة ، كذلك انصهرت كل من اليونانية والفارسية والهندية معا في تراث واحد ، وقيل في ذلك انه « ٠٠٠٠٠ وللمرة الأولى في تاريخ العالم يصبح العلم دوليا على نطاق واسع » (١١) .

واستقبل العلم بسهولة في المجتمعات المتحدثة بالعربية أيا كان مصدره ، وصار الفلكيون مراقبين للوقت ، يحددون مواعيد الصلوات وشعائر العبادة ، وكان الأطباء يحظون باحترام ونفوذ لدى الحكام ، الا أن بعض العلوم أثارت مسائل تتصل بحدود المعرفة الانسانية ، فقد رفض بعض الأطباء فكرة أن تصارييف الأمزجة في الجسم محكومة بأحوال (حركة) النجوم ، كما أن ادعاءات السيميائيين(*) لم تكن مقبولة على الاطلاق، والأهم من كل ذلك كان موقف الفلسفة التي طرحت إشكاليات ، فلم يكن من السهل أن تستوعب نهاليم الاسلام التي تطورت عن أيدي علماء النوحيد والمشرعين وأن تتصلح مع مناهج واستنتاجات الفلسفة اليونانية .

كانت فرضيات تلك الفلسفة تقول بأن العقل الانساني اذا استخدم بحكمة ، فانه قادر على أن يكسب الانسان مزيدا من المعرفة بالكون ، ذلك في حين كان على الانسان المسلم أن يؤمن بأن المعرفة الأساسية اللازمة لحياة الانسان منزلة اليه بكلمات الله التي أوحى بها الى رسله ، فان كان الاسلام حقا فما هي حدود الفلسفة ؟ واذا كان ادعاء الفلاسفة صحيحا فما الحاجة الى النبوة ؟ وقد علمهم القرآن أن الله خلق الكون بكلمته « كن » فكيف يمكن أن يتصلح ذلك المفهوم مع نظرية أرسطو التي تقول بخلود المادة ، وأن شكلها فقط هو الذي خلق ؟ وقد دخل أفلاطون عالم العربية عبر ترجمات مفكرين متأخرين ، كما أن أعمال أرسطو جرت ترجمتها في اطار من الأفلاطونية الحديثة ، حتى انها ترجمت بعنوان « الفقه الأرسطوطاليسي » وكانت الصورة في ذهن هؤلاء المفكرين أن الله خالق العالم ويرعاه من خلال هيكل من العقول الوسيطة التي ألهمها بقدوته ، فكيف يمكن أن يتصلح هذا المفهوم مع فكرة أن الله المهيم خلق العالم وما زال يتدخل مباشرة في الحياة الانسانية ؟ وهل روح الانسان خالدة ؟ وكيف يمكن أن تتصلح فكرة أفلاطون عن أفضل شكل للحكومة والذي يكون فيه الفيلسوف ملكا ، مع المفهوم الاسلامي بأن أفضل نظام للحكم حسب منسيئة الله هو ذلك الذي كان أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ؟

وقد حاول طبيب مشهور هو أبو بكر الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥ م) أن يجيب على هذه الأسئلة بشكل واضح تماما ، فقد كان العقل الانساني

(*) المقصود بالسيميائيين أي علماء السيمياء - كما لا يخفى على فطنة القارئ - وليس الكيمياء المعروفة الآن بدقتها العملية ، وكان الشغل الشاغل للسيميائيين في ذلك الوقت هو تحويل المعادن غير النفيسة الى معادن نفيسة خاصة الذهب ، ويفضل صاحب معجم المورد مصطلح السيميائيين (بالخاء) - (المراجع) .

عنده هو المصدر الوحيد لبعض المعارف ، وأن طريق الفلسفة مفتوح لكافة الاستخدامات ، وأن ادعاءات الوحي زائفة ، وأن الأديان خطيرة .

وربما كان الفسارابي (ت ٩٥٠ م) نموذجاً لفيلسوف ظل على إسلامه باقتناع ، ففي رأيه أن الفيلسوف يمكن أن يتوصل الى الحقيقة وأن يعيش على أساسها ، ولكن لا يستطيع كافة الناس أن يكونوا فلاسفة قادرين على ادراك الحقيقة مباشرة ، ومعظم الناس لا يتمكنون من ادراكها سوى بشكل رمزي ، وأن هناك بعض الفلاسفة الذين استطاعوا فهم الحقيقة بقدرة الخيال وقوة العقل ، واستطاعوا أن يعبروا عنها بالصور والأفكار ، أولئك كانوا هم الأنبياء ، وأن الأديان المرسلات كانت طريقة للتعبير عن الحق في شكل رموز يفهمها كافة من الناس ، وقد أنتجت الفطنة الرمزية المتنوعة أدياناً مختلفة ، ولكن جميع الأديان حاولت التعبير عن نفس الحقائق ، ولا يعنى هذا بالطبع أن جميع المرسلين استطاعوا التعبير عنها بنفس الكفاءة .

لا يتعارض الإسلام اذن مع الفلسفة ، فهما يعبران عن نفس الحقائق بأشكال مختلفة تتناسب مع المستويات المختلفة لقدرة البشر على الاستيعاب ، ويستطيع الانسان المستنير اذن أن يعيش بالفلسفة ، وهو ذلك الانسان الذى استطاع فهم الحقيقة برموز الفلسفة ولكنه بلغ درجة من الفهم تؤهله للاسترشاد بالفقه ، أما الناس العاديون (العامة) فعلمهم أن يعيشوا فى طاعة الشريعة .

ويمكن فى نظرية الفارابي أن الفلسفة فى شكلها النقي غير صالحة للكافة ، وقد قدر للتمييز بين الصفوة المثقفة والعامة أن تصير فكرة سائدة فى فكر المجتمع الإسلامى ، واستمرت الفلسفة فى الحياة الا أنها مورست على نطاق خاص بين الأطباء مثلاً ، هؤلاء الذين كانت تحوّلهم الأسرار ويستقبلون بالشك ، الا أن بعض الأفكار الفلسفية قدر لها أن تتخلل أفكار جيل الفسارابي والأجيال اللاحقة ، وقد تزامن الفسارابي مع الدولة الفاطمية .

وكان من الممكن أن تظهر أفكار الأفلاطونية الجديدة المتعلقة بنظام الانبعاث المقدس (أو الظهور المقدس أو الميلاد المقدس divine emanation) فى أفكار الاسماعيلية التى لحقها تطور كامل . كما تداخلت هذه الأفكار فى أزمنة لاحقة مع الفكر الصوفى كما عبر عنه الكتاب الصوفيون الذين حاولوا شرح طريقهم their search وما يأملون أن يجدوه فى خاتمة هذا الطريق .

الجزء الثانى

المجتمعات الاسلاميه

(من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر الميلادى)

تتناول الفصول الخمسة التى تشكّل مادة هذا الجزء فترة انقسام فيها العالم الاسلامى فى بعض النواحي ولكنه احفظ بوحدة فى بعضها الآخر ، فقد تغيرت حدود العالم الاسلامى ، فامتدت الى الاناضول والهند ولكنها فقدت اسبانيا التى استعادتها الممالك المسيحية ، وضمن هذه الحدود ظهر انقسام بين المناطق حيث اللغة العربية هى اللغة الرئيسية للحياة والثقافة ، والمناطق التى ظلت اللغة الرئيسية للكتابة الدينية والشرعية فيها هى اللغة الفارسية الآخذة فى الانتعاش حتى صارت الوسيط الرئيسى للثقافة العلمانية ، وأصبح الأتراك مجموعة عرقية لغوية ثالثة وشكلوا الصفوة الحاكمة فى معظم الجزء الشرقى للعالم الاسلامى . وظلت الخلافة العباسية باقية فى بغداد حتى القرن الثالث عشر وفى المناطق التى تتحدث العربية وإن ظهر انقسام سياسى عريض بين مناطق ثلاث : العراق المرتبطة عادة بإيران ، ومصر التى عادة ما حكمت سوريا وغرب الجزيرة العربية ، والمغرب بأجزائه المختلفة .

وعلى الرغم من الانقسامات والتغيرات السياسية ، كان للجزء الشرقى يتحدث العربية من العالم الاسلامى خلال هذه الفترة أشكال اجتماعية وثقافية مستقرة نسبيا أظهرت أوجه تشابه بين منطقة وأخرى ، ويستكشف هذا الجزء من الكتاب عوالم سكان المدن والرعاة الرحل والروابط بينهم ، ويبين كيف نشأ نوع من التحالف فى المصالح بين العناصر المسيطرة من سكان الحضر والحكام الذين استثمروا سلطتهم مشروعيتها من عائد من أشكال السلطة ، وفى قلب الثقافة الراقية للمدن انتقل تراث من التعاليم الدينية والقانونية خلال مؤسسات خاصة (المدارس) ، وقد ارتبط بها تراث آخر من الأدب العلمانى والفكر العلمى والفلسفى وانتقلت التكنيكات الغيبية التى انتقلت على أيدي جماعات الصوفية ولعبت دورا مهما فى تكامل طبقات المجتمع المسلم ، ورغم أن اليهود والمسيحيين قد تناقصوا فى العدد إلا أنهم حافظوا على تقاليدهم الدينية ، ولكن اليهود على وجه الخصوص شاركوا فى إثراء الفكر والأدب وبرزوا فى التجارة بين المدن .

الفصل الخامس

العالم الاسلامى العربى

الدول والأسر الحاكمة

بنهاية القرن العاشر ، ظهر الى الوجود عالم اسلامى توحيده ثقافة دينية مشتركة تجلت فى اللغة العربية والروابط الانسانية التى شكلتها التجارة والهجرة والحج ، ولم يعد ذلك العالم مجسدا فى وحدة سياسية واحدة ، فقد كان هناك ثلاثة حكام يطالبون بلقب الخلافة فى بغداد والقاهرة وقرطبة ، كما كان هناك آخرون ممن كانوا بواقع الأمر حكاما لدول مستقلة ، ولم يكن ذلك مستغربا ، كان الحفاظ على العديد من البلدان بتقاليدها ومصالحها المختلفة ضمن امبراطورية واحدة لمدة طويلة انجازا متميزا ، ولم يكن تحقيقه ممكنا بدون قوة الايمان الدينية والتى شكلت مجموعة حاکمة فاعلة فى غرب الجزيرة العربية ، ثم أوجدت تحالفا فى المصالح بين هذه المجموعة وقطاعات متنامية من المجتمعات التى سيطرت عليها ، فلم يكن بإمكان الموارد العسكرية أو الادارية للخلافة العباسية وحدها الحفاظ على اطار الوحدة السياسية الى الأبد فى مثل هذه الامبراطورية الممتدة من آسيا الوسطى الى ساحل الأطلنطى .

وبدءا من القرن العاشر وما بعده أصبح التاريخ السياسى للبلاد التى كان فيها الحكام وجزء متزايد من السكان من المسلمين ، سلسلة من التواريخ الاقليمية التى تمثل صعود وانحيار الأسر الحاكمة والتى انبعشت قوتها من العواصم الى الحدود التى لم تكن محددة بشكل واضح .

ولن نحاول هنا أن نورد تفاصيل تاريخ كل هذه الأسر لكننا نحاول توضيح النسق العام للحوادث على الأقل . لهذا الغرض يمكن تقسيم العالم الاسلامى الى ثلاث مساحات واسعة لكل منها مركز قوتها ، الاولى تشمل ايران والأراضى التى تقع فيما وراء نهر أموداريا (*) وجنوب العراق ، وقد

(*) هو نهر جيحون ، وقد فضلنا الإبقاء على اسمه الأجنبى فى النص لسهولة الاستدلال فى الأطالس الأجنبية - (المراجع) .

ظل مركز القوة الرئيسى فيها ، لبعض الوقت فيما بعد القرن العاشر ، فى بغداد التى تقع فى قلب المنطقة الزراعية الغنية والشبكة التجارية الواسعة المدى ، ويحكم النفوذ والمكانة المتراكمين على مدى قرون من حكم العباسيين . وشملت المنطقة الثانية « مصر وسوريا وغرب الجزيرة العربية » وكانت القاهرة هى مركز القوة فيها ، وهى المدينة التى بناها الفاطميون وسط ريف كثيف خصب منتج فى قلب النظام التجارى الذى ربط عالم المحيط الهندى بعالم البحر المتوسط ، والثالثة هى المغرب والأجزاء الإسلامية من أسبانيا أو ما عرف بالأندلس ، وفى هذه المنطقة لم يكن هناك مركز قوة مسيطر بل عدة مراكز تقع ضمن مناطق من الزراعة الكثيفة فى نواط تتحكم فى التجارة بين أفريقيا ومختلف أجزاء عالم البحر المتوسط .

وبشكل مبسط للغاية ، فإن التاريخ السياسى للمناطق الثلاث يمكن تقسيمه الى عدة فترات تغطى أولها القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين وفى هذه الفترة حكم السلاجقة المنطقة الشرقية، وهى أسرة حاكمة يساندنها الجيش التركى ، وتعتنق الإسلام السنى ، وقد فرضوا أنفسهم فى بغداد فى ١٠٥٥ م كحكام فعليين تحت سيطرة العباسيين ، وكانت لهم السيطرة على ايران والعراق ومعظم سوريا ، واستولوا على أجزاء من الأناضول من الامبراطورية البيزنطية (١٠٣٨ - ١١٩٤) ولم يطالبوا بالخلافة ، وكان يطلق على رأس هذه الأسرة وما بعدها لفظ (سلطان) وهى تعنى مالك الحكم على وجه التقريب .

وفى مصر ، استمر الفاطميون فى الحكم حتى ١١٧١ ، ثم خلفهم صلاح الدين (١١٦٩ - ١١٩٣) وهو قائد عسكري من أصول كردية ، وقد صاحب تغير الحكام تغيير فى الانتماء الدينى ، ففى حين ينتمى الفاطميون الى الفرع (الاسماعيلى) من الشيعة ، كان صلاح الدين سنيا وكان قادرا على اثارة الحماس والغيرة الدينية للمسلمين المصريين والسوريين لدحر الصليبيين الذين أسسوا دولا مسيحية فى فلسطين وعلى الساحل السورى فى نهاية القرن الحادى عشر، وكانت الأسرة الحاكمة التى أسسها صلاح الدين هى « الأيوبيون » قد حكمت مصر من ١١٦٩ - ١٢٥٢ ، وسوريا حتى ١٢٦٠ ، وبعض أجزاء الجزيرة العربية حتى ١٢٢٩ .

وفى المنطقة الغربية انقسم الخلفاء الأمويون فى قرطبة فى أوائل القرن الحادى عشر الى عدد من الممالك الصغيرة ، مما مكن الدول المسيحية، التى استطاعت البقاء فى شمال أسبانيا ، من البدء فى التوسع جنوبا ، وإن أمكن صدهم لبعض الوقت بالظهور المتعاقب لأسرتين حاكمتين استمدتا

قوتهما من فكرة الاصلاحات الدينية وكذا من قوة شعوب البربر فى الريف المراكشى أولاها كانت « المرابطين » الذين جاءوا من الأطراف الجنوبية المراكشى (١٠٥٦ - ١١٤٧) ، ثم جاء « الموحدون » الذين تمتعوا بتأييد البربر من جبال أطلس ، والذين امتدت امبراطوريتهم فى أعظم توسعاتها لتشمل مراكش والجزائر وتونس والجزء الاسلامى من أسبانيا (١١٣٠ - ١٣٦٩ م) .

وتشمل الفترة الثانية بشكل تقريبي للغاية القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وخلال القرن الثالث عشر اضطربت المنطقة الشرقية بفعل غزو خارجى للعالم الاسلامى قامت به سلالة منغولية غير مسلمة من شرق آسيا بجيش مكون من المغول والأتراك من قبائل السهوب الداخلية فى آسيا ، والذين فتحوا ايران والعراق وأسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد عام ١٢٥٨ م ، وقد سيطر فرع من هذه العائلة على العراق وايران لفترة قرن تقريبا (١٢٥٦ - ١٣١٦ م) واعتنقوا الاسلام خلال هذه الفترة ، وقد حاول المغول الاتجاه غربا ولكن أوقف تقدمهم فى سوريا جيش مصرى من الجنود العبيد (المماليك) الذين جلبهم الأيوبيون ، وقد خلع قواد هذا الجيش الحكام الأيوبيين وشكلوا فيما بينهم نخبة عسكرية حاكمة قامت باستقدام المماليك من القوقاز وآسيا الوسطى ، واستمرت هذه النخبة فى حكم مصر لأكثر من قرنين (المماليك : ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) وقد حكموا سوريا أيضا بدءا من ١٢٦٠ م وسيطروا على المدن المقدسة فى غرب الجزيرة العربية . أما فى المنطقة العربية ، فقد خلفت « الموحدون » أسرة « المرينيون » (بنو مرين) (١١٩٦ - ١٤٦٥ م) وعدد من الدويلات من بينها « الحفصيون » الذين حكموا من عاصمتهم فى تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٤ م) .

وفى الفترة الثانية تغيرت حدود العالم الاسلامى بشكل ملحوظ ، وفى بعض الأماكن انكمشت الحدود تحت ضغط الهجوم من الدول المسيحية لغرب أوروبا ، سقطت صقلية أمام النورماندين من شمال أوروبا ، وعاد معظم أسبانيا الى الممالك المسيحية فى الشمال ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر سيطروا على كل البلاد ماعدا مملكة غرناطة فى الجنوب ، وفى كل من صقلية وأسبانيا بقى السكان من المسلمين العرب لفترة من الوقت ، ولكنهم فى النهاية تلاشوا اما بالطرد أو باعتناق الدين المسيحى ، ومن ناحية أخرى سقطت الدول التى أسسها الصليبيون فى سوريا والشام وفلسطين على أيدي المماليك أو بفعل التوسع الذى بدأه السلاجقة الى الأناضول والذى امتد الى أبعد من ذلك على أيدي أسرات تركية أخرى ، وعليه ، تغيرت الطبيعة السكانية بدخول رجال انقبائل الأتراك وتحول

الكثير من السكان اليونانيين الى الاسلام ، كما كان هنالك توسع في الحكم الاسلامي واعتناق الاسلام شرقا الى شمال الهند ، وفي افريقيا ايضا استمر الاسلام في الانتشار على طول الطرق والممرات التجارية الى الساحل على الاطراف الجنوبية من الصحراء وعلى طول وادي النيل وحتى الساحل الأفريقي الشرقي .

وفي الفترة الثالثة النى نغطي القرنين الخامس حتى السادس عشر ، واجهت الدول الاسلامية تهديدا جديدا من دول غرب أوروبا ، فقد نامت تجارة وانتاج المدن الأوروبية ونافست المنسوجات ، التي يصدرها التجار من البندقية وجنوه ، منتجات مدن العالم الاسلامي ، واكتمل الغزو المسيحي لاسبانيا بسقوط مملكة غرناطة في ١٤٩٢ م وأصبحت شسبه الجزيرة بالكامل تحت حكم البرتغاليين والاسبان المسيحيين ، وهددت القوة الأسبانية القبضة الاسلامية على المغرب كما سيطر قراصنة جنوب أوروبا على شرقي البحر المتوسط .

وفي نفس الوقت ، مكنت التغيرات في التقنيات البحرية والعسكرية وخاصة استعمال البارود من تعاظم القوى فظهرت دويلات أكثر قوة وأطول عمرا ، وغطت الجزء الأكبر من العالم الاسلامي في تلك الفترة . ففي أقصى الغرب خلقت بنى « مرين » وغيرها أسر حاكمة جديدة : أولا « السعديون » (١٥١١ - ١٦٢٨ م) وبعدها « العلويون » الذين حكموا من ١٦٣١ م حتى وقتنا هذا ، وفي الجانب الآخر من المتوسط تنامت أسر حاكمة تركية هي « العثمانيون » في الأناضول على الحدود المتنازع عليها مع الامبراطورية البيزنطية ، ومنها توسعت الى جنوب شرقي أوروبا ، وبعدها فتحت بقية الأناضول وأصبحت العاصمة البيزنطية القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية وتعرف الآن بإسطنبول (١٤٥٣ م) . وفي بدايات القرن السادس عشر هزم العثمانيون المماليك وضموا سوريا ومصر وغرب الجزيرة الى امبراطوريتهم (١٥١٦ - ١٥١٧ م) وبعدها قاموا بالدفاع عن ساحل المغرب ضد أسبانيا ، وبذلك أصبحوا خلفاء وحكاما للمغرب حتى حدود مراکش ، ودامت امبراطوريتهم بشكل أو بآخر حتى ١٩٢٢ م .

والى الشرق حدث آخر اختراق واسمح المدى ، حين قاد تيمور لنك جيشه المؤلف من رجال القبائل من وسط آسيا ، وقد خلف وراءه أسرة حاكمة في ايران وتركستان لكنها لم تدم طويلا (١٣٧٠ - ١٥٠٦ م) فمع بداية القرن السادس عشر حلت محلها سلالة أخرى دامت لفترة أطول هم « الصفويون » ، الذين بسطوا حكمهم من المنطقة شمال غرب ايران ليغطي

البلاد وما وراءها بالكامل (١٥٠١ - ١٧٣٢ م) . وأسس المغول ، وهم سلالة تنحدر من العائلة المغولية الحاكمة ومن « تيمور » امبراطورية في شمال الهند عاصمتها دلهي (١٥٢٦ - ١٨٥٨ م) .

وبخلاف هذه الدول الأربع العظيمة : العلويين والعثمانيين ، والسعديين ، والمغول ، كانت هناك دول أصغر في القرم وما وراء نهر جيحون وفي وسط وشرق الجزيرة العربية والأراضي التي اعتنق سكانها الاسلام حديثا في أفريقيا .

العرب والفرس والتürk

لم تقض الخلافات السياسيّة على الوحدة الثقافيّة لعالم الاسلام ، بل تعمقت تلك الوحدة بتزايد اعتناق السكان للاسلام ، وقد عبر الدين الاسلامي عن نفسه في نظم التفكير وفي المؤسسات ، وبمرور الوقت بدأ ظهور انقسام في الجزء الشرقي من العالم الاسلامي في تلك الوحدة الثقافيّة المتنامية الأطراف فبفضل وعي تلك الشعوب ، لم يطمس الاسلام ماضيها تماما بالدرجة التي حققها في الغرب .

وقد أخدمت اللغة العربيّة تدريجيا اللغات المحليّة واللهجات الدارجة في غرب العالم الاسلامي ، وبرغم ذلك ظلت الفارسيّة مستخدمة في ايران والمناطق الشرقيّة الأخرى . واستمر الاختلاف بين العرب والفرس من وقت لآخر منذ قهر العرب الامبراطورية الساسانية ، واجتذبوا مسئوليتها للعمل في خدمة الخلفاء العباسيين وكذا الطبقة المثقفة فيها لتخليق ثقافه اسلامية ، وقد أوجد الاحساس بالاختلاف مع نبرة زاعقة من العداء اصطلاح «الشعوبية» وهو خلاف أدبي دخل العربيّة عن المزايا النسبية للشعبيين في ظل الاسلام ، وظل استخدام الفرس للبهلوية في كتابات الديانة الزرادشتية ، كما استمر أيضا لفترة في ادارة الحكومة .

وفي القرن العاشر بدأ في الظهور أمر جديد : أدب راق بلغة فارسيّة جديدة ليست مختلفة تماما في التركيب النحوي عن البهلوية ولكنها مكتوبة بحروف عربيّة وأثرتها الكلمات العربيّة ، ويبدو أن ذلك حدث أولا في شرق ايران في قصور الحكام المحليين غير الملمين بالعربيّة وقد عكس الأدب الجديد الى حد ما أنواع الكتابة العربيّة التي كانت سائدة في القصص الأخرى من الشعر الغنائي وشعر المديح والتاريخ وبعض الأعمال الدينيّة ، وكان هناك شكل آخر للخط فكان فارسيّا بأسلوب متميز ، والأشعار الملحميّة التي تسجل التاريخ التقليدي لايران وحكامها والتي كانت

موجودة في عصور ما قبل الاسلام ، انتعشت في تلك الفترة وأعيد احياؤها وتجلت في الفارسية الجديدة لتسأخذ شكلها النهائي في « الشاهنامه » للفردوسي (٩٤٠ - ١٠٢٠) وقد كانت ايران متفردة بين البلاد الاسلامية في احتفاظها بروابط قوية واعية بماضيها قبل الاسلام ، ولكن ذلك لم يؤد الى رفضها للتراث الاسلامي ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا استمر الفرس في استبدال اللغة العربية في الكتابات الدينية والقانونية ، بينما ظلت الفارسية لغة للأدب العلماني ، وامتد تأثير هذه الثقافة المزوجة شمالا الى تركستان وشرقا الى شمال الهند .

بهذه الطريقة انقسمت الدول الاسلامية الى جزأين ، كانت الثقافة الرفيعة في أحدهما قاصرة على اللغة العربية ، وكان الجزء الآخر يستخدم اللغتين العربية والفارسية لأغراض مختلفة ، وقد ارتبط ذلك الانقسام اللغوي بانقسام آخر بين مراكز القوى السياسية ، فقد أوجد صعود الفاطميين في الغرب ثم السلاجقة في الشرق حدودا بين سوريا والعراق ، وقد جاء سقوط الخلافة العباسية وتدمير قوة بغداد على أيدي المغول ثم هزيمتهم أمام المماليك في سوريا في القرن الثالث عشر ليجعل هذا الانقسام دائما ، منذ ذلك الوقت فصاعدا كانت الى الشرق مناطق تحكمها دول مراكزها في ايران أو تركستان أو شمال الهند ، وإلى الغرب مناطق تحكم من القاهرة أو من مدن في المغرب أو أسبانيا أو جنوب العراق ، التي كانت منطقة مركزية ثم أصبحت الآن منطقة حدودية . واستمر هذا الانقسام باقيا بشكل أو آخر عندما وصل « الصفويون » الى السلطة في ايران وامتص العثمانيون معظم الدول التي تتحدث بالعربية في امبراطوريتهم وتصارعت الامبراطوريتان لفترة من أجل السيطرة على العراق .

ولم يكن هناك انقسام سياسي بين العرب والفرس لأنه منذ القرن الحادي عشر فصاعدا لم تعد الجماعات الحاكمة في المنطقتين عربية ولا ايرانية من حيث الأصول أو اللغة أو التراث السياسي ، وبدأ الأتراك المنحدرون من الشعوب البدوية الرعوية من أواسط آسيا في التحرك عبر الحدود الشمالية الشرقية ، وهي منطقة نفوذ الاسلام خلال الحقبة العباسية ، وقد جاءوا اليها فرادى أول الأمر ثم تحركت منهم مجموعات عبر الحدود ودخلوا واعتنقوا الاسلام ، وانخرط البعض في خدمة جيوش الحكام ، وفيما بعد نشأت فيما بينهم أسر حاكمة ، وكان « السلاجقة » من أصول تركية ، وعندما بدءوا في التوسع غربا باتجاه الأناضول تحرك معهم الأتراك ، وقد جاء الكثير من المماليك الذين حكموا مصر من أرض تركية ، وكان الجانب الأعظم من جيوش المغول من الأتراك وكان للغزو المملوكي تأثير دائم أدى الى استقرار أعداد

كبيرة من الأتراك ، فى ايران والأناضول ، وبعدها استمد العثمانيون والصفويون والأسر المغولية الحاكمة معظم قوتهم من الجيوش التركية .

وقد استمرت الأسر الحاكمة التى أسسها الترك فى استخدام أشكال من اللغة التركية فى الجيش والقصر ، ولكنهم بمرور الوقت انضموا الى عالم الثقافة العربية أو العربية الايرانية أو على الأقل تصرفوا كآسيادها وحمايتها ، ففي ايران كانت التركية لغة الحكام والجيوش ، والفارسية للادارة والثقافة العلمانية ، والعربية للثقافة القسانونية والدينية ، والى الغرب كانت العربية هى لغة الحكم ، وهى أيضا لغة الادارة والثقافة الرفيعة ، وقد تغير ذلك الى حد ما عندما أدى صعود الامبراطورية العثمانية الى ظهور لغة وثقافة عثمانية تركية متميزة ، أصبحت لغة كبار المسئولين وكذلك الجيش والقصر ، وفى المغرب وما تبقى من أسبانيا الاسلامية كانت العربية هى اللغة السائدة للحكومة والثقافة الراقية رغم أن البربر من جبال أطلس وتخوم الصحارى لعبوا دورا سياسيا فى بعض الأوقات جعلهم يدخلون فى مجال الثقافة العربية ، وبالرغم من ذلك فإن الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر جلب بعضا من لغته وثقافته السياسية الى ساحل المغرب .

وينحصر اهتمام هذا الكتاب بالجزء الغربى من العالم الاسلامى الذى كانت فيه العربية هى اللغة السائدة لكل من الثقافة الراقية وبشكل أو بآخر لغة الحديث بالطبع ، فمن الخطأ الاعتقاد بأن هذه المنطقة كانت منفصلة بشكل معدد عن العالم من حولها ، حيث كانت الدول التى نتحدث العربية تشترك فى الكثير من السمات مع الدول التى تتحدث الايرانية والتركية ، وكان للأراضى الواقعة حول المحيط الهندى أو البحر المتوسط روابط وثيقة بين بعضها البعض بصرف النظر عن الديانة السائدة ، وعاش العالم كله ضمن هذه الضوابط التى فرضتها حدود الموارد البشرية والمعرفة التقنية وعن كيفية استخدامها ، ومن التبسيط المخل ، الاعتقاد بأن هذه المنطقة الشاسعة كانت تشكل بلدا واحدا ، لذا فمن الأفضل النظر الى هذه الأماكن التى سادتها اللغة العربية باعتبارها مجموعة من المناطق تختلف كل منها عن الأخرى فى الوضع الجغرافى والطبيعة ، ونسكنها شعوب توارثت تراثا ثقافيا واجتماعيا متميزا ظل باقيا فى طرق المعيشة وربما أيضا فى عادات الفكر والمشاعر حتى فى المناطق التى ضعف فيها الوعي ، أو انتهى ، بما كان موجودا قبل دخول الاسلام ، كذلك أيضا كان حال التحولات الاجتماعية التى يمكن رصدها فى هذه المناطق ، حيث اتاحت اللغة المشتركة والثقافة التى عبرت عنها الطبقات الحضرية المتعلمة سهولة ملاحظة فى التواصل مع بعضها البعض .

التقسيمات الجغرافية

من الممكن مع بعض التبسيطات تمييز خمس مناطق داخل المنطقة التي سادت فيها العربية : الأولى هي شبه الجزيرة العربية التي نشأ المجتمع الاسلامي الناطق بالعربية فيها ، فشبه الجزيرة العربية ككل من الأرض تتميز عن العالم من حولها من ثلاثة جوانب : البحر الأحمر والخليج وبحر العرب (جزء من المحيط الهندي) وتنقسم الى عدة مناطق تختلف عن بعضها البعض من حيث الطبيعة ، كما تختلف في التطورات التاريخية في معظم الفترات . والخط الأساسي للتقسيم هو ذلك الذي يجرى تقريبا من الشمال الى الجنوب موازيا للبحر الأحمر ، فالى غرب هذا الخط منطقة من الصخور البركانية والسهل الساحلي (تهامة) ترتفع الى مجموعة من التلال والهضاب وهي جبال الحجاز وجبال عسير واليمن والتي تصل فمها الى ٤٠٠٠ متر فوق سطح البحر الى الجنوب ، وتمتد الجبال الجنوبية نحو الجنوب الشرقي مع واد كبير هو وادي حضرموت الذي يخترقها .

وتقع جبال اليمن على أطراف المساحة التي تهب عليها الرياح الموسمية الآتية من المحيط الهندي ، وكانت منطقة للزراعة المنظمة للفاكهة والحنطة منذ وقت طويل ، والى الشمال نقل الأمطار وتصبح غير منتظمة ، وليس هناك أنهار من أى نوع ولكن هناك موارد مائية محدودة من الينابيع والآبار والجداول الموسمية، أما نمط الحياة الذي أحسن الاستفادة من الموارد الطبيعية فقد كان ذلك الذي زاوج بين تربية الابل والحيوانات الأخرى في حركة هجرة منتظمة على مدار السنة مع زراعة النخيل والأشجار الأخرى في الواحات حيث تتوافر المياه .

والى شرق الجبال تميل الأرض وتنحدر شرقا باتجاه الخليج ، وفي الشمال والجنوب صحارى رملية هي صحراء النفود والربع الخالي وبينهما سهوب نجد الصخرية والأحساء وامتدادها على ساحل الخليج والأمطار قليلة فيما عدا على بعض مرتفعات الشمال، ولكن الينابيع والسيول الموسمية جعلت بالامكان تحقيق حياة مستقرة قائمة على الزراعة في الواحات ، وعدا ذلك كان هناك رعى الابل الذي يستلزم هجرات موسمية لمسافات كبيرة ، وفي الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة منطقة ثالثة هي « عمان » وهي ليست مختلفة عن اليمن في الجنوب الغربي ، ومن السهل الساحلي تمتد سلسلة من الجبال تصل الى ارتفاعات تزيد عن ٣٠٠٠ متر ، وفيها الينابيع والعيون والجداول التي وفرت المياه لتوزع بنظام رى قديم مما مكن

للزراعة المستفزة . وعلى السبال تقف سلسلة من الموانىء ىنتظم فىها الصىء فى مفا الخلىف والفس بفا عن اللؤلؤ منذ العصور القءىمة .

وتربف الممراف بفن الففوف والسفال الأراضى الواقعة حول المفىف الهفءى بفلاف فوض البحر المففوسف ، وفى الففء الشرقى ممراف رفىسة مففءة على طول سلسلة من الوافا الى سورفا والعرف ، وتربف ممراف بفرفىة الموانىء على ساحل الخلىف وعماف بسواحل الهفء وشرق أفرفقا ، وكان الأفاف من الطعام والمواء القفلا للفافة ولا فساعد على فحول هفء الموانىء والمفن والأسواق الى مفن كبفرة أو مراكز للصناعة والقوة ، أما مكة والمفءة فقد ءعمفهما بسفءاء هفا الفلاف المفاورة .

وفرفسف شفه الففرفة من السفال بمفطقة الهلال الفصفب وهى الأراضى الهلاففة الشكل المففءة حول اطار صفراف الحماف السورفة وفعفرى الامفسءاف السفماف لسفوف وصفارف ففء ، وهى أراضى ففارة قسءفمة ممفزة أبافف نصفها الغربى الففارة الفونافىة والفومافففة وأبافف نصفها الشرقى الففارة الفرفائفة ، وفى فك المفطقة بالفاف فطور مفامع واضف المفال وفعافة اسلامفة مففءة ، بشكل أفضل مما فرى فى شفه الففرفة العربفة .

وفمفل الففء الغربى من الهلال الفصفب مفطقة فعرفها الففل السابق من البارسفن والفرفالة باسم سورفا ، وهفا كما فى غرب الففرفة العربفة نمفء الانفساماف الففراففة الرفىسة من الغرب الى الشرق ، وهفاك فلف الشرىف السافلى من السفوف سلسلة من الأراضى العاففة ، وترفع الأرض من المركز ففى ففسكل فبال لفبان فم فففر ففوبا لففسكل فلال فلسطفن ، ومن ورافها الى الشرق ففء من الأفءوف الكبفر المففء فلال البحر المفء والبحر الأحمر الى شرق أفرفقا ، وفلفها أفضا مفطقة من الأراضى المرففعة الفى تعرف بالسفل الكبفر أو الهضبة الفافلفة الفى فففر فءرفففا ففى سفوف وصفارف الحماف . وفى بعض المفافق نظم عففقة للرى اسفءفمف مفا الففر الففوفى الكبفر والأفهار الصفرفة للففاف على الوافا الفصففة فاففة فك الفى فحول ءمشف المفءة القءفمة ، وفعففم معظم هفء الزرافاف على مفا الأمطار . وفسقف على المنفءراف الشرقة للفلل السافلفة والفبال أمطار فاففة لافففاف الزرافة طافا أمكن فبفط الفربة بفءرفف فواف فللال ، أما المفافق الأفرى فهى مزعزة بالففاوف الكبفر فى كمفا الأمطار من عام الى عام والاففلاف الكبفر فى الفرفء والفرارة ، وفى السفوف الفافلفة فففر المفزاف النسبفة لزرافة الفبوب ورعاة الابل والأفنام بشكل كبفر من وقف لآخر .

وقد كانت سوريا مرتبطة بشكل وثيق ببقية شرق حوض المتوسط عن طريق موانئها والطريق البرى الممتد بطول ساحل مصر، وكانت مرتبطة داخليا أيضا مع غرب الجزيرة بطرف تمتد عبر صحراء الحماة أو الحافة الشمالية والأراضى الواقعة الى الشرق ، وقد ساعد ازدهار التجارة الطويلة المدى والانتاج الوافر من المواد الغذائية والمواد الخام ، على تنامي المدن الكبيرة الواقعة فى السهول الداخلية والمرتبطة بالساحل ، فقامت مدينة حلب فى الشمال ونشأت دمشق فى المركز .

وتؤدى الطرق التى تمتد عبر أو حول صحراء الحماة الى وديان النهرين التوأمين دجلة والفرات ، فينبعان من مرتفعات الأناضول ويتدفقان باتجاه جنوب الشرق تقريبا ويقترب كل منهما من الآخر وبعدها ينفصلان ثم يتحدان فبصبان فى النهاية فى الطرف الشمالى من الخليج ، وتنقسم الأراضى الواقعة بينهما وحولهما الى منطقتين ، الجزيرة فى الشمال وهى الأرض المعروفة للرحالة القدماء والعلماء بأعلى ما بين النهرين . وقد زادت طبيعة المرتفعات من صعوبة استخدام مياه النهر للرى أو زراعة الحبوب ما عدا المناطق المتاخمة للأنهار أو روافدها . وبعيدا عن الأنهار نجد الأمطار غير منتظمة والتربة خفيفة مما يوجه النشاط الى تربية الأغنام وقطعان الماشية والابل . وإلى الشمال الشرقى من الأنهار هناك أرض من نوع آخر ، هى جزء من سلاسل جبال الأناضول وتسمى كردستان نسبة للأكراد الذى يسكنونها ، هناك أيضا - كمثال سفوح جبال الساحل السورى - يمكن استخدام الأراضى والمياه لزراعة الأشجار فى الأراضى العالية ، والحبوب فى الأراضى المنخفضة ، كذلك تربية الأغنام والماعز بالانتقال المنتظم بين المراعى الشتوية فى وديان الأنهار والمراعى الصيفية فى أعلى الجبال .

والى الجنوب فى العراق ، تختلف طبيعة الأرض ، حيث تنوب ثلوج جبال الأناضول فى الربيع وينحدر جزء كبير من الماء الى الأنهار ويفيض على السهول المحيطة وقد كونت الرواسب المتخلفة عن الفيضانات طوال آلاف السنين سهولا غرينية شاسعة ، هى ريف العراق المعروف بالسواد حيث تزرع الحنطة وأشجار النخيل على نطاق واسع ، وكان الرى هنا أسهل من الشمال ، لأن السهل كان خاليا تقريبا من التواءات ومنذ عصر البابليين القدماء كان هناك نظام واسع من القنوات لتوزيع المياه على السواد ، وقد أدى انبساط هذا الوادى وعنف الفيضانات الى ضرورة الحفاظ على القنوات فى حالة جيدة ، فبدون ذلك تفيض المياه على جوانب النهسر فى المناطق المحيطة وتشكل مساحات من المستنقعات الدائمة .

وقد سهل ، عدم وجود نتوءات ، على الرعاة الرحل من نجد الانتقال الى وديان الأنهار واستخدام الأراضي للرعى بدلا من الزراعة ، واعتمد أمن وازدهار السواد على قوة الحكومات ، وهى بدورها جلبت غذاءها والمواد والأموال من الريف الذى كان تحت حمايتها . وظهرت سلسلة من المدن العظيمة فى قلب السواد حيث يتقارب دجلة والفرات : حيث نشأت بابل والمدائن عاصمة الساسانيين والعاصمة العباسية بغداد .

وبالإضافة الى الطرق التى تربط بين سوريا ونجد ، امتدت الممرات من العراق الى الأراضي المرتفعة فى إيران الى الشرق ، وهى أكثر سهولة فى الجنوب منها فى الشمال . ولم تكن الملاحظة سهلة فى الأنهار فى معظم مجراها، ولكن الممرات البحرية امتدت من نقطة التقائهما وتدفقهما الى الخليج ثم الى المحيط الهندى ، وقد كانت البصرة لفترة طويلة هى الميناء الرئيسى أثناء حكم الدولة العباسية .

والمنطقة الثالثة تقع الى الغرب من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وجسر أرضى ضيق ، وإلى الشمال منه صحراء رملية تؤدى الى وادى نهر النيل الذى يبدأ من مرتفعات شرق أفريقيا ويزداد قوة بتحركه شمالا ويرتبط بروافده المنحدرة من جبال الحبشة ، ويتدفق خلال حوض طينى تراكم خلال القرون ، وهو فى بعض الأجزاء سهل عريض وفى البعض الآخر شريط ضيق ، وفى المرحلة الأخيرة ينقسم الى عدة أفرع ويجرى خلال دلتا خصبة الى البحر المتوسط ، وفى الصيف بعد ذوبان الجليد فى مرتفعات شرق أفريقيا (*) يرتفع مستوى المياه ويتدفق النهر فى فيضان ، ومنذ وقت مبكر أمكن رفع المياه بأدوات عديدة كالطنبور والساقية والشادوف على نطاق صغير من النهر ، وفى بعض المناطق خاصة فى الشمال كان هناك نظام قديم من حواجز الحماية التى تحول المياه عند فيضان النيل الى أحواض من الأراضي المحاطة بجسور حيث تظل لفترة ثم تفرغ عائدة الى النهر بهبوط الفيضان تاركة خلفها الطمى والغرين الذى يثرى التربة . وكانت الحبوب والمحاصيل الأخرى تزرع بوقرة فى الأراضي المروية بهذه الطريقة ، كما أن هناك أيضا بعض الواحات ذات الزراعة المستقرة فى الصحراء الممتدة بطول الجانب الغربى من وادى النهر .

(*) من المعروف أن هذه الزيادة فى مياه النيل تاتى نتيجة هطول الامطار على هضبة الحبشة ومن المعروف أيضا أن النيل الأزرق يعد بأكثر من ٧٠٪ من المياه التى ترد لمصر - (المراجع) .

ويمثل الجزء الشمالى من وادى النيل أراضى مصر ، وهى بلد ذو تقاليد وحضارة راقية ، ووحدة اجتماعية تخلقت وأصبحت دائمة بتاريخ طويل من الاستقرار السياسى ، حيث مارس حكام مصر سلطاتهم من مدينة واقعة على نقطة ينقسم فيها النهر الى فروع ويتدفق الى الدلتا . وكانت القاهرة هى المدينة الأخيرة فى سلسلة من المدن التى تبدأ بممفيس فى ثلاثة آلاف السنة الأخيرة قبل المسيح ، وتقع فى ملتقى شبكة من الطرق والممرات الممتدة شمالا حتى موانئ البحر المتوسط ومنها بطريق البحر حتى سوريا والأناضول والمغرب وإيطاليا ، وشرقا الى سوريا بالطريق الساحلى ، وشرقا أيضا الى البحر الأحمر ومنه الى المحيط الهندى ، وجنوبا الى أعالي وادى النيل والى شرق وغرب أفريقيا .

وقد كانت السيطرة الاجتماعية ضعيفة فى الجزء العلوى من وادى النيل والدلتا مما أضعفت من أثر العاصمة ، ويتدفق النيل خلال منطقة لا أمطار فيها . وعلى الضفة الشرقية تشكل الأراضى الصالحة للزراعة شريطا ضيقا ، ولكن على الغرب ، مكن استواء الأرض من توسيع الشريط المزروع بالرى ، والى الجنوب من هذه المنطقة قليلة الأمطار ، هناك منطقة ذات أمطار صيفية غزيرة تمتد من مايو حتى سبتمبر ، يمكن فيها زراعة الحبوب وتربية قطعان الماشية على مساحة تمتد غربا حتى ما وراء وادى النهر من البرارى الرملية وجنوبا حتى مناطق واسعة من الخضرة الدائمة . وهى السودان : أرض الزراعة والرعى والقرى ومضارب الخيام للرحل ، والبلدان الأسواق ولكن بلا مدن كبيرة ، وترتبط بمصر من خلال النيل وبطرق برية مع الحبشة والساحل والمنطقة الواقعة حول الطرف الجنوبى من الصحراء الكبرى .

ومن صحراء مصر الغربية وحتى الساحل الأطلنطى تمتد منطقة رابعة تعرف فى العربية بالمغرب (أراضى المغرب أو أراضى غروب الشمس) وتشمل البلاد التى تعرف الآن باسم ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وفى هذه المنطقة نجد أكثر الانقسامات الطبيعية وضوحا ممتدا من الشمال الى الجنوب ، فبطول سواحل المتوسط والأطلنطى شريط من الأراضى المنخفضة والتى تتحول فى بعض المواضع الى سهول الساحل فى تونس ، والسهول الساحلية على الأطلنطى فى مراكش . والى الداخل من هذا الشريط مجموعة من الجبال : الجبل الأخضر فى ليبيا ، وجبال شمال تونس ، وجبال أطلس وأطلس العليا فى مراكش ، وفى الداخل سهول مرتفعة تتلوها سلسلة أخرى من الجبال : الأوراس فى الجزائر والأطلس الأوسط ، والأطلس الأعلى الى الغرب . والى الجنوب تقع سهوب

تتحول تدريجيا الى صحارى بعضها صخرى والآخر رملي ، تتخللها واحات من نخيل البلح والى جنوب الصحارى منطقة من الأعشاب التى تروى بالأمطار ونهر النيجر .

وبالمغرب عدة أنهار يمكن استغلالها فى الري ، وقد حددت كثافة الأمطار ومواسمها طبيعة ومدى الاستقرار البشرى واعتصرت السهول الساحلية ومنحدرات الجبال تجاه البحر السحب المطيرة القادمة من المتوسط أو الأطلنطى ، مما مكن للزراعة المستديمة للحبوب والزيتون والخضر والفاكهة وجعل المنحدرات العليا غابات كثيفة ، وتتفاوت الأمطار من عام الى عام فيما وراء الجبال فى السهول العليا ويمكن استغلال الأرض بطرق مختلفة ، زراعة الحبوب ورعاية الأغنام والماعز بالهجرة الموسمية . والى الجنوب فى السهوب والصحارى تكون الأرض أكثر صلاحية للرعى ، واختلط رعاة الأغنام برعاة الابل أثناء هجرتهم من الصحراء شمالا فى النصف ، وكانت الصحارى بالفعل هى الجزء الوحيد من المغرب الذى تربى فيه الابل ، والتى وجدت فى المنطقة لعدة قرون قبل الاسلام ، ومناطقها الرملية قليلة السكان ولكن فى الجزء الآخر اختلط رعاة الماشية مع زراع أشجار النخيل والأشجار الأخرى فى الواحات .

وقد امتدت الطرق الرئيسية التى ربطت المغرب بالعالم المحيط أيضا من الشمال الى الجنوب ، وربطت منطقة موانئ المتوسط والأطلنطى بشبه جزيرة أيبيريا وإيطاليا ومصر ، وامتدت الطرق من هذه الموانئ جنوبا خلال الريف المستقر وسلسلة من الواحات فى الصحارى الى الساحل وما وراءه ، وفى مواقع محددة امتدت الطرق حتى البحر خلال مناطق واسعة من الأراضى المزروعة مما مكن للمدن أن تنمو وتكتفى ذاتيا . وكانت هناك منطقتان هما أهمية خاصة . احدهما تقع على ساحل الأطلنطى لمراكش حيث نمت فى القرون الاسلامية الأولى مدينة (فاس) ونمت الى الجنوب فى وقت لاحق مدينة مراكش ، كانت المنطقة الأخرى السهل الساحلى لتونس ، وهنا كانت (القيروان) المدينة المهمة فى القرون الاسلامية الأولى ، وفيما بعد حلت محلها تونس الواقعة على الساحل قرب موقع مدينة قرطاج القديمة ، هاتان المنطقتان بمدنهما الكبيرة كانتا تشعان قوتهما الثقافية والاقتصادية والسياسية على الأراضى الواقعة بينهما وما حولهما ، أما الجزائر التى تقم بين المنطقتين ، فلم يكن بها مناطق واسعة من الحياة المستقرة بشكل كاف يمكن من ايجاد مراكز مشابهة من القوة ، ودخلت فى دائرة نفوذ جارتها . وامتدت قوة تونس لتغطى منطقة طرابلس غرب ليبيا (تريبوليتانيا) بينما كانت (سيريناىكا) بنى غازى فى المشرق منفصلة

عن بقية المغرب بالصحراء الليبية ، التي تمتد حتى حافة البحر وكانت أقرب الى دائرة نفوذ مصر .

والمنطقة الخامسة في شبه الجزيرة هي « أيبريا » أو الأندلس ، وهي الجزء الذي كان يحكمه ويشكل أغلب سكانه المسلمون (طوال معظم القرن الحادى عشر ولكنه أخذ فى الانكماش حتى اختفى بنهاية القرن الخامس عشر) ، وهي مشابهة من بعض النواحي لسوريا . حيث تكونت من مجموعة من المناطق الصغيرة تكاد تكون منفصلة عن بعضها البعض وفى منتصف مركز شبه الجزيرة هضبة واسعة تحيط بها وتقطعها سلاسل جبلية تتدفق منها مجموعة من الأنهار خلال الأراضى المنخفضة حتى الساحل ويتدفق نهر إيبرو حتى البحر المتوسط فى الشمال، ويتدفق نهر التاجو الى الأطلنطى ، ومن خلال الأراضى البرتغالية المنخفضة ، يتدفق نهر الوادى الكبير الى جنوب الأطلنطى، وبين الجبال التى تحيط الهضبة الوسطى والبحر المتوسط تقع منطقة كاثالونيا الجبلية فى الشمال والسهول الى الجنوب ، وأوجدت التغيرات فى الطقس والأمطار اختلافات فى طبيعة الأراضى وطرق استغلالها ، ففي الأجواء الباردة فى الجبال العالية توجد غابات الفلين والسنط والبلوط تتخللها مراعى حيث تزرع الحبوب وترعى الماشية . والهضبة الوسطى ذات الجو القارى مناسبة لنظام مختلط من زراعة الحبوب والزيتون ورعى الأغنام والماعز ، وفى الأجواء الدافئة فى وديان الأنهار والسهول الساحلية تزرع الموالح وبعض الفاكهة الأخرى ، وفى هذه المنطقة من الزراعة الغنية وامكانات النقل النهري كانت المدينتان الكبيرتان قرطبة واشبيلية .

وكانت أسبانيا جزءا من عالم البحر المتوسط تربطها الموانئ على ساحلها الشرقى ببلاد حوض المتوسط الأخرى : إيطاليا والمغرب ومصر وسوريا ، الا أن أهم روابطها كانت مع جارتها مراكش ، ولم تكن المضائق التى فصلت الكتلتين الأرضيتين حاجزا أمام التجارة أو الهجرة أو حركة الأفكار والجيوش المتصارعة .

العرب المسلمون والآخرون

بحلول القرن الحادى عشر أصبح الاسلام دين الحكام والجماعات المسيطرة ونسبة متزايدة من السكان ، ولكن ليس مؤكدا أنه كان دين الأغلبية فى أى مكان خارج الجزيرة العربية ، وبنفس الطريقة ، بينما كانت العربية لغة الثقافة الرفيعة كما كانت لغة أغلب سكان الحضر ، ظلت اللغات الأخرى باقية من فترة ما قبل الفتح الاسلامى ، وبحلول القرن الخامس

عشر كان تدفق الاسلام العربى قد غطى كل المنطقة ، اسبلا ما سنيا ، ورغم وجود معتنقى المذاهب التى تطورت فى القرون الأولى ، كانت هناك مجتمعات من الأباضية فى جنوب شرق الجزيرة العربية وعلى مشارف الصحارى يدعون الانتساب الروحي الى الخوارج الذين رفضوا زعامة على بن أبى طالب عقب معركة صفين وتمردوا على حكم الخلفاء فى العراق والمغرب ، وفى اليمن التزم معظم السكان بالشيعة فى صورتها الزيدية ، أما الشيعة فى صورتها الاثنى عشرية والاسماعيلية التى سادت معظم شرق العالم العربى فى القرن العاشر ، فقد بدأت فى الانحسار ، الا أن الاثنى عشرية كان لها أتباع كثيرون فى أجزاء من لبنان وجنوب العراق ، حيث تقع معظم مزاراتهم المقدسة ، وعلى الشاطئ الغربى من الخليج . واستمر الاسماعيليون فى تمسكهم بمعتقدهم فى أجزاء من اليمن وايران وسوريا ، وكان بإمكانهم مقاومة الحكام من السنة (الأيوبيين) فى سوريا والسلجوقيين فى الشرق والذين وصلت أنباء نشاطهم الى أوروبا خلال الحروب الصليبية واشتهروا باسم الحشاشين . والقصة القائلة بأنهم عاشوا تحت الحكم المطلق لشيخ الجبل ، لم ترد فى المصادر العربية . وقد كان أتباع الروافد الأخرى من الشيعة والدروز والنصيريين أيضا فى سوريا ، وكان اليزيديون فى شمال العراق من أتباع دين له عناصر مشتقة من كل من المسيحية والاسلامية ، وفى الجنوب كانت الديانة المانوية المستمدة من المعتقدات والطقوس الدينية القديمة .

وبحلول القرن الثانى عشر كانت الكنائس المسيحية فى المغرب قد اختفت تقريبا ، ولكن جزءا كبيرا من السكان فى الممالك الاسلامية فى الأندلس كانوا مسيحيين تابعين لكنيسة الروم الكاثوليك ، وكان المسيحيون الأقباط يشكلون عنصرا مهما من السكان المصريين فى القرن الخامس عشر رغم أن عددهم كان آخذا فى التقلص بالدخول فى الاسلام ، والى الجنوب فى شمال السودان ، اختفت المسيحية بحلول القرن الخامس عشر أو السادس عشر بانتشار الاسلام عبر البحر الأحمر وجنوبا مع وادى النيل ، وفى كل سوريا وشمال العراق بقيت المجتمعات المسيحية وان كانت مطردة الانكماش ، وكان بعضها أساسا فى المدن وكانت تابعة للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وكان البعض الآخر من أتباع الكنائس الأخرى التى كانت لها أصول فى الجدل حول طبيعة المسيح : الأرثوذكسية السورية التوحيدية ، والنسطوريون . وفى لبنان والأجزاء الأخرى من سوريا كانت هناك كنيسة رابعة هى المارونية ، وهم الذين اعتنقوا المذهب التوحيدى ولكنهم فى القرن الثانى عشر عندما حكم الصليبيون سواحل سوريا خضعوا لمذهب الروم الكاثوليك وسيادة البابا .

وقد كان اليهود أكثر انتشارا فى عالم الاسلام العربى . وفى المغرب حدث تحول ملحوظ من المزارعين الى اليهودية قبل دخول الاسلام ، وظلت المجتمعات الريفية اليهودية باقية كما كان الحال فى اليمن وبعض أجزاء الهلال الخصيب ، وكان اليهود موجودين أيضا فى معظم مدن المنطقة لأنهم لعبوا دورا مهما فى التجارة والصناعة والمال والطب . وكان القسم الأكبر منهم تابعا للكيان الرئيسى لليهود الذين قبلوا بالقوانين الشفهية وتفسيرها الموجود بالتلمود ، والتي حفظها أولئك الذين درسوا التلمودية ، وفى مصر وفلسطين وغيرها كانت هناك (طائفة اليهود القرائين) الذين لم يتقبلوا التلمود وكانت لهم قوانينهم الخاصة التي اشتقها أساتذتهم من الأسفار المنزلة وكان جزء كبير من المجتمعات اليهودية فى ذلك الوقت يتكلمون العربية رغم أنهم استحدثوا أشكالا من العربية خاصة بهم، ولكنهم استمروا فى استخدام العبرية فى شعائريهم . وفيما بين المسيحيين أيضا انتشرت العربية فى الهلال الخصيب ومصر وأسبانيا ، وتقلصت الآرامية والسريانية كلغات حديث وكتابة رغم أنها استمرت مستخدمة فى أغراض الصلاة والقداس . ولم تعد اللغة القبطية فى مصر تستخدم فى أى غرض من الأغراض بخلاف الأغراض الدينية ، وبحلول القرن الخامس عشر استخدمت اللغة العربية فى الشعائر الكنسية وتوقف استخدام القبطية ، واتخذ كثير من المسيحيين فى الأندلس العربية لغة لهم رغم أن اللغات الرومانسية (*) الموروثة ظلت باقية ، وكانت آخذة فى الانتعاش . وعلى حدود التدفق العربى فى المناطق الجبلية والصحراوية كانت هناك لغات حديث أخرى كالكردية فى جبال شمال العراق ، والنوبية فى شمال السودان ولغات أخرى مختلفة فى الجنوب ، واللهجات الدارجة البربرية فى جبال وصحراء المغرب ، وكان الأكراد والبربر مسلمين الا أنهم انضموا الى دائرة اللغة العربية فى حدود عدد من تعلمها منهم .



(*) اللغات الرومانسية Romance Language أى اللغات الناشئة عن اللاتينية -
(المراجع)

الفصل السادس

الريف

استخدامات الأراضي

تمتد هذه البلاد على خط واحد من سواحل الأطلنطى الى سواحل المحيط الهندى ، ولم تشترك فى اللغة والثقافة الغالبة عليها فقط وانما اشتركت الى حد ما فى خصائص محددة من المناخ والتضاريس والتربة والمحاصيل والمزروعات أيضا ، واعتبر هذان العاملان مرتبطين بشكل وثيق فى بعض الأحيان ، حتى ان بعض الآراء دارت حول أن دين الاسلام كان مناسبا لنوع خاص من البيئة ، أو أن تلك البيئة قد أوجدته بالفعل ، الا أن تلك النظريات خطيرة للغاية ، حيث ان هناك كثيرا من البلاد التى تميزت بمناخ مختلف انتشر فيها الاسلام وضرب جذوره مثل بعض جهات جنوب وجنوب شرق آسيا (*) ، ولهذا فمن الأفضل النظر الى هذين العاملين بشكل منفصل .

ويمكن بشكل عام وصف المناخ فى معظم البلاد التى أصبحت فى تلك الفترة مسلمة الديانة وعربية اللغة . فسواحلها رطبة بسبب الرياح القادمة من البحر ، وكلما توغلنا للداخل يصبح الطقس قاريا يتميز باختلافات كبيرة فى درجات الحرارة بين النهار والليل وبين الصيف والشتاء ، وشهر يناير هو أبرد الشهور فى كافة المناطق وشهور يونية ويولية وأغسطس أشدها حرارة ، ونتميز بعض المناطق الساحلية بالأمطار الغزيرة المنتظمة ، وكذا سفوح الجبال المواجهة للسواحل ، التى تعتصر السحب المطيرة القادمة من البحار ، وتشترك فى هذه السمات كل من جبال أطلس على ساحل الأطلنطى فى مراكش ، وجبال أطلس التل وتبسه شرق الجزائر

(*) وآسيا الصغرى وشرق أوروبا وجمهوريات الفولجا ، وجمهوريات ما يعرف بالاتحاد السوفيتى السابق ١٠٠ كل هذه الأمثلة وغيرها تدحض - كما يؤكد البرت حورانى - أن الاسلام قاصر على بيئة بعينها . اننا نحى موضوعية المؤلف واتزانه - (المراجع)

وشمال تونس والكتل الصخرية فى ليبيا على الساحل الجنوبي من المتوسط وعلى ساحله الشرقى جبال لبنان والى أقصى الداخل جبال شرق العراق . وفى جنوب غرب الجزيرة العربية تجلب الأمطار السحب القادمة من المحيط الهندى مع الرياح الموسمية فى شهور الصيف ، وفى المناطق الأخرى تسقط غالبية الأمطار من سبتمبر الى يناير ، وفيها يفوق متوسط الأمطار السنوى ٥٠٠ مم ويزيد بشكل ملحوظ فى بعض الأجزاء .

وتقل الأمطار على الجانب الآخر من الجبال الساحلية فى السهول والهضبات وتصل الى معدل ٢٥٠ مم سنويا وقد يكون هذا المتوسط خادعا حيث يتفاوت هطول الأمطار فى هذه المناطق الداخلية من شهر الى شهر ومن عام الى عام مما يؤثر على المحاصيل . وتضعف المحاصيل فى السنوات التى يندر فيها المطر أو يمتنع .

وخارج هذا النطاق من الأمطار الغزيرة غير المنتظمة ، هناك مناطق من الأمطار الشحيحة أو النادرة ، يقع بعضها قرب الساحل مثل شمال مصر حيث لا توجد جبال تساعد على سقوط الأمطار حيث تقع بعيدا عن البحر ، وينفاوت هطول الأمطار هنا من صفر الى ٢٥٠ مم سنويا ، ومعظم هذه المناطق ليست محرومة تماما من الماء ، ففي بعض الأجزاء حتى فى الصحراء العربية والصحراء الكبرى توجد ينابيع وآبار تغذيها الأمطار الموسمية أو المياه المتسربة من تحت الأرض من سفوح التلال أو سلاسل الجبال الواقعة بالقرب من البحر ، وفى بعض المناطق الأخرى تروى الأرضى التى لا تصلها الأمطار من الأنهار التى تجلب مياه الأمطار من مسافات بعيدة ، وكثير من الأنهار لا تعتبر أكثر من وديان موسمية تجف فى الصيف وتمتلئ بالفيضان فى المواسم المطيرة ، ولكن البعض الآخر دائم طوال العام مثل تلك التى تتدفق من الجبال حتى البحر فى اسبانيا والأطلنطى ومراكش والجزائر وسوريا ويفوقها جميعا واديا النهرين الكبيرين النيل ودجلة والفرات .

وكلا النهرين يجلبان الحياة لمناطق كبيرة من الأرضى المنبسطة التى يجريان من خلالها ، ولكنهما مختلفان فى ايقاعهما ، فالنيل . تجلب روافده المياه من الأمطار التى تسقط على هضبات مرتفعات الحبشة وشرق أفريقيا فى الربيع والصيف ويسبب سلسلة من الفيضانات تبدأ فى النيل الأبيض ، وبعدها فى النيل الأزرق وروافده ، ويبدأ وصول الفيضان الى مصر فى شهر مايو ليصل الى ذروته فى سبتمبر ، ثم يبدأ فى النقصان حتى ينتهى فى نوفمبر . وفى أعالي الأناضول النى ينبع منها كل من دجلة والفرات

يندوب الجليد في الربيع ، وينحدر نهر دجلة حاملا الفيضان بدءا من شهر مارس حتى شهر مايو ، ويتبعه الفرات بعد ذلك بقليل ويكون الفيضان في النهرين عنيقا بحيث يفيض على الجانبين ، حتى انه يغير من مساريهما في بعض الأحيان ، وفي جنوب العراق هبطت الأرض قبل الاسلام بفترة قصيرة وتكونت مستنقعات دائمة .

وقد تضافرت عوامل تغير التضاريس والحرارة ومصادر المياه لخلق نوعيات مختلفة من التربة في السهول الساحلية والمنحدرات الجبلية التي تمتد نحو الساحل حيث تكون التربة خصبة وغنية ، ولكن الأراضي في الجبال تحتاج الى التسوية اذا لم تجرفها المياه في المواسم المطيرة ، والتربة في السهول الداخلية خفيفة ولكنها خصبة ، وتتغير طبيعة الأراضي حيث تتحول السهول الداخلية الى وديان وصحار والأماكن التي تتوافر فيها المياه الجوفية ، تحيطها مناطق صخرية من الحصباء ، وكتل الصخور البركانية والكتبان الرملية مثل تلك الموجودة بالربع الخالي والنفود في الجزيرة العربية ومناطق الأرج في الصحارى المغربية .

وقد نشأت، منذ العصور السحيقة، زراعات خضر وفاكهة حيثما وجدت التربة والمياه ، ولكون الظروف الجيدة ضرورية لبعض المحاصيل ، فقد اكتسبت ثلاثة أنماط زراعية أهمية خاصة . الأولى كانت أشجار الزيتون التي توفر الغذاء وزيت الطهي ووقود الانسارة ، وأمكن زراعتها في الأراضي الرملية حيث تزيد معدلات الأمطار عن ١٨٠ مم سنويا ، ثانيا زراعة القمح والحبوب الأخرى للاستهلاك الأدمى وعلف الحيوان ، وتحتاج اما الى أمطار تزيد عن ٤٠٠ مم سنويا أو الري من الأنهار أو الينابيع . والثالث كان النخيل الذي يحتاج الى درجة حرارة ١٦° مئوية على الأقل للثمار ، ويمكن أن تزدهر بالرغم من ندرة المياه . وفي حالة وجود مياه كافية ومراع ، يمكن استغلال الأراضي لتربية قطعان الماشية أو الزراعة ، فالماعن والأغنام تحتاج الى مراعي وكلاء على فترات قصيرة حتى لا تضطر للانتقال ، أما الابل فيمكنها الارتحال لمسافات كبيرة بين المراعي ولا تحتاج للشرب كثيرا .

كان الشرق الأوسط والمغرب بسبب هذا التنوع في الظروف الطبيعية ، مقسمين منذ ما قبل الاسلام الى مناطق انتاج واسعة تقع بين تقيضين . ففي ناحية منها كانت الزراعة ممكنة بشكل دائم على الممرات

الساحلية حيث تنمو أشجار الزيتون ، وفي السهول ووديان الأنهار حيث تزرع الحبوب ، وفي واحات النخيل . في كل هذه المناطق كانت تزرع الخضار والفواكه وكان ادخال سلالات وأصناف جديدة أحد نتائج تشكيل المجتمع الاسلامي الممتد من المحيط الهندي الى المتوسط ووجدت قطعان الماشية والماعز والأغنام مراعى لها ، وفي الجبال العالية مجموعة متنوعة من الأشجار لانتاج الخشب وجوز العفص (البلوط) والصمغ والفلين ، وفي الطرف الآخر مناطق بها خضرة ومياه تكفي لتربية الابل أو الحيوانات الأخرى بالهجرة الموسمية على مسافات بعيدة . مثل هاتين المنطقتين كانت لهما أهمية خاصة : الصحراء العربية وامتدادها الشمالى الصحراء السورية (*) حيث يقضى مربو الابل الشتاء فى صحراء (النفود) ثم يتحركون جهة الشمال الغربى الى سوريا أو الشمال الشرقى الى العراق فى الصيف، أو الصحارى المغربية حيث ينحركون من الصحراء حتى السهول المرتفعة أو الحدود الجنوبية لجبال أطلس .

بين هذين الطرفين ، منطقة حياة شبه مستقرة من الزراعة الثابتة والأخرى من الحياة الرعوية للبدو الرحل ، حيث يمكن زراعة الأرض ولكنها غير مضمونة ويتساوى معها استخدام الأراضي والمياه للمراعى ، ويصدق ذلك بشكل خاص على المناطق التى تقع على تخوم الصحارى حيث الأمطار غير منتظمة والسهوب فى سوريا ووادي الفرات والحدود الخارجية لدلتا النيل والمناطق الأخرى المروية فى وادى النيل ، وسهوب كردفان ودارفور فى السودان والسهول العالية وجبال أطلس الصحراوية فى المغرب ، ويمكن فى ظروف خاصة أن تتحول معظم الأراضي الزراعية الى مراعى ما لم تكن محمية بتضاريسها ، فعلى سبيل المثال لم يصل الرعاة من الصحارى الى جبال أطلس العالية فى مراكش .

لذلك فمن التبسيط المخل النظر الى الريف على أنه مقسم الى مناطق التصق الفلاحون فيها بالأرض لرعاية المحاصيل ، وأخرى للرعاة الرحل المتنقلين مع حيواناتهم ، فقد كان الوضع الوسيط ممكنا بين حياة مستقرة ثابتة بالكامل وحياسة تنقل تام وهو ما كان عليه الحال ، فكان هناك مجال واسم من طرق استغلال الأراضي، وقد يستقر فى بعض المناطق أناس يسبطرون على أراضيهم ، وقطعان ماشيتهم يعنى بهما المستخدمون والأجراء ، وفى البعض الآخر مزارعون مستقرون ورعاة أغنام تقاسموا

(*) عرفت ببادية الشام - (المراجع) .

استغلال الأراضي ، ثم المهاجرون الموسميون ينتقلون مع قطعانهم من الأراضي المنخفضة الى المراعى فى الأراضي المرتفعة ، ولكنهم كانوا يزرعون الأراضي فى مواسم معينة ، وفى بعض الحالات كانوا بدؤوا رحلا بالكامل ، وقد يتحكمون فى بعض الأراضي المستقرة من الواحات أو على تخوم الصحارى حيث يعمل الفلاحون لصالح البدو الرحل .

ولا يسهل وصف العلاقات بين أولئك الذين فلقوا الأراضي وأولئك المتنقلين مع حيواناتهم بمصطلح قديم ، أو فى شكل تعارض لا يمكن محوه بين الصحراء والريف المزروع ، فقد احتاج كل من المزارعين المستقرين والرعاة الرحل كل منهما للأخضر لتبادل السلع التى ينتجونها ، فالرعاة لم يكن بإمكانهم انتاج ما يحتاجونه من طعام سواء أكانت حبوبا أم تمورا ، بينما احتاج المزارعون للحوم وجلود وأصواف الحيوانات التى يربوها للرعاة ، وكذلك الابل والحمير والبغال لأغراض النقل ، وفى المناطق التى تواجدت بها الجماعتان كانت لهن نفس الحقوق على المياه والأراضي والمحاصيل والمزروعات ، كما أنهم احتاجوا للانفاق على ترتيبات مقبولة بشكل دائم لكلا الطرفين .

وكان التعايش والتكامل بين المزارعين والرعاة هشاً وعرضة للتحول لصالح أحدهما . فقد اكتسب الرعاة الرحل وضعا نتيجة قدرتهم على التحرك وشدة احتمالهم . وينطبق هذا - بشكل خاص - على العلاقة بين الذين يربون الابل فى العراء وسكان الواحات . وقد عاشت فى بعض الواحات الكبيرة الواقعة على الممرات التجارية المهمة طبقة من التجار الذين تمكنوا من احكام السيطرة على الأسواق وزراعات النخيل . ولكن فى الواحات الأخرى كان الرعاة هم المتحكمين فى الأراضي وفلاحتها على أيدي الفلاحين أو العبيد . وعلى حافة الصحراء أيضا كان الرعاة من القوة بما يمكنهم من فرض اتاوة على القرى المستقرة ، فى شكل من نظام حكم يعتبرون فيه أنفسهم سادة العالم والريف بادعاء الحرية والنبل والشرف التى يفتقدها الفلاحون والتجار والحرفيون ، وقد عبرت هذه العلاقة الجائرة عن نفسها فى ثقافة الرعاة ، ومن ناحية أخرى كانت هناك قوى فاعلة تحد من حرية وقوة الرعاة وتجبرهم نحو الحياة المستقرة بمجرد أن يصلوا الى الوديان أو السهوب المنبسطة .

ولم يكن اضطراب هذا التعايش بسبب الحالة المتكررة من الحروب بين هذين النوعين من المجتمعات ، ولكن لأسباب أخرى قد تكون التغيرات

الطائرة على الطقس أو المياه والتي حدثت على مدى قرون ، ومن الثابت أن الجفاف قد ازداد في المناطق الصحراوية . وكانت هناك تحولات في الطلب على منتجات الريف والصحراء ، وطلب يتزايد أو يقل على زيت الزيتون والحبوب والحنطة والجلود والصوف واللحم ، أو الابل لأغراض الانتقال والنقل . وفي بعض الأحيان كانت هناك أزمات ، بسبب التعداد المتزايد ، بين الرحل الذي كانوا يعيشون ، بشكل عام ، حياة صحية أكثر من سكان القرى ، وعليه ، كانوا يتوسعون بشكل أكبر مما تسمح به سبل معيشتهم ، ومن وقت لآخر كانت هناك تغيرات سياسية ، عندما يكون الحكام أقوياء فيعمدون الى توسيع الرقعة الزراعية التي نمدهم بالطعام لتغذية المدن والضرائب للانفاق على الجيوش .

ولم يكن الفتح العربى للبلدان المحيطة في الفترات الاسلامية المبكرة مجرد فيضان من البدو الرحل اجتاح العالم المستقر وأسقط ذلك التعايش ، وانما كانت الجيوش العربية جيوشا صغيرة على قدر من الانضباط ، ومن جنود ذوى أصول مختلفة ، وكان يتبعهم في العراق وايران على الأقل هجرات كبيرة من الرعاة العرب . وبأعداد لا يمكن تقديرها ، وكانت مصالح الحكام الجدد تعتمد على الحفاظ على نظم الزراعة ، ومن ثم العائلات والضرائب ، وأولئك الذين كانوا يملكون الأرض أزيحوا أو دخلوا في الصفوة أو النخبة الحاكمة الجديدة ، ولكن بقى المزارعون المحليون والجنود والمهاجرون واستقروا في تلك الأراضي أو في المدن الجديدة . ونمت المدن الجديدة بشكل أكبر من تلك التي كانت موجودة بالفعل في خراسان حتى تركستان في الشرق والى الأندلس في الغرب ، مما يثبت أنه كان هناك ريف مستقر كبير ينتج ما يكفي لتوفير الطعام ، ومن ناحية أخرى أدى تنامي التجارة بعيدة المدى في المجتمع الاسلامي المتراامي الأطراف ، والحج السنوي الى مكة الى خلق الطلب على الابل والحيوانات الأخرى لأغراض الانتقال .

وفيما يتعلق بالاضطراب في التعايش أو التكامل فقد حدث ذلك فيما بعد بدءا من القرن العاشر أو الحادى عشر وما بعده ، فعلى أطراف العالم الاسلامي ، كانت هناك اختراقات من مجموعات البدو الرحل أدخلت بالتوازن السكانى فقد انتقل الرعاة الأتراك الى ايران والأراضي التي فتحت حديثا في الأناضول ، واستمرت هذه الحركة وتزايدت أثناء الغزوات المغولية وما بعدها ، وفي أقصى الغرب اتجه البربر من أطلس وأطراف الصحارى شمالا الى مراكش والأندلس ، الا أن هذه العملية اختلفت في الأجزاء الوسطى من العالم الاسلامي وقد ألفت دراسة أجريت على المنطقة

الواقعة (١) حول نهر دىالى(*)، أحد روافد دجلة في السهل المروى من جنوب العراق والتي كانت تمتد ببغداد بالطعام والمواد الخام اللازمة لتعدادها الهائل الكبير ، ألقت الضوء على هذا الاختلاف . فقد تطلب نظام الري الذي تطور من عهد بابل وما بعده ، حكومة قوية للحفاظ عليه ، مثل هذه الحكومة توفرت في بدايات الفترة العباسية عندما تم اصلاح هذا النظام وترميمه بعد تحلله في نهاية فترة حكم الساسانيين . وبمرور القرون تغير الحال ، وكان تنامي بغداد وتجارها يعنى المزيد من الثروة الناتجة عن الفائض الريفى ، والذي كان يستخدم في المدينة بدلا من توجيهه لصيانة الريف . وقد أدى الضعف المتزايد للحكومة المركزية الى تحول السيطرة على الريف الى أيدي الولاة والحكام المحليين أو جامعى الضرائب الذين لم يكن لهم اهتمام دائم بالحفاظ على نظم الري ، وقد أدت التغيرات البيئية الى تكون مستنقعات كبيرة ، وفي هذه الظروف انهار نظام الري تدريجيا على مدى القرون . ولم تكن لدى المزارعين أنفسهم الموارد اللازمة للحفاظ عليه بحالة جيدة فقد ضُحِفَ تدفق المياه الى القنوتات وتحولت المناطق المزروعة الى مراعى .

وقد يكون انتشار الرعى البدوى اذن نتيجة لانهايار الزراعة وليس سببا له وقد يكون ما حدث بالمغرب عكس ذلك ، وقد تبني المؤرخون المحدثون فكرة منقولة عن ابن خلدون ، اذ اعتادوا نسبة انهيار الحياة المستقرة في المغرب الى وصول قبائل عربية وبالدات بنو هلال في القرن الحادى عشر ، ويعتقدون أن الغزو والسلب أثرا بعمق على تاريخ المغرب اللاحق ، بعد أن أدى الى تدمير الحكومات القوية التي كانت ترعى الحياة المستقرة ، كما أدت الى تغير استخدامات الأراضى من الزراعة الى الرعى ، واغراق السكان المحليين في بحر من الهجرة العربية الجديدة ، وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن العملية لم تكن بهذه البساطة ، فمن الثابت أن عناصر من بنى هلال دخلوا تونس من مصر في النصف الأول من القرن الحادى عشر ، وكانوا فاعلين في محاولات السلالة الفاطمية في مصر لاضعاف سلطة بنى زيرى ولاية القيروان المحليين والذين كانوا أتباعا للفاطميين ثم تخلوا عن ولائهم . بدأوا بالفعل في فقد قوتهم نتيجة تدنى تجارة القيروان ، وتفككت دولتهم الى امارات صغيرة قامت على المدن الاقليمية ، وقد يكون ضعف السلطة وتدنى التجارة ، هو ما مكن الرعاة من الانتشار ، ولاشك أن

(*) نهر دىالى Diyala ينبع من جبال زاغروس ويلتقى بنهر دجلة الى الجنوب من بغداد - (المراجع) .

توسّعهم أدى إلى الدمار والفوضى ، ولا يبدو أن بنى هلال كانوا معادين للحياة المستقرة بهذا الشكل فقد كانوا على علاقات جيدة مع الأسر الحاكمة الأخرى ، وإذا حدث تحول في التوازن الريفي في ذلك الوقت فقد كان نتيجة لأسباب أخرى ، ويبدو أنها لم تكن عامة أو مستديمة حيث انتعشت أجزاء من الريف التونسي على أيدي الحكومة القوية للموحدين وخلفائهم الحفصيين ، وكان التوسع في الرعي على ما يبدو نتيجة وليس سببا رئيسيا في انهيار التكامل والتعايش الريفي ، وإن اعتبر فيما بعد سببا لذلك ، كانت تلك طريقة رمزية لرؤية عملية معقدة ، فلا يبدو أن بنى هلال كانوا من الكتلة بحيث يمكنهم إحلال الحرب محل السكان البربر ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا حدث بالفعل توسع وانتشار للغة العربية وجاءت معها فكرة الرابطة أو العلاقة بين أهل الريف في المغرب وبين شبيه الجزيرة العربية ، ولكن سببها لم يكن انتشار القبائل العربية بمقدار ما كان بسبب ذوبان البربر فيها (٢) .

المجتمعات القبلية

لم يكتب تاريخ الريف في هذه القرون ، كما كان من الصعب كتابته لأن المصادر الأساسية لم تكن متوفرة ، ولكن المصادر موجودة بالنسبة للفترة العثمانية ، وفي الملفات العثمانية الهائلة التي بدأ استكشافها حاليا ، وأيضا بالنسبة للفترات الحديثة يمكن استكمال المستندات بالملاحظة المباشرة ، ومن الخطورة مناظرة ما كان موجودا منذ قرن أو اثنين ، بما هو قائم الآن أو بما كان قائما من عدة قرون مضت ، وقد يساعدنا لفهم الأحداث والتفاعلات في ذلك الوقت أن نستخدم معارفنا من العصور اللاحقة لبناء « نموذج » لما كان عليه المجتمع الريفي في بيئة الشرق الأوسط والمغرب الجغرافية .

ولو أن أسباب التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية اقتضت على ذاتها في مثل هذه المناطق الريفية ، فبإمكانها أن تفرز نوعا من المجتمعات التي يطلق عليها « قبلية » ويصبح من الضروري أن نبدأ بتعريف المقصود بالقبلية .

في المجتمعات الرعوية والقبلية على السواء تتكون الوحدة الأساسية من العائلة الصغيرة (النواة) التي تتكون من ثلاثة أجيال : الأجداد والآباء والأبناء ، الذين يعيشون معا في منازل قروية مبنية من الأحجار أو الطوب

الطيني أو أية مواد متاحة محليا أو في الخيام المنسوجة للبدو الرجل ، والرجال مسئولون في الأساس عن العناية بالأرض والماشية ، والنساء مهتمات أعداد الطعام والنظافة وتربية الأطفال ، ويمكن أيضا أن يقدمون العون في الحقول أو الرعي ، أما مسئولية التعامل مع العالم الخارجي فتقع رسميا على الرجال *

ومن المنطقي افتراض أن القيم التي نعبر عنها بمفهوم (الشرف) والتي درسها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بإسهاب ، قد وجدت منذ عصور سحيقة في الريف أو على الأقل في تلك الأجزاء التي لم تتصل بالديانات الرسمية للمدن ، وبناء على هذه الفرضية يمكن القول - مع اختلافات كثيرة في الوقت والمكان - أن النساء في القرى والوديان رغم أنهن لسن محجبات أو معزولات عن المجتمع كن تابعات للرجال بشكل ملحوظ . وكانت ملكية الأراضي مقتصرة على الرجال ولا يرثها إلا الأبناء الذكور ، وكان الأبناء الذكور هم ثروة البيت ، وكان جزءا من شرف الرجل أن يدافع عما يملكه وأن يستجيب لطلبات أفراد العائلة أو القبيلة أو الجماعة الكبيرة التي ينتمي إليها . والشرف عائد على الفرد من خلال انتمائه للجماعة الأكبر . والنساء من عائلته ، الأم والأخوات والزوجات والبنات هن تحت حمايته ، ولكن ما يفعلنه يمكن أن يؤثر على شرفه مثل غياب الحياء أو الحشمة أو أي تصرف يمكن أن يشير في الرجال الغرباء مشاعر قوية يمكن أن تهدد السلام الاجتماعي ، ويختلط احترام الرجل لنسائه بالشك أو حتى الخوف من المرأة باعتبارها ماثرا للمشاكل . وفي دراسة عن النساء البدويات في الصحراء الغربية لمصر لفتت الأشعار والأغاني ، التي يرددنها فيما بينهن ، الانتباه إلى إثارة المشاعر الذاتية ومشاعر الحب التي يمكن أن تغطي على الواجبات المتعارف عليها أو تتخطى الحدود المحرمة ، وتلقى الشك على النظام الاجتماعي الذي تعشن تحت ظلاله والذي تعترف به رسميا :

« من لمس يدك الممتدة على الوسادة ... نسي أباه .. ثم نسي جسده » (٣) *

وعندما تكبر المرأة تكتسب نفوذا أكبر ، كام لأولاد ذكور ، أو كالأزوجة الأولى الأرفع مقاما (ان كن أكثر من واحدة) ، ليس فقط على نساء العائلة الأصغر سنا وإنما أيضا على الرجال *

ولم تكن هذه العائلة (النواة) مكتفية ذاتيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا في معظم الأحوال ، ولذا يمكن أن تنضم إلى نوعين من الوحدات

الأكبر ، احدهما كانت مجموعة الأقارب المنحدرين من نفس الجد الأكبر لأربعة أو خمسة أجيال مضت ، وكانت تلك المجموعة التي يمكن لأفرادها طلب المساعدة عند الحاجة والتي يمكن أن تتحمل مسؤولية الاخذ بالشار اذا قتل أو أضر أحد أفرادها .

والنوع الآخر هو تلك الوحدة التي أوجدتها المصالح الاقتصادية اندائمة لأولئك الذين يزرعون الأرض ولا يتنقلون ، فكانت الوحدة هي القرية أو الحى اذا كانت القرية كبيرة كذلك القرى الموجودة فى السهول ووديان الأنهار ، رغم الخلافات بين العائلات الا أن الترتيبات لزراعة الارض كان لابد من الاتفاق عليها ، ويتم ذلك فى بعض المناطق بالتقسيم الدائم لزمم القرية بين العائلات مع الاشتراك فى أراضى المراعى، وفى بعضها الآخر بالتقسيم الدورى بحيث يكون لكل عائلة نصيب فى الأراضى المروية التى تتمكن من زراعته على المشاع ، وكان لابد من اتخاذ الترتيبات لتقسيم المياه ، وكان ذلك يتم بعدة طرق ، منها مثلا تقسيم المياه فى الجداول أو القنوات لعدة أنصبه ، يخصص كل منها بشكل دائم أو بالتوزيع الدورى الى مالك قطعة أرض معينة ، وكان لابد أيضا من اتخاذ الترتيبات فيما يتعلق بالزراعة ، فالمالك صاحب الحيازة غير الكافية أو من لا يمتلك حيازة يمكنه البحث عن أرض شخص آخر مقابل اعطائه جزءا محددا من الانتاج ، أو قد يقوم بالزراعة أو رعاية الأشجار والفاكهة على أرض آخرين ويعتبر مالكا لها . وفى المجموعات الرعوية التى تتكون من أولئك الذين يتحركون معا من مرعى لآخر ، كانت الوحدة الأكبر من نوع مشابه لأن الرعى المتنقل يتعذر بدون درجة ما من التعاون والانضباط الاجتماعى ، وفى هذه الحالة لا تقسم الأرض حيث اعتبرت المراعى والمياه ملكية عامة لكل من يستخدمهما .

وبين هذين النوعين من الوحدات : الأولى المرتكزة على القرابة والنسب ، والآخرى القائمة على المصالح المشتركة كانت هناك علاقة مركبة، ففي المجتمعات غير المتعلمة يتذكر قليل منهم أجدادهم لخمسة أجيال مضت ، ويصبح الادعاء بالأصول المشتركة طريقة رمزية للتعبير عن مصالح مشتركة تضافى على تلك المصالح قوة لا يمكن أن توجد بدونها . وفى بعض المواقف قد يحدث صراع ، عندها يستدعى أحدهم مجموعة الأقرباء لتقديم العون ، وقد لا يقدم بشكل كامل لاحتمال تعارضه مع بعض المصالح الأخرى أو القرابات الشخصية .

• وتمتد الانتماءات الى ما وراء هذه الوحدات الصغيرة الدائمة الى وحدات أكبر تتكون من كل القرى التي تشكل منطقة أو كل وحدات الرعى التي تستخدم منطقة رعوية واحدة أو حتى المجموعات المنفصلة بشكل واسع عن بعضها البعض اذ يمكن أن يعتبروا أنفسهم منتمين لكل أكبر ، مثل قبيلة أو عشيرة ، والتي يعتبرونها مختلفة عن المجموعات الشبيهة ومتعارضة معها ، وعادة ما يعبر الانحدار عن جد مشترك عن وجود قبيلة وتوحيدها ، الا أن الانتساب الى ذلك الجسد الأكبر لم يكن معروفا على الدوام ، وكانت الأنساب تميل أحيانا الى المبالغة أو التخيل ، وبالتالي التغير أو التلاعب بين الوحدات المختلفة ، الا أنها كانت تكتسب قوة وعمقا بالتزاوج بين الجماعة •

وقد كانت القبيلة قبل كل شيء اسما موجودا في أذهان أولئك الذين يدعون ارتباط كل منهم بالآخر ، وكان لها نفوذ كامن على أفعالهم ، فعندما يكون هناك خطر مشترك من الخارج أو في أوقات الهجرة الجماعية على سبيل المثال ، تكون هناك روح جماعية (العصبية) تدفع الأفراد الى مساعدة كل منهم للآخر في وقت الحاجة ، أولئك الذين لهم اسم مشترك كانوا يشتركون أيضا في الاعتقاد بتسلسل الشرف • وقد اعتبر البدو الرحل من مربى الابل في الصحراء أنفسهم أرفع شرفا باعتبار أن حياتهم هي الأكثر تحررا والأقل خضوعا للسلطة الخارجية وكان التجار من أسواق المدن الصغيرة ، والباعة الجائلون ، والحرفيون ، مثل عمال المعادن من اليهود في الصحاري والمشتغلين بالمعادن في الصحراء العربية والعمال الزراعيين في الواحات جميعا خارج النظام القبلي من وجهة نظرهم •

واستمرت هذه الأسماء والولاءات والادعاءات المتناثرة حولها لعدة قرون ، في بعض الأحيان في منطقة واحدة ، وفي أحيان أخرى في مناطق واسعة • ويمثل بنو هلال نموذجا للطريقة التي يمكن بها للاسم - الذي تجلى في الأدب الشعبي - ان يظل ويستمر ، وأن يعطى نوعا من الوحدة لجماعات من أصول مختلفة من العرب والبربر • كذلك استمرت في جنوب غرب الجزيرة العربية أسماء « حاشد » و « باقل » في نفس المنطقة ، على الأقل منذ بدايات العصر الاسلامي حتى الزمن الحالي ، وفي أجزاء من فلسطين بقيت الأسماء العربية القبلية القديمة « قيس » و « يمن » حتى العصر الحديث • بقيت تلك الأسماء وسائل للتعرف والتضامن وطلب العون بين الحلفاء في القرى • وقد لعبت في المناطق البربرية من المغرب أسماء « صنهاجة وزناتى » دورا مماثلا •

وقد حافظ كبار السن أو رؤوس العائلات ، سواء فى وحدات المراعى أو وحدة القرية أو الحى ، على الذاكرة الجمعية للجماعة حيث قاموا بتنظيم الاهتمامات العامة العاجلة وتسوية الخلافات التى تهدد بتفريق الجماعة ، وعلى المستوى الأعلى ، سواء فى المجموعات المستقرة أو الرعوية ، يمكن أن تظهر قيادة من نوع آخر ، سواء لعدد من القرى فى نفس الوادى أو نفس السهل أو تظهر فى عدة وحدات للرعى وقد تظهر عائلة مهيمنة يتولى أحد أفرادها الزعامة للمجموعة بأكملها إما بالاختيار أو بالبلطجة ، ومن هذه العائلات قد تكون من الخارج واكتسبت وضعيتها بالمكانة العسكرية ، أو الوضع الدينى أو الحكمة فى الفصل فى المنازعات ، أو فى التوسط نيابة عن المجموعة فى تعاملاتها مع المدينة أو الحكومة ، وأيا كانت أصولها يمكن اعتبارها جزءا من القبيلة ولها نفس الأصول الحقيقية أو المختلقة .

وقد اختلفت قوة هؤلاء الزعماء والعائلات اختلافا كبيرا ، فمن ناحية ، كان شيوخ القبائل الرعوية الرحل لا يتمتعون إلا بسلطة محدودة ، بصرف النظر عما تمتعوا به من نفوذ نتيجة تقدير الجماعة لهم . وما لم يتمكنوا من فرض أنفسهم فى بلدة ليصبحوا حكاما من نوع آخر ، فلم تكن لديهم القدرة على فرض أحكامهم فيما عدا قوة جاذبيتهم (الشخصية) ، وكان يمكن للقبائل الرحل أن تكبر أو تصغر اعتمادا على نجاح أو اخفاق العائلة الزعيمة التى يمكن أن يلتفت حولها الأتباع أو أن ينفذوا عنها ، رغم أن انضمام جماعة جديدة قد يتم باختلاق الأنساب ، ليبدو أولئك الذين انضموا للجماعة كما لو كانوا منتمين لها من قبل .

ومن ناحية أخرى نجد العائلات الحاكمة للمجتمعات الزراعية المستقرة خاصة المجتمعات المعزولة - على نحو أو آخر - فى وديان الجبال ، هم ممن استقروا طويلا أو من الوافدين من الخارج والذين اكتسبوا وضعهم بالغزو العسكرى أو المكانة الدينية أو فرضتهم حكومات المدن المجاورة ، وقد تضعف روابط التضامن التى تربطهم مع السكان المحليين ولكنهم من موقعهم قد يمتلكون درجة من القوة القهرية المبنية على التحكم والسيطرة على المواقع الحصينة وحياسة القوة العسكرية ، وقد حلت القوة المركزية على أيديهم ، حسب درجتها ، محل عصبية القبيلة واتخذت شكلا مختلفا ، هو علاقة السيد بالتابعين .



الفصل السابع

حياة المدن

الأسواق والمدن

يستطيع الرعاة والمزارعون انتاج معظم ما يحتاجونه لأنفسهم ، كما يستطيع المزارعون بناء مساكنهم من الطوب اللبن ويمكن لنسائهم نسج الأغطية والملابس ، كما أن الحرفيين المتجولين يمكنهم تصنيع أو اصلاح الأسفال المعدنية ، الا أنهم - أى المزارعين - احتاجوا لمبادلة الفائض من انتاجهم مقابل سلع من أنواع أخرى(*) ، سواء أكان ذلك من مناطق أخرى من الريف أم كان السلع التى يصنعها الحرفيون المهرة كالخيام والأثاث وتجهيزات الحيوانات وأوانى الطبخ والأسلحة التى كانت ضرورية لحياتهم .

وعند نقاط التقاء المناطق الزراعية المختلفة ، كانت تنعقد الأسواق المنتظمة فى أماكن معروفة للجميع ، يسهل الوصول إليها ، ومقبولة كمكان محايد للقاء . ويمكن أن تعقد هذه الأسواق أسبوعيا وتعرف بها كمثل سوق الأربعاء ، أو مرة فى العام فى الاحتفال بمولد رجل أو امرأة من أولياء الله ، وبمرور الوقت أصبحت بعض هذه الأسواق مستوطنات مستديمة ، ومدنا حيث لا يحتاج التجار والحرفيون لزراعة طعامهم أو رعاية ماشيتهم ، واستمروا فى أداء أنشطتهم المتخصصة . وكانت معظم هذه المدن (البلدان) الأسواق صغيرة ، بل أصغر بالفعل من بعض القرى ، اذ يسكنها بضعة مئات أو آلاف فى سوق مركزية ، وطريق رئيسية تقوم حول بعض المحال والورش ، ولم تكن مميزة تماما عن الريف من حولها ، وفيما عدا القلب السكانى الدائم للحضرين ، فقد كان السكان ينتقلون من المدينة والريف حسب تغير الظروف . وفى المدن الصغيرة البعيدة عن المدن الكبيرة أو الواقعة على واحات كانت تسود سلطة الشيخ من قبيلة

(*) كالسروج والالجم والرسن ونحوها - (المراجع) .

مجاورة ، أو نفوذ ثرى محلى ولم تكن الخلافات القبلية أو القروية تمارس فى الأسواق حيث كان صغار التجار والحرفيون يعتبرون خارج النظام القبلى وغير خاضعين لميثاق الشرف أو الثار الذى عاش عليه رجال القبائل .

وقد كانت بعض المدن أكبر من مجرد مدن أسواق محلية ، حيث كانت نقاط التقاء عدد من المناطق الزراعية من أنواع مختلفة ، وكان تبادل المنتجات يتم على مجال واسع ومركب بشكل ملحوظ ، فحلب فى شمال سوريا ، على سبيل المثال ، كانت نقطة التقاء لأولئك الذين يشترون أو يبيعون الحبوب من السهول السورية الداخلية ونتاج أشجار الفاكهة والغابات على التلال الواقعة فى الشمال ، أو الأغنام أو الابل التى تربى فى امتداد الصحراء السورية . وإذا كانت المناطق المحيطة تنتج فائضا كبيرا من الغذاء والمواد الخام مما يمكن نقله بسهولة الى السوق ، فيمكن أن تصبح المدينة مركزا للحرفيين الذين ينتجون السلع المصنعة على نطاق واسع . وإذا كانت واقعة على بحر أو نهر أو طرق صحراوية تربطها بمدن أخرى من هذا النوع يمكن أيضا أن تصبح مركز تنظيم أو ميناء للشحن للتجارة البعيدة المدى فى السلع القيمة والتى تعوض أرباحها عن التكلفة ومخاطر النقل .

وعند توافر مثل هذه الشروط ، وإذا كان هناك ثبات واستقرار فى الحياة على مدى عقود أو قرون ، يمكن أن تنمو المدن الكبيرة وتكتفى ذاتيا . وقد وفر ظهور الامبراطورية الاسلامية ، والذى تبعه تطور مجتمع اسلامى يربط بين بلاد المحيط الهندى وبلاد البحر الأبيض ، الظروف اللازمة لظهور سلسلة من البلدان العظيمة ، تمتد من طرف العالم الاسلامى الى الطرف الآخر : قرطبة واشبيلية وغرناطة فى الأندلس ، وفاس ومراكش فى المغرب ، والقيروان وبعدها تونس فى تونس ، والفسطاط وبعدها القاهرة فى مصر ، ودمشق وحلب فى سوريا ، ومكة والمدينة فى غرب الجزيرة العربية ، وبغداد والموصل والبصرة فى العراق وبخلاف ذلك مدن ايران وتركستان شمال الهند . وقد كان بعض هذه المدن موجودا فيما قبل دخول الاسلام ، وبعضها كان من نتاج الفتح الاسلامى ، أو قوة الأسر الحاكمة اللاحقة . ومعظم هذه المدن تقع بعيدا عن السواحل حيث كانت القبضة الاسلامية على ساحل المتوسط مزعزعة ، وكانت الموانئ عرضة لهجمات الأعداء من البحر .

وبحلول القرنين العاشر والحادى عشر ، كانت المدن الكبرى فى البلاد الاسلامية هى أضخم المدن فى النصف الغربى من العالم ، وقد لا تكون

الأرقام أكثر من تقديرات تقريبية ولكنها ليست مستحيلة على أساس حساب مساحة المدينة وعدد وحجم مبانيها العامة ، فانه بحلول بداية القرن الرابع عشر كانت القاهرة تضم ربع المليون من السكان ، وفى نفس ذلك القرن تقلص التعداد بفعل أوبئة الطاعون (الموت الأسود) ، ومضى بعض الوقت قبل أن تعود المدينة الى حجمها السابق ، وتقدير سكان بغداد خلال الفترة العباسية العظمى يبلغ مليوناً أو أكثر ، ومن شبه المؤكد أنه مبالغ فيه ، ولكنها كانت على الأقل مدينة تقارن - من حيث الحجم - بالقاهرة ، وبحلول عام ١٣٠٠ تقلصت بشكل كبير بسبب تدنى نظام الرى فى الريف المحيط وبفعل الغزو والنهب المغولى ، كما كانت قرطبة فى إسبانيا مدينة بنفس الحجم ، وحلب ودمشق وتونس كان تعدادها قرابة ٥٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ نسمة فى القرن الخامس عشر ، أما فى غرب أوروبا فى ذلك الوقت فلم تكن هناك مدينة بحجم القاهرة ، فمدن فلورنسا ، والبندقية ، وميلانو ، وباريس كان تعداد كل منها فى حدود ١٠٠٠٠٠ نسمة ، بينما كانت مدن انجلترا وهولندا وألمانيا وأواسط أوروبا أصغر من ذلك .

سكان المدن

ولقد تكون الجزء الغنى والمسيطر من سكان المدن من كبار التجار العاملين فى جلب المؤن والمواد الخام من الريف ، أو من العاملين بالتجارة البعيدة المدى فى السلع الثمينة ، وكانت سلع هذه التجارة خلال تلك الفترة من المنسوجات والزجاج والخزف من الصين ، وربما كان الأهم من ذلك كله التوابل ، وكانت تستجلب من جنوب وجنوب شرقى آسيا فى العصور الإسلامية الأولى الى موانئ الخليج ، سيراف والبصرة ، وبعدها حتى شمال البحر الأحمر الى أى من موانئ مصر ، ومن ثم الى القاهرة ومنها توزع لكل عالم البحر المتوسط ، بالطرق البرية وبالنقل البحرى من موانئ دمياط ورشيد والإسكندرية . وكان الذهب يأتى من الحبشة نزولاً فى النيل ، وبالقوافل الى القاهرة ، ومن مناطق نهر النيجر عبر الصحارى الى المغرب ، وكان العبيد يستجلبون من السودان والحبشة ومن مناطق العبيد .

ولم تكن التجارة بكاملها فى أيدي التجار المسلمين ، فقد كانت السفن والتجار الأوربيون يسيطرون الى حد بعيد على التجارة فى البحر المتوسط ، فى مراكز بدأت بأمالفى ثم جنوة والبندقية ، وفى القرن الخامس عشر بدأ

الانجليز والفرنسيون أيضا في الظهور ، وقد تحكم التجار في المدن الإسلامية في الطرق البرية الكبرى في المغرب ، وغرب وأواسط آسيا ، وأيضا طرق المحيط الهندي حتى فتح البرتغاليون الطريق حول رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، وكان معظم هؤلاء التجار من المسلمين مثل «الكريميون» الذين تحكموا في تجارة التوابل في مصر لفترة طويلة ، وكان هناك أيضا يهود بغداد والقاهرة ومدن المغرب ممن كانت لهم روابط عائلية واجتماعية مع مدن ايطاليا وشمال أوروبا والامبراطورية البيزنطية ، بالإضافة الى التجار من المدن الكبرى ، كانت هناك مجموعة متماسكة منهم في المدن الأصغر ، وأمكنهم السيطرة على أنواع معينة من التجارة (ظل هذا التقليد حتى العصور الحديثة ، وفي المغرب جاءت هذه المجموعات فيما بعد من جزيرة جربة على الساحل التونسي وواحة مزاب على حافة الصحراء ومنطقة سوس في جنوب مراكش) .

وقد ساع نوعان من المعاملات التجارية كانت أولاها المشاركة ، وعادة ما تكون بين أفراد من نفس الأسرة يتقاسمون المخاطر والمكاسب بنسبة ما استثمره كل منهم ، والثاني كان المضاربة ، وفيها يأتى المستثمر تاجرا على سلع أو مال يتاجر بهما ، على أن يرد لها فيما بعد أموالا الى المستثمر مع نسبة متفق عليها من الربح . ويمكن أن يكون للتاجر في مدينة وكيل في مدينة أخرى ورغم أن البنوك المنتظمة لم تكن موجودة ، إلا أنه كانت هناك طرق مختلفة لتوفير الائتمان على البعد بسحب الفواتير مثلا وكانت أسس التجارة ، هي الثقة المتبادلة القائمة على القيم المشتركة والقواعد المتعارف عليها .

وكانت المدن الكبيرة أيضا مراكز للصناعة تنتج السلع الغذائية للسوق المحلية ، والمنسوجات والأشغال المعدنية والفخار والمصنوعات الجلدية والأطعمة المصنعة والسلع ذات الجودة كالمنسوجات الراقية لأسواق أوسع ، وهناك بعض الدلائل على أن الانتاج للأسواق خارج العالم الإسلامي أصبح أقل أهمية منذ القرن الحادى عشر وما بعده ، أما التجارة العابرة للسلع المصنعة في أماكن أخرى في الصين والهند أو شرق أوروبا فقد أصبحت أكثر أهمية ، وكان هذا التغيير مرتبطا بانبعث الحياة الحضرية في أوروبا ، وخاصة بازدهار صناعات النسيج في ايطاليا .

وعلى وجه العموم ، كانت وحدات الانتاج صغيرة ، ويكون لدى صاحب العمل بضعة عاملين ومتردبين في ورشته ، أما الصناعات على المستوى الأكبر فقد كانت تملك التي تنتج لحاكم أو لجيش ، مثل ترسانات الأسلحة

أو الورش الملكية للمنسوجات ومصانع السكر في مصر وغيرها ، ولم يكن التجار هم الطبقة الوحيدة ذات الجذور الراسخة في المدينة ، فقد شغل أصحاب المحال والحوانيت والحرفيون المهرة طبقة حضرية لها استمراريتهما الذاتية ، وانتقلت المهارات من الأب الى الابن ، وكانت ملكية حانوت أو ورشة تنتقل لأجيال ، وكان عددها محدودا لقلّة المباني أو في بعض الأحيان للضوابط التي تضعها السلطات . وقد أشار أحد مؤرخي فاس الحديثة الى أن وضع وحجم الأسواق الرئيسية ومساحات الورش ظلت في بدايات القرن العشرين كما كانت في القرن السادس عشر حسب ما ذكره كتاب الرحالة ليو أفريكانوس (١٤٨٥ - ١٥٥٤) (*) وكان أفراد هذه الطبقة من المجتمع ذوى مستوى دخل أقل من كبار التجار ، إذ أن الثروات التي يمكن تكوينها من العمل الحرفي أو تجارة التجزئة لم تكن كبيرة كتلك التي تدرها التجارة البعيدة المدى في السلع الثمينة . لم يكن لدى غالبية الحرفيين موارد رأسمالية كبيرة ، وقد أظهرت دراسة عن القاهرة ان نسبة ملحوظة من المحال والورش كانت مملوكة لكبار التجار أو المؤسسات الدينية ، وقد تمتعوا بالمكانة كسكان مستقرين يسعون الى تجارة شريفة طبقا للأصول المتعارف عليها من الأمانة وجودة الصنعة ، وكان هناك تسلسل هرمي من الاحترام في الحرف ، ويتفاوت بين العمل في المعادن الثمينة أو الورق أو العطور حتى تلك الحرف « غير النظيفة » مثل الدباغة والصبغة والجزارة .

وحول هذا المجتمع المستقر من الحرفيين وأصحاب المحال ممن لهم مواقع دائمة وثابتة في المدينة ، كان يعيش مجتمع أكبر من ذوى المهارات الأقل من أولئك المشتغلين بالمحال ، والباعة الجائلين ، ومنظفي الشوارع ، البروليتاريا شبه العاملة والعمالة المؤقتة المرتبطة بالمدن الكبرى . وفي معظم الأحوال شملت هذه الطبقة نسبة كبيرة من مهاجري الريف . ولم يكن الخط الفاصل بين المدينة والريف محددًا ، حيث كانت حول المدينة أسواق وحدائق ، مثل تلك الموجودة في الغوطة وهي منطقة زراعة

(*) الرحالة العربى المشهور الحسن بن الوزان الذى عرف بالاسم الاوروبى ليو الافريقى أو Leo Africanus ، وسبب تسميته هذه أن المسيحيين أسروه وقدموه للبابا ليو العاشر الذى ضمه لحاشيته واطلق عليه اسمه . ويبدو أن المؤلف قد أخطأ في تاريخ ميلاده على الأقل ، إذ أن الحسن بن الوزان قد ولد سنة ١٤٩٣ في غرناطة ، ونشرت رحلته بالايطالية سنة ١٥٥٠ وقد قامت جامعة محمد بن سعود بالرياض بنشر النص العربى لرحلته في طبعة أنيقة . انظر أيضا :

Bovill, E. W. : Caravan of the old sahara, London, 1033.

(المراجع) .

مروية شاسعة المساحة حول دمشق ، فكان الرجال الذين يزرعون الحدائق، يعيشون في المدينة ، وكانت على مشارف المدينة مناطق تنظم فيها قوافل التجارة وتشتري الحيوانات وتجهز وهو ما اجتذب بعض السكان النازحين من الريف ، كما أن فترات الجفاف والفوضى كانت تجلب الفلاحين الفارين من قراهم أيضا •

القانون والعلماء

كانت احتياجات الحياة في المدن الكبيرة تختلف عن احتياجات سكان القرى والخيام • وكان التفاعل بين العمال المتخصصين والمتعاملين في المنتجات والالتقاء بالناس من أصول وديانات مختلفة ومشاكل الحياة في الشوارع والسوق كلها تتطلب توقعات مشتركة لما يمكن أن يفعله الآخرون في مواقف معينة ، ومعايير لما يجب أن يكون عليه تصرفهم ونظام من القواعد والعادات مقبول بشكل عام ومتبع في أغلب الأحيان ، ولم تعد العادات المحلية (العرف) التي يحافظ عليها ويفسرها كبار السن في المجتمع ، كافية في حد ذاتها • ومنذ العصر العباسي وما بعده كانت الشريعة مقبولة بشكل عام من سكان المدن المسلمين ، ودعمها وطبقها الحكام لأنها ترشد إلى أسلوب تعامل المسلم مع المسلم ، وقد نظمت الشريعة أشكال التعاقد التجاري وحدود الربح المكتسب شرعيا ، والعلاقات بين الأزواج والزوجات وتقسيم الملكية •

وكان القضاة الذين يطبقون الشريعة يتلقون تدريبهم في مدارس خاصة • ويجلس القاضي في منزله أو في مقر المحكمة مع كاتب لتسجيل القرارات • ولا تقبل الشهادة الشفهية إلا من الشهود ذوي السمعة الحسنة من حيث المبدأ ، وقد ظهرت جماعة من الشهود القانونيين (العدول) يستطيعون اضفاء وضعية مقبولة على شهادة الآخرين، وكان بالإمكان القبول — عمليا — بالوثائق والمستندات المكتوبة إذا صدق عليها العدول وعليه تنحول إلى دليل كتابي ، وبمرور الوقت اعتبرت الأسر الحاكمة في العصر المملوكي المذاهب الأربعة « مدارس القانون » مقبولة بشكل متساو ، وكان هناك قضاة من كل المذاهب يعينون رسميا ، ويصدر كل قاض أحكامه وفقا لتعاليم مذهبه ، ولم يكن هناك نظام للالتماس ولا يمكن إلغاء حكم القاضي على أيدي قاض آخر إلا لأخطاء قانونية •

ومن حيث المبدأ فإن القاضى يفصل بناء على القانون الوحيد المعترف به ،
والمشتق من الوحي ، ولكن عند ممارسته لم يكن النظام القانونى عاما
بلا مرونة كما قد يفهم من ذلك ، اذ لم تغط الشريعة فى الواقع كل مجال
الأنشطة الانسانية ، كانت دقيقة الى أقصى درجة فى المسائل المتعلقة
بالأحوال الشخصية (الزواج ، الطلاق ، الميراث) ، بينما كانت أقل دقة
فى المسائل التجارية وأقل من ذلك فيما يتعلق بالقضايا الدستورية
والجنائية ، وكانت للقاضى صلاحية معينة فى المسائل الجنائية فيما يتعلق
بأفعال معينة حرمت بشكل واضح فى القرآن حيث وضعت لها عقوبات
محددة هى الحدود (الزنا ، السرقة ، شرب الخمر) وكانت له أيضا صلاحيات
عامة لمعاقبة التصرفات التى تسمى الى الدين (كان معظم القضاء جنائيا ،
أما المسائل التى تمس صالح الدولة فيفصل فيها الحاكم أو موظفوه
وليس القاضى) *

ولم يكن القانون المعمول به عديم المرونة كما يبدو فى كتب الشريعة ،
وانما كان الفصل للقاضى ، والذي قد يفسر دوره كما لو كان التوفيق
ومحاولة الحفاظ على الانسجام الاجتماعى ، بالتوصل الى حل يتفق عليه
للنزاع بدلا من تطبيق القانون حرفيا ، بالإضافة الى القاضى كان هناك
نوع آخر من الاختصاصيين القانونيين (*) (المفتى) الذى كان من صلاحيته
اصدار الفتاوى حول المسائل القانونية ، ويمكن للقضاء قبول الفتاوى
وتضمينها فى مراجع التشريع *

وكان القاضى شخصية محورية فى حياة المدينة ، ولم يكن يفصل
بالقانون فقط ، وانما كان أيضا مسئولا عن توزيع أملاك الشخص بعد وفاته
وفقا لقوانين الميراث ، ويمكن أن تكون له سلطات اشرافية يخولها له
الحاكم *

وأصبح الذين درسوا وفسروا وقضوا بالقانون (**) والذين مارسوا
وظائف دينية معينة أخرى - ممن يؤمون الصلاة فى المساجد أو يلقون
خطبة الجمعة - طبقة متميزة فى مجتمع المدينة : (العلماء) ، وهم رجال

(*) أو من علماء الشريعة أو الفقهاء بلغة ذلك العصر - (المراجع) *

(**) استخدم الأستاذ المترجم القانون كترجمة للكلمة الانجليزية Law بدلا من
مصطلح الشريعة أو الأحكام الشرعية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، وقد أقرناه على
ترجمته هذه لأن المؤلف يوجه حديثه للقارئ الأوروبى ، ويحاول تقريب أفكاره للقارئ
الأوروبى المعاصر - (المراجع) *

العلم والتعليم الدينى ، وهم رعاة نظام المعتقدات والقيم والممارسات ، ولا يمكن اعتبارهم طبقة واحدة لأنهم كانوا منتشرين فى كل المجتمع يؤدون وظائف مختلفة ، ويتمتعون بدرجات متفاوتة من الاحترام الشعبى . على رأسهم جماعة هى جزء من صفوة المجتمع الحضرى هم كبار العلماء . والتي تتكون من القضاة فى المحاكم الرئيسية ، والمدرسون فى المدارس الكبرى ، ووعاظ المساجد الأساسية ، وخدام الأضرحة ممن عرف عنهم العلم والتقوى ، وأعلن بعضهم انتسابه لنسل النبى صلى الله عليه وسلم من خلال ابنته فاطمة وزوجها على بن أبى طالب . فى ذلك الوقت كان نسل النبى صلى الله عليه وسلم من السادة والأشراف ينظر إليهم باحترام خاص ، وفى بعض المواقع يمارسون القيادة ، ففى مراكش كانت مطالبة الأسرتين اللتين حكمتا بدءا من القرن السادس عشر وما بعده بالحكم ، مبنية على سرعية وضعيتهم كأشراف .

وكان كبار العلماء على اتصال وثيق بالعناصر الأخرى من صفوة المجتمع الحضرى ، من التجار ، ومعلمى الحرف المحترمة ، وكانت لهم ثقافة مشتركة فقد كان التجار يرسلون أبناءهم للتعليم على أيدي علماء الدين فى المدارس يتعلمون اللغة والقرآن والقانون ، ولم يكن مستغربا أن يعمل الرجل كمدرس أو عالم وأيضا بالتجارة . وكان التجار يحتاجون للعلماء كإخصائيين قانونيين لكتابة المستندات الرسمية بلغة دقيقة ولتسوية المنازعات حول الأملاك ، والأشراف على تقسيم تركاتهم وأموالهم بعد الوفاة . كما كان كبار التجار والمحترمون منهم شهودا عدولا ، كرجال ذوى سمعة طيبة وشهادتهم مقبولة عند القاضى .

وهناك دلائل على التزاوج بين عائلات التجار وكبار الحرفيين والعلماء ، وعن تشابك المصالح الاقتصادية التى عبر عنها هذا التزاوج ، وقد سيطروا بشكل جماعة على معظم الثروة فى المدن ، وقد عجلت الطبيعة الشخصية للعلاقات التى اعتمدت عليها التجارة ، من الارتفاع السريع ثم السقوط ، للثروات المستثمرة فى التجارة . ولكن عائلات العلماء عاشت لوقت أطول، وقد درب الآباء الأبناء ليخلفوهم فى المراكز العليا فى الدولة، واستخدموا نفوذهم لصالح أفراد العائلة الأصغر سنا .

كان بإمكان أولئك المقتدرين ماليا من التجار أو كبار العلماء ، أن يتناقلوا الثروة من جيل الى جيل ، عن طريق الوقف ، الذى أقرته الشريعة (وقف الحبوس) . والوقف هو تخصيص دخل مستديم عائد من منطقة

أو عقار لأغراض خيرية ، مثل صيانة المساجد ، أو المدارس والمستشفيات والنافورات العامة ، والنزل للمسافرين ، وتحرير المساجين أو العنابة بالحيوانات المريضة ، وكان يمكن أيضا استخدامها لصالح عائلة الواقف الذى بإمكانه أن ينص على قيام أحد أفراد العائلة بالأدرة ، وبخصيص راتب له ، أو أن ينص على أن يعطى الفائض من الميراث لسلالته طيلة حياتهم ، ثم تخصص لأغراض الخير عند انتهاء السلالة ، وقد يساء تنفيذ تلك البنود ، لذا كانت الأوقاف تحت إشراف القاضى وفى النهاية تحت إشراف الحاكم ، وبهذا توفر الضمان حيال انتقال الثروة كحماية من تقلب حالة التجارة ، أو إشراف الوارثين أو جور الحكام .

العبيد

تقاطع التقسيم الرأسى لسكان الحضر على أسس الثروة ، والمكانة الاجتماعية مع أنواع أخرى من التقسيم ، بين العبيد والأحرار ، وبين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الرجال والنساء .

وكان الخدم يمثلون أحد العناصر المتميزة فى الشريحة الاجتماعية للعاملين ، وكانوا منفصلين لأن الكثير منهم كن من النساء وكانت الخدمة أو العمل فى المنزل تكاد أن تكون هى تقريبا النوع الوحيد من المهن الحضرية للنساء ، كما كان كثير منهن من العبيد (*) . لم يكن لفكرة العبودية نفس المعنى فى المجتمعات الإسلامية الذى كان لها فى بلاد شمال وجنوب أمريكا التى اكتشفتها وعمرتها شعوب من غرب أوروبا منذ القرن السادس عشر وما تلاه ، فالعبودية كانت وضعية يعترف بها القانون الإسلامى ، وطبقا لذلك القانون ، فإن المسلم الذى ولد حرا لا يمكن أن يستعبد ، والعبيد هم من غير المسلمين ، ومن الأسرى فى الحروب أو المستجلبين بشكل آخر ، أو الأبناء من أبوين عبيدين ، أو المولودين فى العبودية ، وليست لهم كامل الحقوق القانونية كالرجال الأحرار ، ولكن نصت الشريعة على وجوب معاملتهم بالعدل والاحسان واللطف ، وكان من أعمال الشرف ، العمل على تحريرهم . والعلاقة بين السيد والعبد يمكن أن تكون وثيقة ويمكن أن تستمر بعد أن يتحرر العبد ويمكن له أن يتزوج ابنة سيده أو يقوم بإدارة أعماله .

(*) مصطلح العصر كما لا يخفى هو الجوارى ، وقد أقررنا ترجمة الأستاذ المترجم لأسباب سبق تبيانها فى حاشية سابقة - (المراجع) .

وقد ضمت الوضعية القانونية للعبودية مجموعات اجتماعية مختلفة ، ومنذ وقت مبكر في الحقبة العباسية استخدم الخلفاء العبيد من الشعوب التركية لأواسط آسيا في جيوشهم ، واستمرت هذه الممارسة ، وكان العبيد الجنود والرجال المحررون المستجلبون من أواسط آسيا والفوقاز والمغرب والأندلس ومن بلاد السلاف أتباعا للسلالات الحاكمة (*) ، ويمكن أن يكونوا مؤسسيها ، فالماليك الذين حكموا مصر وسوريا من (١٢٥٠ - ١٥١٧) كانوا مجموعة تنامت ، فيما بينها ، من الجنود الذين استخدموا ودربوا كعبيد وتحولوا الى الاسلام ثم اعتنقوا (**).

وقد شكل هؤلاء العبيد المحاربون طائفة متميزة لا يمكن اعتبارها بنفس وضعية معظم أولئك الذين استعبدوا ، ففي بعض المناطق كان هناك عبيد زراعيون ، هم المستجلبون من سرى أفريقيا ، واكسبوا أهمية في جنوب العراق خلال الفترة العباسية ، كما فلح العبيد الأرض في أعالي وادي نهر النيل والواحات في الصحاري ، وكان العبيد في معظم الأحوال خدما منزليين ومحظيات في المدينة ، وكانوا مستجلبين من أفريقيا السوداء مرورا بالمحيط الهندي والبحر الأحمر أو نزولا في النيل أو من خلال الطرق الصحراوية . وكان معظمهم من النساء كما كان هناك أيضا خصيان (***) للحفاظ على خصوصية المنازل .

المسلمون وغير المسلمين في المدن

كانت المدينة مكانا للقاء والفصل . وكان كل سكان المدن خارج شبه الجزيرة العربية تقريبا من مجتمعات مسيحية ويهودية تلعب دورا في الأنشطة العامة في المدن ، ولكنهم شكلوا قسما محددا في المجتمع في تلك المدن ، وقد فصلتهم عن المسلمين عدة عوامل ، فكانوا يؤدون ضريبة الرأس الخاصة (الجزية) للحكومة . وبموجب القانون الاسلامي (****) والعادة ، كان مطلوباً منهم أن يحملوا ما يشير الى اختلافهم ، مثل ارتداء ملابس من

(*) الموالى أو المالك فيما ديد ، وفي ظل الدولة العثمانية عرفت فئة منهم باسم العلوج (مفرد : علج) - (المراجع) .

(**) أو لم يعتنقوا من الناحية الرسمية ، لأن سيدهم الصالح نجم الدين آخر سلاطين الأيوبيين (قبل شجرة الدر) لم يعتنقهم - (المراجع) .

(*** عرّفوا فيما بعد باسم الطواشية - (المراجع) .

(****) ليس في الشريعة الاسلامية (القانون الاسلامي ما يحتم ذلك - (المراجع) .

نوع خاص ، والامتناع عن استخدام ألوان معينة مرتبطة بالنبي صلى الله عليه وسلم والاسلام (خاصة الأخضر) ، وعدم حمل السلاح أو ركوب الخيل ، والامتناع عن بناء أماكن عبادة جديدة أو اصلاح القديم منها بدون اذن ، أو بنائها بشكل يتفوق على أماكن عبادة المسلمين ولم تكن مثل هذه الضوابط مطبقة دائما بشكل منظم ، ولكن قوانين الزواج والميراث كانت تفرض بدقة ، فلا يمكن لغير المسلم أن يرث المسلم ، ولا يحق للرجل غير المسلم أن يتزوج امرأة مسلمة ، ولكن يحق للرجل المسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ، وكان التحول من الاسلام الى الديانات الأخرى ممنوعا بشكل بات .

وقد كان ميل اليهود والمسيحيين لشغل مواقع ذات أهمية خاصة في أنشطة اقتصادية معينة علامة على الوجود المنفصل لهم ، إلا أنهم استبعدوا فعليا من بعضها الآخر . فعلى المستويات العليا شغل اليهود والمسيحيون مواقع ومناصب مهمة في قصور بعض الحكام أو في ادارتهم . ففي مصر الفاطمية والأيوبية ، والملوكية احتل المسئولون الأقباط واليهود مواقع عامة في الخدمات المالية ، وكان الطب مهنة برز فيها اليهود ، وكان لأطباء القصور اليهود نفوذ كبير ، وإذا تحول مسيحي أو يهودي للإسلام يمكن أن يرتقى الى مستوى أعلى ، وأصبح من تحولوا للإسلام رؤساء وزارات وتمتعوا بسلطات فعالة .

وقد لعب اليهود في المدن الاسلامية دورا كبيرا في التجارة الخارجية مع موانئ البحر المتوسط وأوروبا ، وربطها مع موانئ المحيط الهندي حتى العصر المملوكي ، وكانت الحرف التي ترتبط بالعقاقير والذهب والفضة تكاد تكون بكاملها في أيدي المسيحيين واليهود الذين يعملون لحسابهم أو لحساب بعض المسلمين .

وكانت العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين تشكل جانبا واحدا فقط من مجمل تركيبة العلاقات الاجتماعية المعقدة ، والتي تربط بين أولئك الذين عاشوا جنبا الى جنب في نفس المدينة ، وقد شاعت الظروف أن يسيطر جزء أو آخر من هذه التركيبة في زمن أو آخر وفي مكان أو آخر ، ففي القرون الأولى من الحكم الاسلامي يبدو أنه كان هناك تواصل وتفاعل بين أنبساط الديانات الثلاث ، وكانت العلاقات بين اليهود والمسلمين في أسبانيا الأموية وبين المسلمين والمسيحيين النسطوريين في بغداد العباسية قوية وسلسة ، بمرور الوقت زادت الحواجز ، وتحول المسيحيون وربما

تحويل اليهود بنسبة أقل الى الاسلام مما حول الأغلبية الى أقلية متلاشية ويتحول الاسلام من كونه دين النخبة الحاكمة ، ليصبح العقيدة المسيطرة لسكان المدن والحضر ، وطور الاسلام مؤسساته الاجتماعية التى يمكن من خلالها للمسلم أن يعيش بدون التعامل مع غير المسلمين .

وقد تخلل القرون الاسلامية الطويلة بعض الفترات من الاضطهاد المتعمد المقصود لغير المسلمين على أيدي الحكام المسلمين . مثل فترة حكم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١) فى مصر ، والموحدين فى المغرب ، وفترات حكم بعض الحكام المغول فى ايران والعراق بعد تحويلهم الى الاسلام . مثل هذا الاضطهاد لم يكن يقره أو يحرض عليه زعماء الاسلام السنيون ، ولكن العلماء كانوا مهتمين بالعمل على صيانة عدم انتهاك غير المسلمين للقوانين التى نظمت أوضاعهم ، ولكنهم قالوا بضرورة الحماية التى وفرتها الشريعة لهم . وقد كانت الضغوط على اليهود والمسيحيين أساسا من الجموع فى الحضر ، خاصة فى أوقات الحرب أو الصعوبات الاقتصادية عندما يتركز العداء تجاه رجال الحاكم من غير المسلمين ، وفى مثل هذه الأوقات يكون رد فعل الحاكم هو التطبيق الحرفى الصارم للقانون ، أو التخلص من المسؤولين غير المسلمين لحين من الوقت فقط وقد وقعت هذه الأزمات عدة مرات خلال الحكم المملوكى لمصر وسوريا .

وأمكن للتنظيم الاجتماعى للمسيحيين واليهود أن يوفر نوعا من الحماية ويحفظ التضامن فى مواجهة الضغوط الفجائية عند وقوعها ، واحتمال المصاعب المستديرة التى تتعرض لها الأقلية . وكانت المجتمعات المسيحية واليهودية مترابطة بفعل تضامن الجماعة المحلية الملتفة حول الكنيسة أو المعبد ، وأيضا بتأثير من يحتلون السلطات العليا بين اليهود فى فترة الخلفاء العباسيين ، وكان هناك نوع من التميز الشرفى لرؤساء طوائف الأسرى وهى وظيفة تعود لأولئك الذين يدعون الانحدار من نسل الملك داود ، ولكن القيادة الأكثر فاعلية كانت لرؤساء الجماعات أو المدارس الرئيسية من رجال العلم ، اثنتان فى العراق وواحدة فى فلسطين ، وكان هؤلاء الرؤساء هم الذين يعينون القضاة فى المحاكم المختلفة . وعندما انشقت الخلافة فيما بعد ظهرت القيادة المحلية ، من قضاة ، ودارسين ، وزعماء علمانيين ، مثل « ناجد » رئيس اليهود فى مصر وهو منصب قام عليه رجال من سلالة المفكر العظيم (موسى بن ميمون) .

وقد مارس البطارقة والمطارنة فى المجتمعات المسيحية سلطات ونفوذاً مشابهاً . وفى عهد الخلافة العباسية كان للبطركية النسطورية فى بغداد ، والبطركية القبطية أثناء حكم الأسر اللاحقة فى القاهرة وضع خاص من النفوذ والاحترام . وكان رؤساء الطوائف مسئولين عن ضمان احترام بنود عهد الحماية بين حكام المسلمين والرعايا من غير المسلمين أهل الذمة بالسلام والطاعة وقد لعبوا دوراً فى تقييم ضريبة الرأس ، وعادة ما كان يجمعها مسئولون فى الحكومة ، وكانت لهم أيضاً وظيفة داخل الطائفة هى الاشراف على المدارس والخدمات الاجتماعية ، ومحاولة منع الانحراف عن المذهب والممارسات الكهنوتية . وأشرفوا أيضاً على المحاكم التى يطبق فيها القانون فى الحالات المدنية التى تقوم بين اثنين من الطائفة ، وفى تسوية المنازعات ، وإذا رغبوا فبإمكان اليهود والمسيحيين رفع قضاياهم للقاضى المسلم ، ويبدو أنهم لجأوا لذلك كثيراً .

المرأة فى المدينة

حسب معلوماتنا فقد لعبت المرأة دوراً محدوداً فى الحياة الاقتصادية فى المدينة ، كن خادماً فى المنازل وبعضهن كن يعانون أزواجهن فى تجارتهم أو حرفتهم ، وكانت هناك نساء للترفيه ، من مطربات وراقصات ، وعموماً لم يكن لهن نصيب فى الأنشطة الرئيسية للمدن الكبرى وهى إنتاج السلع الثمينة على نطاق واسع من أجل التصدير . أولئك اللاتى كن نشطات بشكل صريح كن بنات العائلات الفقيرة . فعلى قدر غنى ونفوذ واحترام العائلة ، يكون انعزال نسائها فى جزء خاص من المنزل (الحريم) ويضعن الخمار عند خروجهن من البيوت الى الطرقات أو الأماكن العامة ، وأفتى المفتى المصرى ، من المدرسة المالكية ، ابن الحاج (و ١٣٣٦) بأن المرأة لا يجب أن تخرج لشراء حاجياتها من السوق ، لأن ذلك قد يؤدى الى انساقهن الى أفعال غير سليمة اذا ما جلسن الى أصحاب الحوانيت :

« قال بعض القدماء الصالحين (رضى الله عنهم) ان المرأة يجب ألا تغادر منزلها الا فى ثلاث مناسبات : عند ذهابها الى منزل الزوجية ، وفى حالة وفاة أحد أبويها ، وعندما تشيع الى قبرها » (١) .

ولم يكن العيش فى عزلة الحريم انعزالاً تاماً أو شاملاً عن الحياة ، فقد كانت النساء تلتقى فى أجنحة فى البيوت الكبيرة ، وفى زيارتهن لبعضهن البعض ، وفى الحمامات العامة التى كانت تقتصر على النساء

فقط فى أوقات معينة ، وفى احتفالات الزواج أو ميلاد الأطفال ، وكانت
نهى ثقافتهم الخاصة بهن ، وكان لبعضهن دور فعال فى إدارة أملاكهن
من خلال وسطاء ، وسجلت حالات عن نساء مثلن أمام القاضى للمطالبة
بحقوقهن ، وكما كان الأمر فى الريف : عندما تكبر المرأة ، وإذا كان لها
أبناء ذكور يكون لها نفوذ قوى فى العائلة .

• وكان النظام الاجتماعى مبنيًا على تفوق الرجل ونفوذه ، وكان
الحجاب والحريم علامات واضحة على ذلك ، وتأكدت النظرة الى العلاقة ، ذات
الجنود العميقة فى ترات الشرف الأوسط ، بين الرجل والمرأة التى كانت
موجودة منذ وقت طويل قبل مجئ الاسلام ، وظلت سائدة فى الريف
بعادات بعيدة الغور فى التاريخ ، ولكنها غيرت فى المدينة مع تطور
الشريعة .

وقد أكد القرآن بنصوص محددة واضحة القيمة الأساسية للرجل
والمرأة ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون
الجنة (٢) كذلك دعا الى العدل والاحسان فى التعامل بين المسلمين ،
ويبدو أن تعاليمه فيما يتعلق بالزواج والميراث أعطت المرأة وضعية أفضل
مما كان لها فى الجزيرة العربية قبل الاسلام (وليس بالضرورة فى البلاد
التي فتحها الاسلام) ، وقد أعطى النظام القانونى ، والأخلاقيات الاجتماعية
المثالية الشرعية شكلا رسميا لحقوق المرأة ، ولكنها أيضا وضعت لها
حدودا .

فيجب وفقا للشريعة أن يكون لكل امرأة ولى أمر من الرجال ، الأب
أو الأخ أو أى فرد من العائلة . وكان زواج المرأة عقدا مدنيا بين الزوج
وولى أمر العروس ، وكان من حق الأب كولى أمر أن يزوج ابنته بدون
رغبتها أو موافقتها اذا لم تكن قد وصلت الى سن الرشد ، وعند بلوغها
هذه السن كانت موافقتها ضرورية ، ولكن اذا لم يكن قد سبق لها الزواج
يعتبر السكوت علامة على القبول ، وينص عقد الزواج على الصداق الذى
يؤديه العريس الى العروس ويكون ملكا لها ، ويظل ما كان لها قبلا من
تركه ملكية خاصة لها ، وعلى الزوجة اطاعة زوجها ، وفى المقابل فلها
الحق فى الملبس المناسب والاقامة والاعاشة والمعاشرة الجنسية مع زوجها .
ورغم أن علماء الدين أقروا بأن منع الحمل مسموح به فى بعض الحالات ،
فليس للرجل ممارسته الا بموافقة زوجته (*) .

(*) وهو ما كان يعرف بالعزل (بفتح العين وتسكين الزاى) وهو لا يخرج فى
متيحته عن منع الحمل - (المراجع) .

وهناك نواح عديدة تكون فيها العلاقة بين الزوج وامراته علاقة غير متوازنة . فبينما لا يحق للمرأة أن تطلق من زوجها الا لأسباب قوية (العته والجنون وانكار حقوقها) وليس قبل اللجوء للقاضى . أو بالتراضى بين الطرفين ، الا أنه يحق للزوج طلاق زوجته بدون ابداء أى أسباب وبلفظ كلمات بسيطة بحضور شهود الطلاق (فى الشيعة قواعد الطلاق أكثر صرامة ولكنها تعطى حق الزواج المؤقت أو المتعة لفترة محدودة) وقد توفر عقود الزواج ضمانات حيال ذلك اذا ما نصت على قيام الزوج بدفع المؤخر من الصداق عند طلاق الزوجة ، ويمكن للزوجة أن تعتمد على العون والحماية التى يوفرها لها الرجال ممن لهم قرابة بها ، واذا طلقت يمكن أن تعود هى وممتلكاتها الى منزل أهلها ، ويمكن أن تكون لها حضانة الأطفال من هذه الزيجة وواجب تربيتهم حتى يبلغوا سنا معينة تختلف باختلاف القوانين ، وبعدها نقول حضانتهم للوالد أو أسرته .

وقد سمحت الشريعة المبينة على القرآن والتأسى بالرسول ، للرجل أن يتخذ أكثر من زوجة حتى أربع ، اذا كان بإمكانه أن يعاملهن كلهن بالعدل والتساوى ولا يهمل واجباته الحميمة مع أى منهن ، ويمكن له أيضا أن يتخذ خليات بأى عدد من بين عبيده (*) ، وبدون أن يكون لهن أى حقوق عليه ، ويمكن أن ينص عقد الزواج على عدم أحقية الزوج فى اتخاذ زوجات أخر أو خليات .

وكان عدم المساواة ظاهرا أيضا فى قوانين الميراث ، وهى أيضا مشتقة من الشريعة وعن نص القرآن . فبإمكان الرجل أن يهب حسب رغبته بما لا يزيد عن ثلث ما يمتلك لأشخاص ، أو أغراض لا تتأتى من خلال الميراث ، وما يتبقى يتم تقسيمه طبقا لقواعد صارمة ، تحصل الزوجة على الثلث(**) اذا كان لديه أبناء وبنات، وتحصل الابنة على النصف فقط من نصيب الابن ، واذا لم يكن له سوى بنات فيحصلن على نسبة معينة من أملاكه ، والباقى لأقربائه من الذكور (وفقا لقانون السنة ، أما عند الشيعة فترث البنات كل شيء اذا لم يكن هناك أبناء) ، والنص

(*) وهو ما يعبر عنه « بملك اليمين » أو ما ملكت أيمانكم ، ومن المفهوم أنها اذا انجبت كان لها حق نسبة ابنها الى أبيه ، وعادة ما تكون لها وضعية خاصة بعد الانجاب كما اتخذت ضوابط لضبط الانساب إذ تسرى عليها مدة العدة وغير ذلك مما يسرى على الزوجات الحرائر - (المراجع) .

(**) اذا كان للزوج أولاد وبنات ، فنصيبها كما هو معروف ثمن التركة - (المراجع) .

على أن نصيب الاناث نصف ما يرثه الذكور هو صدى لنص آخر فى الشريعة ، ففي القضايا القانونية يكون لشهادة المرأة نصف وزن أو قيمة شهادة الرجل .

شكل المدينة

كانت المدينة مكانا يعمل فيه التجار والحرفيون ، وفيها تلقى العلماء العلم وعلومه ، وعقد الحكام والولاة اجتماعاتهم فى حراسة جنودهم ، وطبق القضاة القانون ، واليهاء جاء القرويون وسكان الصحراء لبيع منتجاتهم وشراء احتياجاتهم ، وجاءها التجار من بعيد للبيع والشراء ، والطالب للدرس على أيدي مشاهير العلماء ، وكانت بنية المدينة تسمح باستيعاب كل احتياجاتهم .

وكان فى قلب كل مدينة كبيرة ، (وليس بالضرورة مركزها الجغرافى) نوعان من المجتمعات المعمارية ، أحدهما يشمل المسجد الجامع الرئيسى ، والذي كان مكانا للالتقاء والدراسة وللصلاة ، وفيه يعبر الوعي الجماعى للسكان المسلمين عن نفسه فى أوقات الأزمات . بجواره يكون مقر أو بيت قاضى القضاة ، ومدارس التعليم العالى ، والمحال التى تباع الكتب أو الشموع ولوازم الشعائر الدينية ، وقد يوجد أيضا ضريح لولى ارتبطت حياته بشكل خاص بحياة المدينة . والمجمع العمارى الآخر يشمل السوق المركزى ، وهو الموقع الرئيسى للتبادل التجارى ، وفيه أو بقربه تقع محال بيع المنسوجات والمجوهرات والتوابل والساع الأخرى الثمينة ، ووكالات البضائع المستوردة ، ومحال الصرافة لاستبدال العملة التى كانت تقوم بأعمال البنوك من ناحية تمويل التجارة الخارجية . هذه المحال والمخازن والمكاتب يمكن أن تكون فى خط واحد أو بشكل رباعى فى الشوارع المتوازية أو المتقاطعة ، أو فى كتلة منقارية من المباني المرتبطة ببعضها البعض بحيث لا تخترقها الطرق . وهنالك تجمع ثالث قرب مراكز المدن الحديثة ولم يكن متميزا ، فقوة الحكومة كانت واضحة فى مجال المراقبة والحراس والمشرقيين على الأسواق (*) ولكنها لم تعبر عن نفسها فى المباني الكبيرة أو الفاخرة (**).

(*) أو المحتسبين ، وهو الاسم الذى كان يحمله أولئك الذين يعملون فى خدمة نظام الحسبة . (يكسر الحاء وتسكين السين) - (المراجع) .

(**) بمعنى أن المحتسب قد لا يجرؤ على محاسبة الاثرياء وسكان القصور -

(المراجع) .

وكانت منطقة السوق موقعا للمبادلات التي كان معظمها يجرى فى الأماكن التي تودع فيها السلع النميئة لامكان حفظها وحراسستها خلال الليل ، وتقع الورش ومحال المنسوجات والأشغال المعدنية على مقربة منها ، وكذلك أيضا مساكن العاملين بها . وكان التجار الأغنياء وطلاب العلم يعيشون على مقربة منها ، ولكن معظم السكان عاشوا خارج هذه المراكز فى أحياء سكنية ، كل منها عبارة عن مجموعة من الطرق الصغيرة والأزقة التي تصب فى شوارع رئيسية ، وفى بعض الفترات كانت لهذه الأحياء بوابات تغلق وتحرس خلال الليل ، ويمكن أن يكون للحى الذى يضم بضعة مئات أو بضعة آلاف من السكان مسجداً أو كنيسة ، ومعبد يهودى ، والسوق المحلية التانوية (السويقة) التي توفر الاحتياجات اليومية ، وربما احتوى أيضا الحمام العام وهو موقع التقاء مهم ، وقد تسكن فيه بعض العائلات القوية النافذة حيث يمكنهم فرض سطوتهم وممارسة الزعامة ، ولكن البعض الآخر يمكن أن تكون لهم فى ضواحي المدينة مساكن أكثر اتساعا ومحاطة بالحدايق ، والحى مملوك لسكانه وكان بمعنى من المعانى امتدادا للمساكن . اذ يحمى خصوصيته شباب الحى الذين ينتظمون فى مجموعات (الزعران والعيارين والفتوات) ممن لهم وجود دائم ومثاليات خلقية معينة ، مثل هذه المجموعات يمكن أن يكون لها دائرة أوسع من العمل فى أوقات الاضطرابات فى المدينة .

وبعيدا عن المركز قرب الأسوار أو ما بعدها تتكون هناك أحياء فقيرة حيث يعيش المهاجرون من الريف . تجهز فيها القوافل وتنظم وترسل ، وتستقبل حيوانات نقل الأحمال وتباع وتشتري ، وسكان الريف يجلبون الفاكهة والخضروات والماشية لعرضها للبيع ، وهنا أيضا توجد الورش حيث تجرى الأعمال ذات الضوضاء أو الروائح الكريهة ، كالجزارة والدباغة ، وفيما وراء هذه الأحياء وخارج أسوار المدينة تقع المقابر التي كانت أماكن التقاء وليس فقط فى أوقات الجنائزات .

كان سكان كل حى يميلون الى الارتباط بمنشأ مشترك دينى أو عرقى أو اقليمى أو عائلي بالقرابة أو النسب ، ومثل هذه الروابط أوجدت نوعا من التضامن القوى . فمال اليهود والمسيحيون للعيش فى أحياء معينة دون غيرها لأسباب القرابة أو المنشأ أو الرغبتهم فى البقاء الى جوار أماكن عبادتهم ، أو بسبب اختلاف عاداتهم فيما يتعلق بعزل النساء مما جعل الاختلاط مع العائلات المسلمة صعبا . وقد عاش اليهود من الأصول البربرية أو الشرقية فى المغرب بشكل منفصل عن اليهود الذين

جاءوا من الأندلس • ولم تكن الأحياء التي عاشوا فيها مسيحية أو يهودية بالكامل ، ولم يكن هناك « جيتو » في معظم الأماكن ، وبنهاية القرن الخامس عشر أصبحت مراكش استثناء ففي فاس والمدن الأخرى ظهرت أحياء يهودية منفصلة بناها الحكام لحماية اليهود من الاضطرابات الشعبية •

وكانت هناك اختلافات كثيرة عن هذا النسق العام تبعا لطبيعة الأرض والتراث التاريخي وتصرفات الأسر الحاكمة • فمدينة حلب على سبيل المثال كانت مدينة قديمة نامية قبل مجيء الاسلام • وظل قلب المدينة في نفس موقعه خلال العهد الهيلينستي والبيزنطي لكن الشوارع الرئيسية أصبحت أكثر ضيقا عما كانت عليه ، لأن النقل بالجمال والحمير حل محل المركبات ذات العجلات ، بحيث يكون الاتساع كافيا لحيوانين محملين للمرور في اتجاهين متقابلين ، وما زال النسق المربع للشوارع الرئيسية يظهر في متاهة الحواري المغطاة بالأقبية في السوق ، والمسجد الكبير (*) يقع في نقطة يتسع فيها الطريق الرئيسي للمعمد (ذو الأعمدة) في المدينة ذات الطابع الهيلينسي ليفضى الى ميدان أو ساحة forum أو مكان اجتماع الناس (**) •

أما القاهرة من ناحية أخرى ، فكانت ابتكارا جديدا في القرون الأولى للحكم الاسلامي في مصر ، وقد انتقل مركز القوة والحكم الى الداخل من الاسكندرية الى نقطة تفرع النيل الى الدلتا ، وبنت سلسلة من المراكز الحضرية الى شمال الموقع الحصين للبيزنطيين المعروف باسم بابيلون : الفسطاط ، والقطائع وفي النهاية القاهرة التي بنى مركزها الفاطميون والتي ظلت ثابتة بالفعل حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي قلبها يقع الجامع الأزهر الذي بناه الفاطميون لتعليم الاسلام على المذهب الاسماعيلي ، وظل باقيا كأحد أعظم مراكز تعليم المذاهب السنية ، والمسجد الجامع الرئيسي للمدينة ، وإلى القرب منه كان ضريح الحسين ابن الخليفة الرابع علي وزوجته فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم وكان الاعتقاد الشعبي أن رأس الحسين قد نقلت الى ضريحه بعد مقتله في كربلاء ،

(*) وهو المعروف بالمسجد الجامع أي الذي تعقد فيه صلاة الجمعة ، فكل جامع مسجد ، وليس كل مسجد جامعا - (المراجع) •

(**) الفوريم Forum هو الميدان أو الساحة ، وقد شاع هذا المصطلح في الحقبة الرومانية على نحو خاص • انظر معجم الفنون تأليف عفيفي البهنسي (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) - (المراجع) •

وعلى مقربة من ذلك يقع الشارع الرئيسى الذى يمتد من البوابة الشمالية للمدينة (باب الفتوح) الى الجنوبية (باب زويلة) ، وتقع على الجانبين فى الطرق المتفرعة منه ، المساجد والمدارس والمحال والمخازن وتجار الأقمشة والتوابل والذهب والفضة .

كما أنشئت فاس بشكل مختلف - حيث قامت باندماج مستوطنتين تقعان على جانب نهر صغير ، وقد تحدد مركز المدينة فى النهاية فى نقطة فى واحدة من البلدين حيث يقع ضريح المؤسس المفترض للمدينة « مولاي إدريس » ، وكان يقع بقربه المجمع التعليمى الكبير مسجد القيروان ومدارسه ، وشبكة من الأسواق تحميها البوابات ليلا حيث تخزن وتباع التوابل وأشغال الذهب والفضة والمنسوجات المستوردة والنعال الجلدية وهى أحد المنتجات التقليدية للمدينة .

وكان المسجد الجامع والسوق المركزى مراكز إشعاع ثقافى واقتصادى ، ولكن الحاكم كان يمارس سلطته من موقع آخر ، وفى العصور الإسلامية الأولى يمكن أن تكون قصور الحاكم وولائه المحليين فى قلب المدينة ، ولكن فيما بعد كان هناك انفصال على نحو ما ، وأصبح شائعا بين المدينة - مركز الأنشطة الحضرية الأساسية - والقصر الملكى ، ولهذا انتقل العباسيون لفترة من مدينة بغداد التى بنوها الى سامراء الى شمال دجلة ، وحذا حذوهم الحكام اللاحقون . وفى القاهرة كان بلاط الأيوبيين والمماليك فى القلعة التى بناها صلاح الدين على تلال المقطم التى تطل على المدينة . والأمويون فى أسبانيا ، بنوا قصورهم فى مدينة الزهراء خارج قرطبة وأنشأ الحكام المراكشيون مدينة ملكية هى فاس الجديدة على مشارف المدينة القديمة . وليس من السهل فهم أسباب ذلك الانفصال . فلم يكن بسبب القوة أو العظمة أو رغبة الحاكم فى أن يكون معزولا عن ضغوط رأى العام ، وإنما للحفاظ على جنوده بعيدا عن الانخراط فى مصالح المدينة التى يمكن أن تضعف من ولائهم لمصالحه وحدها .

وداخل المدينة الملكية أو المجمع يقع القصر نفسه بخزائنه الملكية ، ويكون المسئولون والكتبة فى الساحات الخارجية للقصر ينظرون القضايا والمصالح العامة ويستقبلون السفراء . ويجرى استعراض القوات الملكية ، وينظر المجلس فى القضايا ويستمتع للالتماسات ممن لهم مصالح والذين يمكن السماح لهم بالدخول الى هذا الجزء من القصر ، وقد يحضر الحاكم بنفسه فى بعض الأوقات لأغراض محددة ، أما القاعات الداخلية فهى للحاكم

نفسه وعائلته ونسائه يحرسهن الحصيان وعبيد القصر الذين يشكلون نوعا من الامتداد لشخصيته ، وتفاوتت درجات الانعزاليه من أسرة الى أخرى ، فقد عاش الحفصيون مع عامة الشعب مع القليل من الانعزالية ، بعكس المالكي .

وفى المدينة الملكية ثكنات للحرس الملكى ، وقصور وبيوت كبار المسئولين ، والأسواق المتخصصة التى تنتج السلع لاحتياجات القصر والجيش والترسانة ، وأسواق الخيل والسلاح والورش حيث تصنع المنسوجات الراقية لاستعمال القصر ، والعاملون فى مثل هذه الحرف يمكن أن يعيشوا الى جوار الحى الذى يعيش فيه تجار الذهب والفضة وصناعها من اليهود ، وكان واقعا داخل القصر الملكى فى فاس .

البيوت فى المدينة

بحلول القرن الخامس عشر كانت أسواق المدن تضم أبنية كبيرة مبنية حول أحواش مكشوفة ، يتكون الطابق الأرضى من المخازن ، وفوقها نزل أو خان للتجار الزائرين ، مثل هذه المباني بأشكالها المختلفة كانت تعرف باسم الخان فى سوريا والعراق ، والوكالة فى مصر ، والفندق فى المغرب ، وهناك نوع آخر من المباني فى المغرب على الأقل ، يعرف بالفيصرية حيث تخزن السلع الثمينة ، ومعظم هذه المباني بناها حكام أو رجال عظام من المدينة نفسها وحولوها الى أوقاف بحيث يستخدم العائد للأغراض دينية أو خيرية .

وكانت المباني السكنية فى المدينة على ثلاثة مستويات : فى بعض المدن كان اسكان الفقراء ، ويتكون فى معظمه من ساحات مفتوحة بها أكواخ وفى المراكز المزدهمة للقاهرة ، كان القراء وكذلك الحرفيون وتجار التجزئة الذين يحتاجون للقرب من أماكن أعمالهم ، يعيشون فى مبان ذات شقق ، وكان البيت النمطى مبنى حول ساحة بحيث تكون الورش فى الطابق الأرضى، وثمة درج يؤدى الى طابقين علويين أو ثلاثة يتكون كل منها من شقق منفصلة من عدة غرف . وكان للعائلات التى تعيش فى ظروف أفضل أو فى مناطق أقل ازدهاما ، أنواع أخرى من المنازل تطورت تدريجيا ، وفى جنوب غرب الجزيرة العربية كانت ذات طابع متميز ، مبنية بناء جيدا من الأحجار ، ومصممة بشكل متكرر وترتفع لعدة طوابق ، وكانت الحيوانات تعيش فى الطابق الأرضى ، والمحسوب والأعلاف فوقها ، ويعلوها طابقان

أو ثلاثة من غرف المعيشة ، وتقع غرفة الاستقبال الرئيسية فى الطابق الأعلى حيث انه الأفضل من حيث الهواء والمنظر ، وفى أماكن أخرى تطور الشكل النمطى لمنزل العائلة الكبيرة مسع تغيرات كثيرة ارتبطت بالمكان والزمان ومن توليفة من الطرز اليونانية الرومانية للبحر المتوسط مع بعض التقاليد من ايران أو العراق *

وقد يكون مدخل البيت على هيئة ممر خارج من الشارع الرئيسى ، ولا يدل على غنى صاحب البيت سوى حجم البوابة حتى لا ينير حسب الحكام أو فضول المارين ، وكانت المنازل مبنية لثرى من الداخل وليس من الخارج . وكان الباب - وهو السمة الخارجية الرئيسية - يصنع من الحديد أو الخشب فى اطار من الأحجار المنحوتة ، وقد تعلوه نافذة يرى منها المقربون أو القادمون ، ومن داخل الباب رواق ينحني فى زاوية بحيث لا يرى من الشارع ، ويؤدى الى ساحة رئيسية تفتح عليها مجموعة من الغرف وتشمل غرفة الاستقبال الرئيسية (المجلس أو القاعة) ، وفى المناطق المزدحمة قد تستبدل الساحة بغرفة مركزية مغطاة هى غرفة الاستقبال ، وغالبا ما تقع على جانب من الساحة فى مواجهة المدخل ، ويمكن أن يجعل لها مدخل خاص (ايوان) وهو قبو دائرى ضخم انتشر غربا من ايران ، وفى بعض المناطق كالقاهرة المملوكية كانت للغرفة الرئيسية غرفة ملحقة فى مقابلها ، ثم تطورت الغرفة الى نوع من الساحة المغطاة مع مساحة منخفضة ونافورة فى الوسط ، ومساحات للجلوس على الجانبين ، وكانت غرف النساء وأطفالهن وخدمهن منفصلة عن منطقة الاستقبال بملحقاتها من الغرف والمكتبات ، انفصالا نسبيا حسب رغبة صاحب المنزل ، وفى المنازل الواسعة كان الفصل بين مناطق الاستقبال ومناطق السكن يحتم وجسود ساحتين ، فى المنازل الأصغر باختلاف وظائف الطابق الأرضى عن الطابق العلوى ، وفى المنازل الكبيرة يمكن أن يكون لها حمام *

وكان البناء بالأحجار مكلفا فى معظم المناطق ، وكانت المساكن تبني من الطوب الأحمر ، أو الطوب اللبن ، وكانت الأبواب والمداخل الرئيسية ذات اطار حجري . وأسقف الغرف الرئيسية على الطابق الأرضى كانت عادة أقبية من الطوب . وكانت أسقف الأدوار العليا عادة من الخشب لمنع الرطوبة وتخفيف وزن المبنى ، وكانت الأسقف تحتوى على فتحات لضبط التهوية ، كما كانت الحوائط والأبواب والأسقف مزينة . وكان الخشب مدهونا بألوان مختلفة (قد غلب اللون الأخضر على زخارف

المغرب فى حين غلب اللون الأزرق فى نونس) كانت الحوائط مدهونة وموشاة بتصميمات وأشكال نباتية ، والأحجار منحوتة بالخطوط. أو الزخارف النباتية والنوافذ لها شبائيك من الخشب المخروط (المشربيات) التى كانت معروفة فى مصر فى العصر الفاطمى وأصبحت شائعة فى العصر المملوكى .

وكان بالمنازل القليل من الأثاث الدائم فيما عدا أصبونة الملابس ودواليب التخزين ، وقد استنتج أحد مؤرخى القاهرة أن الدور الذى لعبه الأثاث الخشبي فى البيوت الأوروبية حلت محله هنا المنسوجات والأقمشة، فكان بغرف الاستقبال أرائك عليها وسائد ، وحلت المراتب المحشوة والمخدات الموضوعة على الأرض أو على قواعد من الخشب أو الحجر محل الأسرة ، وكانت الحوائط مغطاة بالمعلقة والأرضيات والأسرة بالسجاجيد ، وفى الليل توقد المصابيح الزيتية النحاسية للاضاءة وفى الطقس البارد يحضر المنقد النحاسى لاحتراق الفحم أو البخور . وكان الطعام يقدم على خوان مستديرة كبيرة من الفضة أو النحاس ، تركز على قواعد خشبية ، وكانت الأوعية والأكواب من الفخار أو الخزف ، وعند الأغنياء من الهينى ، وكانت أواني الطعام من النحاس ، والزجاج أو الفخار للشرب ، وكانت قطع الخبز الرقيق تستخدم لتناول الغموس من الطبق الرئيسى ، ولكن الملاعق والسكاكين كانت مستخدمة لدى الأغنياء .

وكان للخبز أهمية أساسية فى حياة الفقراء ، فكانت الحكومات تعلق أهمية كبرى على ضمان تموين الحبوب للمدن ، وقد اندلعت الاضطرابات الشعبية عندما شحت الواردات من الحبوب ، وكان الخبز يصنع فى معظم المناطق من القمح ويطهى بزيت الزيتون ، ويؤكل بالخضروات كالبصل والثوم وثمار مثل الباذنجان الذى استجلب الى عالم البحر المتوسط مع التوسع الإسلامى ، ومعظم الناس كانوا نادرا ما يأكلون اللحم الا فى الاحتفالات والأعياد والمناسبات الكبرى . أما نظام تغذية الموسرين فكان أكثر تنوعا ، ويحتوى على عدد أكبر من الخضروات والفاكهة (حسب امكانات الزراعة أو الاستيراد للأعشاب والمواالح والبرتقال والمشمش والبرقوق فى بلدان البحر المتوسط ، والبلح والتمور فى العراق على حدود الصحراء والواحات) كما كان يحتوى على اللحوم الضأن أكثر من البقرى ، والدواجن والسماك فى المناطق قرب البحر والأنهار والبحيرات ، وكان اللحم يطهى فى زيت الزيتون أو السمسم مع اضافة البهارات، ورغم

أن القرآن حرم سُرْب الخمر الا أن النبيذ والمشروبات القوية الأخرى التي كان يصنعها المواطنون المسيحيون أو المستوردة من غرب أوروبا كانت تستخدم بكثرة .

سلسلة المدن

كانت الثروة تنتقل من جيل الى جيل ومعها تراث ثعافى ونظام للتعليم ، ومنظومة للقيم وأنماط للسلوك ، ونماذج نمطية للشخصية ، طالما استمر النظام الحضري والسيطرة على الريف ، والتي كان يحميها تحالف الحكام والصفوة الحضرية ومن المعتقد أن (قواعد) التصرف المقبول التي كانت موجودة في فاس في بدايات القرن العشرين كانت مشابهة تقريبا لتلك التي وصفها ليو أفريكانوس (*) في القرن السادس عشر (٣) .

وكانت شرائع التصرف والفكر السليم والتعليم والمهارات العالية قد ربطت الأجيال كما ربطت المدن ببعضها البعض . اخترقت شبكة من الطرق العالم الاسلامي وما وراءه ومرت عبرها ليس فقط القوافل من الابل والحمل تحمل الحرير والتوابل والزجاج والمعادن الثمينة ، ولكن الأفكار والأنبياء والموضوعات وأنماط التصرف والفكر أيضا ، وعند تقابل التجار وقادة القوافل في الأسواق كانوا يتبادلون الأخبار ويتفهمون مبادئها ، واستقر التجار من بعض المدن في مدن أخرى ، واحتفظوا بعلاقات وثيقة ودائمة بينهم ، ومن وقت لآخر وقعت حركات أكثر عنفا وحيوية على هذه الطرق ، كجيش حاكم آخر أو تمرد على القوة المسيطرة وكلهما أيضا يمكن أن تحمل معها أفكارا جديدة حول كيفية العيش في المجتمع وعناصر عرقية جديدة تضاف للناس والسكان .

ومنذ بداية التاريخ الاسلامي أيضا تحرك الرجال بحثا عن المعرفة لنشر تراث السنة عما فعله النبي أو قاله من أولئك الذين تلقوه عن طريق صحابته ورفاقه ، وبمرور الوقت توسعت أغراض السفر لتشمل السعي لاكتساب علوم الدين عن أستاذ مشهور ، أو تلقي التدريب الروحي على أيدي أستاذ معلم للحياة الدينية ، وقد جاء الباحثون عن المعرفة أو الحكمة

(*) هو الرحالة الحسن بن الوزان ، وسبق أن ذكرنا الملمه عنه في حاشية سابقة - (المراجع) .

من القرى أو المدن الصغيرة الى المدن الكبيرة ، من جنوب مراكش الى جامع القرويين فى فاس ، ومن شرق الجزائر وتونس الى الزيتونة فى تونس ، وقد اجتذب الأزهر فى القاهرة طلابا من مجال أوسع كما تدل أسماء منازل الطلبة : أروقة المغاربة وسوريا والحبشة ، كما اجتذبت المدارس الشيعية فى المدن الشيعية المقدسة فى العراف مثل النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية على أطراف بغداد ، طلابا من مجتمعات شيعية أخرى من سوريا وشرق الجزيرة العربية •

وتصور حياة الرحالة الشهير ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) الروابط بين المدن والأراضى الاسلامية • كان قيامه بالحج فى سن الحادية والعشرين مجرد البداية لحياة من الترحال حملته من موطنه طنجة فى مراكش الى مكة مرورا بسوريا ، وبعدها بغداد وجنوب غرب ايران، ثم الى اليمن وشرق أفريقيا ، وعمان والخليج وآسيا الصغرى والقوقاز وجنوب روسيا الى الهند وجزر المالديف والصين وبعدها العودة الى موطنه فى المغرب ومنها الى الأندلس والصحارى ، وأينما ذهب زار أضرحة الأولياء ، واختلط بالدراويش وطلاب العلم ، الذين ربطته بهم الثقافة المشتركة التى عبرت عنها اللغة العربية ، وقد لقى استقبالا حسنا فى قصور الأمراء واختير عند البعض منهم فى منصب القاضى ، وهذا الشرف الذى اكتسبه بعيدا عن بلاده فى دلهى وجزر المالديف أظهر المكانة التى يتمتع بها شراح التعاليم الدينية باللغة العربية (٤) •

الفصل الثامن

المدن وحكامها

تكون الأسرات الحاكمة

تطلب الحفاظ على القانون والنظام في المدن قوة تفرضه ، أى حاكما له وضع مختلف عن شيخ القبيلة الذى يستمد سلطته المزعزعة من العادة والتراضى *

وغالبا ما كانت الأسر الحاكمة تستمد قوتها من الريف، وكان لبعضها جندور فيه ، وأمكنهم السيطرة على المدن بفرض أنفسهم ، واستمدوا قوة جديدة من محصلة مجموعة المصالح المشتركة مع السكان فى الحضر ، برغم ما قد يبدو فى ذلك من مفارقة فى التاريخ الاسلامى ، (وقد يكون الأمر كذلك فى تواريخ أمم أخرى) .

وقد احتاجت الأسر الحاكمة ، فى استمرار بقائها ، الى أن تضرب فى المدينة ، سواء بالثروة المستمدة من التجارة والصناعة ، أو من الشرعية التى يمكن للعلماء فقط اضافؤها على حكمهم ، وكان تكون الأسرات الحاكمة متوقفا على فتح المدن ، فالفاتح قد يستولى على سلسلة من المدن على طريق تجارى ، كما أن نشأة المدن ونموها تعتمد بدورها على قوة الأسرة الحاكمة ، وقد قامت بعض المدن الكبرى فى العالم الاسلامى بالفعل على يد أسر حاكمة : فبنى العباسيون « بغداد » ، وبنى الأدارسة « فاس » وبنى الأمويون « قرطبة » وبنى الفاطميون « القاهرة » ، وقد يستطيع الحاكم القوى أن يحول طرق التجارة الى عاصمته ، وقد تنهار مدينة اذا هجمها الحاكم أو عجز عن الدفاع عنها ، مثلما انهارت « القيروان » عندما هجرها الزيريون الصنهاجيون Zirids (*) .

(*) بعد انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر ، ترك المعز لدين الله الفاطمى الأمر فى المغرب كله للصنهاجيين الموالين له ، فعهد الى بلكين بن زير ، الصنهاجى بالامارة على المغرب باستثناء طرابلس ، وبعد سنة ٣٧٣ هـ لم تلبث الدولة الزييرية أن انقسمت الى امارتين : (١) شرقية عاصمتها القيروان . (ب) وغربية عاصمتها قلعة بنى حماد فى =

وقد كان الهدف الأساسي للأسرة الحاكمة ، هو البقاء فى الحكم ، ولذلك عاش الحاكّم فى مكان منعزل ، محاطا بحاشية تتكون غالبيتها من العسكر من ذوى الأصول الأجنبية ، وتتكون عائلته (حريمه) ومماليكه الخاصة من الأفارقة السود أو من المسيحيين الذين أسلموا فى الغرب ، ومن الأتراك والأكراد والشراكسة فى الشرق ، وغالبا ما يكون كبار رجال الدولة هم المنحدرين من تلك المجموعات من المماليك ، وكان جيش المحترفين الذين يحلون محل أولئك الذين توصلت الأسرة عن طريقهم للحكم ، يأتى أيضا من خارج المدينة ، فالجيش السلجوقي كان من الأتراك أساسا ، وكان الجيش الأيوبي مختلطا : ففى سوريا كانت قيادته من الأرسطقراطيين ذوى الأصول المختلفة من الأتراك والأكراد واليونانيين الذين اعتنقوا الاسلام ، كما كان فى مصر مكونا من المماليك الذين اقتنأهم الحكام أو ألوا اليهم من أسلافهم وتلقوا تدريبهم فى مدارس القصر ، وكان لكل من كبار قادة الجيش رجاله الذين تدربوا فى قصره ، ويجرى عليهم الرواتب، وكان التضامن بين الأفراد الذين تدربوا فى نفس البيت مستمرا مدى الحياة ، ولم يكن الجنود المماليك مجموعات وراثية ، فلم يكن أبناءهم قادرين على الانضمام الى القوة العسكرية المركزية ، ولكن كانت هناك قوة أخرى مكونة من المسلمين الذين ولدوا أحرارا ، وكان يمكن أن ينضم اليها أبناء المماليك ، ويترقون فى المناصب ، وكان الجيش الفعلى للحفصيين مكونا من قبائل الريف ، ولكن عندما استقر بهم الحكم ، اعتمدوا بشكل أوسع على الجنود المرتزقة من عرب الأندلس والأوروبيين الذين أسلموا والترك .

وكانت الأسرة الحاكمة التى تريد ترسيخ حكمها ، تلجأ الى محاولة تعيين حكام اقليميين من أعضاء الأسرة ، ولكن نجاح هذه السياسة كان متفاوتا حيث تضافرت طبيعة الريف وتقاليده الأسرى الحاكمة فى زيادة العقبات ، فقد حكم السلاجقة مملكة متراصة الأطراف من المناطق الحصينة ، والتى يفصلها عن بعضها البعض جبال وصحارى ، وورثت تقاليد تحتم اسناد السلطة الى عائلة وليس لفرد منها بعينه . وقد كانت امبراطوريتهم لذلك السبب أقرب الى أن تكون دولة غير مركزية من أن تكون مجموعة

الجزائر ، وعندما خلع الزيريون رلاءهم للخليفة الفاطمى ومالوا للخليفة العباسى اطلق عليهم الفاطميون والقبائل العربية الموالية لهم (بنو سليم وبنو هلال) فاجتاحوا المغرب واسقطوا القيروان .

راجع على سبيل المثال :

عبد الرحمن محمد الجيلانى : تاريخ الجزائر العام ، ١٩٥٤ . ج ١ . ص ٢٩٨ .

(المرجع) .

ممالك شبه مستقلة يحكمها أفراد مختلفون من الأسرة الحاكمة ، وقد حكم الأيوبيون في سوريا بشكل مقارب ، حيث حققوا كوندراالية من ولايات مكرزت في مدن مختلفة ، يحكم كلا منها عضو من الأسرة الأيوبية ، نادى بالبيعة لكبير الأسرة ولكنه لم يسمح له في نفس الوقت أن يتدخل كثيرا في شئونه ، أما في مصر ، فقد كانت طبيعة الأرض وتقاليده الحكم المركزي العريقة تسمح للأيوبيين بحكم مباشر ، وأثناء حكم المماليك أيضا لم يكن الحكم الأقليميون لسوريا - بالرغم من أصولهم في الصفوة العسكرية ، أكثر خضوعا للحكم المركزي في القاهرة من الذين حكموا أقاليم الدلتا ، أما عن الصعيد ، فقد وجد الحكم المماليك صعوبة بالغة في فرض سيطرتهم نتيجة ازدهار عائلة قوية من شيوخ القبائل (الهوارة) ، وفي حالة الحفصيين فقد كان مشايخ القبائل وحكام المدن البعيدة يعيشون في استقلال شبه كامل ، إلا أن سلطة الحكومة المركزية وقوتها زادت مع الزمن .

وقد احتاجت السيطرة المحكمة على الامبراطوريات الكبيرة الى بيروقراطية حاذقة ، ولقد ظل تقسيم الادارة بين المسؤولين كما كان في ظل الدولة العباسية ، فكان هناك ديوان الانشاء حيث تدبج الخطابات والوثائق في أمة محكمة الاتقان من المعايير المرعية والسوابق المسجلة ، ثم يتم حفظها ، كما كانت الخزانة تشرف على تقييم وجمع وانفاق العوائد ، ومنها ادارة تحفظ حسابات الجيش وسجلاته ، وقد كان منصب الوزير في ظل السلاجقة هو الذي يهيمن على كافة البيروقراطيات المدنية . وكان كذلك في حكم العباسيين ، ولكن سلطته تقلصت في حكم بعض الأسر الأخرى ، فقد كان في العصر المملوكي لا يعدو أمينا على الخزانة ، وفي ظل الحفصيين كان هناك وزير مستقل لكل من الادارات الثلاث ، وقد كان الحاجب الذي يتحكم في بلاط الحاكم ويتولى مسؤولية المقابلات معه أكثر أهمية من أيهم .

وكان الوزير وباقي كبار المسؤولين أحيانا من الصفوة العسكرية ، إلا أن الرعايا الحضريين المحليين كانوا يقومون بدور الادارة المدنية بوجه عام ، فند كان التعليم والتدريب على شئون ديوان الانشاء أو الخزانة من نصيبهم أكثر من العسكريين ، وقد كان اختيار المسؤولين يجري من بين أولئك الذين وصلوا في التعليم الى درجة « العالم » ، ولكن كان الأكثر شيوعا هو دخول الطامحين الى السلطة في الخدمة في سن مبكرة بعد التعليم الأساسي في اللغة والدين ، لكي يتعلموا المهارات الخاصة في انشاء وحفظ الوثائق ، وأعمال الحسابات فيما يشبه نظام التلمذة العملية ، وقد بربط أحد الطامحين نفسه بمسئول كبير ويأمل في أن يستفيد من الاقتداء به أو ينتفع برعايته ، وفي مثل تلك الظروف لابد من

ظهور عنصر وراثى فى السلطة المدنية ، مثل الأبناء الذين يتدربون ويرثون على يد آبائهم ، ومن الأرجح أنه كانت هناك استمرارية من الحكم السابق فى الحكم الجديد ، فلا مناص من ضرورة استمرار الخدمات البيروقراطية للخزانة وديوان الانشاء .

وهكذا كان أعضاء المجتمع الحضري الذى تحكمه أسرة أو جماعة حاكمة دخيلة ، يستطيعون دخول طبقة الصفوة الحاكمة حتى مستوى معين على الأقل : فقد كان الإداريون الفرس يستخدمون السلاجقة الأتراك ، وكان المصريون والعموريون يعملون لدى المالكي ، إلا أن الحكام بدورهم كانوا أحيانا يعينون مسئولاً من خارج الصفوة الحضرية ، وكان الأرجح وأحياناً كذلك أن يكون أكثر اعتماداً عليهم ، فقد استخدم الأيوبيون فى سوريا مسئولين من مصر والعراق وغرب إيران ، كما استخدم الحفصيون المنفيين من الأندلس ، وكان اليهود والأقباط فى مصر يعملون فى الإدارة المملوكية ، واعتنق معظمهم الاسلام .

وقد كان تطبيق العدالة أحد الواجبات الرئيسية للحاكم الاسلامى ، كما كان عليه أيضاً أن يجتذب المتعلمين من السكان الحضريين الى العمل فى خدمته ، فكان يعين منهم القضاة على المذاهب الدينية التى يرشخ فى نسرهما ، وقد كانت مناصب القضاة والافناء فى معظم الأحوال يشغلها السكان المحليون ، ولكن الحكام الأقوياء كانوا يقومون بشغل هذه المناصب بالوافدين من الخارج ، وكان الحفصيون يمنحون الوظائف العليا لعلماء الأندلس .

وقد يتجلى التحالف بين القادة العسكريين وأعضاء النخبة الحضرية المتعلمين عندما يقوم الحاكم بنفسه أو أحد ولاته الاقليميين بمهمة القضاء ، فلم تكن النزاعات جميعها تنظر أمام القاضى ، وكان بإمكان الحاكم أن يقرر أى القضايا تحول الى القاضى وأيهما تحتجز ليفصل فيها بنفسه ، وعادة ما كانت تلك القضايا تشمل معظم الجرائم الجنائية التى من شأنها تعكير صفو النظام العام ، أو تؤثر على مصالح الدولة ، كما تضمنت أيضاً القضايا التى كانت تمثل اشكالات قانونية عويصة ، وكان الاستماع الى الشكاوى (المظالم) فى حق المسئولين الذين خولوا السلطة أمراً مهماً للغاية ، وكان عليه أن يبقى التواصل قائماً مع رعيته ، وكانت تعقد فى العصر العباسى جلسات استماع منتظمة يتولى فيها مسئول كبير مهمة الاستماع الى الشكاوى والمظالم ، وقد استمر ذلك الاجراء سارياً فى النظم التى خلفته ، وكانت بعض المشاكل تحسم بالطرق الادارية المعتادة ،

الا انه تعين على الحاكم أن يعقد جلسات بنفسه يتولى فيها اصدار المراسيم وتلقى الشكاوى ، وكان والى القاهرة المملوكى يرأس مجلسا قضائيا مهيبا كل أسبوع ، يحيط به قواده العسكريون وكبار المسئولين وقضاة المذاهب الأربعة ، وقاضى الأحكام العسكرية والمفتى حيث يصدر أحكامه بعد استشارتهم ، ولم يكن التزامه بالقوانين صارما ، كما كان الحكام الحفصيون فى تونس يجتمعون أسبوعيا بالقضاة والمفتى .

تحالفات المصالح

كانت العلاقات وثيقة ومعقدة بين قطبى المدينة : القصر والسوق ، وكانت المدينة مبنية على الاحتياج المتبادل بين المصالح المتناقضة ، فقد كان الحاكم بحاجة لأنشطة السوق الاقتصادية لتوفير السلاح والمهمات لجيشه وسفنه ، والأثاث والرياش لشخصه ولأسرته ، والنقود للانفاق على ذلك كله ، سواء أكان ذلك عن طريق فرض الضرائب المباشرة أم المكوس والاتاوات الخاصة ، وكان التجار يوفرون له الاحتياطى النقدى حينما يحتاج نقودا أكثر من التى توفرها له الضرائب المنتظمة ، وقد وفرت له الطبقة المتعلمة كذلك ، احتياطيا من المسئولين عن الخدمة المدنية والقضاء والشعراء والفنانين الذى زينوا بلاطه ليكسبوه هيبة وسمعة وعظمة ، وكان السكان الحضرىون من ناحيتهم - وعلى الأخص أصحاب المال والجاه - يحتاجون الى قوة الحاكم لضمان استمرار ورود المؤنة والخامات من الريف ، وحراسة طرق التجارة ، وعقد الاتفاقات مع الحكام الآخرين لتأمين مسارات التجارة .

واحتاجوا أيضا الى الحاكم لاقرار النظام ووضع القوانين ، والتى تستحيل الحياة فى مجتمع معقد متحضر بدونها ، وكان من الضرورى تنظيم أنشطة السوق ، وإدارة الشوارع ونظافتها ، وحمايتها من اللصوص ومثيرى الشغب ، ونقل القمامة ، وتنظيف مجارى وأنايب المياه وصيانتها ، وكان الحاكم يعين لهذه الأغراض مسئولوا على المدينة عرف بأسماء عدة فى الأماكن المختلفة ، وتحت امرته قوة شرطة عادة ما يتم تجنيدها محليا ، كما كان هناك حرس للأحياء وخفر ليل للأسواق والشوارع ، ويشرف على الأسواق (محتسب) لمراقبة الأسعار والموازين والمكاييل ، وجودة البضائع وسير اتفاقات الأعمال ، وكانت سلطته مبنية على آية من القرآن تحث المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (*) ، وكان المحتسب يختار

(*) النص القرآنى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » آية ١١٠ - آل عمران - (المراجع) .

من طبقة علماء الدين أحيانا ومن طبقة العسكر أحيانا أخرى، وكان هناك فى بعض المدن مثل صنعاء قانون مكتوب يمثل الاتفاق العرفى على طرق التعامل التجارية •

ارتبط حفظ النظام مع جمع العائدات بشكل مباشر ، فقد كان الجزء الأكبر من عائدات الحاكم من الضرائب يأبى من انتاج الريف ، ولكن الضرائب الحضريية كانت كثيرة ، ذلك بالاضافة الى ضريبة الرأس على اليهود والمسيحيين ، وكانت هناك رسوم جمركية على السلع الواردة أو الصادرة من المدينة • ورسوم من مختلف الأنواع يدفعها أصحاب المحال والورش •

ولم يكن حكم المدينة ممكنا بدون درجة من التعاون بين الحاكم والسكان أو على الأقل مع من كان فى صالحهم استقرار الأمن ، بالاضافة الى من كانوا مسئولين بالمعنى الكامل للكلمة ، وكان هناك أعضاء من المجتمعات الحضريية يعتبرهم الحاكم مندوبيه أو متحدثين باسمه ، ومسؤولين عن حفظ النظام والطاعة وتقسيم أية ضرائب مستحقة بين أعضاء هذا المجتمع أهمهم أولئك المسئولين عن حفظ النظام فى المدن وهم رؤساء الأحياء الذين يحصلون على الضرائب المستحقة على البيوت والمباني ، كما كان هناك أيضا رؤساء الطوائف المختلفة من الحرفيين أو التجار ، ولم يكن كل من مارسوا نفس الحرفة يعاملون كمجموعة واحدة حيث يمكن أن تكون هناك مجموعات مقسمة حسب المنطقة • وليس هناك دليل قوى على أن مثل هذه المجموعات كانت منظمة على هيئة طوائف حرفية بالمعنى الأوروبي فى العصور الوسطى ، مع وجود مؤسسى مستقل يعبر عن نفسه فى التعاون المتبادل أو القواعد المحددة للالتحاق أو التلمذة بها ، ولكن كانت معاملت الحاكم لهم ككيان واحد وتستحق عليهم رسوم محددة أو تقديم خدمات خاصة ، وكان عملهم معا فى نفس الجانب من السوق لابد وأن يخلق بينهم تضامنا معين ، وكان هناك نوع ثالث من المجموعات تلك المكونة من أفراد من مجتمعات يهودية أو مسيحية معينة وكان لابد لهم من متحدث باسمهم يكون مسئولاً عن تحصيل ضريبة الرأس ، وعن ولائهم الذى يمكن فى ظروف معينة أن يصبح محوطا بالشكوك •

وكان هناك على مستوى أعلى متحدث يعبر عن مصالح أكثر عمومية ، ففى حكم الحفصيين على سبيل المثال ، كان « أمين الأمناء » هو الذى يتحدث باسم رؤساء كل الحرف ، كما يمكن أن يكون رئيس التجار ممثلا لكبار

التجار العاملين في مجال التجارة الخارجية ويصبح منهما بوجه خاص عندما يحتاج الحاكم الى جميع مبالغ كبيرة من المال على عجل . وعلى المستوى الاثلي، كان أولئك الذين يتحدثون باسم المدينة ككل تحت ظروف معينة ، ورغم أن المدينة قد لا يكون لها مؤسسات متضامنة فان لها نوعا من الوحدة الروحية تعبر عن نفسها في لحظات الأزمات ، وعلى سبيل المثال عندما تخلف الأسرة الحاكمة أسرة أخرى ، يتصرف قاضى القضاة كمستول معين من قبل الحاكم ورأس أولئك الذين يحافظون على الشريعة وهى التعبير المعيارى عما يجب أن تكون عليه الحياة بشكل عام ، ثم ان عليه التعبير عن الوعي الجمعى للمجتمع ، وفى بعض الأماكن كان هناك فى بعض الأحيان أيضا رئيس للمدينة ككل ولكن مهامه ، أو ما كان يفعله ، لم تكن واضحة المعالم .

لا يعرف الا القليل عن الطرق التى يعين بها الرؤساء أو المتحدثون عن المجموعات ، ولا بد أنها كانت طرقا مختلفة ، ويبدو مؤكدا أنه لم يكن بإمكانهم ممارسة وظائفهم ما لم يحوزوا ثقة كل من الحاكم أو المحافظ التابع له من ناحية ، والمجموعة التى يتحدثون باسمها من ناحية أخرى .

وقد كانت الروابط بين الحاكم والمدينة ، والتى يعمل على تماسكها المسئولون والمتحدثون ، روابط مزعجة ومتغيرة تتحرك على محور من التحالف والعداء . وكانت هناك مجموعة أساسية من المصالح يمكن أن تقوى بالتعاون الاقتصادي ، فلا بد وأن أعضاء النخبة العسكرية يستثمرون فى مشروعات تجارية مشتركة ، وامتلكوا نصيبا كبيرا من المباني العامة والحمامات والأسواق والفنادق . وقد أنشأ الحاكم وكبار المسئولين مباني عامة وأوقفوا عليها الأوقاف ، وقد بينت دراسة عن المدن الكبرى فى العصر المملوكى تناولت ١٧١ مبنى بنيت أو خصصت للأغراض الدينية فى دمشق ، أن السلطان قد تحمل تكلفة ١٠ مبان منها ، بينما أنفق كبار قادة الجيش على ٨٢ مبنى ، وقام مسئولون آخرون ببناء ١١ منها ، ثم أنشأ التجار ٢٥ مبنى ، والعلماء تكفلوا بإنشاء ٤٣ (١) ، كما أن مسحا للمباني فى القدس خلال الحكم المملوكى تناول ٨٦ وقفا ، بين أن ضباطا من المماليك قد أنشأوا منها ٣١ مبنى على الأقل ، وهم الذين استقروا فى المجتمع المحلي ، كما بنى مسئولون وعلماء وتجار أقل من ذلك (٢) .

وقد كان تحالف المصالح جليا فى الاحتفالات الكبيرة التى تشارك فيها المدينة كلها ويظهر فيها الحاكم للشعب عند اعتلاء العرش ، وكان هناك احتفال للبيعة ، وهى عادة من المعتقدات الاسلامية المبكرة يختار

الشعب فيها من يحكمه (*) . وفى نونس فى عهد الحفصيين على سبيل المثال كان هناك احتفالان من هذا النوع : الأول يتلقى فيه الحاكم البيعة من مسئولى الدولة ، وفى الثانى يقدم فيه الحاكم لشعب العاصمة . وكان ذلك العرض يتكرر بشكل أو بآخر كل يوم جمعة عندما يذكر اسم الحاكم الشرعى فى خطبة الجمعة ، وكانت هناك احتفالات سنوية كبيرة لبعضها معنى دينى ، وفيها يظهر الحاكم للشعب . وفى تأريخ عن القاهرة فى العصر المملوكى ، وهى فترة ابن اياس (**) ، ورد ذكر احتفالات مولد النبى صلى الله عليه وسلم كل عام ، كما تصف فتح الخليج من النيل لتدخل المياه الى القنوات التى تجرى عبر القاهرة فى موسم الفيضان ، واحتفالات بداية ونهاية رمضان ، وخروج قافلة الحج من القاهرة الى مكة وعودتها ، وكانت هناك أيضا مناسبات خاصة : عند استقبال السفراء الأجانب أو عند ولادة ابن للحاكم . فكانت المدينة تزدهر بالأضواء على نفقة التجار وأصحاب الحوانيت وفيها يمكن أن يظهر الحاكم للملأ .

ويمكن لتحالف المصالح التى عبرت عن نفسها بهذه الطريقة أن ينهار فى حالة اختلال توازن القوى بين الحاكم وأولئك الذين اعتمد عليهم، ففي الدولة المملوكية على سبيل المثال ، كانت بعض الوظائف الرئيسية للحاكم تنتقل الى القواد من كبار المماليك وأهل بينهم، وفى بعض الظروف يمكن أن يمرد الجنود ويعكروا صفو السلم فى المدينة أو يهددوا سلطة الحاكم ، وقد خلف الأيوبيون الفاطميين فى القاهرة بهذا الشكل وبعدها خلف المماليك الأيوبيين على نفس المنوال وتولى أحد المماليك بدلا من آخر . أما من ناحية سكان الحضر فقد كان المنحدون يعلنون رغبات وأوامر الحاكم الى الشعب ، وبامكانهم أن يعبروا أيضا عن شكواى ومطالب المجموعات التى يملونها ، وعند تزايد الضرائب كان الجنود يعيشون فسادا وكان المسئولون يسبئون استخدام سلطتهم ، ويشجع الطعام وكان على العلماء حينئذ دور يلعبونه ، وهو محاولة الحفاظ على استقلالية الحاكم (***).

(*) لكنها عند التطبيق أصبحت بعد عصر الخلفاء الراشدين ، مسألة شكلية خالية من مضمون الاختيار الحقيقى - (المراجع) .

(***) صاحب كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » - (المراجع) .

(***):

They tried therefore to preserve a certain independence of the ruler.

بمعنى النأى بالحكام عن المسئولية عما حدث من نقص فى الغذاء وزيادة الضرائب . الخ - (المراجع) .

ولم يتخذ سحق الطبقات القادرة فى المدينة شكل التمرد الواضح ، فقد يمكن أن يفقدوا الكثير فى فترات الفوضى ، أما اللحظات النادرة من الحرية ، فكانت تاتى فقط عندما ينهزم الحاكم على أيدى عدو أو منافس ، ويبدأ كبار رجال المدينة فى التفاوض حول استسلامها وخضوعها للحاكم الجديد ، أما عامة الناس فكان يمكن أن يأخذ السخط أو الغضب عندهم شكل الاخلال بالنظام ، وأما الحرفيون المهرة وأصحاب المحال فلا يثورون بسهولة سوى تحت ضغط الضائقة والمصاعب الاقتصادية أو قهر المسئولين أو ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية أو المواد الخام ، وكانت الظروف العادية فترات هداء حيث ان مصالحهم مرتبطة أيضا بالحفاظ على النظام ، أما البروليتاريا والسود الأعظم من مهاجرى الريف والعمال الموسمين غير المهرة والشحاذين ومحترفى الاجرام على أطراف المدينة ، فقد كانوا أقرب الى حالة مستديمة من الاضطراب .

وكان سكان المدينة فى حالات الخوف يصابون بالاضطراب، ويتأثرون بالخطب الشعبية التى تندد بالظلم ، وتعبر عن رؤية النظام الاسلامى العادل ، وقد يندفع الدهماء الى السوق ويغلق التجار حوانيتهم ، ويقدم بعض ممثلى الشعب الشكاوى للحاكم ضد المسئولين أو التجار الذين يشكون فى اضطنائهم أزمة الخبز ، وفى مواجهة مثل هذا التحرك يعدل الحاكم من سياسته لتلبية بعض هذه المطالب ، فيفصل أو يعدم بعض المسئولين ، وتفتح مخازن تجار الحبوب ، وتفتح السوق من جديد ، عندها تدوب تحالف هذه القوى الشعبية ، ولكن سكان الحضر كانوا دائما هادئين أو تحت سيطرة مؤقتة ، ولكنهم يظنون ، كعهدهم دائما ، بعيدين عن النظام الاسلامى العادل .

السيطرة على الريف

كان للحاكم وأيضا سكان الحضر (أو على الأقل العنصر المسيطر منه) مصلحة مشتركة فى السيطرة على الريف وضمان انتقال ما يفيض عن حاجة المزارع الى المدينة بأفضل الشروط الممكنة ، وكان الحاكم محتاجا سواء للمنتجات ذاتها أو قيمتها النقدية للانفاق على مقره ومسؤوليه وسببته ، وكان محتاجا أيضا للسيطرة على الريف لمنع الهجمات من الخارج أو منع تكرن وظهور أسرة جديدة تهدد سيطرته على العاصمة . وكان سكان المدن من ناحيتهم فى احتياج للفائض من الريف لطعام أنفسهم والحصول على المواد الخام اللازمة لصناعاتهم . وكانت العناصر المسيطرة تميل الى النظر الى اعتبار الريف وسكانه ، كما لو كان خطرا مائلا على باب عالم

الحضر والمدنية والشرعية ويهددها ، لذلك فان كاتبنا مصرياً من القرن السادس عشر هو « الشعراني » (ت ١٥٦٥) يشكر الله على هجرته « ببركة النبي صلى الله عليه وسلم من الريف الى القاهرة من مناطق الخشونة والجهل الى مدينة الرقة والمعرفة » (٣) .

ولم تكن الحدود قبل العصر الحديث مرسومة بدقة أو وضوح ، ومن الأفضل تجنب الاعتقاد بأن سيطرة الأسرة الحاكمة كانت فعالة بشكل منتظم على منطقة مميزة أو محددة بشكل عام ، ولكن سلطتهم كانت تشع من مراكز حضرية بقوة تميل الى الضعف مع بعد المسافات ووجود العقبات البشرية والطبيعية . وينقسم مجال هذا الاشعاع الى ثلاثة أنواع من المناطق ، تختلف في كل منها طبيعة السيطرة ومداهما . تأتي أولاً وقبل كل شيء الوديان أو البلاد الصحراوية أو الجبلية الفقيرة النائية أو المنعزلة مما يجعلها لا تساوى الجهد المبذول لاختضاعها ويكتفى الحاكم بالحفاظ على الطرق التجارية مفتوحة ومنع العصيان . ولم تكن السيطرة على زعماء القبائل المحليين كاملة ، كما لم يكن اجبارهم على تسليم فائض الانتاج ممكن ان وجد الا بشروط في صالحهم ، وقد تكون لهم علاقات اقتصادية مع المدينة ، حيث يبيعون انتاجهم لشراء ما لا يمكنهم انتاجه بأنفسهم ، وفي مثل هذه المناطق يمكن للحاكم ضمان نوع من النفوذ بالمناورات السياسية بمجرد أن يستعدى زعيم قبيلة على آخر ، أو تشريف أحد أفراد عائلة بلقب رسمي بدلاً من عائلة أخرى ، وفي بعض الظروف يمكن أن يكون له نوع آخر من النفوذ الذي يكتسبه بالوضعية الدينية المتوارثة ، وهذا ينطبق على الأئمة الزيديين في اليمن ، والأباضية في عمان ، وحكام مراكش منذ القرن السادس عشر وما بعده الذين أعلنوا أنفسهم أشرفاً منحدريين من نسل النبي .

وكانت هناك منطقة ثانية من الجبل . تتكون من الواحات والسهوب ، حيث يمكن للحاكم أن يمارس المزيد من السلطة المباشرة لأنها أقرب الى المدينة أو طرق التجارة الرئيسية ، كما تنتج فائضاً أكبر ، وفي مثل هذه المناطق لا يحكم الحاكم بشكل مباشر ، وإنما من خلال الزعماء المحليين ، ووضعهم أكثر ابهاماً من أولئك الزعماء في المناطق الجبلية أو الصحراوية المنعزلة . ويتم تعيينهم رسمياً مقابل اتاوات سنوية أو دورية ، ويجرى دعمهم عند الحاجة بالتجريدة العسكرية ، أو سحب الاعتراف بهم وتعيين آخرين .

ولم يكن خط التقسيم بين هاتين المنطقتين ثابتاً ، حيث كان معتمداً على قوة الحاكم، ونغير التوازن بين استخدام الأرض في الزراعة أو استخدامها في الرعى ، وكانت المناطق المستقرة أسهل عند السيطرة عليها من مناطق الرعى البدوى المتنقل، وهناك بعض الدلائل على أنه بداية من القرنين العاشر والحادى عشر وما بعدهما تنامت المنطقة الأولى على حساب المنطقة الثانية ، ففي مصر العليا ، حل الهوارة - وهم رعاة من اصل بربرى - محل عرب الطاعة في العصر المملوكى والذين كانوا تحت سيطرة القاهرة ، واستمر نفوذ الهوارة على معظم المنطقة حتى القرن التاسع عشر ، وبالمثل ، أدت العملية الاجتماعية الاقتصادية المركبة في المغرب والتي عبرت عن نفسها رمزياً في قصة غزو بنى هلال ، الى تقلص قوة حكام المدن . واستمر ذلك لعدة قرون .

كانت هناك منطقة ثالثة : وهى منطقة السهول المفتوحة ووديان الأنهار حيث نزرع الحبوب (الحنطة) أو الأرز أو التمور ، وفيها أسواق الحدائق التى تأتى منها الفاكهة والخضروات الى المدينة ، وفي مثل هذه المنطقة كان على الحاكم، وسكان الحضر المرتبطين به، احكام السيطرة المباشرة بشكل أكثر فاعلية ، خاصة في الأماكن التى يعتمد الانتاج فيها على أعمال رى ضخمة . وكانت الحاميات العسكرية المستديرة - أو البعثات العسكرية المنتظمة تسيطر على هذه المناطق وتحفظ النظام فيها لمنع ظهور زعامات محلية .

في هذا الريف غير المستقل يجرى التبادل الاقتصادى لمصلحة المدينة، فالوسيلة الرئيسية التى أمكن بها جلب الفائض الريفى بشروط جيدة كانت نظام الضرائب . وقد كان سائداً في كل الدول الإسلامية ، فكان الحاكم يستمد موارده من ثلاثة أنواع من الضرائب ، ضريبة الرأس التى يدفعها أفراد المجتمعات غير الإسلامية المعترف بها (الذميون) ، وضرائب مختلفة على التجارة الحضرية والحرف ، وأخرى على انتاج الأرض، وفي المناطق المزروعة تستحق الضرائب اما على الأرض وفقاً لتقديرات تختلف من وقت لآخر في بعض البلاد (على سبيل المثال في مصر حيث ربط العوائد القديمة) أو أن تكون نسبة ثابتة من الانتاج ، فالضريبة على الحنطة والمحاصيل الأخرى القابلة للتخزين عادة ما كانت تدفع منها عينا ، أما على المنتجات القابلة للتلف كالفاكهة فيتم الدفع نقداً ، وبالمثل كانت الضريبة على الأراضى الرعوية في المناطق الواقعة تحت النفوذ الحكومى ، القوى القادر على تحصيلها ، يمكن تقديره اما بالمساحة أو بنسبة معينة من قطعان الماشية .

ومنذ عصر بني بويه في العراف في القرن العاشر توسع استخدام هذه الطريقة ، ونطور في بعض البلاد الى تعيين اقطاعية لجمع حصيلة الضرائب الريفية ، ويمكن أن يعهد بهذه المهمة الى أحد أفراد العائلة الحاكمة أو الى مسئول كبير بدلا من الراتب (*) ، فكانت موارد الضرائب من حصيلة المحافظة بكاملها يمكن أن تعطى لمحافظها الذي يتحمل نفقات الادارة وتحصيل الضرائب مع الاحتفاظ بنسبة منها بدلا من الراتب ، أو أن تخصص الضرائب على قطعة معينة من الأرض لضابط في الجيش ، فظير خدماته مع مجموعة من الجنود يتحملها ويدفع رواتبها ويجهزها بنفسه . وقد أصبح هذا النوع الأخير فيما بعد ذا أهمية خاصة ، وانتشر وتطور بشكل خاص لدى السلجوقيين في إيران والعراق ، وانتقل على أيدي الأيوبيين وتبعهم المماليك ، وفي المغرب ظهر نظام مشابه . حيث أعطى لزعيم القبيلة حق السيطرة على منطقة معينة مقابل خدمات عسكرية ، وكانت القبائل التي استخدمت أو تشكلت بهذه الطريقة تسمى (قبائل الجيش) .

والم يكن الغاء الضرائب بشكل دائم من نوايا أى من الحكام ، كما لم تكن من نواياهم اعطاء أولئك الذين أوكلت اليهم مهمة تحصيل الضرائب سيطرة وتحكما دائمين على الأرض ، واستخدمت وسائل مختلفة للحد من الاقطاع ، ففي مصر المملوكية ، وهي التي توفرت عنها معلومات كاملة ، كان نصف الأراضى فقط مخصصا للاقطاع ، والباقي مخصصا للحاكم وعائلته ، وكان ذلك الجزء المخصص للاقطاع يعطى اما للمماليك الحاكم نفسه أو كبار مسئولى الجيش الذين سمح لهم مبدئيا بالاحتفاظ بنسبة معينة منها لأنفسهم ، ويفترض أن يستخدم الباقي لدفع رواتب ما يتراوح بين عشرة وأربعين فارسا من المجندين في الجيش ، ولم يكن لصاحب الاقطاعية عادة اتصال شخصى بمنطقة اقطاعيته ، وإذا كان له أكثر من اقطاعية فلم تكن مجاورة ولم يكن يقوم بتحصيل الضرائب بنفسه وانما تركت هذه المهمة لمسئولى الحاكم ، كان ذلك على الأقل حتى نهاية العصر المملوكى ، والم تكن الاقطاعية تنتقل الى أبنائه بالوراثة ، وفي أزمان أو بلاد أخرى لم يكن من توكل اليه هذه المهمة تحت السيطرة الدائمة ، وتحول حق الاحتفاظ بعائدات الضرائب الى قوة لجمعها ، والاشراف على الانتاج وممارسة القيادة على الفلاحين .

(*) بدلا من تقديم راتب له ، بمعنى أن يحتفظ بنسبة من الضرائب للمجموعة لنفسه ، وهو نظام قريب من نظام الالتزام - (المراجع) .

وكان تحصيل الضرائب يمثل احدى الطرق التى تتحول فيها السيطرة المباشرة على الاراضى الريفية بواسطة الحاكم ، الى سيطرة الأفراد من اهل المدن الذين كان بإمكانهم تخصيص جزء من فائض نتاج الريف لأنفسهم ، ويمكن الإشارة اليهم باعتبارهم ملاك الاراضى ، ولكن هذه التسمية غير معبرة تماما وتعطى انطبعا خاطئا ، المهم أنهم كانوا قادرين على المطالبة بالفائض الزراعى والتنفيذ باستخدام القوة العسكرية للحاكم ، وكان من يجرى تكليفهم يحصلون على نصيب الأسد ، ولكن المسئولين الذين يلعبون دورا فى تحصيل الضرائب ، والتجار الذين يساهمون بالأموال فى تمويل الزراعة أو دفع الضرائب عند استحقاقها ، والعلماء الذين يديرون الأوقاف - كانت لهم جميعا وضعية مماثلة . .

ويمكن الاعتقاد بأن أشكال العقود الزراعية التى تنظمها الشريعة كانت منتشرة حتى فى غياب المستندات التى ندل على ذلك ، ويبدو أن أحدها على وجه الخصوص كان موجودا على الدوام ، وهو نظام (المزارعة) ، وكانت اتفاقا بين المالك والمزارع لقطعة من الأرض ، بحيث يقتسمان المحصول بنسبة ما يقدمه كل منهما ، فاذا وفر المالك البذور وحيوانات العمل والمعدات ، فمن حقه الحصول على أربعة أخماس ، والمزارع الذى قام بالعمل يحصل على الخمس المتبقى فقط ، ومثل هذه الاتفاقية يمكن أن تكون قانونا لفترة محددة ولكن فى التطبيق الفعلى غالبا ما تدوم وكانت هناك اختلافات عدة ، لأن تقسيم المحصول بدقة كان يعتمد على المتاح من الأرض والأيدى العاملة والقوة النسبية للطرفين ، ويمكن أن يظل المزارع ، فى أسوأ الحالات ، مرتبطا بالأرض ، لأنه كان مدينا على الدوام للمالك ولم يكن باستطاعته مقاومة نفوذه أو إيجاد أرض أخرى يزرعها .

أفكار السلطة السياسية

كانت العلاقات بين الحاكم والريف النائي ووديان الجبال والسهوب والصحارى بعيدة وغير مباشرة ، فكانت سلطة الحاكم مقبولة اذا لم تكن أقرب من اللازم ، وكان رجال الجبال والوديان يمثلون مددا من الجنود لجيشه ، ولكنهم كانوا يستطيعون أيضا تغذية منافسيه بالرجال وينقلبون عليه ، كما لم تكن العلاقة بين الحاكم ورعاياه من المسلمين قائمة على الروابط المعنوية ، حتى وإن كانت سلمية ومستقرة ، وكان هناك احساس بأن المسيحيين واليهود خارج المجتمع ، ولم يكن بإمكانهم تحقيق التحالف الأقوى الإيجابي النابع من هوية وتوحد المعتقدات والأهداف مع الحاكم .
إلا أن سكان المدن من المسلمين كانوا فى موقف مختلف ، فقد كان الحاكم

ومسئولوه يفرضون أنفسهم بشكل مباشر ومستمر على حياتهم ، من
تحصيل الضرائب الى حفظ النظام وتحقيق العدالة ، وقد مارسوا السلطة
التي لا تزدهر بدونها الصناعة أو التجارة ، ولا يمكن أن نسنم نقاليد
القانون أو التعليم ، وفي مثل هذه الظروف كان من الطبيعي أن يتساءل
أولئك الذين أوجدوا وحافظوا على أخلاقيات عالم الاسلام من العلماء ،
عمن هو الحاكم الشرعي وما هي حدود طاعته ، وكان الحاكم من ناحيته
يطلب بحقه عليهم في الطاعة كما يفرضها عليهم بالقوة .

وكان هناك الكثير من الروابط التي تكونت بين الحاكم وبين عدة
أفراد ، وجماعات خاصة ، حيث كانوا يقسمون له بالولاء ، ويشكرون له
العطايا ، ويأملون بين يديه في فضل خيره ، وفيما عدا هذا كانت هناك
مفاهيم عامة معينة عن السلطة الشرعية التي يمكن قبولها للجماعات الأكبر
أو للمجتمع ككل .

وقد ثارت وبشكل حاد قضية الأحقية بالحكم خلال القرن الأول من
التاريخ الاسلامي ، ومن هو الخليفة الشرعي للنبي صلى الله عليه وسلم
كرأس للمجتمع ؟ وهل هو خليفة أم امام ؟ كيف تكون مبايعته ؟ ، وما هي
حدود سلطته ؟ وهل له حق الطاعة بلا شروط ؟ أو أن الثورة والتمرد
عليه وخلعه أمر مشروع ؟ وكانت لدى الإباضية (*) والشيعية على اختلاف
مذاهبهما اجابات على مثل هذه الأسئلة ، أما علماء السنة فقد تطورا
تدريجيا الى الاعتقاد بأن الخليفة رأس المجتمع ولكنه ليس المفسر الذي
لا يخطيء للإيمان أو الدين ، وأن العلماء هم رعاة الدين ، وعليه ، وبمعنى
من المعاني هم ورثة النبي ، فقد تقبلوا فكرة أن الخليفة قد يجانبه
الصواب ، وأن من واجب المؤمنين رفضه أو عزله . وكان هذا هو المنطق
الذي اتخذه خلفاء العباسيين لتبرير ثورتهم على الأمويين الذين حولوا
سلطتهم الى ملك علماني عضود .

وفي القرن الرابع الاسلامي (العاشر الميلادي) أخذت نظرية الخلافة
شكلها النهائي المكتمل ، فعندما تغيرت الظروف بما هدد وضع الخلفاء
العباسيين مما أدى الى ظهور محاولات للدفاع عنها عن طريق وضع تعريف

(*) الإباضية نسبة الى عبد الله بن أياض الذي أظهر دعوته أيام مروان بن محمد
آخر خليفة أموي ، ولم يكفروا مخالفيهم ، والامام عندهم هو أعلم الجماعة وأفقههم
بصرف النظر عن نسبه .

انظر على سبيل المثال : الملل والنحل للشهرستاني (طبع بيروت - دار المعرفة) ،
ج ١ ، ص ١٢٤ - ١٣٦ - (المراجع) .

محدد لها ، جاء التهديد من قطاعين مختلفين ، ظهور الخلافة الفاطمية في القاهرة ، وإعادة احياء الخلافة الأموية في الأندلس ، مما طرح الأسئلة ليس فقط عن هو الخليفة الشرعى ؟ ولكن أيضا : امكانية أن يكون هناك أكثر من خليفة ؟ ألا تعنى وحدة الأمة ضمنا أن يكون لها رأس واحد ؟ وداخل المنطقة التى دانت بالسيادة للعباسيين أصبح الحكام المحليون (الولاة) مستقلين فعليا ، وحتى فى بغداد العاصمة فرض البويهيون - وهم أسرة عسكرية - سيطرتهم على الخلافة ، وأصبحوا قادرين على اصدار القرارات والمراسيم باسم الخليفة عندما استطاعوا اعلان استقلالية سلطتهم باحياء استخدامهم الخاص للقب الايرانى القديم الشاهنشاه .

وفى ذلك السياق وضعت أشهر نظرية للدفاع عن الخلافة على يد المواردى (ت ١٠٥٨) ، والتى قال فيها بأن وجود خليفة ليس ضرورة طبيعية (*) ، فشرعيتها (الخلافة) مستمدة من القرآن « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٤) وعليه فهى من أوامر الله ، والهدف منها حماية المجتمع وإدارة شئونه على أسس من الدين الحق الصحيح ، ويجب أن يكون الخليفة على معرفة بالدين واحساس بالعدل والشجاعة ، ويجب أن ينتمى الى قبيلة قريش التى ينحدر منها النبى صلى الله عليه وسلم ويجب أن يكون هناك خليفة واحد فى الوقت الواحد ، ويمكن أن يفوض سلطاته اما لغرض محدد أو بلا حدود ، فى منطقة من امبراطوريته أو فى الامبراطورية كلها ، وعلى الأمير أو الوزير الذى خول هذه السلطة الاعتراف بسلطة الخليفة وأن يمارس سلطاته فى حدود الشريعة ، وقد صالحت هذه الصياغة بين السلطة الواقعية وبين السلطة النظرية للخليفة ، وأعطت الخليفة الحق فى الحفاظ على هذه السلطة طالما ظل حائزا لها ، والحق فى سحب السلطة من الأسر التى فوضها لهم .

وأمكن الحفاظ على مثل هذا التوازن بين السلطة والقوة بشكل أو بآخر حتى نهاية عصر الخلافة فى بغداد ، وأمكن للعلماء الاعتراف بالسلطان أو القائد ، وأصبح من حقه ممارسة سلطته على أن يظل مواليا للخليفة وأن يحكم وفقا للدين الصحيح ، الا أن ذلك لم يكن توازنا ثابتا ، وظلت للخليفة بقية من القوة الفعالة فى العاصمة وما حولها ويحاول

(*) لا يخفى على فطنة القارئ أن هذا القول كما ساقه المؤلف عن المواردى غير صحيح ، فقد عرفت الحضارة الانسانية وفى أماكن مختلفة ضرورة وجود حاكم بصرف النظر عن اسمه (خليفة - حاكم - ملك - امبراطور ... الخ) وذلك قبل نزول هذه الآية الكريمة بالآلاف السنين ، فقد اكتشف البشر اذن ضرورة وجود حاكم - (المراجع) .

نوسيع نطاقها خاصة في عصر الخليفة الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ، وكان السلطان القوى ينحو الى زيادة قوته المستقلة ، كما كانت هناك سلطة ثالثة هي سلطة العلماء الذين كانوا يحددون ماهية الدين الصحيح . وقد فام الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) وطائفة من العلماء بتعريف العلاقة (بين الحاكم والمحكوم) وضرورة ثباتها في اطار التراث الديني ، ووضعوا فكرة أن القوة هي من حق الخليفة أما ممارستها فيمكن أن تكون لأكثر من شخص . والخلافة (أو الامامة كما كان يسميها المنظرون عادة) تتكون من ثلاثة عناصر هي الخلافة الشرعية للنبي ، وتوجيه أمور الدنيا ، ورعاية أمور الدين ، وقال الغزالي ان الحالة المثلى هي اتحاد هذه المفاهيم الثلاثة في شخص واحد ، ولكن في حالات الضرورة يمكن فصلها كما كان الحال في ذلك الوقت ، فقد جسد الخليفة الخلافة عن النبي ، وحاز السلطان السلطة العسكرية ، ومارس مهام الحكم ، وأسرف العلماء على المعتقدات والممارسات الدينية .

ومع الوقت تحولت هذه العلاقة الثلاثية الجوانب لتصبح علاقة ثنائية . وانتهت الخلافة في بغداد عندما احتلها المغول عام ١٢٥٨ ، وظلت الخلافة العباسية في القاهرة على أيدي السلاطين المماليك ولم تكن معترفا بها بشكل عام ، ورغم أن ذكريات الخلافة استمرت وأقرتها كتب القانون كشكل مثالي للسلطة الاسلامية ، ورغم أن بعض الحكام الأقوياء كالحفصيين استمروا في الاحتفاظ باللقب ، فقد كان الهدف الرئيسي للفكر السياسي بين أولئك الذين كتبوا من منطلق التقاليد والتراث القانوني ، هو تحديد العلاقة بين الحاكم الذي يمتشق السيف وبين العلماء الأمناء على الدين الصحيح والذين من حقهم التحدث باسم الأمة ، وهناك قول قديم منذ عصر الساسانيين ويتردد كثيرا بأن « الدين والملك أخوان وليس بإمكان أحدهما الاستغناء عن الآخر » (٥) وكان الاعتقاد العام أن السلطة التي تكتسب بالسيف ، مع الخضوع الذي يتجلى في احتفال البيعة ، يمكن أن تصبح سلطة شرعية إذا استخدمت للحفاظ على الشريعة وعلى نسيج الحياة المتمدينة الفاضلة ، وعلى الحاكم دعم معاكم العدل ، واحترام العلماء ، وأن يحكم بالتشاور معهم . ويمكن أن يمارس مهام الحكم ويضع الضوابط ويتخذ القرارات وأن ينفذ العدالة في المسائل الجنائية التي تتعلق بصالح المجتمع وأمن الدولة ، والعلماء بدورهم عليهم الاعتراف بالسلطان العادل بالدعاء له في خطبة الجمعة .

وقد استنتج ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) - وهو أحد العلماء البارزين في العصر المملوكي - الآثار المنطقية للوضع في عصره ، سواء في هذه المسألة أم في المسائل الأخرى ، فكانت وحدة الأمة عنده هي وحدة

الاعتقاد فى الله وقبول رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس بمعنى الوحدة السياسية ، مع وجوب أن تكون فى الأمة سلطة لتحقيق العدل والحفاظ على الافراد ضمن الحدود ، ويمدّن ان يمارس ذلك أكثر من فرد واحد ، أما كيفية وصول الحاكم الى السلطة فكانت أقل أهمية من كيفية استخدامه لها ، وكانت الممارسة العادلة للسلطة فى نظره نوعا من الخدمة الدينية ، ويجب أن يمارس السلطة فى اطار الشريعة وأن يحكم بالتعاون مع العلماء ، وتضمنت هذه العلاقة بين الحكام والعلماء وجوب احترام الحاكم لمصالح النخبة الاسلامية فى الحضر ، أما فى البلدان الى الشرق من المغرب حيث كان الحكام من القرن العاشر وما بعده من أصول تركية أو أجنبية ، فكان لابد من استشارة السكان المحليين ممن يتحدثون العربية ويجب أن يكون لهم نصيب فى عملية الحكم .

وكان من المتفق عليه ، حتى وان كان الحاكم غير عادل أو فاسدا ، بأن يظل مطاعا ، لأن أى نوع من النظام هو أفضل من الفوضى ، وكما قال الغزالي : « ان طغيان السلطان لمائة عام يسبب ضررا أقل من طغيان الرعايا لعام واحد على بعضهم البعض » (٦) والثورة متسروعة فقط ضد الحاكم الذى يخالف بوضوح تعاليم الله أو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يعنى أن العلماء ينظرون لحاكم غير عادل نفس نظرته لحاكم عادل ، وكان أحد التقاليد الراسخة بين العلماء (السنة والشيعية على السواء) بأن عليهم الابقاء على المسافة بينهم وبين الحكام . وقد أورد الغزالي حديثا شريفا عن أن فى الجحيم واديا مخصصا للعلماء الذين يزورون الملوك الظالمين ، فالعالم الفاضل يجب أن يمتنع عن زيارة الأمراء أو المسئولين الظالمين ، وبإمكانه زيارة حاكم عادل ولكن بدون خضوع ويجب عليه توجيه اللوم له اذا رأى منه فعلا منكرا ، فاذا خاف فبإمكانه أن يظل صامتا ، ولكن الأفضل عدم زيارته على الاطلاق ، واذا زاره أمبر فان عليه رد النخبة ودعوته للفضيلة ، ولكن من الأفضل تفاديه وتجنبه على الاطلاق (وهناك علماء آخرون يرون بأن عليهم دعم الحاكم فى كل شئ حتى وان كان غير عادل) .

وقد تضافرت مع هذه الأفكار التى وضعها علماء الدين والقضاة ، آراء أخرى مستمدة من التراث الثقافى والتى ساعدت على تشكيل ثقافة العالم الاسلامى ، ففي القرن العاشر وضع الفيلسوف الفارابى تعريفا للمقاييس التى تقوم عليها الأمم فى كتابه «المدينة الفاضلة» . وكانت أفضل الدول عنده هى تلك التى يحكمها من هو نبي وفيلسوف فى وقت واحد ، حيث انه يستطيع باستخدام ذكائه وخياله الاتصال « بالعقل الفعال » والذى يصدر عن الله ، وفى غياب مثل هذا الحاكم المثالى يمكن أن تكون.

الدولة فاضلة اذا حكمها جماعة من الذين يتمتعون فيما بينهم بالخصائص اللازمة أو الحكام الذين يحفظون القانون ويفسرون القوانين التي وضعها المؤسسون (كمثال الحال مع الخلافة الأولى) وعلى النقيض من ذلك هناك مجتمعات لا يتمتع العنصر الحاكم فيها بمعرفة الخير وليس لهذه المجتمعات مصالح عام ، وترتبط ببعضها بالقوة أو ببعض الخصائص الطبيعية كالانحدار من نفس النسب أو الشخصية أو اللغة .

وكانت النظريات المستمدة من أصول أخرى ذات تأثير أكثر عمومية : الفكرة الإيرانية القديمة عن الملكية كانت تتجلى أحيانا على هيئة دائرة ، فالعالم حديقه سياجها الحكام ، والحاكم تدعمه الجند ، وحفظ الجند ، يتطلب أهوالا ، والأموال مستمدة من الرعايا ، والرعايا يحميهم القانون ، والقانون يفرضه الحاكم ، واذا عبرنا عنها بشكل آخر ، فالعالم الانساني يتكون من عدة أنظمة كل منها يسعى بأنشطته نحو مصالحه ، واذا كان عليهم أن يعيشوا معا في انسجام ويبدلوا ما لديهم خدمة للمجتمع ، فلا بد من سلطة منظمة ، ولهذا وجدت الممالك ، وهو نظام بشري طبيعي من وضع الله ففي كل عصر أو زمن يختار الله سبحانه وتعالى فردا من الجنس البشرى ، ليهبه فضائل الخير والسمو ويأتمنه على مصالح العالم وخير عبيده (٧) وهو في احتياج قبل كل شيء للحكمة والعدل لأداء وظائفه ، وعندما يفتقد ههما أو يفقد القوة للحفاظ عليهما ، ينتشر الفساد والفسوق . . وتختفى الممالك تماما ونعلو السيوف ويفعل الأقوى ما يريد (٨) . ولكن يقوم الحاكم بما أفدره الله فعليه أن يضع نفسه خارج أنظمة المجتمع المختلفة لأنهم لم يختاروه ، فالغرض الرئيسى لهذه النصوص هو التأكيد على وضعه المتوارث وأنه ليس مسئولا أمامهم ، بل هو مسئول فقط أمام ضميره ، وفي يوم القيامة أمام الله ، وعليه أن يقدم له حسابا عن خدمته ، ويجب أن يكون هناك تمييز واضح بين الحكام والمحكومين ، فالملك ورجاله يجب ألا ينخرطوا في المصالح التي ينظمونها .

وخلال التاريخ الاسلامي تتابعت سلسلة من النصوص التي عبرت عن مثل هذه الأفكار وحاولت استنباط الدلالات ، مثلما عبرت كتابات الفقهاء عن اهتمام العلماء ونظرتهم الى تلك الطبقات التي كانوا يعبرون عنها ، أما النوع الآخر من الكتابة فقد كان الذي عبر عن اهتمامات القربيين من ممارسة السلطة ، وهم البيروقراطيون الذين يخدمون حكاما بعد حكام مع الحفاظ على تقاليد الخدمة لديهم ، ومن أشهر هذه الكتابات « كتاب الحكومة » لنظام الملك (١٠١٨ - ٩٢) كبير الوزراء لأول سلطان

سلجوقى يحكم بغداد ، وكان كتابه مثل كتاب غيره لا يحنوى على مبادئ عامة ولكن على نصائح عملية حول ادارة الدولة ، ويستفيد منه فى تعليم الامراء ، ولهذا كان الاسم الذى عرف به هذا النوع من الكتابة « مرايا الامراء » (وهو اصطلاح يطلق على نوع مشابه من الكتابة فى أوروبا) ويتلقى الأمير النصيحة عن كيفية اختيار المسؤولين ، وكيفية السيطرة عليهم ببن العيون حولهم ، وكيفية التعامل مع المظالم والالتماسات المقدمة من رعاياه ، لمنع رجاله من اساءة استخدام السلطة التى يمارسونها باسمه ، وكيفية استشارة كبار السن والحكماء والتداول معهم ، وكيفية اختيار رفاقه وأوقات اللهو والراحة ، وكيفية استخدام الجند من أجناس مختلفة والحفاظ على ولائهم ، والنصيحة موجهة بشكل مباشر أساسا ضد المخاطر التى يتعرض لها الحاكم المطلق اذا أصبح معزولا عن رعاياه ، أو سمح لرجالهم وتابعيه باساءة استخدام السلطة التى يمارسونها باسمه .

الفصل التاسع

طرق الاسلام

أركان الاسلام

كانت هناك وشائج مشتركة بين هذه المجتمعات المختلفة ، رغم أنها تعيش في دائرة واسعة من الأراضي الممتدة من الأطلنطي حتى الخليج ، والتي تفصلها الصحارى ، وتبدأ أولها الأسر الحاكمة التي ارتفعت ثم سقطت ، وتنافست مع بعضها للتحكم في موارد محدودة وكان المسلمون في البداية مجموعة حاكمة ، ثم أصبحوا بعدها أغلبية مسلمة تعيش تحت حكم كلمة الله (القرآن) الذي تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية ، وأولئك الذين قبلوا الاسلام شكلوا أمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تهررون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) . عبرت هذه الكلمات من القرآن عن أمر مهم في أتباع الاسلام الذين التزموا بالسعي الجاد لفهم وطاعة تعاليم الله ، وأسس الناس رجالا ونساء صلة صحيحة بالله ، وكذلك بين بعضهم البعض ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع : « تعلمون أن المسلم أخ المسلم وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه » (٢) .

ولقد لعبت شعائر وتصرفات معينة دورا خاصا في الحفاظ على الاحساس بالانتماء للمجتمع ، وكانت اجبارية على كل مسلم من القادرين على أدائها ، وأوجدت رابطا ليس فقط بين أولئك الذين قاموا بأدائها معا ولكن بين الأجيال المتعاقبة كذلك ، وتمتد فكرة السلسلة من الشهود من عصر النبي حتى نهاية العالم ، وهي تنقل الحقيقة من جيل لآخر ، وكانت ذات أهمية قصوى للثقافة الاسلامية ، وبشكل ما فإن هذه السلسلة شكلت التاريخ الحقيقي للجنس البشرى فيما وراء صعود وسقوط السلالات والشعوب .

عرفت هذه الشعائر عامة باسم « أركان الاسلام » أولها شهادة أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وكان نطق هذه الشهادة هو الفعل الرسمي الذي يصبح به الانسان مسلما ، ثم يتكرر يوميا مع شعائر

الصلوات وحوت هذه الآيات في جوهرها أدوات الايمان النى يميز المسلمون بها أنفسهم عن الملحدين والمشركين ، كما نميزهم أيضا عن المسيحيين واليهود الذين يعيشون ضمن نفس التراث التوحيدى ، وأن هناك الها واحدا، وأنه قد بين شبيثته للجنس البشرى من خلال سلسله من الأنبياء ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء الذى تنتهى به هذه السلسله ، ويقوم المسلم يوميا فى شعائر صلاته بتكرار هذا المعتقد الأساسى والصلاة هى ثانى الأركان ، وفى البداية كانت تؤدى مرتين يوميا (*) .

ولكن ساد الاعتقاد بأنها يجب أن تؤدى خمس مرات يوميا : الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ويعلن عن أوقات الصلاة علنا بالأذان ويقوم به المؤذن من مكان عال عادة ما يكون المئذنة الملحقة بالمسجد، وللصلاة شكل محدد فبعد الوضوء يؤدى المصلون عددا من الحركات الجسدية من انحناء وركوع وسجود ، مع ترديد عدد من النصوص التى لا تتغير ، وتعبّر عن عظمة الله وخضوع الانسان فى حضرته ، وبعد اتمام هذه الصلوات يمكن أن يعقبها الدعاء والاسترحام الفردى (الدعاء) *

ويمكن أن تؤدى هذه الصلوات فى أى مكان الا الأماكن التى تعتبر غير طاهرة ، وتفضل الصلاة فى الجماعة مع الآخرين فى الزاوية أو المسجد، وهناك صلاة معينة على وجه الخصوص يجب أدائها مع الجماعة وهى صلاة الجمعة ، وتقام فى مسجد من نوع خاص (المسجد الجامع) وفيه (المنبر) وبعد صلاة تحية المسجد يعتلى الخطيب المنبر لالقاء خطبة تكاد تكون تقليدية : تحتوى على حمد الله والثناء عن النبى ، ثم موعظة أخلاقية غالبا ما تتناول المسائل العامة للمجتمع ككل ، وتختتم بالدعاء الى الله وبمباركة الحاكم الذى أصبح ذكره فى الخطب بهذا الشكل واحدا من علامات السيادة *

وكان الركن الثالث بشكل ما امتدادا لفعل الصلاة وهو الزكاة أى اعطاء الصدقات من دخل المسلم لتصرف للفقراء والمحتاجين والمدينين راعى العبيد وضيافة المسافرين • كان اخراج الزكاة لزاما على أولئك الذين يتعدى دخلهم حدا معين باخراج نسبة من دخلهم يجمعه ويوزعه الحاكم أو مسئولوه ، ولكن المزيد من العطايا يمكن اعطاؤه لرجال الدين ليقوموا بتوزيعه أو يعطى مباشرة للمحتاجين •

(*) كانت الصلاة ركعتين فى كل وقت ثم اختلف عدد ركعاتها - (المترجم) •

كان هناك ركنان لا يقلان الزاما على المسلم ، ولكنهما يؤديان بمعدل أقل . وهما تزكيات رصينة وقورة بسيادة الله وخضوع الانسان له فى اوقات معينة من السنة الهجرية وقد استخدمت السنة القمرية لأسباب دينية ، وهى تقل أحد عشر يوما تقريبا عن السنة الشمسية ، وهذا التقويم المستخدم فى الأغراض الدينية والمعتمد بشكل عام فى المدن لم يكن من الممكن استخدامه لدى المزارعين،الذين تحتل الأحداث المهمة عندهم أهمية فصول كالمطر وفيضان الأنهار والتغيرات الجوية بين الدفء والبرودة وقد استخدم معظمهم (التقويم الشمسى القديم) .

هذان الركنان هما الصوم مرة فى العام نى شهر رمضان ، والحج الى مكة مرة واحدة على الأقل فى العمر ، وخلال رمضان وهو الشهر الذى أنزل فيه القرآن يتعين على كل المسلمين فوق سن العاشرة ، الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من شروق الشمس حتى غروبها ، باستثناء المرضى ممن هم أضعف من احتمال ذلك والمختلين عقليا ، والمرتبطين بأعمال شاقة أو حرب أو المسافرين ، وكان ذلك تعبيرا وقورا عن التوبة عن الخطايا وانكار الذات حبا فى الله . وعلى المسلم الصائم أن يبدأ يومه بذكر النية(*)، ويجعل الليل لصلوات خاصة ، وفى حين يتقرب المسلمون الى الله بهذه الشعائر يقتربون من بعضهم البعض ، وتجربة الصوم الجماعى مع القرية كلها أو المدينة تقوى الشعور بالمجتمع الواحد ، لينتشر ذلك الشعور عبر الزمان والمكان ، وساعات ما بعد هبوط الليل تنقضى فى الزيارات والواجبات الاجتماعية ، ويحتفل بنهاية شهر رمضان ، كأحد عيدين فى التقويم الهجرى ، بالفرحة والزيارات والهدايا وهو عيد الفطر .

وعلى المسلم القادر أن يحج الى مكة مرة واحدة فى العمر على الأقل . ويمكنه زيارتها فى أى وقت من السنة (العمرة) ولكن الحج الكامل بمعناه هو زيارتها مع غيره من المسلمين فى وقت خاص من السنة (شهر « ذو الحجة ») ولم يكن الحج مفروضا على غير الأحرار ، أو المختلين عقليا ، أو من لا يملكون الموارد المالية الكافية ، أو من تقل أعمارهم عن حد معين وحسب بعض المصادر والآراء ليس الحج مفروضا على النساء بلا زوج أو راع لمصاحبتهم ، وهناك أوصاف لمكة والحج كما كان يردى فى القرن الثانى عشر ، مما يبين أنه فى ذلك الوقت كان هناك

(*) ليس هذا ضروريا كما هو معروف لأن النية محلها القلب - (المراجع) .

اتفاق حول الطريقة التي يتصرف بها الحاج وما يتوقع أن يجد في نهايه رحلته (*) .

ومعظم الحجاج يذهبون في جماعات كبيرة نتجمع في احدى المدن الكبيرة في العالم الاسلامي ، كان أهمها جميعا في العصر المملوكي الحج من القاهرة ودمشق ، وكان الحجيج من المغرب يذهبون عن طريق البحر أو البر الى القاهرة حيث يلتقون بالحجيج المصريين هناك، ثم يسافرون برا عبر سيناء ثم جنوبا في غرب الجزيرة العربية الى المدن المقدسة في قوافل منظمة تحت حمايه وقيادة مصر ، وكانت الرحلة من القاهرة تستغرق بين ثلاثين وأربعين يوما وبنهاية القرن الخامس عشر كان حوالى ٣٠ - ٤٠ ألف حاج يقومون بهذه الرحلة سنويا ، حيث يلتقى القادمون من الأناضول وإيران والعراق وسوريا في دمشق ثم الرحلة بالقوافل التي ينظمها حاكم دمشق ، وتستغرق قرابة ثلاثين الى أربعين يوما يقوم بها ما بين ٢٠ - ٣٠ ألف حاج سنويا . وكانت تذهب مجموعات أصغر من غرب أفريقيا عبر السودان والبحر الأحمر ، ومن جنوب العراق وموانئ الخليج عبر أواسط الجزيرة .

في نقطة معينة عند الاقتراب من مكة يطهر الحاج نفسه بالوضوء (**)، ويضع لباس الاحرام الأبيض المصنوع من قماشة واحدة ، ثم يعلن عن نية الحج بنوع من القسم « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك » (٣) .

وبمجرد وصوله الى مكة ، يدخل الحاج المنطقة المقدسة (الحرم) ، حيث توجد مواقع ومبان لها مكانة خاصة وذكريات ، وبحلول القرن الثامن عشر على أكثر تقدير اتخذت شكلها الحالي : بئر زمزم التي فتحها سيدنا جبريل لينقذ هاجر وابنها اسماعيل ، والحجر الذي انطبع عليه قدم ابراهيم عليه السلام ، وأماكن معينة مرتبطة بالآئمة على اختلاف المذاهب الشرعية ، وفي قلب الحرم تقف (الكعبة) البناء المربع الذي طهره محمد صلى الله عليه وسلم من الأصنام والأوثان ليصبح مركز الالتزام الدينى الاسلامي والحجر الأسود (الأسعد) موجود في أحد حوائطها ، ويطوف الحجيج بالكعبة سبع مرات مع لمس أو تقبيل هذا الحجر كلما مروا به . وفي اليوم الثامن من الشهر يخرجون من مكة متجهين شرقا الى جبل.

(*) للحج شكل ثابت منذ البداية والمقصود هنا المحمل وموكب كسوة الكعبة ونقله الى الحجاز - (المترجم) .
(**) يفضل الاستحمام كما هو معروفه - (المراجع) .

عرفات حيث يقفون لفترة (وقفة عرفات الفعل الأساسى فى الحج حيث الحج عرفة) . وفى طريق العودة الى مكة هناك شعيرتان رمزيتان أخريان ، يتم أدائهما وهما رجم شاهد يمثل الشيطان بالأحجار (*) والتضحية بالأغنام ، وبهذا تنتهى فترة النذر التى بدأت بالاحرام ، ويخلع الحاج ملابس الاحرام ويعود الى الحياة الطبيعية العادية .

ويعتبر الحج من نواح عديدة المحدث المركزى فى العام ، وربما فى العمر كله ، فهو تعبير عن وحدة المسلمين مع بعضهم البعض فى أجلي صورها ، وبمعنى ما كان تمثيلا لكل أنواع السفر ، وكان أولئك الذين يذهبون للحج فى مكة قد يبقون لتحصيل العلوم والدراسة ، ويمكن أن يحضروا معهم بضائعهم لبيعها فى الطريق أو فى المدن المقدسة ، وكان الحج أيضا سوقا لتبادل الأخبار والأفكار من كل أجزاء العالم الاسلامى .

وقد عبر الرحالة الشهير ابن بطوطة عن معنى تجربة الحج بقوله : « من أعجب صنائع الله سبحانه وتعالى أن خلق قلوب الرجال على الرغبة الفطرية فى البحث عن المزارات المقدسة والتوق الى تقديم أنفسهم فى مواقفها الزاهرة وقد أعطى حبهم قوة على قلوب الرجال بحيث لا ينيرها القلب كله أو يتركها الا بالحزن على فراقهم » (٤) .

والحج من شعائر الخضوع لله السى نص عليها القرآن « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٥) ، فيخرج اليه الآلاف من العالم الاسلامى معا فى وقت واحد، يطوفون جميعا حول الكعبة ، ويقفون بعرفات ويرجمون ابليس ، ويقدمون أضحياتهم ، فيرتبطون بعالم الاسلام بكامله ، وكان سفر وعودة الحجاج مناسبة احتفال رسمى تسجل فى مسارد التاريخ ، وترسم على جدران المنازل ، وكان الحاج عندما يقدم أضحيته فى منى ، يقوم كل بيت مسلم بذبح أضحيته ليرمز الى ثنائى الأعياد الكبرى للسنة الهجرية ، وهو عيد الأضحى .

وكان الاحساس بالانتماء لجماعة من المؤمنين يعبر عن نفسه فى فكرة أن من واجب المسلم رعاية مصالح وحماية المجتمع ، وتوسيع آفاقه ما أمكن ، وكان الجهاد ضد أولئك الذين يهددون المجتمع سواء أكانوا من الكافرين المعادين من خارجه ، أم غير المسلمين بداخله ممن انتهكوا عهد

(*) الشعيرة المعروفة برمى الجمرات - (المراجع) .

الحماية (*) وكان الجهاد يعتبر فريضة تعادل أحد أركان الاسلام ، وكان واجب الجهاد كغيره من الفرائض مبنيا على آية قرآنية : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجسوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » (٦) .

وقد أسهب الفقهاء في تعريف طبيعة هذه الفريضة وحدودها ، ولم يكن الجهاد التزاما فرديا على المسلمين ، ولكنه كان فريضة جماعية ، على المجتمع (**) لتوفير عدد كاف من المقاتلين، وبعد التوسع الكبير للإسلام في الشرون الأولى ومع بدايات الهجوم المضاد من أوروبا الغربية ، أصبح ينظر للجهاد بمنظور دفاعي أكثر منه توسعيا .

بالطبع ، فلم يلزم كل من سمي نفسه مسلما بهذه الالتزامات بقدر متساو من الجدية أو أعطى نفس المعنى لتحقيقها ، فكانت هناك مستويات مختلفة من الإيمان الفردي واختلافات عامة بين اسلام المدينة والريف ، وكان هناك نطاق متباين من الالتزام يتراوح بين طالب العلم والتاجر التفي في المدينة ممن يؤدون الصلوات اليومية والصوم السنوي ويدفعون الزكاة ويؤدون الحج ، وبين البدوي العادي الذي لا يصلي بانتظام ولا يصوم رمضان ، لأنه يقضى حياته على حافة الجوع والحرمان ولا يؤدي الحج ولكنه يشهد بأن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

أولياء الله

منذ البداية كان هناك بعض أتباع للنبي لم يكن لالتزامهم الظاهري قيمة ، ما لم يعبروا عن اخلاص النية والرغبة في طاعة تعاليم الله من دنطلق الاحساس بعظمته وضآلة الانسان ، وما لم يعتبر هذا الاخلاص أساسا للنظام الأخلاقي الذي يجب أن يمتد ليشمل حياتهم كلها .

ومنذ تاريخ مبكر ، أثارت الرغبة في نقاء النية ميلا الى التنسك ربما كان مصدره تأثير رهبان المسيحية الشرقية ، وكان وراء ذلك فكرة تقول بأن هناك علاقة بين الله والانسان -خلاف مجرد اطاعة التعاليم : علاقة يطعم فيها الانسان مشيئة ربه حبا فيه ورغبة في التقرب اليه ، وبذلك يصبح قادرا على الاحساس بحب الله له . ومن مثل هذه الأفكار والممارسات التي

(★) الشعيرة المعروفة برمي الجمرات - (المراجع) .

(★★) فرض كفاية بمعنى أن المجتمع ككل إذا قام بهذا الواجب يسقط عن الأفراد الذين لم يجاهدوا لسبب أو لآخر . أما أن تقاعس المجتمع عن هذا الفرض ، فإن كل أفرادهم ياثمون ، فاجهاد فرض كفاية وليس فرض عين - (المترجم) .

نشأت على أساسها خلال هذه القرون ، نشأ تفصيل تدريجي حول فكرة الطريق التي ينقرب بها المؤمن الحق من الله . والدين آمنوا بهذه الفكرة وحاولوا تطبيقها ، عرفوا تدريجيا باسم الصوفية . وبالتدريج أيضا ظهر مفهوم عام وان كان غير مكتمل حول المقامات على هذه الطريق ، وكان المقام الأول هو التوبة أى التخلي عن خطايا الحياة السابقة : قد يؤدي الى الاقلاع حتى عن الأمور المباحة والتي تؤدي الى تشتيت الروح عن البحث عن المقصد السليم ، ويمضى الساعى على هذه الطريق ليتدرج الى مقام التوكل على الله والصبر على مشيئته ، وبعد فترة من الخوف والأمل قد يأتى الالهام أو التجلى من الذات المقدسة : صحوة روحية تذوب فيها كل الغايات والمقاصد ولا يتبقى سوى الله ، وتفنى الصفات الانسانية للساعى فى هذه الطريق عندما يصل الى هذه النقطة ، ويحل محلها قدرات الهية تترك آثارها ، اذ تتحول الروح بمجرد عودتها الى عالم الحياة اليومية .

وهذه الخطوة تجاه التوحد مع الله تؤثر على المشاعر والعقل والروح ، وتتجلى مع المقامات المختلفة بركات أو أحوال ، وهى حالات مشاعر فياضة أو تجارب عنيفة لا يمكن التعبير عنها سوى بالاستعارات والرموز والصور . وقد تطور تدريجيا ، فى اللغة العربية واللغات الأدبية الأخرى فى عالم الاسلام ، نظام من الصور الشعرية يحاول الشاعر فيها أن يوضح حالات التجلى ، التى يمكن أن تتجلى على الطريق نحو العرفان وهدفه من التوحد . وقد استخدمت صور الحب الانسانى التى يكون فيها المحب والمحبوب كل منهما مرآة للآخر ونشوة من النبذ ، وعبر عن الروح كقطرة ماء فى المحيط الالهى المقدس ، أو كطائر يبحث عن زهرة يتجلى فيها صورة لاله ، والصور الشعرية غامضة بحيث لا يسهل دائما القول هل يقصد الشاعر التعبير عن الحب الانسانى أم عن الحب الالهى .

وكان المسلمون الجادون واعين لخطورة هذه الطريق ، حيث ان الساعى فيها يتوه ، وقد تعصف بعقله التجليات . وكان من المعتقد أن بعض الأرواح الانسانية قادرة على السعى فيه وحدها ، كما أن نغرق فجأة فى المتعة أو أن تفوده روح معلم ميت أو النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، الا أن معظم الساعين كانوا يعتقدون أنه من الضروري قبول وتعليم وتوجيه من هم أكثر تقدما على هذه الطريق من أساتذة الحياة الروحية (شيخ أو مرشد) وطبقا للقول الذى أصبح شائعا « من لا شيخ له فالشيطان شيخه » وعلى المريد أو التلميذ أن يتبع شيخه خاضعا مستسلما كالجنة بين يدي من يقوم بغسلها .

وفي أواخر القرن العاشر والحادي عشر بدأ تطور جديد، إذ أن أولئك الذين كانوا أتباعاً لنفس المعلم بدءوا في تعريف أنفسهم كعائلة روحية واحدة تضي على نفس الطريق (طريقة) ، واستمرت بعض هذه العائلات لفترة زمنية طويلة وأعلنت انتماءها لأساتذة عظام للحياة الروحية التي سميت الطريقة باسمائهم، وينتمون بدورهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من خيال على أو أبي بكر (١) . وانتشرت بعض هذه الطرق في مساحات واسعة في العالم الإسلامي حملها تلاميذ أعطاهم السيوخ في عهد إمام بالتدريس على طريقتهم ، وفي معظم الأحوال لم يكونوا على قدر كبير من التنظيم ، وكان يمكن لتلاميذ أستاذ ما أن يؤسسوا طرقهم الخاصة ولكنهم على وجه العموم اعترفوا بتبعيةهم للأستاذ الذي تعلموا عليه الطريقة ، ومن بين أكثر هذه الطرق انتشاراً ودواماً كان بعض الذي بدأ منها في العراق مثل « الرفاعية » التي تعود إلى القرن الثاني عشر و « السهروردية » في القرن الثالث عشر و « القادرية » المسماة باسم عالم بغداد عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧/١١٦٦) والتي لم تظهر بوضوح إلا في القرن الرابع عشر ، ومن الطرق التي نعت في مصر كائنت « الشاذلية » أكثر هذا انتشاراً وخاصة في المغرب حيث نظمها ابن زولي (١٥٠٠) وفي أنحاء أخرى من العالم الإسلامي كانت هناك طرق وجماعات مهمة على سبيل المثال « المولوية » في الأناضول و « النقشبندية » في آسيا الوسطى ، وبعض هذه الطرق انتشرت فيما بعد في البلاد التي نتحدث العربية .

وقد ذهب البعض من أتباع هذه الطرق حياتهم بالكامل للطريقة ، حيث يعيشون في زاوية (سائقاه) بسياج قد يكون مباني صغيرة في المدن، ولكن بعضها الآخر قد يكون أكبر ، وتضم مسجداً وخلوات للرياضة الروحية ، ومدارس ونزلاً للزائرين ، وكلها تتناثر حول مقام شيخ الطريقة الذي سميت باسمه ، وعاش معظم أفراد الطريقة بشكل معتاد في الدنيا بمن فيهم من نساء ورجال ، وقد كان الانضمام إلى الطريقة عند بعضهم اسماً ولكن عند الآخرين كان ذلك يعني بداية جادة بالالتزام بالمذهب وطقوسه التي يمكن أن تساعدهم في منعمهم في الطريق نحو المتعة في الشؤخ .

وتختلف الطرق فيما بينها في نظرتها للعلاقة بين طريقتي (**).

(*) ليس بالضرورة - (المترجم) .

(**) مثال الإسلام حتى بداية القرن الثاني للهجرة على الأقل وليس فيه إلا طريق واحد هو خلافة الكتاب (القرآن الكريم) والسنة (عنايت الرسول وأفعاله وأقواله) مع المحافظة على أشكاله الشرعية والنزوح (المضمون) بمعنى أن الأعمال بالنيات ، أما الطريق الثاني الذي يذكره المؤلف فهو وافد من حضارات وديانات أخرى - (المراجع) .

الاسلام : طريق الشريعة وهو طاعة القانون المستمد من تعاليم الله في القرآن ، وطريقه «الحقيقة» التي تبحث عن العرفان المباشر للذات الالهية ، فكانت هناك من ناحية الطرق العقلانية التي قالت بأن فناء الذات ونشوة الرؤى الصوفية ، يجب أن يتبعها المؤمن الى عالم الحياة اليومية ليعيش ضمن ضوابط الشريعة لأداء واجباته تجاه الله والبشر ، بحيث يمنحها معنى جديدا ، وعلى الجانب الآخر يقف أولئك المفتونون بتجربة التوحد مع الذات الالهية مع الاحساس بالحضور الالهي المقدس بحيث يعيشون حياتهم في عزلة ، وأصبحوا لا يأنهون عما اذا كانوا يستحقون اللوم عن اهمالهم واجباتهم التي فرضتها عليهم الشريعة ، وقد فسر عيسون بيقين هذا اللوم كطريقة تساعد على الابتعاد عن العالم (الملامانية) ، وقد كان الجفوان الأول من أولئك القائلين بالانحدار من فكر الجنيذ ، والناني لأولئك الذين اتخذوا أبا اليزيد البسطامي أستاذا شيخا ومعلما .

وقد كانت هناك اجراءات للدخول في الطريقة هي أخذ العهد بالاخلاص والولاء للشيخ ، ثم نسلم عبادة خاصة منه (الخرقه) ، وتعلم صلاة غير معلنة (ورد أو حزب) ، وبالإضافة الى الصلوات الفردية كانت هناك طقوس تمثل الشعائر المركزية للطريقة والخصائص التي تميزها عن الطرق الأخرى ، وهي الذكر (تكرار اسم الله) بشية تحويل الروح عن كل ما يشغها من ملهيات الدنيا ، وتحريرها للرحلة تجاه التوحد مع الله ، ويمكن للذكر أن يأخذ أكثر من شكل واحد ، ففي بعض الطرق خاصة في «النقشبندية» هو تكرار صياحمت تصبحه طريقة معينة للتنفيس مع تركيز انتباه العقل على أجزاء معينة من الجسم ، وعلى الشيخ مؤسس الطريقة التسمية باسمه أو على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي معظم الأحوال كانت الطقوس الجماعية (حضرة) تؤدي بانتظام في أيام معينة من الأسبوع في زاوية خاصة بالطريقة ، والمشاركون فيها ينظمون صفوفات التكرار اسم الله (الذكر) ، وقد تصاحب ذلك الموسيقى أو الشعر ، وفي بعض الطرق رقصات طقسية كالرقصة الرشيقة الدائرية عند المولويين ، وقد يكون هناك بعض التعبير عن فضائل ونعم معينة بسكاكين خشخشة الخلود أو بنيران توضع في الأفواه ، وينسارع التكرار والحركة حتى يفقد المشاركون الوعي بالعالم الجسدي من حولهم .

وقد أحاط بهذه المشاهد العامة بعض الظلال من العبادات الخاصة : مدح الله ، والتعبير عن الحب له ، والتضرع لاسباب النعم الروحية بعضها

كان تدفقات موجزة لمجد الله أو طلب الرحمة والبركة ، والصلاة على
النبي ، وبعضها كان أكثر احكاما :

تبارك الله الذى تحمده الجبال وما تحمل
وتحمده الأشجار وهى تنبت أوراقها
وتحمده النخيل عند نضج ثمارها
وتحمده الرياح السارية فى طرق البحر !! (٧) .

وقد نسبت مقتطفات من هذا الشعر الى شيوخ وأساتذة عظام
للحياة الروحية .

ولقد كانت فكرة وجود طريقة يتقرب بها الانسان الى الله تختلف
عن مجرد كونه مخلوقا وعبدًا مواليا له على الدوام ، تجد صدق لها فى آية
قرآنية : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر
السموات والأرض أنت وليي فى الدنيا والآخرة » وتدرجيا ظهرت نظرية
الولاية ، فولى الله هو الذى يكون دائما فى حضرة ، وأفكاره لا تتسع
لغيره ، والذى يسيطر على الشهوات البشرية التى تبعد الانسان عن الله ،
ويمكن أن يكون الرجل أو المرأة وليا . وقد كان فى العالم دائما أولياء
وسوف يبقون فيه ليظل مستقرا متزنا وقد اتخذت هذه الفكرة مع الزمن
تعبيرا نمطيا ، هو أن ، هناك دائما عددا معينًا من الأولياء فى العالم ، اذا مات
أحدهم يخلفه ولى آخر ، وهم يمثلون الحكام غير المعروفين للعالم ،
بنوسطهم القطب الذى تدور حوله الدنيا .

وأولياء الله يمكن أن يتشفعوا لديه نبابة عن الآخرين ، ويمكن أن
تكون لشفاعتهم نتائج مرئية فى العالم ، ويمكن أن تؤدى الى شفاء الأمراض
والعقم أو التخلص من سوء الحظ ، وهذه الكرامات هى اثبات لقداسة هؤلاء
الأولياء ، وأصبح من المعتقد أن القوى الخفية التى يحقق الولي بها الكرامات،
يمكن أن تستمر بعد موته أو موتها ، ويمكن الدعاء للشفاعة عند قبره
أو قبرها (*) ، وقد أصبحت الزيارات لأضرحة الأولياء ولمسها أو الصلاة
الى جوارها جزءا مكتملا لممارسات التعبير عن الولاء رغم أن بعض المفكرين

(*) المؤلف هنا يورد الاعتقادات السائدة بصرف النظر عن صحتها - (المراجع) .

المسلمين اعتبروا ذلك بدعة خطيرة ، لأنها أوجدت وسيطا بشريا بين الله وعباده ، وأضرحة الأولياء رباعية الشكل ولها قبة ذات لون أبيض من الداخل ، تبني مستقلة أو داخل مسجد ، أو أن تكون نواه تنمو حولها زاوية وكان ذلك من الخصائص المنتشرة للمتشاهد والمدن الإسلامية .

وكما لم يرفض الاسلام الكعبة وان أعطاها معنى جديدا ، كذلك قام معتنقو الاسلام باستحضار تراثهم الثقافي الغابر . ولقد كانت فكرة أن بعض الأماكن هي بيوت الآلهة أو الأرواح ذات القوى الخارقة منتشرة منذ قديم الأزل فالأحجار من أنواع غير عادية ، والأشجار العتيقة ، ونباتات المياه المنبتة بشكل طبيعي من الأرض ، كان ينظر إليها كعلامات مرئية لوجود الله أو الأرواح التي توجه إليها الابتهالات والرجاء ، وتقدم إليها القرابين بتعليق السجاد أو ذبح الأضاحي ، وقد أضحت مثل هذه الأماكن في العالم الذي انتشر فيه الاسلام مرتبطة بالأولياء المسلمين ، وبهذا اكتسبت مدلولات جديدة (*) .

ولقد أصبحت بعض هذه الأضرحة مراكز كبرى للشعائر الدينية الشعبية . فأصبح يوم مولد أو ذكرى يوم خاص في تاريخه (الولي) مناسبة احتفال شعبي يتجمع فيه المسلمون من المناطق المحيطة أو البعيدة للمس المقام أو الصلاة أمامه ويشاركون في الاحتفالات من مختلف الأنواع ، وبعض هذه التجمعات كانت لها أهمية محلية فقط ، ولكن البعض الآخر كان يجتذب زوارا من أماكن بعيدة ، وكان من بين هذه الأضرحة التي أصبحت (وطنية) ، ضريح مولاي إدريس (ت ٧٩١) مؤسس مدينة فاس الذائع الصيت ، وأبو مدين (١١٢٦ - ٩٧ ت) في تلمسان غرب الجزائر ، وسيدى محرز الولي الأكبر للبحارة في تونس ، وضريح أحمد البدوي (١١٩٦ - ١٢٧٦ ت) في طنطا من دلتا مصر . وهو مركز الثقافة الذي وجد فيها الدارسون أحياء لعبادة «بوابست» المصرية القديمة ، وعبد القادر الذي سميت الطريقة القادرية في بغداد باسمه .

وبمرور الوقت أصبح ينظر الى النبي صلى الله عليه وسلم وعائلته من منظور الولاية ، وساد الاعتقاد بأن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ستعمل على خلاص كل من آمنوا به ، وأصبح ينظر اليه كولي ونبي وأصبح قبره في المدينة مكانا للصلاة والتوسل، ويزار بشكل مستقل

(*) رأى الرأى نفسه الرحالة ردولف الذى زار مصر فى أواخر عهد اسماعيل . انظر رحلته . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الألف كتاب الثانى) - (المراجع) .

كامتداد للحج (*) ، وأصبح مولد النبي مناسبة للاحتفال الشعبي ،
ويبدو أن هذه العادات بدأت وتنامت في عصر الخلفاء الفاطميين في القاهرة
وانتشرت بشكل واسع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وقد ساد الاعتقاد بأن للولي الحى أو الميت قوى دنيوية ، خاصة في
الريف حيث تنعدم البيروقراطية المنظمة مما يسمح بالحركة الحرة للقوى
الاجتماعية . وقد أصبح محل إقامة الولي الحى أو ضريح الولي المتوفى
أرضا محايدة يمكن أن يتخذها الناس ملجأ ، وكان أفراد الجماعات المختلفة
المتباعدة أو المتخصصة ، يمكن أن يلتقوا فيها للتصالح والاتفاق . وكان
مولد الولي أيضا معرضا ريفيا تباع وتشترى فيه السلع، ويمكن أن يصبح
المقام شاهدا لسوق ثابتة أو مخزنا للحبوب من البدو الرحل ،
ويمكن أن يستفيد الولي أو سلالته ورعاة ضريحه من سمعته بجمع التبرعات
من الزائرين بشكل يمكن أن يجعلهم من الأغنياء ، وتضفى عليهم الشهرة ،
وتجعلهم مقصدا في التحكيم في المنازعات .

أما رجال العلم والورع ممن عرف عنهم الكرامات وحل المنازعات ،
فيمكن أن يكونوا النقطة التي تتجمع الحركات السياسية حولها في مواجهة
حاكم ظالم أو غير شرعى ، وفي بعض الظروف تستمد وضعية مثل هذا المعلم
الدينى قوتها من فكرة شعبية منتشرة هي فكرة (المهدي) ، الرجل الذى
يهدى به الله ويرسله لاستعادة النظام والعدل للذين سيسودان قبل نهاية
العالم ، ويمكن أن نجد أمثلة من هذه الفكرة عبر التاريخ الاسلامى كله ،
وربما كان أشهر وأنجح من اعترف به مريدوه كمهدى هو « ابن تومرت »
(١٠٨٧ - ١١٣٠) وهو مصلح دينى ولد فى مراکش وعاد الى المغرب بعد
دراسة فى الشرق الأوسط ، حيث بدأ فى المطالبة بالعودة الى طهارة الاسلام
الاولى ، وقد كون هو ومن اتف حوله امبراطورية « الموحدين » ، والتي
امتدت فى ذروتها على طول المغرب والأجزاء الاسلامية من اسبانيا ، وكان
تراثها أساسا لشرعية السلالات اللاحقة وخاصة الحفصيين فى تونس .

(*) المؤلف يذكر عادات الناس ، ومن المعروف أن زيارة قبر الرسول صلى الله
عليه وسلم ليست من مناسك الحج - (المراجع) .

الفصل العاشر

تراث العلماء

العلماء والشريعة

نشأ في قلب المجتمع المؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم رجال تعلموا القرآن والحديث والفقه ، واعتبروا أنفسهم رعاة المجتمع وخلفاء النبي .

وقد كان الصراع حول الخلافة السياسية للنبي خلال القرن الاسلامي الأول يحمل في طياته السؤال حول السلطة الدينية ، وعمن له الحق في تفسير الرسالة التي نزل بها القرآن وتفسير العبرة في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعند الشيعة والجماعات المختلفة المنبثقة عنها كانت السلطة تنحصر في سلسلة من الأئمة هم المفسرون المعصومون للحق الذي جاء به القرآن، إلا أنه منذ العصور الاسلامية الأولى كانت الأغلبية من المسلمين في البلاد التي تتحدث العربية من السنة ، بمعنى أنهم رفضوا فكرة الامام المعصوم الذي يمكن بشكل ما أن يكون امتدادا لتبليغ الوحي الالهي ، لأن ذلك الوحي قد تبلور بشكل تام ونهائي في القرآن وسنة النبي ، وأولئك الذين يستطيعون تفسيره (العلماء) هم حفظة الوعي الأخلاقي للمجتمع .

وبحلول القرن الحادي عشر كان هناك تمييز واضح بين المذاهب المختلفة أو مدارس التفسير الشرعي والأخلاقي ، وعلى الأخص المدارس الأربع الأكثر انتشارا ودواما : الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، وقد كانت العلاقة بين أتباع المذاهب المختلفة عاصفة في بعض الأوقات ، ففي بغداد خلال العصر العباسي تكونت جماعتان حضريتان : الحنفية والشافعية تقاطعتا فيما بينهما ، ثم أصبحت الخلافات بعد فترة أقل إثارة للجدل ، وفي بعض المناطق كان هذا المذهب أو ذاك سائدا وعاما ، وأصبح المالكية تقريبا هم المدرسة الوحيدة في المغرب ، والشافعية كانت واسعة الانتشار في مصر وسوريا والعراق وإيران والحجاز ، والحنفية في آسيا

الوسطى والهند ، وأصبح الحنايلة عنصرا مهما في بغداد والمدن السورية
بدا من القرن الثاني عشر وما بعده ، وكما نعيشت المدارس الدينية مع
بعضها ، كذلك كان الحال مع مدارس الفقه ، وعندما كانت إحدى الأسر
الحاكمة تعين أفرادا من مدرسة معينة في المناصب الشرعية كان للآخرين
فضايلهم وخبرائهم في الشرع * .

كانت بعض الخلافات بين المذاهب متعلقة بالتعريف المحدد والوزن
النسبي لمبادئ الفكر الشرعي (أصول الفقه) ، وفيما يتعلق بالاجماع
اعترف الحنايلة باجماع الصحابة فقط وليس باجماع العلماء اللاحقين ،
ولهذا فقد فتحوا مجالا أوسع للاجتهاد على أن يقوم به الدارسون وفقوا
للقواعد الصارمة للقياس ، وهناك مدرسة أخرى هي « بنو زيري » والتي
كانت قوية في الأندلس لفترة من الوقت ولكنها اختفت فيما بعد ، التزمت
فقط بالمعنى الحرفي للقرآن والحديث حسب تفسير الصحابة ورفضت
الاجماع والاجتهاد ، كما كان هناك مذهب آخر مماثل قال به ابن تومرت
مؤسس أسرة الموحدين حيث ادعى لنفسه موقع المفسر المعصوم الوحيد
للقرآن والحديث ، مدرستان فقط سمحتا بشيء من المرونة في ممارسة
الاجتهاد فأكد الحنفيون أن القياس الدقيق لا يستخدم بالضرورة على
الدوام ، وأن بإمكان العلماء الاعتماد على بعض المفاضلة الفردية في تفسير
القرآن والحديث (الاستحسان) ، وكذلك اعتقد المالكيون بأن طالب
العلم يمكنه الذهاب الى أبعد من المماثلة الدقيقة لو كانت في ذلك مصلحة
إنسانية (الاستصلاح) * .

هذه المبادئ لم تطور أو تناقش لذاتها ، وإنما لأنها شكلت قواعد
أصول الفقه ، أو السعي الإنساني المستول عن توصيف تفاصيل الحياة
أي الشريعة التي يجب على المسلمين اتباعها لاطاعة إرادة الله ، وكل الأفعال
الإنسانية في صلتها المباشرة بالله أو البشر ، يمكن اختبارها على ضوء
من القرآن والسنة كما يفسرها أولئك المؤهلون لممارسة الاجتهاد وتنقسم
الى خمسة معايير :

الواجب (فرض الكفاية ، وفرض العين) ، المستحسن ، والجائز ،
والمكروه ، والمحرم * .

وتدرجيا وضع علماء المذاهب المختلفة دساتير للسلوك الإنساني
تغطي كل التصرفات الإنسانية التي يمكن الرجوع اليها في القرآن
والحديث ، ويعتبر ابن أبي زيد القيرواني (ت ٩٩٦) وهو أحد أساتذة

المدرسة المالكية نموذجاً شائعاً لمثل هذه الأصول ويبدأ بالشهادة التي يجب أن ينطق بها اللسان ويؤمن بها القلب وهو إعلان الإيمان ، ثم يتعامل مع الأعمال الموجهة مباشرة إلى الله (العبادات) الصلاة بعد الوضوء ، والصيام وإيتاء الزكاة ، وأداء الحج وواجب القتال من أجل قضية الإسلام (الجهاد) . ثم يتناول بعد ذلك ، الأعمال التي يقوم بها الأفراد مع بعضهم البعض (المعاملات) * أولاً تأتي مسائل العلاقات الإنسانية الحميمة ، الزواج وعقده وحله ، ثم العلاقات ذات المجال الأوسع وهي البيع والعقود المماثلة وتشمل الاتفاقيات التي تهدف إلى الربح ، والمواريث ، والأوقاف ، ثم المسائل الجنائية ، وبعض الأفعال المحرمة كالزنا وشرب الخمر والتي يضع القرآن لها عقوبات محددة ، ثم يذكر الضوابط التي يجب على القضاة الذين يقضون في المسائل المحرمة اتباعها ويخلص إلى باب للوصايا الأخلاقية :

« ان على كل مؤمن أن يضع حب الله نصب عينيه في كل كلمة يقولها أو في كل فعل يفعله ، ومن لا تتوخى كلماته أو أفعاله حب الله فليست مقبولة ، فالنفاق شرك أصغر ، والتوبة عن كل ذنب واجبة ، ويشمل ذلك عدم الصبر على الذنوب ، ورفع الظلم ، والامتناع عن ارتكاب الأخطاء ، والنية على عدم العودة إليها وليلطلب المذنب من الله العفو . وليأمل في الغفران ، وليخف من العقاب ، وليشكر على نعمائه ، ولا ييأس من رحمته (١) » *

وقد كانت هناك بعض الاختلافات بين المذاهب حول مبادئ التفسير سواء من حيث المبدأ أم من حيث التفاصيل ، ولكن معظم تلك الخلافات كان قليل الأهمية ، وقد حدثت اختلافات طفيفة حتى بين علماء المذهب الواحد ، حيث لا يوجد قانون مهما كان مفصلاً ومحكماً يستطيع أن يتناول كافة الاحتمالات المختلفة من المواقف ، وقد كان هناك قول مأثور ظهر منذ القرن العاشر وما زال يتردد ، حول أنه لا مجال لمزيد من الاسهام الفردي في التفسير في الأمور التي وصل فيها العلماء إلى الإجماع ، فقد « قفل باب الاجتهاد » ، ولا يبدو هناك دليل واحد على أن ذلك القول المأثور قد تم العمل به أو لاقى قبولا عاما ، واستمر الاجتهاد في واقع الأمر في داخل كل مذهب على حدة ، كما أنه لم يتم فقط على أيدي القضاة الذين كان عليهم اتخاذ قرارات ، ولكن أيضا من موقع المفتي ، والمفتي أساسا عالم بعرف عنه القدرة على إصدار الأحكام حول القضايا الخلافية ، وذلك عن طريق الاجتهاد ، وقد جمعت الفتاوى التي أفتى بها من اشتهر في الافتاء في أمهات كتب الفقه فيما بعد ، إلا أن نشاط الفتوى كان لا بد

أن يستمر ، وقد قام الحكام بتعيين مفتين رسميين برواتب ، ولكن الفقيه الذى يتقاضى أتعابه ممن يطلب منه رأيا ، وليس فى نفس الوقت ملزما بنجاء الحاكم ، كان يحظى باحترام اجتماعى خاص .

ومن المعتاد الاشارة الى نتائج الفقه بالشريعة باعتبارها القانون الاسلامى وكان لهذا ما يبرره ، حيث انها كانت منذ العصر العباسى وما بعده ، تمثل كيانا من الفكر الذى اعتمد عليه القضاة الذين عينهم الحكام لاصدار الأحكام أو تسوية المنازعات ، وفى الواقع ، فقد كانت أكثر من ذلك لأنها احتوت على أفعال خاصة لا تهم الجار أو الحاكم ، وهى أفعال العبادة أو السلوك الاجتماعى أو ما يسمى بالأخلاق ، والتي كانت تعتبر نموذجا معياريا لكل التصرفات الانسانية ، فى محاولة لتصنيفها ، وضوابط للمسلمين بحيث تصبح الطريقة التى شاء الله لهم أن يعيشوا بها ، وكانت من الناحية الأخرى أقل من قانون لأن بعض أحكامها كانت نظرية فقط ولم تستخدم فى الواقع اطلاقا ، ولأنها تركت مجالات كاملة من الأفعال التى يمكن أن تشملها القوانين بمعناها المعتاد ، فكانت دقيقة للغاية فيما يتعلق بالأحوال الشخصية فى الزواج والطلاق والميراث ، وأقل دقة فيما يتعلق بالتعاقدات والالتزامات وكل ما يرتبط بالأنشطة الاقتصادية ، ولم تغط على الاطلاق ما يسمى الآن بالقانون الجنائى ، وكان القتل يعتبر مسألة خاصة ، وشأنا من شئون العائلات المعنية أكثر من كونه شأنا يجب أن يتدخل فيه المجتمع بكامله ممثلا فى القضاة (*) ، ولم تذكر الشريعة شيئا على الاطلاق عن القوانين الدستورية أو الادارية (**) .

وحتى فى هذه المجالات التى كانت فيها الشريعة دقيقة للغاية ، فقد نازع نفوذها قوة الحاكم أو الممارسات الفعلية للمجتمع ، ففى معظم الأنظمة كان الحاكم أو مسئولوه يتعاملون مع الكثير من الأفعال الاجرامية ، وخاصة تلك التى تتعلق بأمن الدولة ، وكان الحاكم يقرر بنفسه الاجراءات

(*) تقضى الشريعة بقتل القاتل عمدا ، وأن يكون ذلك على يد ولى الأمر (الحكومة) ، وما ذكره المؤلف ربما كان عادات انتشرت فى عصور الانحطاط - (المراجع) . . .

(***) اشارات قرآنية واضحة عن الشورى ، ووضع نظام الحسبة بناء على اشارات قرآنية وجدها المفسرون توجب فرض هذا النظام ، واعتبر القرآن الكريم دستورا أو حكما ، ولو بالمعنى اللفظى للكلمة - وهذه فسالة خلاقية على أية حال - (المراجع) . .

والعقوبات ، وفي الريف بالمثل كان الفصل في المسائل طبقا للعرف ، وهو عادات المجتمع التي يحافظ عليها ويطبقها كبار السن في القرية أو القبيلة ، وفي بعض الأماكن كانت هناك قوانين مكتوبة عن العادات ، وفي البعض الآخر كانت هناك محاكم أو مجالس عرفية وقد يكون ذلك صحيحا بشكل خاص في مجتمعات البربر في المغرب ، ولكن ربما كانت على أية حال ، أمرا استثنائيا في المجتمع الاسلامي .

وكما كانت الشريعة نتيجة عملية بطيئة ومعقدة من الحوار بين المعايير المنصوص عليها في القرآن والحديث وبين العادات والفوانين في المجتمعات التي سيطر عليها الحكم الاسلامي ، فكذلك كانت هناك عملية مستمرة من التعديل المتبادل بين الشريعة بمجرد اتخاذها شكلا محددا وبين الممارسات الاسلامية للمجتمعات ، وقد اتضح على سبيل المثال أن مفاهيم المذهب الحنفي فيما يتصل بالمعاملات التجارية قد تواءمت مع ممارسات التجار المصريين التي سجلت في وثائق مختلفة ، واتضح أن ما ذكرته الشريعة عن العقود قد جرى وضعه بحيث تكون الفائدة (*) أمرا شرعيا (٢) ، وكذلك كان إصدار الضوابط وممارسات التشريع على أيدي الحكام ومسئولهم تبررها مبادئ السياسة الشرعية ، بناء على أن الحاكم قد قيضه الله للمجتمع الانساني للمحافظة على الدين والأخلاق ، وحيث أن سلطته اكتسبت المشروعية بالقبول من المجتمع ، فقد كان من حقه إصدار مثل هذه الضوابط واتخاذ هذه القرارات الضرورية للحفاظ على نظام اجتماعي عادل على ألا يتخطى الحدود التي وضعتها الشريعة ، وكان للحاكم الحق في تحديد أي القضايا يجب إرسالها إلى القاضي لإصدار الحكم ، وأياها يقضى فيها بنفسه .

ورغم أن العرف والشريعة كان يعارض كل منهما الآخر لأسباب نظرية إلا أنهما لم يكونا بالضرورة متصارعين ، وما كان في العرف ولم تعارضه الشريعة اعتبر « جائزا » ، وفي بعض أجزاء من المغرب بالفعل كانت هناك محاولة لتفسير الشريعة في ضوء العادة منذ القرن الخامس عشر وما بعده ، وهناك سجلات في المغرب عن استخدام القضاة في اجراء يسمى « عملي » ، كان من حق القاضي فيه أن يختار من بين آراء

(*) استخدم المؤلف لفظ interest وليس usuary أي الربا ، لكن السياق يدل على أنه يقصد الربا ، ولا نعلم أن المذهب الحنفي يجيزه أو ابتدع حيلة تجيزه ، وهي مسألة فقهية على أية حال نترك للفقهاء التعليق عليها - (المراجع) .

المحكمين بالعرف ، ما يتطابق مع العادات والمصالح المحلية حتى وان لم تتفق مع اجماع العلماء .

ونحن لا نعرف الكثير عن القانون العرفي في الريف خلال تلك الفترة ولكن الدراسات التي تناولت فترات لاحقة تثبت أن العملية العكسية قد حدثت ، وهي اختراق الشريعة بشكل معين للعادات العرفية ، فالزواج يمكن أن يعقد طبقا للأصول الإسلامية ، ولكن حقوقه وواجباته وقضايا الطلاق والميراث النابعة منه يمكن الفصل فيها بالعرف ، وفي الكثير من المناطق كان توريث الأرض للبنات مخالفا للعادة رغم أنه منفق مع الشريعة ، وكانت المنازعات حول الأملاك والمشراكة ترفع للقاضي في أقرب مدينة حتى تتم صياغتها بشكل شرعي ، كما كانت الاتفاقات والعقود التي يرغب طرفاها في اضياف مصداقية عليها ترفع للقاضي ، ويعبر عنها رسميا بلغة الشريعة ، ولكن الوثائق يمكن أن تفسر في ضوء العادات المحلية ، ويصف أحد الدارسين لهذه الوثائق في وادي الأردن أن « العادات غالبا ما كانت المضمون في حين كانت الشريعة هي الشكل » (٣) .

ميراث العلم

كان أساتذة الفقه الذين حافظوا على اجماع الأمة أقرب معادل للسلطة التعليمية في الاسلام السني ، وكان من الأساسي لديهم التأكد من أن فهم الفقه وقواعده قد انتقل بالكامل من جيل لآخر .

ومنذ وقت مبكر يبدو أنه كان هناك اجراء رسمي لانتقال التعليم الديني ، فكانت حلقات الطلاب تلتف في المساجد - وخاصة في المساجد الجامعة - حول المعلم الذي يستند الى عمود لشرح موضوع بالقراءة والتعليق على كتاب ، وقد نشأ على الأقل منذ القرن الحادي عشر نوع من المؤسسات المخصصة للدراسات الشرعية والفقهية (المدرسة) ، تعزى بدايتها غالبا لنظام الملك (١٠١٨ - ١٠٩٢) الذي كان وزيرا لأول حاكم سلجوقي لبغداد ، ولكن ذلك يرجع الى زمن سابق ، فرغم أن المدرسة لم تكن دائما ملحقة بمسجد ، كانت تضم مكانا لاقامة الطلاب ، وكانت تنشأ كوقف أوقفه أحد الواهبين مما أكسبها صفة الدوام ، ولهذا فقد كان العائد مخصصا لأغراض دينية أو خيرية ولا يمكن حله وكانت تستخدم الوهبة (*) لصيانة المبنى ودفع أجر المدرسين الدائمين ، وفي

(*) أو الهبة .

بعض الأحوال ينسجل الجراية أو توزيع الأغذية على الطلاب ، ومثل هذه الأوقاف كان ينسبها شخص غنى ، ولكن أعظمها وأكثرها استمرارا كانت تلك التى ينسبها الحكام أو كبار المسئولين فى العراق وإيران أبان حكم السلجوقيين ، وفى سوريا ومصر خلال الفترة الأيوبية والمملوكية ، وفى المغرب فى حكم بنى مرين والحفصيين .

وقد بنيت بعض المؤسسات لتعليم القرآن والحديث ولكن الغرض الأساسى لمعظمها كان دراسة وتعليم الفقه ، فعلى سبيل المثال : كان بالمدرسة التنكزية فى القدس والتى أوقفت فى العصر المملوكى أربع قاعات (ايوانات) تفتح على ساحة مركزية ، كانت احداها لتعليم الحديث ، والثانية للفقه الحنفى ، والثالثة للصوفية ، وكان المسجد هو القاعة الرابعة ، وقد أوقف الوقف للانفاق على خمسة عشر طالبا فى الفقه ، وعشرين من طلاب الحديث ، وخمسة عشر من طلاب الصوفية ، والأساتذة لكل منها ، وكان الطلاب ينامون فى المدرسة وكان هناك أيضا ملجأ لاننتى عشرة أرملة (٤) ، وكانت المدرسة يمكن أن توقف على تعليم مذهب واحد فقط أو أكثر من مذهب أو المذاهب الأربعة كلها ، وقد كانت مدرسة السلطان حسن بالقاهرة تحتوى على مدرسة لكل مذهب ، وتفتح جميعا على ساحة مركزية ، تقدم البرامج التقليدية للتعليم ، وكان استاذ الكرسى يترك لمعاونيه تدريس الموضوعات الثانوية ، والطالب الذى يلتحق بالمدرسة عادة ما يكون قد مر بمدرسة أقل فى المستوى (كتاب) ، حيث تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن . وفى المدرسة يتعلم موضوعات ثانوية مثل قواعد اللغة العربية ، وحوليات الفترة المبكرة من الاسلام ، ولكن الدراسة الرئيسية هى العلوم الدينية : وهى تلاوة وتفسير القرآن والحديث ، وأصول الدين والفقه ، وكانت الطريقة الرئيسية للتعليم هى أن يعرض المدرس النص ، وقد يعيده فيما بعد مساعدوه بشئ من التفصيل ، وكان التركيز على حفظ ما يلقى على الطلاب وتفهم ما يمكن تذكره .

وفى المرحلة الأولى من الدراسة التى تستمر عادة لعدة سنوات يتعلم الطالب الفقه الذى يجمع عليه أساتذة المذهب ، وكان الكثير من الطلاب لا يتقدمون الى ما هو أبعد من ذلك وقليل منهم يتدربون للحصول على وظائف فى القضاء وربما كان ذلك من حظ أبناء التجار ، وكان الآخرون يتلقون لسنوات مثل هذا التعليم ، وعلى مستوى أعلى كانت هناك شريحة من المسائل الفقهية التى تثار حولها خلافات فى رأى حتى فى اطار المذهب الواحد ، وحيث ان اختلاف الظروف التى طبقت فيها المبادئ القانونية

كان بلا حدود ، فكان على الطلاب الراغبين في أن يصبحوا أساتذة في الفقه الاستمرار في التعليم لفترة أطول ، لبلوغ مستوى عال من التدريب على الاجتهاد ، الذي كان يتم بطريقة المناظرة المنطقية الرسمية ، والتي تبدأ بأعداد البحث ، ثم يجري الرد عليه ببحث أو مناقضة على أن يعقب ذلك مناظرة من المعارضات والاجابات .

وعندما ينتهى الطالب من قراءة كتاب مع أستاذه يمكنه أن يطلب منه الاجازة وهي شهادة تفيد بأن فلانا قد درس كتابا تحت اشراف فلان ، وعلى مستوى أعلى يمكنه أن يطلب اجازة من نوع آخر تشهد بأنه قادر على ممارسة الاجتهاد كمفت ، أو قادر على تدريس كتاب أو موضوع معين ، وعلى هذا المستوى العالى كان من المعتاد أن ينتقل الطالب من مدرس الى آخر ، ومن مدينة لأخرى ، وأن يطلب اجازات من كل من تتلمذ على أيديهم . ومثل هذا الاجراء كان له ما يبرره في الحديث الشريف الذي يحض المسلم على طلب العلم (اطلبوا العلم ولو في الصين) .

والاجازة يمكن أن تكون وثيقة دقيقة أعدت بعناية تذكر فيها السلسلة من الأساتذة الذين تلقى العلم على أيديهم بالتتابع على مدار الأجيال ، وهكذا يدخل اسم الطالب ضمن سلسلة طويلة من الأسلاف المقيمين ، ويمكن أن يعبر ذلك ضمنا عن فكرة معينة عما يجب أن تكون عليه حياة المسلم المتعلم ، وبلا شك كانت هناك انتهاكات لهذا النظام فنحن نقرأ عن اجازات أسوء استخدامها أو حرفت لاستخدامات أخرى ، ورغم ذلك فان طالب العلم كان أحد الأنماط المثالية للرجل المسلم ، والتي دامت طوال قرون ، هذه هي الطريقة التي سار في دربها طالب طب وعلوم شرعية في بغداد هو عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢/٣ - ١٢٣١) الذي يصف ما يجب أن يكون عليه طالب العلم فيما معناه :

« عليكم ألا تستقوا العلم من الكتب بلا عون ، رغم أنكم قد تكونون واثقين في قدرتكم على الفهم ، عليكم باللجوء لأساتذة في كل علم تريدون اكتسابه ، وإذا كان المعلم محدودا في معارفه خذوا كل ما يستطيع أن يقدمه حتى تجدوا من هو أكثر منه علما ، ولا بد من تبجيله واحترامه ، وعندما تقرأون كتابا عليكم ببذل كل الجهد لحفظه عن ظهر قلب وتفهم معانيه ، وتخيلوا أن الكتاب قد اختفى وأن بإمكانكم الاستغناء عنه بدون أن يكون لفقدانه أى تأثير ، على المرء أن يقرأ التاريخ ، وأن يدرس السير ، وتجارب الأمم ، وسيكون ذلك كما لو كان في مدى حياته القصير

قد عاصر أهل الماضي بشكل حميم وعرف الطيب والخبيث من بينهم ، ويجب أن تتمثلوا في تصرفاتكم نهج المسلمين الأوائل ، ولهذا فعليكم قراءة سير النبي صلى الله عليه وسلم وأن ندرسوا أعماله واهتماماته وأن تقتفوا خطواته ، وبذل أقصى الطاقة للتمثل به وتقليده ، وعليكم عدم الثقة بطبائعتكم بدلا من الرضا عنها ، وطرح أفكاركم ، على رجال العلم ، وأعمالكم مع التقدم بحذر وتفادى العجلة ، وذلك الذى لم يتحمل صعوبات الدرس لن يتذوق حلاوة المعرفة ، وعندما تنتهون من دراساتكم وتأمل أفكاركم اسغلوا ألسنتكم بذكر الله وتغنوا بحمده ، ولا تشتتوا اذا أدارت الدنيا ظهرها لكم فان ذلك سوف يشغلكم عن اكتساب القدرات المتميزة ، واعلموا أن العلم يترك آثارا ونكهة على من يكتسبه ، شعاع من النور يشع فيه ويميزه عن حوله .. » (٥) .

وكان هناك أيضا نمط مهم ومتميز من الكتابة الاسلامية ، نشأ من دافع مماثل لذلك الذى يؤدى الى اعطاء الاجازة ، ونعنى به كتب التراجم التى نشأت للتأريخ لرواة الحديث ، والذى كان من الضرورى معرفة من الذى رواه ومن أين تلقاه ، وكان من الأهمية التأكيد من أن الرواية كانت مستمرة (*) وأن يكون الرواة من الأمناء الموثوق بهم . وتدرجيا اتسع نشاط جمع التراجم فلم يعد قاصرا على رواية أحاديث الرسول ، وانما تم جمع تراجم الفقهاء والأطباء والمتصوفة ، وهكذا ، ونشأ طراز متميز من المعاجم هو القاموس المحلى المخصص لسيرة الرجال المبرزين ، وأحيانا النساء ، من مدن أو مناطق معينة ، مع مقدمة حول طبوغرافيتها وتاريخها ، وأول مثال مهم عن هذا الضرب كان ذلك الذى أعد فى بغداد فى القرن الحادى عشر على يد الخطيب البغدادي (١٠٠٢ - ١٠٧١) ، وكانت لبعض المدن سلسلة من هذه الأعمال ، ففي دمشق لدينا معاجم عن شخصيات القرون التاسع والعاشر والحادى والثانى والثالث عشر الاسلامية (من القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر الميلادى) . وكان أكثر الكتاب طموحا أولئك الذين حاولوا تغطية التاريخ الاسلامى (**) بالكامل خاصة ابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢) .

(*) المصطلح : متصلة أى ليس بين راو وراو فاصل زمنى - (المراجع) .

(**) المقصود تغطية تراجم (سير) التاريخ الاسلامى كله حتى أيامه ، لأن ابن

خلكان لم يكتب تاريخا عاما - (المراجع) .

وقد تناولت أعمال ابن خلكان سير الحكام والوزراء والشعراء وعلماء النحو وأيضا علماء الدين . وكان للعلماء والمساجد والمدارس موقع مركزي في هذه الكتب، لظهور أن تاريخ المجتمع الاسلامي كان أساسا توارثا للحقيقة والثقافة الاسلامية الرفيعة ، وكانت سيرة الدارس تبدأ برواية أسلافه وتاريخ ومحل ميلاده ، وتورد تفاصيل عن تعليمه : الكتب التي درسها وعلى أيدي من تلقاها ، والاجازات التي حصل عليها ، فهي تضعه في سياقين من النسب والتراث الثقافي ، لم يكونا مختلفين دائما لأن الابن قد يبدأ التعلم على يد أبيه ، وكانت هناك سلالات وعائلات للعلماء ، تصف أعماله وأسفاره والكتب التي كتبها وعمن تلقى العلم ، وقد نكون هناك بعض النوادر الشخصية ، ويمكن أن يحوى تقریضا لقدراته ، ولم يكن الهدف منها تمييزه عن العلماء الآخرين بقدر ما كان وضعه في إطار النموذج المثالي .

علم الكلام

الذين درسوا الفقه في المدرسة ، تلقوا أيضا الأسس الجوهرية للمعتقد الديني ، ذلك أن العملية التعليمية التي تطوروها على أساسها ، لم تلعب دورا كبيرا في تاريخهم الدراسي . وعندما اكتمل تطور نظام المدارس في شكله النهائي انتهت القضايا الخلافية الكبرى التي تحدد على أساسها المذهب السني .

وقد استمرت مدرسة الاعتزال مزدهرة لفترة تقرب من مائة عام بعد أن حظيت بتأييد العباسيين ، وكان آخر مفكريها المعبرين عنها القاضي عبد الجبار (٩٣٦ - ١٠٢٥) ولم تتعرض أفكار المعتزلة للاضطهاد الا في القرن الحادي عشر في بغداد وغيرها بسبب مقاومة الخلفاء العباسيين والسلاجقة لها ، ولكنها استمرت في لعب دور مهم في تشكيل علوم الدين الشيعية وفي التدريس في مدارسها ، ولكنها كانت تيارا مغمورا من الفكر في نطاق السنة حتى جرى احياء الاهتمام بها في العصور الحديثة .

وكان انحسار المعتزلة راجعا بشكل جزئي لازدياد نفوذ التعاليم التقليدية لابن حنبل خاصة في بغداد ودمشق ، وأيضا الى تطور الخط الفكري الذي بدأ بالأشعرى : في تفسير ما جاء به القرآن والحديث

بالجدل العقلاني المبني على مبادئ المنطق (الشيولوجية الديالكتيكية : علم الكلام) ، وقد كان قبول كثير من علماء الفقه لمبادئ الأشعرية علامة على انتشارها وربما سببا لظهورها كقاعدة ايمانية يركز عليها فقهم ، وكان هذا صحيحا على وجه الخصوص في حالة طلاب العلم من الشافعية .

ولم تلق هذه التوليفة من علم الكلام الأشعري والفقه قبولا عاما ، فقد كان الحنابلة وبعض الشافعيين معارضين لعلم الكلام ، وقد كانت المدرسة المالكية المسيطرة في المغرب تعارض التكهنتات الدينية ، وحظروا المربطون تعليم علم الكلام ، الا أن ابن تومرت ، والموحدين شجعوا علم الكلام في شكله الأشعري ، بالرغم من أن قضائهم كانوا يتبعون مبادئ المدرسة الزيرية بشكل حرفي ، وقد انتشرت في شمال شرق العالم الاسلامي مدرسة أخرى من علم الكلام تعود الى الماتريدي (ت ٩٤٤) ، لقيت قبولا في مدارس الفقه الحنفي ، وكانت تختلف عن الأشعرية في عدة مسائل تتعلق بحرية الارادة الانسانية وعلاقتها بقوة الله المطلقة وعدالته ، وقد قال الماتريديون بأن أفعال الانسان تحدث بقوة الله ، ولكن فعل الخطيئة لا يتأتى برضاه أو بعطفه ، وقد حاول سلاطين السلاجقة الأولون ، والذين أتوا من المنطقة التي انتشر فيها توليف علم الكلام الماتريدي بالفقه الحنفي ، أن ينشروا هذه المبادئ أثناء حركتهم الى الغرب ، ولم يكن هناك توتر أو عداوة دائم بين مفكرى الأشعرية والماتريدية ، ولم تكن الخلافات بينهم ذات أهمية ، وقد لخصت أمهات كتب الفقه في مدارس السنة طوال القرون التالية ، قواعد الدين الأساسية بشكل أجمع عليه العلماء .

الغزالي

ورغم أن المدرسة الرئيسية للسنة قد اتفقت مع علم الكلام الأشعري وما توصل اليه من خلاصات ، الا أن ذلك الاتفاق كان مشروطا ببعض التحفظات ضمن حدود ، وقد عبر الغزالي عن تلك التحفظات ، وهو كاتب تميز برؤية شاملة لكل التيارات الرئيسية في عصره ، وما زالت أفكاره مؤثرة حتى الآن ، وقد كان أستاذا لعلم الكلام الأشعري ، وكان واعيا بالمزالق الخطرة التي يمكن أن يؤدي اليها علم الكلام على المذهب الأشعري ، وحاول رسم الحدود التي يصبح في اطارها استخدام علم الكلام ، والذي كان في جوهره نشاطا دفاعيا وجدلا منطقيا حيال من لا يؤمن بصحيح الدين القائم على القرآن والحديث ، ومواجهة من يحارل

تفسيره بشكل كهنوتي زائف ، ويجب ألا يستخدمه سوى من يستطيعون المحافظة على إيمانهم ، كما لا يجب استخدامه في بناء هيكل فكري من شأنه الاتجاه إلى ما وراء القرآن والحديث ، وهو مسألة قاصرة على المتخصصين الذين يعملون مستقلين عن المدارس الفقهية .

وقد كان مبدأ الفكر عند الغزالي هو أن على المسلمين الالتزام بالشرائع المستمدة من إرادة الله التي يعبر عنها القرآن والحديث ، والاعراض عن هذه الشرائع يعنى الضياع في عالم من الرغبات الانسانية الهوجاء والكهانة ، وأن على الانسان أن يطيع الأوامر الالهية بشكل يقربه من الله ، وكانت تلك الفكرة هي التي عبر عنها الغزالي في أعظم وأشهر الكتب الاسلامية « احياء علوم الدين » .

ويصف الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » - ويعتبره البعض سيرة الذاتية وإن لم يكن كذلك على وجه الدقة - الطريق الذي أدى به إلى هذه الاستنتاجات ، فبعد أن أنهى دراساته المبكرة في خراسان في مدينتي طوس ونيسابور ، عمل مدرسا في مدرسة شهيرة في بغداد أنشأها نظام الملك ، وزير السلطان السلجوقي ، وهناك توصل إلى اقتناع بأن الالتزام الظاهري بالشريعة لا يكفي ، وأنشغل في البحث عن الطريق القويم في الحياة ، فيقول إن « شهوات الحياة الدنيا قد بدأت في التضيق على كي أبقي كما كنت ، ولكن بشير الايمان كان يصرح بي أن أنهض وأبتعد » (٦) .

وقد توصل إلى الاقتناع بأنه لن يحقق ما يحتاج إليه باستخدام عقله وحده ، فاتبع طريق الفلاسفة لاستنتاج حقيقة الكون من المبادئ الأولية يعنى الضياع في شراك من البدع والضلالات ، كما أن الطريق الشيعي الذي يؤدي إلى اتباع تعاليم مفسر معصوم طريق خطر ، حيث يمكن أن يؤدي إلى هجر ما نزل به الوحي إلى بعض ما يتبدى كحقائق باطنية ، وقبول فكرة اسقاط التكاليف الشرعية عن ذلك الذي يصل إلى تلك الحقائق الباطنية .

ويرى الغزالي أن المعلم الوحيد المعصوم من الخطأ هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الطريق القويم هو قبول ما أوحى إليه بإيمان ، « ذلك النور الذي يلقيه الله في قلوب عباده منه وكرما » (٧) . واتباع وصاياه باخلاص وقلب حاضر ، « وهجر كل شيء عدا السعي في سبيل الله » .

ويتناول كتاب « احياء علوم الدين » تلك العلاقة الحميمة بين العمل والميول - أو بشكل آخر - بين الالتزام الظاهري بالتكاليف الشرعية ، وبين الروح التي يكتسبها قيمة ومعنى ، ويعتقد أن هناك علاقة متبادلة بين الفضائل والشخصية الطيبة وبين السلوك القويم الذي يشكلهما ويقويهما ، فيقول ما معناه :

« ان الذى يريد أن يظهر روحه ، ويكملها بحلاوة فعل الخير ، لا يستطيع أن يصل الى ذلك بعبادة يوم واحد ، أو أن يتمرد عليها بثورة يوم واحد ، وهذا ما نعينه من قولنا ان خطيئة واحدة لا تستحق عقاباً أبدياً ، ولكن غيبة يوم واحد عن الفضيلة يؤدي الى غيره ، وتنحط الروح درجة فأخرى حتى تسقط فى الوحل » (٨) .

ويكتسب السلوك قيمة فقط ، عندما يؤدي بالروح والعقل الموجه لمعرفة الله والجهد فى سبيله .

وقد كانت الرغبة فى القاء الضوء على هذه العلاقة هى التى حددت محتويات وترتيب كتاب الاحياء ، والجزء الأول من أجزائه الأربعة يناقش أركان الاسلام ، والواجبات الدينية الأساسية بمن الصلاة والزكاة وأداء الحج ، وينذهب فى كل منها الى ما وراء الالتزام الظاهري والقواعد الدقيقة حول كيفية أدائها ، الى تفسير معانيها والفوائد المكتسبة من أدائها بالروح الحقّة ، فلا تنأتى القيمة الكاملة للصلاة الا عند أدائها بالروح ، وبفهم الكلمات المتلوة ، مع نقاء الباطن ، ونبد الفكر الا فى الله مع الخشوع والخوف والرجاء ، والصوم لا قيمة له الا اذا كان أدائه لتحرير الروح للاتجاه نحو الله ، والزكاة يجب أدائها رغبة فى طاعة الله ، مع اعتبار كل متاع الدنيا تافه القيسة ، كذلك أداء الحج يكون بنقاء خالص فى النية والتفكير فى نهاية الحياة وفى الموت والحساب .

وينذهب الجزء الثانى من الكتاب فيما وراء الالتزام الشعائري الى أعمال أخرى تتعلق بالمضمون الأخلاقى خاصة تلك التى تربط الأفراد كلا بالآخر ، مثل الطعام والشراب والزواج والخيابة والاستماع للموسيقى ، ففىما يتعلق بكل منها وما اذا كانت أعمالاً صحيحة ، واذا كان الأمر كذلك ، فالى أية حدود وتحت أية ظروف ينظر اليها فى ضوء هدف الانسان الأسمى وهو التقرب من الله ، فالزواج على سبيل المثال يبدو كتوازن بين المزايا والعيوب ، فيهب الرجل ذرية ، ويخفيه من العلاقات

الجنسية غير الشرعية ويمكن أن يمتدحه لمحبة دنيوية عن الجنة ، ومن ناحية أخرى يمكن أن يعطله عن البحث عن المعرفة بالله بمنعه عن البذل والأداء الصحيح والسليم لواجباته الدينية .

والجزء الثالث مراجعة منهجية لتلك العواطف الانسانية والرغبات التي اذا انغمس الانسان فيها بشكل غير سليم ، تحرمه من اكتساب الفوائد الروحية لمراعاة الفرائض وتؤدي به الى الهلاك ، ويدخل الشيطان القلب من خلال الحواس الخمس والخيال والشهوة الجنسية . ويستعرض الغزالي نماذج شهوة الطعام والجماع والكلام ، وكيف تلعب دورها في اذكاء الصراع وقلة الحياء والأكاذيب والسخرية والرياء والغضب والكرهية والغيرة والشهوة الى الثروة والمجد الدنيوي ، والى التطلع الروحي الذي يقود الى النفاق والافتخار بالعلم أو التقوى ، أو المحتد أو القوة أو الجمال .

ومثال هذه الدوافع يمكن السيطرة عليها بالتسليم لله ، ويفضل مقاومتها بالتزام الصلاة في وقتها ، والصيام والحج والتسبيح وتكرار اسم الله وبالتأمل ومعرفة النفس وبمعونة رفيق أو موجه روحي ، بمثل هذه الطرق يمكن أن ينعكس الطريق الذي تتخذه الروح ، ويمكن توجيهها الى طريق آخر يؤدي الى المعرفة بالله .

والجزء الأخير من الكتاب يتناول هذا الطريق الى الله والغاية النهائية منه هي النقاء الكامل للروح من كل شيء سوى الله الأعلى . . الاستغراق التام للقلب في ذكر الله (٩) جل جلاله وفي هذا تعبر أفكار الغزالي عن أفكار أئمة الصوفية ، الطريق الى الله سلسلة من المقامات أولها التوبة وخلص الروح من سجنها في مثل زائفة ، ويأتي الصبر ، والخوف والرجاء والاقلاع عن الأشياء التي قد تكون مباحة ولكنها معوقات على الطريق ، والاعتماد على الله والتوحد معه في كل هذه المقامات التي ترتبط بها تجليات ورؤى معينة ، وعندما تتأني الراحة الروحية لسالك هذا الطريق ، تكون فضلا من الله ولكنها لا تدوم .

وكلما تقدمت الروح على هذا الطريق تضعف سيطرتها على ذاتها ، وتخضع قيادها لله ، وتكون مهمتها الوحيدة « النقاء والتطهر وبعدها الاستعداد والانتظار ولا شيء أكثر من ذلك . في كل مرحلة تواجه الروح خطرا هو البقاء فيها بدون المضي لما بعدها ، أو الضياع في الأوهام ، ويمكن أن يتدخل الله ويهب الروح عطية التدبر فيه ، وهي أسمى مواقع الترقى ولكنها لا تتحقق الا بنعمة من الله يمنحها أو يمنعها :

•• تلمع لوامع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف ،
لا يشبت ثم يعود ، وقد يتأخر ، وان عاد فقد يشبت وقد يكون
مختطفًا ، •• (١٠) •

في هذه النقطة الأسمى عندما يفقد الانسان وعيه بذاته في تدبر
الذات العلية التي تجلت عليه بالحب عندها يتفهم المعنى الحقيقي للفرائض
التي أمرت بها الشريعة ويكون قادرا على أدائها بشكل صحيح سليم ،
ويمكن أن يصبح أيضا واعيا بحقيقة أخرى ، ويشير الغزالي الى نوع آخر من
(المعرفة) بالملائكة والشیاطین والجنة والجحيم وعن الله بذاته وعن جوهره
وقدراته واسمه معرفة يكشفها الله للانسان في صميم روحه ، وهو لا يكتب
عنها في أعماله رغم أن هناك كتباً أخرى نسبت اليه يتناولها فيها
بالتفصيل ، وهذه الحالة ليست عن الاستغراق الكامل في الله أو التوحد
معه ، فهي في قمتها اقتراب لحظي منه ولمحة من مذاق ، عندما يتأتى
للانسان رؤية الله عن قرب وان ظل بعيدا •

الفصل الحادى عشر

اسلام الفلاسفة

فى المساجد والمدارس ، كان الفقه (والعلوم المتصلة به) هو الموضوع الرئيسى للدراسة ، أما خارج المسجد والمدارس فكانت تمة أفكار من نوع آخر حظيت هى الأخرى باهتمامات الدارسين، ذلك كان فكر الفلاسفة الذين آمنوا بأن العقل البشرى يعمل وفقا لقواعد المنطق الأرسطى ، وأن اتباع هذه القواعد يمكن أن يؤدي الى الوصول الى حقائق يمكن اثباتها أو البرهنة عليها .

وكان رواد هذا الخط الفكرى فى العالم الاسلامى هم الكندى والفارابى ، وبلغ هذا الفكر ذروته فى أعمال ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) ، وكان تأثيره عميقا على مجمل الثقافة الاسلامية اللاحقة ، ويعرض ابن سينا فى جزء مختصر من سيرته الذاتية لتعليمه ، والذي أصبح فيما بعد تقليديا ، فقد تعلم القرآن ، وعلوم اللغة العربية ، والفتوى والعلوم العقلية وعلوم المنطق والرياضيات والميتافيزيقا :

« عندما بلغت سن الثامنة عشرة كنت قد انتهيت من كل هذه العلوم . معارفى الآن أكثر نضجا وبخلاف ذلك فهى نفسها لم أستفد شيئا جديدا منذ ذلك الحين . » (١) .

وكانت له اسهامات فى أكثر من علم من هذه العلوم ولكن أعظم أعماله عمومية وتأثيرا على الفكر الذى خلفه كانت محاولته لتفصيل حقائق الاسلام بمصطلحات منطق أرسطو والميتافيزيقا اليونانية اللاحقة ، ولقد كانت المشكلة الأساسية التى طرحها الوحي الاسلامى أمام أولئك الذين حاولوا انبات الحقيقة الكامنة ، فى التناقض الظاهر بين وحدانية الله وتعدد المخلوقات ، وقد جرى التعبير عن هذه المشكلة بمصطلحات التناقض بين الخير المطلق لله والشر الظاهر للعالم . وقد وجد الفكر الفلسفى الذى بلغ ذروته على يد ابن سينا ، فى الفكر اليونانى متمثلا فى الأفلاطونية

الجديدة ، حلولا لمثل هذه القضايا ، وأصبح - أى فكر الفلاسفة - أكثر قبولاً من واقع أن العمل الرئيسى لهذه المدرسة الفكرية كان نوعاً من الصياغة الجديدة لجزء من تساعيات أفلوطين Plotinus's Enneads التى كان ينظر إليها - بشكل عام - كعمل من أعمال أرسطو ، ذلك العمل الذى سمي بالنظرية الأرسطية . وقد توصلت هذه المدرسة الى أن العالم هو سلسلة من الاشراقات من الله سبحانه وتعالى ، وبهذه الطريقة أصبحت قادرة على التوفيق بين واحدة الله وتعددية مخلوقاته ، وفى تصور ابن سينا ، كان الله هو العلة الأولى أو الخالق الذى يتوحد فيه الجوهر والوجود ، والذى تنبثق منه سلسلة من عشرة عقول تمتد من العقل الأول الى العقل الفعال الذى يتحكم فى عالم الكائنات ، وكانت الأفكار تتواصل الى الجسد البشرى باشعاع من النور المقدس ، وبهذا خلقت الروح البشرية .

ولقد كانت رمزية النور شائعة لدى الصوفية كغيرها من الفكر الغيبي ، وكانت تستمد قوتها من القرآن :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء (٢) » .

وكما أن الروح تخلق بالانبعاث من الكائن الأول . وهى عملية يحركها تدفق الحب الالهى ، فان الحياة البشرية يجب أن تكون عملية ارتقاء وعودة خلال المستويات المختلفة فى الوجود نحو الكائن الأول بالرغبة والحب .

واذا كان النور المقدس يشع فى الروح الانسانى ، واذا كانت الروح بمجهوداتها الذاتية يمكن أن تعود متجهة الى الخالق ، فما هى الحاجة الى النبوة أو الوحي ؟ لقد اعترف ابن سينا بالحاجة للأنبياء كمعلمين ينقلون الحقائق عن الله والحياة الأخرى ، ويحثون الناس على الأفعال التى تجعلهم أكثر ادراكاً واحساساً ووعياً بالله والخلود ، كالصلاة وشعائر العبادة الأخرى ، وكان يعتقد أن النبوة ليست مجرد نعمة من الله ، ولكنها نوع من الذكاء الانسانى وهى أعلى مستوياته بالتأكيد ، فالنبي يشارك فى

مراتب العقل ويمكن أن يصلو الى مستوى العقل الأول (*) ، ولم تكن هذه الهبة وقفا على الانبياء فقط ، فالانسان الذى يتمتع بنفحات روحية عالية يمكن أن يصل اليها عن طريق الزهد .

وقد يبدو هذا الهيكل الفكرى كما لو كان متعارضاً مع الوحي المقدس المنزل فى القرآن ، اذا أخذ بالمعنى الحرفى على الأقل . وقد كانت أشهر الخلافات المثيرة للجدل فى التاريخ الاسلامى هى انتقاد الغزالى العنيف للمسائل الرئيسية التى تناقضت فيها فلسفة ابن سينا مع فهمه للوحي المنزل فى القرآن ، وقد ركز فى كتابه « تهافت الفلاسفة » على ثلاثة من الأخطاء يراها فى طريقة تفكير هؤلاء الفلاسفة : فقد آمنوا بخلود المادة ، اذ ان تجليات الله تشبع المادة ولا تخلقها ، ثم انهم حددوا معرفتهم بالله بالعموميات والأفكار التى شكلت بنية خاصة وليس بالكائنات ذاتها ، وأن هذه النظرة لا تتفق مع الصورة القرآنية لله الذى يعنى بكل كائن حتى فى فرديته ، وثالثاً آمنوا بخلود الروح وليس الجسد ، والروح فى تصورهم كانت كائناً منفصلاً يحقق فى الجسد المادى بفعل العقل الفعال ، وعند نقطة معينة - خلال عودتها الى الله - فان الجسد الذى ارتبطت به يشكل عائقاً ، وكان من الضروري أن تتحرر منه ، فلم يعد مجدياً فى شىء .

وما ذهب اليه الغزالى هو أن اله الفلاسفة ليس هو اله القرآن الذى يخاطب كل انسان يحكم عليه ويحبه ، ومن وجهة نظره لم تكن الخلاصات التى يمكن أن يتوصل اليها الذكاء الانسانى الناطق بدون توجيه خارجى متفقة مع تلك التى تجلت للبشر من خلال الرسل ، وهذا التحدى رد عليه بعد قرن ، أحد أبطال طريق الفلاسفة هو ابن رشد (١١٢٦ - ٩٨) ، الذى ولد وتعلم فى الأندلس حيث كان التراث الفلسفى حديثاً وفكره راسخ الجذور ، وكرس ابن رشد نفسه للتفنيد التفصيلى لتفسير الغزالى للفلسفة فى كتاب يشير عنوانه الى عنوان كتاب الغزالى نفسه « تهافت التهافت » ، وفى عمل آخر « فصل المقال » ، تناول صراحة ما بدا للغزالى من تناقض بين الوحي المنزل على الرسل وبين ما توصل اليه الفلاسفة ، فالفكر الفلسفى لم يكن غير شرعى كما ادعى الغزالى ، بل على

(*) ان كان المفسرود بالعقل الاول هنا - الذات العليا - فان الفكر السنى يرفض ذلك ، كما يرفض فكرة الاتحاد ، وفكرة الطول سواء اتصاد الذات الالهية بالانسان أو حلولها فيه . وبصرف النظر عن وجهة النظر الفلسفية ، فالذى لا شك فيه أن مثل هذه الأفكار - على المستوى العملى - غير مجدية ، وتعطل الشرائع والقوانين ، ومن المفهوم ان هذه الأفكار كانت شائعة فى دياناات سابقة على الاسلام - (المراجع) *

النقيض يمكن أن يبرره الرجوع الى القرآن [ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ٥٠] (٣) ، وكان واضحا من هذه الكلمات القرآنية أنه لا تعارض هناك بين ما توصل اليه الفلاسفة ونصوص القرآن .

وإذا كانت هذه الشريعة حقا ، داعية الى النظر المؤدى الى معرفة الحق ، فانا ، معشر المسلمين ، نعلم ، على القطع ، أن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ما جاء به الشرع فان الحق لا يضاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد له (٤) .

كيف يمكن اذن شرح ما يمكن أن يبدو بينهما من تعارض ؟ وكانت اجابة ابن رشد هي أنه يجب ألا تؤخذ كلمات القرآن على معناها الحرفي ، وعندما يبدو المعنى الحرفي للآيات متعارضا مع الحقائق التي توصل اليها الفلاسفة بأعمال العقل ، فيجب تفسير هذه الآيات بالاستعارة ، ومعظم الناس غير قادرين على التفكير الفلسفي أو على قبول التفسير التمثيل للقرآن لذلك يجب ألا نخطبهم بها ، ويقتصر خطابنا على القادرين على فهمه :

وأما من كان من غير أهل العلم ، فالواجب (في حقه) حمله (ظاهريا) ، والتأويل في حقه كفر ، لأنه يؤدي الى الكفر ، فمن أفسسناه له من أهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، . . . ولهذا يجب ألا تثبت التأويلات الا في كتب البراهين ، لأنها اذا كانت في كتب البراهين لم يصل اليها الا من هو من أهل البرهان (٥) .

لقد كانت الفلسفة للخاصة فقط ، أما العامة فكان يكفيهم المعنى الحرفي ، والنبوة ضرورية لكليهما : فهي ضرورية للحفاظ على الخاصة وضرورية للعامة للتعبير عن الحقائق في صور مقبولة ، أما المنطق الجدلي (الكلام) فكان للعقول من المرتبة المتوسطة لأنه استخدم المنطق لتأكيد مستوى الحقيقة الذي يناسب العامة ولكن كانت له خطورته لأن مبادئه العقلية لم تكن مثبتة بشكل كاف .

ويبدو أن أعمال ابن رشد لم يكن لها انتشار أو نفوذ مستمر على الفكر الاسلامي اللاحق رغم أن الترجمة اللاتينية لبعض كتبه كان لها تأثير عميق على الفلسفة المسيحية الغربية ، الا أن فكر ابن سينا ظل له أهمية

مركزية كبرى فى الفكر الدينى والفلسفى أيضا ، وبحلول القرن الثانى عشر كان هناك - رغم الغزالي - نوع من العتاب بين الكلام والفلسفة ، ومنذ عصر فخر الدين الرازى (١١٤٩ - ١٢٠٩) وما بعده بدأت أعمال الكلام بتفسيرات المنطق وطبيعة الكينونة وامتدت منها الى التفصيل العقلى لفكرة الله ، وبهذه الطريقة نشأ هيكل منطقى لتفسير القرآن والدفاع عنه ، ومنذ ذلك الوقت تناولت هذه الأعمال المسائل التى يجب قبولها كلية على أسس من الوحي .

ابن عربى وحكمة التصوف

وفى كتابات ابن سينا اشارة عن الاشراف ، وهو شعاع من النور المقدس الذى يمكن للبشر بواسطته الاتصال بهيكل المعقولات . وقد استخدم بعض الكتاب اللاحقين لفظ (اشراف) للاشارة الى الحكمة الصوفية القديمة للشرق ، واستخدم كمصطلح للصياغة المنهجية للحقيقة المطلقة .
وفيما وراء الفاظ القرآن ، وأعطى معنى لتجارب الصوفية .

وفى محاولة السهروردي لصياغة مثل هذه النظرية الشيوصوفية ، حدثت ضجة أدت الى اعدامه على يد حاكم حلب الأيوبي فى ١١٩١ ، وقد كان أكثر الصياغات دقة وبقاء هى تلك التى عبر عنها ابن عربى (١١٦٥ - ١٢٤٠) ، وكان عربيا من الأندلس ، وكان والده صديقا لابن رشد ، والتقى بهذا الفيلسوف وشهد جنازته ، وقد قام بالدراسات المتباددة فى الأندلس ثم المغرب ، وانشغل بعدها بالسفر فى الأراضى الشرقية ، وقام بالحج الى مكة ، ويبدو أن هذا كان عاملا حاسما فى تشكيل فكره ، وأصبح واعيا ، من خلال رؤيا بأن الكعبة هى النقطة التى تشرق منها الحقيقة المطلقة على العالم المرئى ، ومنها بدأ أهم أعماله وهى « الفتوحات المكية » ، وبعد أن عاش فترة فى السبلطنة السلجوقية فى الأناضول ، استقر فى دمشق حيث مات وقبره على جبل قاسيون الذى يطل على المدينة من الغرب وقدر له أن يصبح مزارا .

وقد حاول فى « الفتوحات » وأعماله الأخرى التعبير عن رؤية العالم كتدفق لا نهائى من الوجود الذى يبدأ من الذات العليا ويعود اليها . كان تدفق النور هو الرمز المبدئى له ، ويمكن اعتبار هذه العملية فى أحد مفاهيمها كفيض من الحب الالهى . ورغبة الكائن الأول لمعرفة نفسه برؤية وجوده منعكسا الى ذاته . وكثيرا ما يورد الكتاب الصوفيون الحديث

القدسى : « كنت كنزا مخفيا وأردت أن أعرف ، ولهذا خلقت المخلوقات
لأعترف » .

قد جرى ذلك الخلق بأن تجلى الله على أسمائه وصفاته ، ويمكن
تناول الأسماء من ثلاثة جوانب ، أما بذاته كجزء من جوهر الذات العلية ،
وأما كأشكال أزلية أبدية ، وأما كتجليات تتحقق فى كائنات عارضة
الوجود ، وتعرف الأسماء حال فعلها كسادة يشاهدون فى صور أبدعها
الخلق ، تتجسد على شاكلتها المخلوقات الملموسة .

كانت كل المخلوقات اذن تجليات لأسماء معينة بواسطة الصور
ولكن الانسان كان قادرا على جلالتها جميعا . وهذه الفكرة عن الوضعية
التميزة للجنس البشرى ارتبطت بالميثاق الذى أخذه الله على بنى الانسان
فيما قبل خلق العالم حسبها جاء فى القرآن ، وقد أطلق ابن عربى وغيره
من الصوفية اسم « النور المحمدى » أو « الحقيقة المحمدية » على تلك
النماذج الأصلية التى خلق الانسان على شاكلتها ، وكانت تلك هى « المرأة
الصفائية » التى شاهد الحق فيها صورته ، ويصبح البشر جميعا بمعنى ما ،
تجليا للذات الالهية ، إلا أن هناك معنى آخر تقتصر فيه تلك التجليات
على صفة محدودة . والأنبياء هم بشر يتميزون بتجلي فيهم أسماء الله .
وفى عمل مشهور « قصص الحكم » كتب ابن عربى عن تسلسل الأنبياء
من آدم عليه السلام حتى محمد ، وبين الأسماء التى مثلها كل منهم ،
وكان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء أكثر هذه التجليات النبوية
اكتمالا ، وكان هناك أيضا أولياء أصبحوا مرآة يشع منها نور الله بالمجاهدة
فى التنسك والمعرفة ، وقد كان الأنبياء أولياء ، ولكن بعض الأولياء لم
يكونوا أنبياء ، لأنهم لم يتولوا وظيفة ابلاغ وحى أو شريعة ، وكان هناك
هيكل غير منظور من الرسل الذين حافظوا على نظام العالم وعلى رأسهم
قطب لكل عصر ، وكان ابن عربى يعتبر نفسه قطبا ، بل خاتمهم أو
أكثرهم كمالا .

وسواء أكان الانسان عارفا أم غير عارف ، فإن عليه أن يعيش فى
حدود الشريعة التى بعث بها النبى (ص) ، وابن عربى نفسه كان ملتزما
بمدرسة بنى زيرى فى التفسير الحرفى الصارم للقانون المتجلى فى القرآن
والحديث ، واعتقد بأن كل التجليات من خلال الأنبياء والمرعين كانت وحيا
لنفس الحقيقة ، فكل الناس يغبدون نفس الاله بأشكال مختلفة .

ويمكن أن نرى فيض الله من جانبه الآخر كتدفق الى الداخل . فالمخلوقات مرايا تعكس المعرفة بالله الى الله ، وانحدار المخلوقات من الكائن الأول هي أيضا نسام اليه ، وطريق التسامي الذي تضيئه المعرفة يؤدي من خلال مراحل الى نسام دائم في التقدم الروحي ، وهي مراحل (مراقي) على طريق معرفته بنفسه : « من يعرف نفسه يعرف ربه » ، فيمكن أن يصل على الطريق للصور الأولى ، والتجلى المنطقي الملموس لأسماء الله في (عالم المثال) ، وفيما وراء ذلك يمكن أن تتجلى عليه رؤية الله ، وفيها ينكشف الحجاب لحظيا ويتجلى الله بنفسه للباحث عن الذات الالهية ، وهناك لحظتان في مثل هذه الرؤية : اللحظة التي يتوقف الانسان فيها عن الاحساس والوعي بذاته وبذوات المخلوقات الأخرى في خضم اشعاع رؤية الله (الفناء) وفي الأخرى يرى الله في المخلوقات (البقاء) ، والتي يعيش ويتحرك بينها ولكنه يظل واعيا بهذه الرؤية .

وقد استخدم ابن عربي في محاولاته لوصف حقيقة الكون كما تكشف عنها لحظات الرؤية اصطلاح « وحدة الوجود » ، وقد نشأ فيما بعد خلاف كبير حول معناه ، فقد كان يمكن فهمه بمعنى أن لا وجود سوى لله ، وأن كل ما عداه اما غير حقيقي أو هو جزء من الله ، ويمكن أيضا النظر اليه باعتباره اشارة الى التمييز الشائع بين الفلاسفة ما بين الكائن بالقوة ، والكائن بالفعل ، فالله فقط هو الكائن بالقوة ، وهو موجود بطبيعته الذاتية ، بينما تدين كل المخلوقات الأخرى بوجودها لفعل خلق أو انبعاث ، ويمكن أيضا أن تشير الى التجارب اللحظية من الرؤية عندما يفقد الباحث الوعي بذاته في الوعي بتجلى الله ، فالله موجود في ذاته أو أنه موجود في ذات الله ، وتحل الصفات الحسنى محل صفاته الانسانية ، ومن الصعوبة التوفيق بين فكرة « وحدة الوجود » وفكرة الفصل بين الله ومخلوقاته والبعد اللانهائي بينهما فيما يبدو كتناليم واضحة للقرآن ، اذا كان تفسيرها يتراوح بين تلك المعاني ، وقد سجل أحد العلماء عددا كبيرا من الأعمال النقدية التي تناولت ابن عربي في عصور تالية ، وتكاد تتساوى معارضة من يرى اختلافه عن المفاهيم الأساسية للإسلام ، والذين دافعوا عنه ، وقد أصدر عدد كبير من فقهاء الدين والشرعية فتاوى معارضة له ، ولكن الحال لم يكن دائما على هذا المنوال (٧) ، وقد كان أكثرها دفاعا عن اتباعه للسنة شهادة السلطان سليم الأول (١٢ - ١٥٢٠) ، والذي قام باصلاح قبر ابن عربي بعد فتحه لسوريا عام (١٥١٦) ، وصدرت بهذه المناسبة فتوى لصالحه عن عالم عثماني شهير هو كمال باشا زاده (١٤٦٨/٩ - ١٥٣٤) ، الا أن

أعماله ظلت قضية خلافية بين أساتذة الصوفية ، فرفض بعض أئمتهم قبولها كتعبير مشروع عن البحث عن المعرفة ، وقد أبدى الشاذلية في المغرب ، والتنسبندية في شرق العالم الاسلامي تشككا فيها .

ابن تيمية والتراث الحنبلي

ليس في الاسلام السني كيان تعليمي سلطوي تدعمه قوة الحاكم ، وقد استمر طوال التاريخ الاسلامي ، تيار فكري معاد للفلاسفة والنيوصوفيين (*) متناقض مع محاولات علم الكلام الذي كان يفسر ما استقر من الايمان بشكل عقلاني .

وقد ظل التراث الفكري المستمد من تعاليم ابن حنبل حيا باقيا في البلاد الاسلامية المركزية المهمة خاصة في بغداد ودمشق ، وبالرغم من وجود عدد من الخلافات بين أتباع ابن حنبل فقد اتفقوا على احياء ما كانوا يعتبرونه الدين الحق للذين التزموا بوحى الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بشكل صارم ، وكان الاله في عقيدتهم هو اله القرآن والحديث الذي يجب قبوله وعبادته في حقيقته كما أوحى بها ، وأن المسلم الحق هو ذلك المؤمن الذي لا يقتصر ايمانه على التسليم بالله المتجلى ، ولكنه يجب أن يعمل طبقا لتعاليمه ، وأن المسلمين مجتمع واحد ، ويجب أن يظل موحدا ، ولا يخرج عنه أحد الا أولئك الذين عزلوا انفسهم برفضهم طاعة تعاليم الدين ، بنشر المذاهب التي لا تتفق مع الحق الذي أوحى للأنبياء ، وأنه يجب تفادى الجدل والتكهنات التي يمكن أن تؤدي الى التفكك والتعارض .

وفي سوريا في القرن الثالث عشر في ظل الحكم المملوكي عبر هذا التراث عن نفسه مرة أخرى من خلال صوت فردى قوى هو ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) . ولد في شمال سوريا وعاش معظم حياته بين القاهرة ودمشق ، وقد واجه موقفا جديدا ، حيث كان المماليك وجنودهم من المسلمين السنة ، ولكن كثيرا منهم كانوا حديثي عهد بالاسلام وعلى ايمان سطحي ، وكان من الضروري تذكيرهم بمعنى دينهم ، وكان ابن تيمية يرى في الأمة بأسرها ، أخطاء خطيرة منتشرة ، منها ما كان يمس سلامة الدولة مثل الشيعة والجماعات المنشقة ، ومنها ما يمكن أن يؤثر على ايمان المجتمع كآفكار ابن سينا وابن عربي .

(*) Theosophy.

وفي مواجهة مثل هذه الأخطار أخذ ابن تيمية على عاتقه إعادة تعميق وإقرار المسار الوسطي للحنابلة ، والذي لا يقبل حلولاً وسطاً في التزامهم بالحق المنزل ، ولكنهم كانوا يقبلون بالتنوع داخل المجتمع بين الذين أسلموا .

فقد قال الرسول : « المسلم أخو المسلم » ، اذن ، كيف يسمح لمجتمع محمد صلى الله عليه وسلم بالانقسام حول هذه الآراء المتعارضة بحيث يمكن للفرد أن ينضم لجماعة ويكره الجماعة الأخرى ببساطة على أساس افتراضات أو خلافات شخصية وبلا دليل منزل من الله ؟ الوحدة علامة على الرجعة الالهية والخلاف عقاب من الله (٨) .

فالله واحد وكثرة . . . واحد في جوهره - وكثرة في صفاته التي يجب التسليم بها تماماً كما وصفها القرآن الكريم ، وأهم هذه الصفات ذات الأثر على الحياة الانسانية هي مشيئته ، فقد خلق كل الأشياء من العدم وتجلى على بنى الانسان باظهار مشيئته في الرسائل الموحاة للرسل وانتهت بمحمد صلى الله عليه وسلم . وهو بعيد وقريب معا بشكل لا نهائى عن مخلوقاته ومنهم ، ويعلم الخصائص والعموميات ويعلم السر وأخفى ويجب أولئك الذين يطيعونه .

والحياة الانسانية يجب أن تعيش في خدمة الله وفي هدى النبى والتسليم بكلمة الله الموحاة ، والالتزام المخلص لحياة الانسان في المثاليات، التي يتضمنها الوحي ، فكيف يمكن تفسير ارادة الله ؟ وقد نظر ابن تيمية كما فعل ابن حنبل أولاً وقبل كل شيء الى القرآن ، وفهمه فهماً حرفياً دقيقاً ، وبعده الحديث وبعده ذلك الصحابة الذين يعطى اجماعهم للحديث مصداقية ، وبخلاف ذلك ، اعتمد الحفاظ على الحقيقة فى نقل المعرفة الدينية عن طريق المسلمين المهتمين ذوى العلم ، وكانت هناك حاجة مستمرة « للاجتهاد » من الافراد القادرين عليه ، ويمكنهم ممارسته والقيام به بقدر من المرونة ، بالموافقة على تصرفات معينة لم تنص عليها الشريعة بشكل محدد ولكن أدائها يمكن أن يعود بالنفع ما لم تحرمها الشريعة ، ولم ينظر ابن تيمية لأولئك الذين مارسوا الاجتهاد كما لو كانوا يشكلون كيانا متضامنا ، فاجماع الدارسين والعلماء فى عصر ما كان له ثقل معين ولكن لا يمكن اعتباره معصوماً .

وقد كانت رؤيته للإسلام مناقضه لبعض الأفكار التي وضعها ابن سينا : حول خلق العالم من عدم بفعل الإرادة الإلهية ، وليس بفعل الانبعاث ، وأن الله يعرف المخلوقات والكائنات البشرية بخصوصياتها ، وهم يعرفونه ليس بأعمال العقل ، ولكن بوحيه وتجليه ، وقد كانت معارضة ابن تيمية لأفكار ابن عربي أكثر حدة لأنها تسببت في مشاكل أكثر صعوبة والحاحا للمجتمع بشكل عام ، سواء في نظره أو نظر الحنابلة ، فوجود الأولياء لم يكن أمرا مرفوضا ، إذ أنهم أولئك الذين توصلوا للحقائق الهاما وليس عن طريق الوحي ، وقد يتلقون هذه النعم الإلهية والتي تجعلهم وكأنهم تجاوزوا القدرات البشرية ، ويجب احترام هؤلاء الرجال والنساء ، ولكن لا يجب أن تكون هناك أشكال أخرى من طواهر الالتزام تجاههم ، فلا زيارات لقبورهم ولا صلوات عليها ، كما أن الاحتفال الصوفي (الذكر) بتكرار أسماء الله كان شكلا مشروعا من أشكال العبادة ولكن يقل في القيمة الروحية عن شعائر الصلاة أو تزيين القرآن ، والصوفية الغيبية التي فسر بها ابن عربي وآخرون التجارب الروحية الغامضة كانت مرفوضة تماما ، فالإنسان ليس اشراقا للنور الإلهي ولكنه كيان مخلوق ، ولا يمكن أن يتحد مع الكيان الإلهي ، والطريقة الوحيدة التي يمكنه بها التقرب من الله هي طاعة مشيئته المنزلة .

وقد لعب ابن تيمية دورا مهما في المجتمع الإسلامي في عصره ، وبعد مئاته ، وقد ظلت صياغته للتراث الحنبلي عنصرا متميزا في التراث الديني للمناطق الإسلامية المركزية ولكنه كان بشكل عام عنصرا كامنا ، حتى تصاعد الوعي به في القرن التاسع عشر على أيدي حركة دينية ذات آثار سياسية ، وهي الوهابية (*) التي أدت إلى ظهور الدولة السعودية في وسط الجزيرة العربية ، ورغم التناقض الصريح بين نظريته للإسلام ونظرة ابن عربي ، فإن النزعة الغريزية للمجتمع السني نحو التسامح جعل من الممكن لهما التعايش معا ، واستطاع بعض المسلمين بالفعل التوفيق بين الإثنين ، فقد سجل أحد الدارسين إقامه في حلب مع مجموعة من الصوفيين النقشبندية الذين كانوا يدرسون أعمال ابن تيمية وابن عربي جنبا إلى جنب ، فكان ابن تيمية في نظرهم (امام الشريعة) وابن عربي (امام الحقيقة) التي يتوق لها الساعى على درب الصوفية ، وأن على المسلم الكامل أن يكون قادرا على توحيد هذين المفهومين لحقيقة الإسلام في نفسه (٩) .

(*) يكره أصحاب هذه الدعوة هذا الاسم ويسمون أنفسهم بالسلفيين .

(المراجع) .

تطور الشيعة

عاشت جماعات من الشيعة الاثني عشرية بين أغلبية من المسلمين الناطقين بالعربية ممن أسلموا على الصورة السنية ، فى تعارض أحيانا وفى سلام أحيانا أخرى . وبالتدريج طوروا نظرتهم الخاصة حول ما حدث فى التاريخ وما كان يجب أن يحدث ، ونادوا بحق (على) فى الخلافة واعتبروا الخلفاء الثلاثة الأول مغتصبين لحقه ، واعتبروا التاريخ الظاهرى للمسلمين وقضية السلطة السياسية انحرافا عن التاريخ الباطنى الحق .

وكان التاريخ الباطنى عند الشيعة هو الحفاظ على الحق الذى نزل به الوحي وتداوله بين سلسلة من الأئمة ، ووفقا لنظرية الامامة التى تطورت تدريجيا منذ القرن العاشر وما بعده ، جعل الله الامام حجة له فى العالم فى كل زمان كسلطة تعليمية لحقائق الدين ، ويحكم بين الناس بالعدل ، وأن الأئمة منحدرون عن النبى صلى الله عليه وسلم من نسل ابنته فاطمة وزوجها على الامام الأول ، وكل منهم اختاره من سبقه ، وكان معصوما فى تفسيره للقرآن وسنة النبى صلى الله عليه وسلم خلال العلم الخفى السرى الذى وهبهم الله اياه ، وكلهم كان بلا خطيئة .

واعتقد الشيعة من التيار الرئيسى بأن الخطوط المعروفة للأئمة قد انتهت بالامام الثانى عشر (محمد) الذى اختفى فى العام ٨٧٤ ، وهى الواقعة المعروفة بالخفية الصغرى لأنه كان من المعتقد أن الامام المختفى كان على اتصال بمريديه من المؤمنين عن طريق مبعوثيه وقد حدثت بعدها (الخفية الكبرى) عندما انتهت هذه الاتصالات المنتظمة ، ولم يعد الامام المختفى يرى الا فيما ندر ، وفى لمحات خاطفة من الأحلام أو الرؤى ، وسوف يظهر فى نهاية الزمن ليعيد سيادة العدالة ويكون هو المهدي (وهو مصطلح له معنى أكثر دقة فى الفكر الشيعى عنه فى التراث السنى الشعبى) .

وسيزل الجنس البشرى فى احتياج للهدى الى أن يظهر الامام ، واعتقد بعض الشيعة أن القرآن والحديث كما فسرهما الأئمة كانا ارشادا كافيا ، وكان هناك آخرون يعتقدون أن هناك احتياجا مستمرا للتفسير والقيادة ومنذ القرن الثالث عشر كانوا يتوجهون لرجال العلم الذين كانوا قادرين بثقافتهم وشخصياتهم وتعليمهم على تفسير الموروث من الايمان

بالاجتهاد ومنها جاء اللقب الذى أطلق عليهم (المجتهد) ، ولم يكونوا معصومين ولم يحظوا بوحى مباشر من الله ، ولكن كان بإمكانهم تفسير تعاليم الأئمة حسب غاية جهدهم ، وقد ظهر فى كل جيل احتياج لمجتهدين جدد ، وكان المسلمون مضطرين لاتباع تعاليم مجتهدى عصرهم .

وقد ظهرت مع الزمن نظرية عقلانية لشرح وتبرير ايمان المسلمين من الشيعة ، وكان الشيعة الأول من التقليديين ، ولكن فى نهاية القرن العاشر قال المفيد (٩٤٥ - ١٠٤٤) بأن من الممكن تأكيد حقائق الدين بعلم الكلام ، ومنذ ذلك الوقت ضمت تعاليم الشيعة الأكثر انتشارا ، عناصر مستمدة من مدرسة المعتزلة .

وقد أدخل مفكرو الشيعة اللاحقون فى نظرياتهم عناصر من النظريات الأفلاطونية الجديدة التى أخذت شكلا اسلاميا على يدى ابن مسينا وآخرين ، فمحمد صلى الله عليه وسلم وفاطمة والأئمة كانوا تجسيدا للعقول التى خلقت منها الدنيا ، وكان ينظر الى الأئمة كقادة روحيين على طريق المعرفة بالله ، ولهم عند الشيعة نفس مكانة « أولياء الله » عند السنة .

وقد أدى نفس التركيز على استخدام العقل البشرى لشرح الدين الى تطوير المدرسة الشيعية للافتاء ، وكان ذلك نتاجا لمجموعة من العلماء فى العراق وبالأخص أولئك الذين عرفوا (بالمحقق) (١٢٠٥ - ٧٧) والعلامة الحلى (١٢٥٠ - ١٣٢٥) [الحسن بن يوسف الحلى ، فقيه الشيعة فى عصره ، ويعرف بالعلامة وبابن المطهر] وكانت أعمال محمد بن مكي العاملى امتدادا لأعمالهم (١٣٣٣/٤ - ٨٤) وهو المعروف باسم أول الشهداء بسبب الطريقة التى مات بها فى سوريا ، وقد جاءت مبادئ فتاوى الشيعة فى معظمها من السنة ولكن كانت هناك اختلافات ملحوظة ولها دلالة نابعة من نظرة الشيعة الخاصة للدين والدنيا ، فلم يقبلوا من أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - سوى تلك التى انتقلت عن أحد أفراد أسرته ، كما أن أحاديث الأئمة وسيرهم كانت فى حكم القرآن والسنة بالرغم من أنها لا تنسخها ، ولم يكتسب اجماع الأمة نفس الأهمية التى اكتسبها فى السنة ، وإذا كان هناك امام معصوم فإن اجماع الوحيد ذا الحجية هو اجماع المجتمع الملتف حول الامام . كما أن استخدام العقل بشكل منطقي - من أولئك القادرين على استخدامه - كان له وضع مهم كمصدر للفقه .

وقد أصبحت أعمال المجتهدين المتعاقبين القائمة على المصادر ، بمرور الزمن ، كيانا من الفقه الشيعي الذي اختلف في بعض جوانبه عن المدارس السنية الأربع ، وقد سمح الفقه الشيعي بعبء ضروب من الزواج المؤقت ولم تكن فيه حقوق والتزامات الزواج الكامل ، واختلفت قواعد الموارث أيضا عن الفقه السني ، وظلت مسائل معينة موضع اختلاف بين العلماء ، وعلى وجه الخصوص التزامات الشيعة حيال من يخكمون العالم في غياب الأئمة ، وليس لهم السلطة الشرعية بنفس المعنى الذي كان للأئمة ، ولكن هل كان سرعيا أداء الضرائب لهم أو الخدمة لديهم إذا استخدموا قوتهم في دعم العبدالة والقانون ؟ وفي غياب الإمام هل تصح صلاة وخطبة الجمعة ؟ وهل يمكن إعلان الجهاد ؟ وإذا كان كذلك فمن يحق له الدعوة إليه ؟ وقد أفتى الفقهاء أن بإمكان المجتهدين إعلان الجهاد ، ويمكنهم أيضا جمع وتوزيع الزكاة والهبات الخيرية ، وكانت هذه المهمة هي التي أضفت عليهم دورا اجتماعيا مستقلا ، وجعل من نزاهتهم محل اهتمام المجتمع ككل .

ومنذ بداية القرن العاشر على الأقل ، أصبحت أضرحة الأئمة مزارات ، وقد دفن أربعة منهم في المدينة ، وستة في العراق بالنجف (حيث قبر علي) وكربلاء (ضريح الحسين) والكاظمية وسامراء وواحد في مشهد في خراسان ، وحول أضرحتهم ، نمت مدارس وخانات وجبانات لمقابر أبناء الأئمة وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مشاهير العلماء يكرمون بالدفن فيها أيضا .

وليس هناك اختلاف بين أماكن عبادة السنة والشيعة ، فالكل يحججون الى مكة ويزورون قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، والشيعة يزورون أضرحة أئمة الصوفيين ، وفي بعض الأماكن كان المسلمون السنة يوقرون الأئمة وعائلاتهم ، وفي القاهرة أصبح ضريح رأس الحسين مزارا دينيا شعبيا .

وثمة احتفال سنوي واحد كان له معنى خاص لدى الشيعة هو « عاشوراء » ذكرى معركة كربلاء التي قتل فيها الامام الحسين كرم الله وجهه في اليوم العاشر من شهر المحرم عام ٦٨٠ ، وأصبح ذلك اليوم عند الشيعة أكثر الأيام دلالة في التاريخ ، حيث كان نقطة التحول في مسار التاريخ المشهود نحو الطريق الذي أراده الله له ، فكان مقتل الحسين استشهادا لصالح المجتمع ووعدا بأن الله سيعيد الحق في النهاية ليسود ويعيد

الأمور إلى نصاها: الصحيح ، وفي هذا اليوم يضع الشيعة سارات الحداد وتلقى الخطب في المساجد عن نصحيات الحسين وبيان معانيها ، وعند نفطة معينة يتحول القص إلى إعادة تمثيل درامي لها .

ومنذ مرحلة مبكرة من تاريخ الشيعة ، كان توقيهم لأئمتهم يكاد يضيف عليهم صفات تفوق صفات البشر ويرفعهم إلى مصاف الظواهر النابعة من روح الله ، وآمنوا أن هناك معنى خفيا وراء المعاني الظاهرة للقرآن .

وقد لاقت مثل هذه الأفكار تأييدا من الفاطميين في فترة حكمهم بمصر وسوريا ، فالاسماعيلية - وهي طائفة شيعية ينتمي إليها الفاطميون أو يدعون ذلك - لهم معتقدات جرى أخفاؤها (التعتيم عليها) فيما بعد ، ينظام فكرى طوره علماء الاسماعيلية تحت رعاية الفاطميين ، وتم نشره - أى هذا النظام الفكرى بمساعدة السلطة الفاطمية .

وقد كان المذهب الذى فضله الفاطميون هو الذى أعطى شرعية لادعاءاتهم بأن الامامة انتقلت من جعفر الصادق إلى حفيده محمد الامام السابع وهو آخر الأئمة المشهودين من نسله ، ولزم لتبرير وشرح هذا الاعتقاد ، وضع تعريف (للامام) مبنى على نظرة تاريخية موحدة . فكان المعتقد أن الجنس البشرى ، طوال التاريخ ، فى إحتياج لمعلم يتولاه الرشيد الالهى ، وبلا خطيئة ، وكانت هناك سبع دورات لمثل هذا المعلم ، كل دورة تبدأ برسول (فاطق) ، يكشف الحقيقة للعالم ، يتبعه مفسر (وصى) يعلم مجموعة مختارة المعنى الباطنى لوجى الرسول ، هذا المعنى يختلف تحت الأشكال الظاهرية لكل الأديان ، فالله واحد لا تدركه العقول ، ومنه تنبع المعرفة الدنيوية التى تشمل كل أشكال الكائنات المخلوقة ، وهذه الأشكال تتجسد بالانبعاث (الاشراف) ، ويتبع كل وصى سبعة أئمة يكون آخرهم رسول الحقبة التالية والناطق فى الحقبة السابعة والأخيرة هو المهدي المنتظر الذى يعلن الحقيقة الباطنية للكافة . وتنتهى حقبة الشريعة الظاهرة. وتبدأ حقبة المعرفة المعلننة عن طبيعة الكون .

وقد انتشرت العقيدة الشيعية للفاطمية لفترة من الزمن استمرت فى سوريا بشكل أوسع منها فى مصر والمغرب ، وعندما ضعفت قوة الفاطميين حتى حل محلها الأيوبيون ، انكمشت المجتمعات الاسماعيلية ، ولكنها ظلت باقية فى الجبال على طول الساحل السورى الشمالى ، وفى اليمن ، وكذلك

في ايران ، واختلطت بهم في الجبال الساحلية في سوريا جماعتان
نمثلان اختلافات عن المعتقدات الشيعية ، معتقد «الدروز» الناجع من تعاليم
« حمزة بن علي » الذي ظل على الايمان بالفكرة الاسماعيلية من أن الأئمة
هم تجسيد للقدرات المتباعدة من اله واحد ، وأكد أن الاله الواحد
حاضر في كل الكائنات الحية ، وأخيرا تجسد في الخليفة الفاطمي الحاكم
(٩٩٦ - ١٠٢١) ، الذي اختفى عن نظر البشر ولكنه سوف يعود . وكانت
الجماعة الثانية هي النصيريين الذين يرجع أصلهم الى محمد بن نصير ،
الذي دعا الى اله واحد لا يمكن وصفه ، انبعث منه هيكل من الكائنات
وأن « عليا » كان تجسيدها لأسمى ما فيهم ، ومنها جاء لقب العلويين الذي
عرفوا به .

وكان هناك مجتمعان من أصول أكثر غموضا وجدا أساسا في
العراق ، هما الزيديون في الشمال ، وكان لهم دين شمل عناصر مستمدة
من كل من المسيحية والاسلام ، وآمنوا بأن الله خالق الوجود ولكن ذلك
الوجود قائم على هيكل من المخلوقات التابعة وأن المخلوقات البشرية سوف
تصل الى الكمال تدريجيا في سلسلة من الحيوانات ، وكان في جنوب
العراق المانويون الذين حافظوا على التقاليد الدينية القديمة ، واعتقدوا أن
الروح الانسانية البشرية تنسamy بالاستنارة الداخلية لتتوحد مع الله
« الكائن الأعظم » . وكان التعميد جزءا مهما من ممارستهم الدينية كاجراء
للتطهير والتنقية .

وقد انسحبت تلك المجتمعات بانقطاعها عن مصادر القوة والثروة
في المدن ، ونظرات الشك والعداء من الحكام السنيين ، وانكفات على
نفسها ، ومارست مناسكها التي اختلفت عن نيك الأغلبية ، وفي حين
لم تكن مذاهب وشرائع الاباضية والزيدية مختلفة بشكل جوهري عن
السنة ، ولكن اختلافات الدروز والنصيريين بلغت حدا اعتبره شيوخ
السنة واقعا ، على أحسن الفروض ، على أقصى حدود الاسلام .

وكانت هناك فترة حكموا فيها تحت الحكم المملوكي ، وكانت لهم
أماكن خاصة لأداء عبادتهم الدينية التي كانت مختلفة عن عبادات السنة
والشيعية، فكانت للدروز خلوة بسيطة تقم على تل مطل على البلدة أو القرية،
حيث يعيش رجال العلم والمعرفة والورع في عزلة ، أو مجالس
الاسماعيليين ، حيث انتقل تراث التعليم على أيدي علماء الدين في
المدارس أو في بيوتهم ، وفي غياب الأئمة كانت لهم السلطة الروحية
في مجتمعاتهم .

التعاليم المسيحية واليهودية

كانت مراكز التجمع اليهودى والثقافة الدينية حتى بدايات العصور الحديثة واقعة فى دول يحكمها المسلمون ، وكان معظم اليهود ينتمون للتيار الرئيسى من الحياة اليهودية التى خضعت لتعاليم التلمود ، وهو المرجع الذى يفسر ويشرح الشريعة اليهودية والذى جمع فى بازل أو العراف ، ورغم أنه كانت هناك مجتمعات أصغر للقرائين الذين آمنوا بأن التوراة هى تعاليم الله الموحاة والمتجسدة فى مخطوطات هى المصدر الوحيد للشريعة وأن على كل دارس أن يدرسها لنفسه ، والسامريين(*) الذين انشقوا على التيار الرئيسى لليهودية فى العصور القديمة .

وفى باكورة العصور الاسلامية ، ظلت العراق هى المركز الرئيسى للتعليم الدينى اليهودى ، وفى أكاديميتيها الرئيسيتين ، عمل العلماء الذين اعتبروا حفظ التراث الشفهى الطويل للدين اليهودى ، وكانت نرسل اليهم الأسئلة عن مسائل التفسير من كل أنحاء العالم ، وبعد ذلك، ومع تفكك الامبراطورية العباسية مارست كليات «يوشيفوت» سلطة مستقلة تنامت فى مراكز التجمع اليهودية الرئيسية : القاهرة والقيروان ومدن أسبانيا الاسلامية .

ومنذ وقت مبكر فى الحقبة الاسلامية ، اعتمد اليهود من قاطنى البلاد التى كانت العربية فيها هى لغة الحكومة والسكان المسلمين ، العربية كلغة للأغراض النبوية بينما استمرت العبرية فى الاستخدامات الكهنوتية والدينية ، وقد كان تأثير الدين اليهودى والأفكار الفقهية كبيراً على تفصيل الاسلام فى نظام فكرى كان له بدوره تأثير على اليهودية ، وتطورت نظرية دينية يهودية وفلسفة تأثرت بعلم الكلام والفلسفة الاسلامية ، وازدهر أيضاً الشعر العبرى الدينى والدينى فى الأندلس تحت تأثير الشعر العربى . وبمجيء الموحدين فى القرن الثانى عشر ، انتهى تراث الثقافة والحياة اليهودية فى الأندلس ، ووجد موسى بن ميمون - مؤسس الميمونية (١١٣٥ - ١٢٠٤) وهو الرمز الأعظم للشخصية اليهودية فى العصور الوسيطة - بيئة أكثر تحملاً فى القاهرة تحت حكم الأيوبيين عنها فى الأندلس التى جاء منها ، وقد احتوى كتابه « دلالة الحائرين » المكتوب بالعربية تفسيراً فلسفياً للديانة ، وشرحت أعماله الأخرى بالعربية

(*) نسبة الى السامرة فى فلسطين - (المراجع)

والعبرية الفقه اليهودى ، وكان طبيبا للبلاط لدى صلاح الدين وابنه وأعطت حياته دليلا على العلاقات الطيبة بين المسلمين واليهود فى الوضعية والتعليم فى مصر فى ذلك الوقت ، وفى القرون اللاحقة اتسعت الهوة ، ورغم أن بعض اليهود ظلوا ناجحين مزدهرين كتجار ، وأقوياء كمسؤولين فى القاهرة وغيرها من المدن الاسلامية الكبيرة الا أن الفترة الذهبية للثقافة والتراث اليهودى فى عالم الاسلام بلغت نهايتها .

وقد كانت الفترة الاسلامية الأولى فترة من العلاقات المنمعة بين المسلمين والمسيحيين مثلهم فى ذلك مثل اليهود . وظل المسيحيون يشكلون أغلبية من السكان على الأقل فى ذلك الجزء من العالم الاسلامى الواقع الى غرب ايران .

وقد حسن مجيء الاسلام من وضعية كنائس النسطوريين والتوحيديين لعلاج الضعف والمعوقات التى عانوا منها تحت الحكم البيزنطى ، وكان البطريرك النسطورى شخصية مهمة فى بغداد ابان الخلافة العباسية ، وامتدت سلطة الكنيسة التى كان يرأسها شرقا حتى أواسط آسيا والصين ، وقد تطور الاسلام فى اطار بيئة مسيحية الى حد كبير ، ولعب العلماء المسيحيون دورا فى نقل الفكر العلمى والفلسفى الاغريقى اليونانى الى العربية ، واستمرت اللغات التى تحدث بها المسيحيون من قبل وكتبوا بها (اليونانية ، السريانية والقبطية فى الشرق واللاتينية فى الأندلس) وكانت بعض الارساليات مراكز للفكر والتعليم مثل دير النطرون فى جنوب الأناضول ودير مار مطاى شمال العراق ، ووادى النطرون فى الصحراء الغربية من مصر ، وبمرور الوقت تغير الوضع ، فالأقلية الاسلامية المسيطرة تحولت الى أغلبية واكتسبت قوة واستقلالية وثقة بالنفس فى الحياة الثقافية والروحية ، وانتهت تقريبا فى الشرق سلطة الكنيسة النسطورية العالمية بغزوات تيمور لك ، وفى الغرب اختفت المسيحية ، وفى الأندلس أدى التوسع التدريجى للدويلات المسيحية من الشمال الى تزايد التوتر بين المسلمين والمسيحيين ، وفى كل من الأندلس والدول الشرقية التى عاش فيها المسيحيون تخلى معظمهم عن لغتهم الأصلية. ليستخدما العربية ولكن لم يكن للعربية ذلك التأثير الحيوى بينهم مثل المجتمعات اليهودية حتى القرن التاسع عشر .

ورغم العلاقات السلسة الوثيقة بين المسلمين واليهود والمسيحيين ، بقيت هوة من الجهل والتعصب بينهم ، فكانوا يؤدون عباداتهم بشكل

منفصل (*) ، وكان لكل مكان عبادته وحجته الخاصة : القدس لليهود ،
وقدس أخرى للمسيحيين ، وأضرحة محلية للقديسين ، وقد يكون
الاختلاف في المدن أكبر منه في الريف . فالمجتمعات التي عاشت قريبة
من بعضها البعض خاصة في المناطق التي لم يكن تأثير الحكومة فيها
واضحا مباشرا . عاشت في تكافل وثيق مبنى على الاحتياج المتبادل
أو الطاعة المشتركة للزعماء المحليين . وظلت الينايع والأشجار والأحجار
التي كانت تعتبر أماكن مقدسة أو للعلاج منذ ما قبل ظهور الاسلام
أو حتى المسيحية في بعض الأحيان مقدسة لاتباع مختلف الأديان ،
ولذلك أمثلة ملحوظة في العصور الحديثة ، ففي سوريا ، الحضر هو الروح
الغامضة التي يعتبرها المسيحيون القديس جورج وكانت موقرة في الينايع
والأماكن المقدسة الأخرى ، وفي مصر يحتفل الأقباط والمسلمون بعيد
القديسة دميانة التي استشهدت خلال فترات اضطهاد المسيحيين في
الامبراطورية الرومانية ، وفي المغرب ، شارك المسلمون اليهود في
احتفالات حول مزارات وأضرحة لأولياء المسلمين واليهود .

(*) وهل يتصور الكاتب ألا يكون بينهم انفصال في دود العبادة والحج ؟
(المترجم) .

الفصل الثاني عشر

ثقافة القصور والشعب

الحكام ورعاة الثقافة

أدى تفكك الخلافة العباسية وسقوطها في النهاية الى انهيار المؤسسة المركزية للسلطة والرعاية ، والتي مكنت من تنامي الحضارة والثقافة العربية الاسلامية ، فقد كان الشعراء ورجال العلم الديني والديوي يلتقون في بغداد ، حيث تتفاعل الثقافات المختلفة مع بعضها البعض لتنتج شيئا جديدا ، وقد صاحب الانقسام السياسي للبلاد نوع من التشنيت للطاقت والمواهب ، ولكنها أدت أيضا الى صعود عدد من الفصور والعواصم لتكون مراكز للننتاج الثقافي والفني ، ولم يكن الانقسام تاما : فقد أُنجزت بالفعل لغة مشتركة للتعبير الثقافي ، وكانت حركة العلماء والدارسين والكتاب من مدينة لأخرى تحافظ عليها وتنميتها ، وبمرور الوقت ازداد اتساع الاختلافات في الأساليب والاهتمامات التي كانت موجودة على الدوام بين المناطق الرئيسية للعالم الاسلامي ، ولتبسيط الأمر ، ظلت العراق واقعة تحت تأثير الاشعاع الإيراني ، وشكلت مصر وسوريا وحدة ثقافية امتد أثرها الى أجزاء من الجزيرة العربية والمغرب ، وفي أقصى الغرب تنامت ثقافة أندلسية مختلفة في بعض جوانبها عن ثقافة الشرق .

وقد تشكل المجتمع الأندلسي من خليط من عناصر مختلفة : المسلمين واليهود والمسيحيين ، والعرب والبربر والأسبان المحليين والجنود المرتزقة من شرق وغرب أوروبا (الصقلية والسلاف) ، جمعتهم معا الخلافة الأموية في قرطبة ، وحول قصور الخلافة ، كانت هناك الصفوة الأندلسية من العائلات المستقرة ذات الأصول العربية المنحدرة من المهاجرين الأوائل من ذوى المال والنفوذ الاجتماعي ، المستمد من المناصب والمواقع الرسمية ومن السيطرة على الأرض ، وقد ظهرت بدايات الثقافة المتميزة الرفيعة ، في هذه القصور وحولها ، في الخلاقات الأموية اللاحقة ، فكان

غالبية علماء الدين والفقه من المالكيين ولكن بعضهم التزم بالمشيخية الظاهرية (*) الذي دعا الى التفسير الحرفي للدين واختفى بعد فترة ، ودرس الأطباء والمسؤولون الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وتجلت قوة الحكم والصفوة في المباني الفخمة الرائعة ، وكذلك في الشعر .

وقد استمرت هذه الثقافة في الازدهار حول بعض القصور في الممالك الصغيرة التي انقسمت اليها الخلافة الأموية (ملوك الطوائف) . وقد جلب المرابطون الذين أتوا من تخوم الصحراء في المغرب ، معهم روحا متقشفة من الالتزام الصارم بالقانون المالكي (**) والشك في التكهن العقلاني الحر ، كما نشأت قوة خلفائهم (الموحدين) أيضا نتيجة نوع من احياء التقوى ، مع التركيز على وحدانية الخالق والالتزام بالقانون (***) ولكنه اكسب مصداقية من الفكر الاسلامي في شرق العالم الاسلامي حيث أسسه وصاغه ابن تومرت ، وقد جاء الذين حملوا ذلك الفكر خلال المغرب والأندلس من شعوب البربر في جبال أطلس ، وكان عصرهم آخر العصور العظيمة للثقافة الأندلسية ، وكانت ذروته فكر ابن رشد الذي كان التعبير النهائي عن الروح الفلسفية بالعربية ، كما قدر لابن عربي أن يكون بالغ الأثر على التراث الصوفي في الشرق والغرب لعدة قرون ، وبعد الموحدين اطلقت عملية التوسع المسيحي مراكز الحياة العربية الاسلامية واحدا تلو الآخر ، حتى لم تبق الا مملكة غرناطة ، وقد استمرت الحضارة والتقاليد التي أوجدتها بأشكال مختلفة في مدن المغرب ، ومراكش على وجه التحديد التي هاجر اليها الأندلسيون .

وقد كانت المباني أطول الآثار الفنية الانسانية عمرا ، وبقيت تعبيرا دائما عن الدين والثروة والقوة للحكام والنخبة ، وكانت المساجد الكبرى هي العلامات الدائمة الباقية بعد المسلمين الأوائل في البلاد التي فتحوها . وبزوغ المراكز المحلية للقوة والثروة الذي أعقب اضمحلال السيطرة العباسية ثم تلاشيها ، وأبدعت البنايات الخاصة بالشؤون الدينية والحياة المدنية بأساليب مختلفة . وتطور نظام الأوقاف وشجع على تأسيس

(*) النص : Zahiri madhhab.

(**) الفقه المالكي ، وقد أقرنا الأستاذ المترجم على ترجمته لأن المؤلف يعصد توضيح الأمور لقارئه - (المراجع) .

(***) المقصود كما هو مفهوم الشريعة الاسلامية التي كانت بمثابة قانون توالى على استقائه من الأصول الفقهاء والعلماء - (المراجع) .

مثل هذه المباني من المدارس والزوايا ، والمستشفيات ، والنافورات العامة ، ووكالات التجار ، بنى بعضها موسرون من المتنفذين ، ولكن أكبرها بناء الحكام الذين بنوا أيضا القصور والقلاع ، ومراكز هذه المدن التي مازالت موجودة في القاهرة وتونس وحلب ودمشق وفاس ومواقع الحج والقدس ، كانت معظمها نتاج القرون اللاحقة لهذه الحقبة ، وكانت القاهرة هي الأكبر والأعظم بنيانا ، حيث القلعة وقصور المماليك على منحدرات تلّال المقطم ، وأضرحة السلاطين ومساجدهم في الجبانات الشاسعة خارج أسوار المدينة والمجمعات كمسجد ومدرسة السلطان حسن التي بنيت على الجهات الأربع من فناء المسجد .

وبحلول القرن العاشر كان الشكل الأساسي للمباني العامة قد تحدد: فالمسجد بالقبة والمحراب والمآذن والمداخل من الفناء المسور وفيه النافورة للوضوء ، وقصر الحاكم تعزله الأسوار أو المسافات عن المدينة ، ويمارس حياته في سلسلة من القاعات والأكشاك الواقعة في الحدائق ، وفي مثل هذه المباني وفي الفترات الأولى ، لم تكن الواجهة الخارجية تعنى الكثير ، وإنما الحوائط الداخلية هي التي كانت معبرة عن القوة أو العقيدة ، تزيينها أشكال بنائية أو هندسية أو كتابات ، وفي الفترات اللاحقة كانت المباني في المدن المتباعدة تشترك إلى حد ما في لغة الزينة ، فمن بغداد إلى قرطبة تجد حوائط من الجص أو القيشاني أو الخشب المنحوت تحمل أنساقا من النقوش باللغة العربية ، ومن بعض النواحي ظهرت أنماط متميزة . فأصبح التركيز بشكل أكبر على المظهر الخارجي للواجهات والمداخل التذكارية والقباب والمآذن ، وكانت بينها اختلافات ملحوظة ، وفي المدن المصرية والسورية في العصرين المملوكي والأيوبي ظهرت الواجهات ذات المداميك التبادلية من الألوان وهو ما يسمى بالطراز الأبلق ، وهو تراث روماني كان مستخدما في سوريا وامتد إلى مصر ، ويشاهد أيضا في الكنائس في لمبارديا وتوسكاني في إيطاليا ، وأصبحت القبة أكثر أهمية من الخارج ، تزيين. بأشكال هندسية متنوعة ومن الداخل ظهرت مشكلة الانتقال من القاعات الرباعية الشكل إلى القباب المستديرة وأمكن حل هذه المشكلة باستخدام المتتاليات الزخرفية والمعلقات والمقرنصات التي غالبا ما كانت بغرض الزينة .

وفي أقصى الغرب من العالم العربي الاسلامي استحدث طراز انشائي متميز للمسجد العظيم في قرطبة بممراته العديدة ، وزخارفها من الرخام المنحوت وأعمدتها المستقيمة ذات الأشكال المتميزة التي تعلوها العقود

على هيئة حدود الحصان ، وقد نركت أسرتا الموحدين والمرابطين آثارهما في المساجد الكبرى في الأندلس ومراكش والجزائر وتونس ، وجامع القرويين في فاس من أعمال المرابطين يمكن أن يكون مثالا لذلك الطراز بفنائه الطويل الضيق ، والمئذنتين المتماثلتين في طرفيه وقاعة الصلاة بصفوف الأعمدة المتوازية مع الحائط الذى يقع عليه المحراب ، ويكسر السطح قيتسانى أخضر ، وكانت المآذن فى المغرب تميل الى المقطع المربع مع مربع أصغر يبرز من الأفريز فى أعلاها ، وبعضها كان فائق الطول والعظمة مثل مئذنة غرلادة فى أشبيلية ومئذنة الكتبية فى مراكش .

ولم تكن أكثر الآثار جمالا وبقاء فى الطراز الأندلسى مسجدا ، بل كانت قصرا هو الحمراء فى غرناطة ، بنى معظمه فى القرن الرابع عشر ، ولم يكن مجرد قصر ، فهو أقرب الى أن يكون مدينة ملكية منفصلة عن المدينة الرئيسية الواقعة تحتها ، داخل أسوارها مجموعة من المباني، وتقع التكنات والتحسينات الى الخارج ، وفى المراكز فناءان ملكيان ، فناء الرياح ، وفناء الأسود ، حيث تحوط أحواض المياه بالحدائق والمباني ، وفى نهاياتها تقع قاعات الاحتفالات ، وهو مبنى من الطوب الذى نغطيه زخارف غنية من الجص والخزف ، وتحمل نصوصا من القرآن والشعر العربى المكتوب خصيصا لها ، وكان وجود الماء يشير الى خصائص عامة للطراز المغربية والأندلسية من حيث أهمية الحدائق ، ففي قلب الحديقة بنى فسقية أو حوض تحيطها الحدائق والممرات بشبكة مربع، وكانت الأزهار والشجيرات تختار وتزرع بعناية ، نحوطها أسوار وحوائط عالية من البناء المغطى بزخارف الجص .

كان تزيين الحوائط الداخلية يتم أساسا بالجص أو الخزف أو الخشب . وفى القصور والحمامات العامة ، كانت هناك على حوائطها رسوم للمخلوقات البشرية والحيوانات تعبر عن عملية الصيد أو الحرب أو حفلات اللهو ، وهى الموضوعات التى يستحيل تصويرها فى المساجد بسبب المذاهب أو التعاليم الدينية الصارمة التى تحرم تصوير الكائنات الحية ، باعتبارها محاولة لمحاكاة القدرة الإلهية الخالقة المتفردة ، ولم تكن هناك صور معلقة ، ولكن قد تضاف رسوم الى بعض الكتب ، فكانت هناك مقتطفات من كلية ودمنة من القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وتحوى صورا للطيور والحيوانات ، وأيضا من مقامات الحريري وفيها صور من الحياة فى المسجد ، والمكتبة ، والسوق ، والمنازل وبعضها أيضا لصور الأدوات العلمية ، وقد استمر هذا التراث خلال العصر المملوكى ولكنه لم يكن بنفس قوته فى إيران .

وقد كانت أعمال الزجاج والخزف والمعادن هي الأكثر أهمية في تزيين وتجميل المنازل والمباني العامة على السواء ، ولم تقتصر أهميتها على قيمتها الاستعمالية أو جمالها الشكلي ، ولكنها كانت تحمل صورا ترمز الى حقائق الدين أو قوة السلطة ، أو عدسورا للأشجار والأزهار والكلمات والحيوانات أو الحكام . وكان السيراميك في البداية مصنوعا من الخزف المزجج ، وعرف بعدها الخزف ذو اللّمة المعدنية ، وكان يستورد الخزف الصيني الأبيض والأزرق ، ولكنهم قلّدوه منذ القرن الرابع عشر ، وكانت مصر هي المركز الرئيسي للإنتاج ، ولكن بعد تدمير الفسطاط في القرن الثاني عشر هاجر الوطنيون الى سوريا وما وراءها ، وكانت تصنع الأواني من البرونز والنحاس في الموصل ودمشق والقاهرة وغيرها ، كما كانت تصنع المصابيح الزجاجية المتقنة للتعليق في المساجد .

الشعر والقصة

لعب الشعر دورا مهما في ثقافة الحكام والأغنياء ، وأينما وجد راعون للشعراء ، ظهر شعراء يمتدحونهم ، وعادة ما اتخذ المديح شكلا مألوفا هو شكل القصيدة كما تطوّر على أيدي الشعراء في العصر العباسي ، أما في الأندلس فقد ظهرت أشكال جديدة من الشعر داخل وحول قصور بني أمية وبعض خلفائهم ، كان أهمها الموشح الذي ظهر بنهاية القرن العاشر (*) ، وظل ينمو لمئات السنين لا في الأندلس فقط ، وإنما أيضا في المغرب ، وهو قصيدة مقطعية غنائية لا ينتهي البيت فيها بنفس القافية ، ولكن يلتزم كل مقطع بنفس القوافي في المواضع المناظرة ، والتي تتكرر طوال القصيدة ، أما البحور واللغة فقد كانت هي ذاتها المستخدمة في القصيدة ، إلا أن كل مقطع كان ينتهي (بخارجة) (**) ، جرى كثير من الجدل المدرسي حول أصولها ، وكانت تكتب بلغة أقرب الى الدارجة ، وأحيانا

(*) تذكر كتب تاريخ الأدب أنه نشأ على يد مقدم بن معافر في منتصف القرن الثالث للهجرة ، وتابعه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى ٣٢٨ هـ ثم انتشر بعد ذلك - (المراجع) *

(**) الموشحات ، والمفرد موشحة ، سميت بذلك لأنهم شبهوها بالمرأة المتزينة بالموشاح ، وقد خرجت الموشحات أحيانا على أوزان الشعر العربي ، وتتكون الموشحة من عدة (أدوار) أو مقطوعات ينتهي كل منها بلازمة وتسمى (قفل - بضم القاف وتسكين الفاء) - (المراجع) *

كانت تكتب بلغة ليست عربية ، وهي الرطانة الرومانسية(*) الشائعة في ذلك العصر ، وكانت غالباً ما تتناول الغزل ، حيث يتحدث الشاعر عن نفسه بضمير الغائب ، وكانت موضوعات الموشحات تشمل نفس مواضيع الشعر العربي من وصف الطبيعة الى مدح الحكام ، والحب ، والابتهاال الى الله والوجد الصوفي ، وفيما بعد ظهر شكل آخر هو الزجل ، وهو أيضا شعر مقطعي ولكنه مكتوب بالعربية الدارجة في الأندلس .

وكانت المشاعر الشخصية مرتفعة النبرة في بعض أشعار الحب الأندلسي ، كالتعبير عن المصير الفردي الذي ظهر في أشعار ابن زيدون (١٠٠٣ - ٧١) والذي نشأ في قرطبة في فترة اضمحلال الخلافة الأموية وكان نشطا في المشاركة في الحياة السياسية في عصره ، وسجن على أيدي حكومة الخليفة ، وحاول الاحتماء واللجوء الى أحد الحكام المحليين أولا ، وبعدها لجأ الى حاكم محلي آخر في أشبيلية ، وعندما قهر حاكم أشبيلية قرطبة ، عاد اليها لفترة . وقضى معظم حياته منفيا عن مدينته ، يذوب حنينا الى مسقط رأسه المفقود ، مشحونا بالأسى على شبابه الضائع . والقصيدة صدى لبعض الأفكار التقليدية من القصيدة الكلاسيكية ولكن بشكل يعبر عن شخصيته ، وفي قصيدة له عن قرطبة يتذكر فيها المدينة وأيام شبابه ، ويبدوها بصورة عن المطر الذي يهطل على أطلال مهجورة كان يسكنها الأحياء ، موشاة بالأزهار ، وكيف كانت تخطر بينها الغتيات كالصور الرقيقة في زمان أسعد أهله :

وأكرم بأيام العقاب السوالف

ولهو أثرناه بتلك المعاطف

بسود أثيث الشعر بيض السوالف

إذا وظلوا في وشى تلك المعاطف

فليس على خلع الأزار ملام

تم يخاطب الأقدار التي منعت فضلها ، ولكنه يصور ذلك الساري في ليل النجوم التي ما زالت تتلألأ ويرسل معه تحية حب واشتباق الى قرطبة (١) .

(*) لا يفهم من هذه العبارة الرومانسية كمذهب أدبي ، وإنما رطانة مجموعة اللغات ذات الأصول اللاتينية ، وهذا واضح من السياق - (المراجع) .

نفس اللمسة الشخصية من الأسى والمعاناة يمكن أن نلمسها في قصائده العاطفية لولادة ، الأميرة الأموية التي أحبها في شبابه والتي هجرته لشخص آخر (٢) :

والأفق طلق ومر في الأرض قد راقا	أنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
كأنه رق لى فاعتل اشفاقا	وللنسيم اعتلال فى أحبائه
كما شققت عن اللباب أطواقا	والروض عن مائه الفضى مبتسم
بتنا لها نام الدهر سرافا	يوم كايام لذات لنا انصرمت
فازداد منه الضحى فى العين اشراقا	وزاد تالق فى صاحى منامته
وسنان نبه الصبح أحداقا	سرى ينافحه نيلوفر عبق
نفسى اذا ما اقتنى الأحباب أعلقا	ياعلقى الأخطر الأسنى الحبيب الى
ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا	كان التجارى بمحض الود من زمن
سلوتم وبقينا نحن عشاقا	فالآن أحمد ما كنا لعهدكم

وكان ذلك هو الازدهار الأخير للشعر الغنائى الأصيل قبل العصور الحديثة ، واستمر الانتاج الشعرى بوفرة كنشاط تقليدى للرجال المتعلمين ، ولكن القليل منه استرعى الانتباه فى العصور اللاحقة ، والاستثناء الوحيد من هذا كان بعض الشعر الذى ألهمته الصوفية كشعر عمر بن الفارض (١١٨١ – ١٢٣٥) الذى تميز بصور عن الحب والنشوة ويحتمل أكثر من معنى .

وكان أحد أسباب ازدهار الشعر الأندلسى هو ذلك الخليط من البشر واللغات والثقافات . كانت هناك خمس لغات مستخدمة على الأقل ، اثنتان منها كانتا العربية والأندلسية المتميزة والرومانسية الدارجة التى تطورت لتصبح الأسبانية فيما بعد ، وكلتاهما كانت مستخدمة بدرجات متفاوتة عند المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت هناك أيضا ثلاث لغات مكتوبة هى العربية الفصحى واللاتينية والعبرية ، وقد استخدم المسلمون العربية ، والمسيحيون اللاتينية ، واليهود العربية والعبرية ، واليهود الذين كتبوا فى الفلسفة أو العلوم استخدموا العربية أساسا ، ولكن الشعراء كتبوا بالعبرية فى شكل جديد ، وللمرة الأولى تقريبا استخدم الشعر العبرى لأغراض أخرى خلاف الأغراض الدينية . وتحت رعاية اليهود الأغنياء والمتنفذين الذين لعبوا دورا فى حياة القصور والمدن ، تبنى

الشعراء أشكالا من الشعر العربي كالقصيدة والموشح ، واستخدموها
فى الأغراض الدنيوية والدينية على السواء وكان جودة هاليفى (١٠٧٥ -
١١٤١) أكثر هؤلاء الشعراء شهرة وبقاء .

كان الشعر الراقى مكتوبا بلغة وفوائد صارمة وحفل بموضوعات
مألوفة وشاعت فيه أصداء أشعار الماضى ، ونشأ حوله أدب أكثر
انتشارا ، ومن التبسيط المخل ، أن نعتبره أدبا شعبيا . ولقى تقديرا فى
طبقات واسعة من المجتمع وكان معظمه وليد المناسبات ، سريع الانطفاء ،
يرتجل ولا يكتب ، وينتقل شفاهة وضاع معظمه مع الزمن ولكن بعضه
بقى ، وقد انتشر الزجل الذى ظهر أولا فى الأندلس فى القرن الحادى
عشر فى كل العالم الناطق بالعربية ، وكان هناك أيضا ترات من المسرحيات
وخيال الظل ، الذى كتبه ابن دانيال فى القرن الثالث عشر ، ويؤدى
بالعرائس أو الأيدى أمام الضوء وخلف شاشة وهو مازال موجودا
حتى الآن .

وأكثر هذه الأنواع انتشارا وبقاء كان الرواية وقد نمت عبر العصور
ملاحم عظيمة من الروايات عن أبطال ، وضاعت أصولها فى طيات الزمان ،
وبقيت منها أشكال مختلفة فى الثقافات المختلفة ، ولا بد أنها كانت متداولة
بالشفاهة قبل أن تسجل كتابة ، وشملت قصص عنتر بن شداد ، ابن
الجارية الذى أصبح بطلا قبليا عربيا ، والاسكندر الأكبر ، وببيرس الذى
انتصر على المغول وأسس الحكم المملوكى فى مصر ، وسيرة بنى هلال
القبيلة العربية التى هاجرت الى بلاد المغرب . وتختلف موضوعات هذه
الملاحم ، بعضها قصص عن مغامرات أو أسفار تروى لمجرد القص ، وبعضها
بتناول عالم القوى الخارقة وما وراء الطبيعة التى تحيط بالحياة البشرية ،
والأرواح ، والسيوف ذات الصفات السحرية ، ومدن الأحلام ، وفى قلب
نلك الملاحم تكمن فكرة البطل أو الجماعات البطولية عن رجل أو مجموعة
من الرجال تقاوم قوى الشر ، من الناس أو الشياطين أو حتى نزواتهم
الخاصة وتتغلب عليها .

وكانت هذه التراكيب تتلى فى مزيج من الشعر والنثر المسجوع
والنثر المعتاد ، ولذلك أسباب فالسجع يعين على الحفظ ، وأيضا يفرق بين
القصة وبين لغة الحياة العادية ، وكان الراوى يستطيع الانتقال من تركيبة
الى أخرى وفقا للانطباع الذى يبغي أن يوصله للسامعين ، وللمستمعين
فى الريف توقعات مختلفة عن تلك لدى سكان المدن ، وتختلف
أيضا بين الأميين والمتعلمين ، وبمرور الوقت سجلت هذه القصص كتابة

على أيدي كتاب من ذوى المهارات الأدبية ، وكان هناك أيضا مجال للارتجال أو التعديل حسب احتياجات المكان أو الزمان .

لم يخضع تاريخ تطور هذه السير للدراسة الكافية وقد لا يكون ذلك ممكنا ، ومن الواضح رغم ذلك أن بعضها تنامي تدريجيا بمضى القرون واختلف من بلد لآخر ، وقد أظهرت دراسة عن سيرة عنتر أن جذورها ترجع الى بعض القصص الشعبية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام . ولكنها جمعت مواد أخرى بانتقالها من مكان لآخر ، وقد تشكل النص الحالى قبل نهاية القرن الرابع عشر ، ومن المعتقد أن مثل هذه العملية من التطور لها دلالة تفوق مجرد الدلالة الأدبية ، حيث انها عملت على اضافة الشرعية على الشعوب المستعربة أو التى أسلمت حديثا بتشكيل تاريخها على النسق العربى ، وكان رجال القبائل البدو الرحل من الصحارى عندما يقصون روايتهم لسيرة عنتر أو بنى هلال ينسبون لأنفسهم جذورا عربية .

وسلسلة القصص المعروفة بـ « ألف ليلة وليلة » تعرف فى أوروبا بـ « ليالى عربية » رغم أنها تختلف عن الروايات من نواح عدة ، إلا أن لها صدى فى بعض أفكارها ، ويبدو أنها تطورت بنفس الطريقة ، ولم تكن قصة مبنية على حياة ومغامرات رجل أو مجموعة من الرجال ، ولكنها قصص من أنواع مختلفة ، ارتبطت تدريجيا ببعضها من خلال راوية واحدة تحكى القصص لزوجها ليلة بعد ليلة ، ويعتقد أن لهذه المجموعة أصولا من القصص المترجمة من اللغة البهلوية الى العربية فى القرون الاسلامية الأولى ، وهناك بعض المؤشرات على حدوث ذلك الانتقال فى القرن العاشر ، فى جزء من مخطوط أقدم ، ولكن أول نسخة كاملة ترجع الى القرن الرابع عشر ، وهذه السلسلة من القصص يبدو أنها نشأت فى بغداد بين القرنين العاشر والثانى عشر ، وامتدت الى القاهرة فى العصر المملوكى ، والقصص التى أضيفت أو اختلفت تعزى الى بغداد فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد ، وهناك اضافات أيضا بعد ذلك من بعض القصص التى ظهرت مع الترجمات الأولى الى اللغات الأوروبية فى القرن الثامن عشر ، وليست واردة اطلاقا فى المخطوطات الأولى .

وهناك عمل روائى آخر مختلف عن ذلك ، أنتج فى آخر العصور العظيمة من الحضارة الأندلسية فى عصر الموحدين ، وهى رواية « حى بن يقظان » التى كتبها ابن طفيل (ت ١١٨٥/٦) وهى معالجة فلسفية على شكل قصة تحكى عن طفل نشأ معزولا فى جزيرة ، ويرتقى

فى مراحل مختلفة من الفهم للدنيا والعالم من حوله بالتفكير المنفرد ، واستغرقت كل مرحلة سبع سنوات ولها شكل يناسبها من الفكر ، وفى النهاية يتوصل الى جماع الفكر الانسانى عندما يسئوعب الكون والايقاع الأبدى للمبعث والعودة للروح الواحدة تتحرك من مستوى الى آخر حتى مستوى النجوم ، وهى النقطة التى تتخذ فيها شكلها المادى ، ثم الروح التى تنوق للتتحرك لأعلى ، الى الواحد • ومثل هذا الفهم لا يناح الا للقلة •

وعندما يلتقى « حى » فى النهاية بكائن بشرى آخر ويرحل الاثنان من الجزيرة الى العالم المأهول ، ويدرك أن هناك هيكلا من القدرات البشرية ، وأن القلة فقط يمكنها التوصل الى الحقيقة باستخدام العقل وحده وقلة أخرى يمكنها التوصل اليها عن طريق اعمال العقل فى حل الرموز الدينية التى تصلهم فى الوحي والبعض الثالث يتقبل الفوانين المبنية على هذه الرموز وليس بإمكانهم تفسيرها عقليا ، والأغلبية من الناس لا تأبه بالحقيقة العقلانية أو قوانين الدين ولا يهتمون سوى بالأشياء فى هذا العالم ، وكل من هذه المجموعات الثلاث لها كمالها وأيضا حدودها ، وليس عليها السعى لأكثر من ذلك ، وعن زيارته للعالم المأهول لرجال المجموعة الثالثة يقول ابن طفيل :

••• وأعلمهم أنه قد رأى منل رأيهم ، واهتدى بمنل هديهم ، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة خوضهم فيما لا يعينهم ، والايان بالمتشابهات ، والتسليم لها ، والاعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور ، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا ، وحذرهم عنه غاية التحذير ، وأعلم •• أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاه لها الا بهذا الطريق ، وأنها ان رفعت عنه الى بقاع الاستبصار اختل ما هى عليه ، ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء ، وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها (٣) •

الموسيقى

كانت الموسيقى فى أغلب العصور والأماكن زينة لحياة الأغنياء وذوى النفوذ ، وكانت مصاحبة لشعر من لون معين ، وقد كثبتت الموشحات الأندلسية كى تغنى ، وعملت على استمرارها تقاليد بدأت فى النمو فى القرون الإسلامية الأولى والتى كانت بدورها استمرارا لثراث ايرانى قديم ، وفى العصور الأموية كانت الموسيقى من معالم القصور ، تعزف

للمحاكم الذى يحافظ على مكانته بالتستر خلف ستارة ، وكتاب الأغاني
يسجل مثل هذه المناسبة فى القصور العباسية . يتحدث أحد ملحنى
الأغاني قائلا :

.. حتى حاصرت الى دار قوراء ، فيها أسرة فى وسطها ، قد أضيف
بعضها الى بعض ، فأمرنى الرجل بالصعود فصعدت ، وإذا رجل جالس عن
يمينه ثلاث جوار فى حجرهن العيدان ، وفى حجر الرجل عود ، فرحب
الرجل بى ، فلم ألبث أن خرج خادم من وراء الستر فقال للرجل :
تغن ، .. [وبعد أن تغنى هؤلاء الأربعة تغنيت بغناء لى .. فقال الفضل
ابن الربيع : هذا أمير المؤمنين قد أقبل اليك] (٤) .

وقد انتقل هذا الفن من البلاط العباسى الى قصور الأمويين فى
قرطبة حيث ازدهر تراث أندلسى ومغربى مختلف عن التراث الايراني
للقصور الشرقية .

وحيث ان الموسيقى كانت تنتقل شفاهة بشكل مباشر ، فلا توجد
أى سجلات لما كان يعزف أو يغنى حتى القرون اللاحقة ، ولكن يمكن أن
نعلم بعض الأمور من أعمال الذين كتبوا عن نظرية الموسيقى . وفقا
للمفكرين اليونان كان الفلاسفة المسلمون ينظرون للموسيقى باعتبارها
علما من العلوم ، حيث يمكن تفسير نظام الأصوات وفقا للمبادئ
الرياضية ، وكان تفسيرها مهما عندهم لأنهم اعتبروا الأصوات أصدا
لموسيقى الأكوان ، وتلك الحركات السماوية التى نبع منها كل ما يتحرك
فى الدنيا ، وكانت أعمال ابن سينا - الى جانب ما فيها من تكتهينات
فلسفية - تتناول تفاصيل عن أنماط التلحين والأداء والأدوات ، وتبين أن
الموسيقى فى القصور كانت صوتية أساسا ، حيث كانت الأشعار تغنى
بمصاحبة الآلات الوترية بنوعيتها : ما يعزف منها بندق الأوتار أو الاقواس
والنايات وأدوات الايقاع ، وكانت الأصوات حسب « مقامات » متعارف
عليها ، ولكن ضمن هذه الأنماط الثابتة، هناك مجال للارتجال والتنويعات
والزخارف التى كانت تصاحب الرقص ، الذى كانت تؤديه راقصات
محترفات فى القصور والمنازل الخاصة .

وقد كانت لكل طبقة من طبقات المجتمع فى الصحراء والريف والمدن
موسيقاها الخاصة للمناسبات المهمة من الحرب والحصاد والعمل
والزواج ، وكان لكل منطقة تراثها من الأغاني التى تغنى بمصاحبة دقات
الطبول أو بدونها ، أو مع النايات أو الوتريات ، وبعض المناسبات أيضا

كان يحتفل فيها بالرقص ، ليس رقص الراقصات المحترفات ، ولكن يؤديه الرجال أو النساء فرادى أو مجموعات ، وربما تسببت هجرة الشعوب وانتشار اللغة العربية وما صاحبها في توحيد ذلك التراث ولكن الاختلافات ظلت باقية من قرية لأخرى ، ومن قبيلة لأخرى .

وقد كانت موسيقى القصور مرتبطة بحياتها الدنيوية ، كما كانت الموسيقى الشعبية أيضا مرتبطة باختفالاتهم الدنيوية ، وقد عارض رجال الدين ذلك ولم يوافقوا عليها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحريم الموسيقى بالكامل ، لأنها سرعان ما لعبت دورا في الشعائر الدينية ، فلأذان (يقاعه الخاص ، وكان القرآن يجرى بأشكال معتمدة ، وكذلك الذكر كان مصحوبا بالموسيقى وبحركات جسمانية في بعض الطرق الصوفية ، ولذلك فقد كان من الأهمية لمن يكتبون في الفقه أن يضعوا تعريفا للشروط التي يسمح فيها بعزف وسماع الموسيقى ، وفي جزء مهم من كتاب « أحياء علوم الدين » للإمام الغزالي يعبر عن تأثير الموسيقى على القلب الانساني :

« ولا منفذ للقلب الا من دهليز الاسماع ، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو منساوئها » ، « فلا يظهر من القلب عند التحريك الا ما يحويه » ، « فالسمع للقلب محرك صادق ، (٥) »

ولذلك ، فمن الضروري تنظيم هذه القوة الطاغية فالموسيقى والشعر ليسا محرمين في حد ذاتهما ولكن طبقا للظروف ، فهما جائزان عندما يثيران الرغبة للحج ، أو حث الرجال على القتال في المواقف التي يكون فيها القتال مشروعا أو لاثارة الأسي المحمود (أسي الإنسان على نقائصه في واجبات الدين أو على خطائاه) (٦) أو الحب عندما يكون موضوع الحب مشروعا ، أو حب الله (ليس هناك صوت يطرق مسامع الانسان الا وكان من الله وفي الله) (٧) . الا أنها محرمة اذا كان المطرب ينير الاغراء أو تكون الأغنية خارجة أو ملحدة ، أو تثير الشهوات ، وقد حرمت آلات النفخ والآلات الوترية لارتباطها بالسكاري والمخنثين .

فهيم العالم

لم تكن قراءة الكتب قاصرة على علماء الدين وأساتذته في المدارس ، ولكن كان يمارسها أيضا أفراد العائلات الحضرية الذين اكتسبوا القدرة على القراءة ، وكان أمامهم كم هائل من الأعمال المكتوبة بالعربية ، وتنامي نوع من الوعي الثقافي بالذات في دراسة الثقافة المتراكمة بالعربية وفي التفكير فيها .

وكان الشرط اللازم لمثل هذا النشاط أن تكون الكتب متاحة بشكل ميسور ، وقد جعل التوسع في صناعة الورق واستخدامه منذ القرن التاسع وما بعده من نسخ الكتب عملية سهلة ورخيصة ، وكان الكتاب يملأ على الكتبة وبعدها يستمع الى النسخة أو تقرأ وتوثق بالاجازة وهي شهادة بصحة النقل ، وقد توسعت هذه العملية حتى ان الذين نسخوا الكتب فوضوا آخرين في نسخها وكانت النسخ تباع لدى الوراقين الذين تقع محالهم قريبا من المساجد الكبرى في المدينة ، وكانت المكتبات تشتري نسخا من الكتب .

وكانت أول المكتبات الكبيرة التي وصلنا اخبارها من انشاء الحكام ، فقد أقام المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) « بيت الحكمة » في بغداد ، كما أنشأ الفاطميون « دار العلوم » في القاهرة في بداية القرن الحادى عشر وكلتاها كانتا أكثر من مجرد مستودع للكتب، فكانتا أيضا مراكز للدراسة ونشر الأفكار التي يشجعها الحكام ، فقد كانت العلوم العقلانية مرغوبة في عصر المأمون ، وعلوم الاسماعيلية رائجة في القاهرة ، وفيما بعد تكاثرت المكتبات جزئيا لأنه أصبح من المتعارف عليه أن الكتب التي أسهمت في العلم وتعليم الدين يمكن أن تتحول الى وقف ، وكان للعديد من المساجد والمدارس مكتبات ملحقة بها ليس فقط لاستخدام الدارسين وطلاب العلم في دراساتهم الخاصة ، ولكن أيضا كمراكز للنسخ والنداول .

ولم يعترف الفقهاء الا بالكتب المتعلقة بالمعارف الدينية كموضوعات للوقف ، ولكن الحكام والأغنياء لم ينصاعوا بالضرورة لمثل هذا التمييز، وكانت للقصور والبيوت الكبيرة مكتبات يحوى بعضها كتباً مكتوبة بخط جميل ومزدانة بالصور .

وكان معظم من قرأ هذه الكتب أو كتبها ينتمون الى من يطلق عليهم الدارسون المحدثون « أدباء الذكريات » والذين تداولوا المعاجم والقواميس والحواشى على الأدب ودلائل العمل الادارى وقبل كل ذلك التاريخ والجغرافيا، وكانت كتابة التاريخ من خصائص الادب الحضري في المجتمعات الإسلامية وكانت الموضوعات المعرفية الجزء الأكبر من الكتابات في اللغات الرئيسية للإسلام بخلاف الأدب أو الكتابة الدينية ، ورغم أنها لا تشكل جزءا أساسيا من منهج المدرسة ، الا أن كتب التاريخ كانت تقرأ بشكل واسع بين الدارسين والطلاب ، وكذلك من القاعدة الشعبية الأوسع ، وكانت لها أهمية خاصة عند قطاع معين من القراء كالحكام ومن في

خدمتهم • حيث شُكل التاريخ ليس فقط سجلات للأُمجاد والانجازات
للأسر الحاكمة ، ولكن أيضا مجموعة من الأمثلة التي أحاطت بهم ، وتعتبر
دروسا في فنون الحكم •

ومع انتهاء وحدة الخلافة و ظهور الأسر الحاكمة بقصورهم
وبيروقراطيتهم وبرجوازياتهم تطورت كتابة التاريخ المحلي في العالم
الاسلامي ، وقد كتب الدارسون ومؤرخو القصور حوليات عن تاريخ
المدينة أو المنطقة ، وفي مثل هذه الأعمال قد يكون هناك موجز عن التاريخ
العام منقولا عن المؤرخين العظام في العصر العباسي ، على أن يلي ذلك تحليل
ونقد للأحداث والوقائع المحلية أو الأسرة الحاكمة مسجلة عاما بعد
عام وسير أولئك الذين ماتوا خلال ذلك العام وقد استطاع ابن الأثير
(١١٦٣ - ١٢٣٣) في سوريا أن يوضح أحداث عصره وموقعها في سياق
التاريخ العام ، وفي مصر غطت الفترة المملوكية التاريخ المحلي الذي كتبه
المقريزي (ت ١٤٤٢) وابن اياس (ت ١٥٢٤) :

« فقد زلت أقدام كثير من الانبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه
الأحاديث والآراء ، وعلقت بأفكارهم ، ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر
والغفلة عن التباس ٠٠٠ حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا ٠٠ فلذا
يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات
واختلاف الأمم والبقاع والأمصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل
والمذاهب وسائر الأحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه
وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها
والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادئ ظهورها وأسباب
حدوثها ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا
لأسباب كل خبرة ، يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول
فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والا زيفه واستغنى
عنه » (٨) •

وقد غطى التاريخ المحلي الذي كتبه المقريزي (ت ١٤٤٢) وابن اياس
(ت ١٥٢٤) في مصر فترة الحكم المملوكي ، كما أن تاريخ ابن خلدون
غطى تاريخ الأسر الحاكمة من العرب والبربر ، وسبقها مقدمته الشهيرة
التي يتناول فيها مبادئ الاخبار والتفسير في الكتابة الجادة للتاريخ •
نتوصل اليها في ضوء مبادئه للشرح والتفسير اذا كانتا منسجمتين
فمعلوماته صائبة سليمة والا فهي مختلفة غير صائبة •

وقد ظهر نتيجة الاهتمام بتنوع التجارب الانسانية فرع آخر من الكتابة هو الجغرافيا وأدب الرحلات، والذين كتبوا عن الجغرافيا خلطوا بين المعرفة المسندة من الاغريق والاييرانيين والهنود ، وبين ملاحظات العسكر والرحالة ، فى حين اقتصر بعضهم على رواية قصص أسفارهم الخاصة ، وما شاهدوه بأنفسهم مثل كتابات ابن بطوطة (ت ١٣٧٧) النى كانت أكثرها ايجالا فى البلاد ، وأعطت مفهوما لامتداد العالم الاسلامى وتنوع المجتمعات الانسانية فيه ، وانكب الآخرون بشكل منظم على دراسة بلدان العالم وعلاقتها ببعضها لتسجيل اختلافات التنوع فى خصائصها الطبيعية عن الشعوب والعادات وتتبع المسارات التى ربطت بعضها ببعض ، والمسافات بينها ، وعليه ، فقد كتب المقدسى توليفة للجغرافيا الطبيعية والانسانية عن العالم المعروف ، مبنية على تعليقاته الخاصة على ملاحظات شهود ثقات ، والياقوتى (ت ١١٢٩) الذى ألف نوعا من المعاجم الجغرافية .

وقد اختلف ذوق البرجوازية عن ذوق علماء الدين وطلابه فى المدارس ، وخاصة العائلات التى قدمت أبنائها من الكتبة والمحاسبين والأطباء للحكام ، فكانت منجذبة بحكم طبيعة عملها للفكر الذى كان نتاجا للملاحظة والاستدلال المنطقى من المبادئ العقلانية ، وكانت تكهنات الفلاسفة تشير الشك عند مدارس الفقه وبعض الحكام ، ولكن الطرق الأخرى لاستعمال العقل للوعى بطبيعة الأشياء أثارت شكوكا أقل وكانت لها منافع عملية .

وقد كانت لعلم الفلك قمة عملية ، لأنه وفر وسائل حساب التواريخ والمواقيت ، وكان ذلك أحد القطاعات التى جرى فيها استعمال اللغة العربية على نطاق واسع من البحر المتوسط الى المحيط الهندى ، وجعل بالامكان ربط التراث الاغريقى العلمى بنظائره من الهند وايران .

وهناك علم آخر كان أكثر شيوعا فى الاسنعمال ، فقد اكتسب الأطباء أهمية كبرى فى المجتمعات الاسلامية من خلال عنايتهم بصحة الحكام والأعيان ، وأمكنهم اكتساب نفوذ سياسى كبير ، ولم يكن بإمكانهم تحقيق أعمالهم بدون قدر من التفهم بطبيعة وأنشطة الجسم البشرى وعن العناصر الطبيعية التى يتكون منها ، وكان جوهر المعرفة الطبية الاسلامية مأخوذا من النظرية الفسيولوجية الطبية اليونانية وخاصة عن أعمال جالينوس الجامعة العظيمة ، وتأسست هذه النظرية على الاعتقاد بأن الجسم البشرى مكون من أربعة عناصر يتكون منها كل العالم المادى هى النار والهواء والتراب والماء ، وهذه العناصر يمكن خلطها بأكثر من طريقة .

وهذه الخلطات المختلفة أوجدت اختلافا في الأمزجة والطبائع ، والتوازن المناسب من هذه العناصر يحافظ على صحة البدن ، وغيبابه يؤدي الى المرض الذى يحتاج الى فن الطبيب .

وقد تجلت عظمة مبادئ الطب خلال العصر العباسى فى عملين عظيمين ، هما (الحاوى) الذى كتبه أبو بكر الرازي (٨٦٣ - ٩٢٥) ، و (القانون) لابن سينا ، وكانا مبنيين على أعمال كبار العلماء اليونانيين الا أنهما أثبتا تبلور ترات اسلامى متميز فى الطب ، وعملا على استمرار تداوله ، وقد كان كتاب ابن سينا الذى ترجم الى اللاتينية ولغات أخرى، أهم النصوص التى يعتمد عليها الطب الأوروبى حتى القرن السادس عشر على الأقل .

وفن الطب كما تفهمه الأطباء المسلمون لم يكن يدرس بالمدارس ، ولكن بالتدريب العملى فى (البيمارستان) وهى المستشفيات التى كانت ترعاها الأوقاف فى المدن الرئيسية ، ويبدو أن الممارسين المسلمين العظام فى فن الشفاء قد أسهموا بأجل أعمالهم من واقع الممارسة ، فقد راقبوا تطور الأمراض ووصفوها ، وقد يكون ابن الخطيب (١٣١٣ - ٧٤) أول من تفهم ظاهرة الأوبئة والطاعون وانتشارها بالعدوى ، ودرسوا صناعة العقاقير من النباتات الطبية وآثارها على الأجسام البشرية ، وكانت الفارماكوبيا منتشرة ، ويقال ان الصيدلة كانت ابتكارا اسلاميا ، وكذلك أدركوا أهمية العوامل التى يمكن أن تمنع اختلال التوازن بين العناصر مما يؤدي الى المرض فى اعتقادهم ، وهى النظام الغذائى الصحى والهواء النقى والتمارين الرياضية .

وفى القرون اللاحقة جرت محاولة لايجاد نظام بديل للعلوم الطبية هى (الطب النبوى) وكان هذا الكتاب رد فعل فى مواجهة التراث الذى وضعه جالينوس ، وكان نظاما مبنيا على الأحاديث النبوية والمشاهدات المسجلة عن ممارسات النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته حيال الصحة والمرض ، ولم يضعه رجال طب ، ولكن وضعه فقهاء وأصوليون ممن تبنوا نظرة صارمة بأن القرآن والحديث يحويان كل ما هو ضرورى لتسيير الحياة الانسانية ، وقد كان ذلك اعتقاد الأقلية حتى بين علماء الدين ، وقد عارضه رأى نقدى رزين لابن خلدون ، بأن هذا النوع من الطب يمكن أن يصيب أحيانا وبالصدفة ، ولكنه ليس مبنيا على المبادئ العقلية ، وأن الأحداث والآراء التى سجلت فيما يتعلق بحياة النبى لم تمثل جانبا من الوحي الالهى المقدس :

« فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات ، . . . فلا ينبغي أن يحل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع » (٩) .

وقد كان هناك بين التعليم الرسمي للعلوم الدينية وبين تكهنات الفلاسفة منطقة واسعة من خلال المعتقدات والممارسات التي أمل الانسان أن يتمكن من خلالها من تفهم القوى الكونية والتحكم فيها ، وقد عكست مثل هذه المعتقدات الخوف والحيرة في مواجهة ما لا يدرك من مصير قاس ، ولكنها قد تكون أكبر من ذلك ، فالخط الفاصل بين العلم والخرافة لم يكن بنفس وضوحه اليوم ، وقد آمن كثير من الرجال والنساء المتعلمين بمثل هذه المعتقدات والممارسات ، لأنها كانت مبنية على أفكار واسعة الانتشار ، ورفضها بعض الفلاسفة وعلماء الدين لأسباب مختلفة .

وقد كانت ادعاءات علماء الفلك مبنية على فكرة منتشرة ولها أساس سلفي جدير بالاحترام : ومؤداهما أن العالم السماوي يحدد شئون العالم البشري وأن الحدود ما بين العالمين تتمثل في الكون والنجوم ، وفي دراسة تكوينها وحركتها بحيث تفسر ما مضى وما يأتي ، وحتى أن تجعل من الامكان تغييره ، وكانت هذه الفكرة منتشرة بين اليونانيين ، وتبناها بعض المفكرين الاسلاميين ، واتخذت شكلا اسلاميا محددا على أيدي المفكرين الصوفيين ، وهي أن أشياء العالم ينظر لها باعتبارها انبعاثات من الله ، وقد طور علماء الفلك المسلمون تقنيات التكهّنات والتأثيرات على سبيل المثال بكتابة الحروف والأرقام في ترتيبات معينة على مواد من أنواع مختلفة (الأوفاق) . حتى ان بعض المفكرين المتميزين قبلوا بادعاءات الفلكيين واعتقدوا بأن النجوم لها تأثير على صحة الجسد ، ولكن المشرعين المحافظين والفلاسفة العقلانيين رفضوا ذلك ، فكان ابن خلدون يرى أن لا أساس لها في حقيقة الوحي ، وأنها تؤدي الى انكار دور الله كقوة صمدية قادرة .

كذلك ساد الاعتقاد بين الكيميائيين (*) بأن الذهب والفضة يمكن انتاجهما من المعادن الخسيسة اذا أمكن ايجاد طريقة لذلك ، وقد كانت لممارسات الكيمياء أسسها في نظرية علمية مأخوذة عن اليونانيين، وذلك في الفكرة القائلة بأن كل المعادن تشكل نوعا طبيعيا واحدا ، وتتميز عن بعضها البعض عن طريق العوارض وأن هذه العوارض تتغير ببطء لتصبح

(*) يسمون بالسيميائيين ، تميزا لهم عن الكيميائيين - (المراجع) .

أكثر قينسة ، وعليه فتحويلها الى فضة أو ذهب ليست حركة فى اتجاه معاكس لقوانين الطبيعة ، وانما هو تعجيل ، عن طريق التدخل الانسانى ، بانجاز عملية كانت جارية بالفعل ، ومرة أخرى كان هناك جدل حول ذلك بين المتعلمين ، واعتقد ابن خلدون بأن من الممكن انتاج الذهب والفضة عن طريق السحر أو المعجزات الالهية ، وليس بالحرفة البشرية ، وحتى اذا كان ذلك ممكنا فليس مطلوبا ، لأنه اذا لم يعد الذهب والفضة نادرين ، فلن يصلحا مقياسا للقيمة .

وقد كان الاعتقاد فى الأرواح والحاجة لايجاد طريقة ما للتحكم فيها والسيطرة عليها أكثر انتشارا ، بل كان عالميا فى الواقع ، فكان الجان عندهم أرواحا بأجساد من الأبخرة أو النار يمكن أن تظهر للحواس ، وغالبا على هيئة حيوانات ، ويمكن أن يكون لها تأثير على حياة الانسان ، وكانت فى بعض الأحيان شريرة أو على الأقل خادعة مضللة ، ولهذا كان من الضرورى محاولة السيطرة عليها ، ويمكن أن يكون هناك أيضا أناس لهم القدرة على السيطرة على أفعال وحياة الآخرين ، اما لأنهم ذوو خصائص معينة لا سيطرة لهم عليها مثل الجسد أو من خلال الممارسة المقصودة لأعمال معينة ، على سبيل المثال الاتيان ببعض الحركات الطقسية فى ظروف معينة ، يمكن أن تستثير قوى ما وراء الطبيعة ، وكان هذا انعكاسا مشوشا عن القوى التى يحوزها الفضلاء من أولياء الله منه ، وحتى ابن خلدون المتحفظ اعتقد بأن السحر موجود بالفعل ، وأن بإمكان بعض الأفراد أن يتوصلوا الى السيطرة على الآخرين ، ولكنه اعتقد بعدم امكان تفسيرها ، وكان هناك اعتقاد سائد بأن مثل هذه القوى يمكن التحكم فيها أو تحويلها بالتعاون والأحبة التى توضع على أجزاء معينة من الجسم ، أو الترتيبات السحرية من الكلمات والأرقام ، أو ممارسات استخراج الأرواح بالغناء والطقوس مثل الزار وهو طقس ما زال واسع الانتشار فى وادى النيل .

وقد ساد الاعتقاد فى كل ثقافات ما قبل العصور الحديثة بأن الأحلام تفتح بابا لعالم آخر خلاف العالم المحسوس ويمكن أن تأتي عن طريقها رسائل من الله ، ويمكن أن تكشف أبعادا خفية عن روح الانسان ، كما يمكن أن تأتي من الجن أو الشياطين ، ولا بد أن الرغبة فى استكناه معنى الأحلام كان منتشرا واعتبر أمرا مشروعاً بشكل عام ، فالأحلام تخبرنا عن أشياء من المهم أن نعرفها ، وقد نظر اليها ابن خلدون باعتبارها

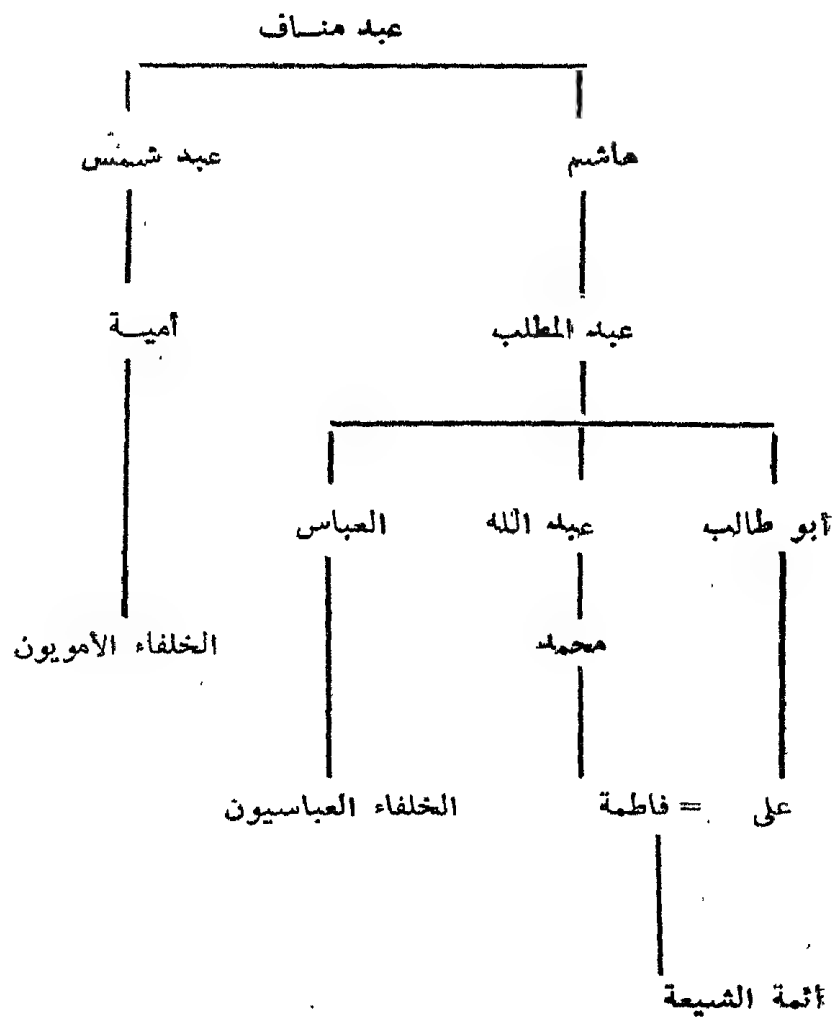
أحد علوم الدين ، وحيداً ينتهى الاستيعاب الحسى بالنوم يمكن أن
ينكشف للروح جانب من حقيقتها ، حيث انها انطلقت من جسدها ،
فانها تستطيع استيعاب ما ينتمى الى عالمها ، وتعود بعد ذلك الى الجسد،
بحيث تنقل ما استوعبته الى الخيال الذى يقوم باختلاق الصور المناسبة
التي يمكن للنائم أن يحس بها كما لو كانت استيعاباً حسياً ، وقد أخذ
علماء المسلمين تفسير الأحلام عن اليونانيين ، ولكنهم أضافوا اليه ، وقيل
عن كتب تفسير الأحلام الاسلامية انها أغنى الكتب فى هذا الفرع على
الإطلاق .

الأنساب والأسر الحاكمة

هوامش

مراجع

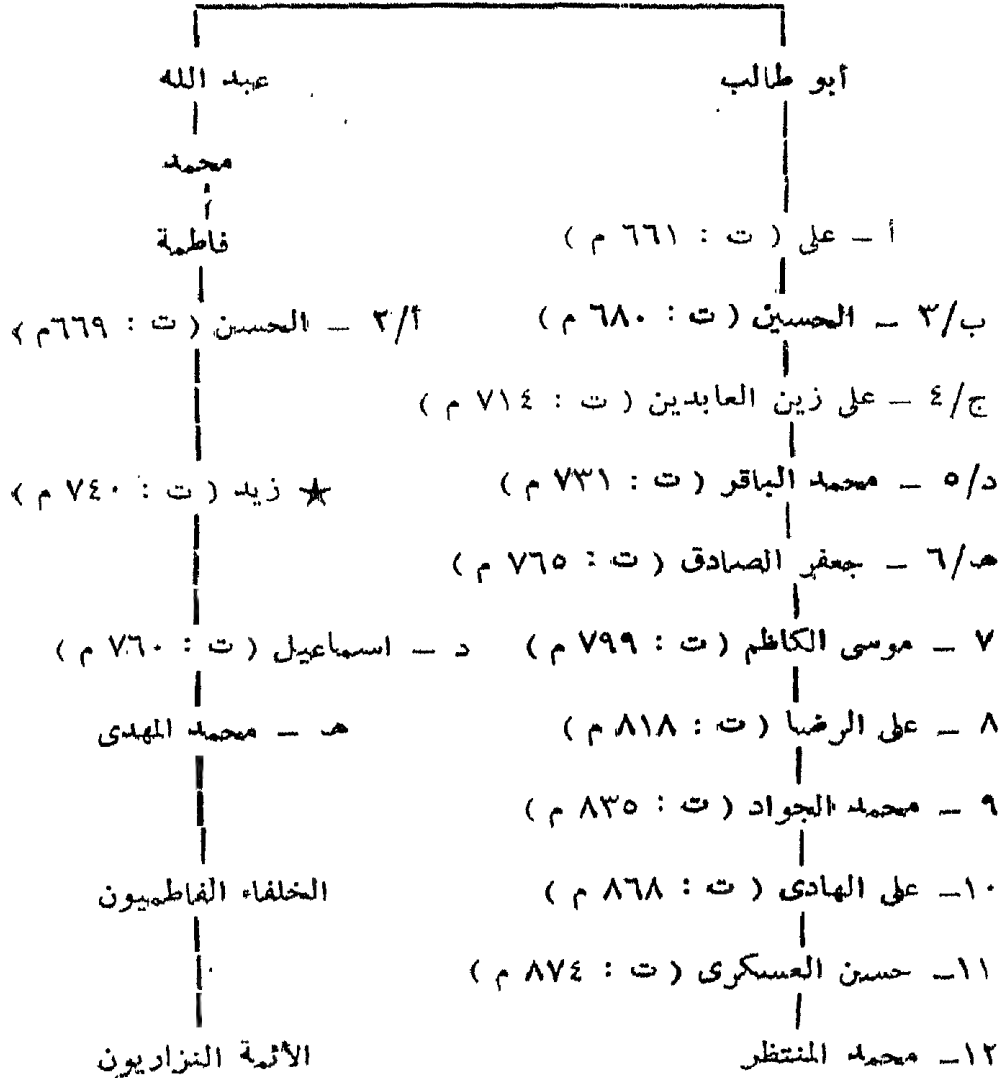
أسرة الرسول



عن كتاب ملخص دراسات الشرق الاوسط ، ج . ل .
 بإشاراش ، سيتل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .

أئمة الشيعة

عبد المطلب



- الأرقام تشير الى تتابع الأئمة الذي يعترف به الشيعة الاثنا عشرية .
- الحروف تشير الى تتابع الأئمة في نظر الاسماعيلية .
- يعترف به الزيديون كامام .
- عن كتاب « ملخص دراسات الشرق الأوسط » ج.ل. باشاراش ،
- سيتل ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ .

الخلفاء

الراشدون

يسمى السنيون الخلفاء الأربعة الأوائل بالراشدين :

- أبو بكر [٦٢٣ - ٦٣٤ م]
- عمر بن الخطاب [٦٣٤ - ٦٤٤ م]
- عثمان بن عفان [٦٤٤ - ٦٥٦ م]
- علي بن أبي طالب [٦٥٦ - ٦٦١ م]

الأمويون

- معاوية بن أبي سفيان [٦٦١ - ٦٨٠ م]
- يزيد الأول [٦٨٠ - ٦٨٣ م]
- معاوية الثاني [٦٨٣ - ٦٨٤ م]
- مروان الأول [٦٨٤ - ٧٠٥ م]
- الوليد الأول [٧٠٥ - ٧١٥ م]
- سليمان [٧١٥ - ٧١٧ م]
- عمر بن عبد العزيز [٧١٧ - ٧٢٠ م]
- يزيد الثاني [٧٢٠ - ٧٢٤ م]
- هشام [٧٢٤ - ٧٤٣ م]
- الوليد الثاني [٧٤٣ - ٧٤٤ م]
- يزيد الثالث [٧٤٤ م]
- إبراهيم [٧٤٤ م]
- مروان الثاني [٧٤٤ - ٧٥٠ م]

العباسيون

- أبو العباس السفاح [٧٤٩ - ٧٥٤ م]
- المنصور [٧٥٤ - ٧٧٥ م]
- المهدي [٧٧٥ - ٧٨٣ م]
- الهادي [٧٨٣ - ٧٨٦ م]
- هارون الرشيد [٧٨٦ - ٨٠٩ م]
- الأمين [٨٠٩ - ٨١٣ م]
- المعتصم [٨١٣ - ٨٤٢ م]
- الواثق [٨٤٢ - ٨٤٧ م]
- المتوكل [٨٤٧ - ٨٦١ م]
- المستعين [٨٦٢ - ٨٦٦ م]
- المعتز [٨٦٦ - ٨٦٩ م]
- المهتدي [٨٦٩ - ٨٧٠ م]
- المعتمد [٨٧٠ - ٨٩٢ م]
- المعتضد [٨٩٢ - ٩٠٢ م]
- المكتفي [٩٠٢ - ٩٠٨ م]
- المقتدر [٩٠٨ - ٩٣٢ م]
- القاهر [٩٣٢ - ٩٣٤ م]
- المتقي [٩٤٠ - ٩٤٤ م]
- المستكفي [٩٤٤ - ٩٧٤ م]
- الطائع [٩٧٤ - ٩٩١ م]
- القادر [٩٩١ - ١٠٣١ م]
- القائم [١٠٣١ - ١٠٧٥ م]
- المقتدي [١٠٧٥ - ١٠٩٤ م]

- المسترشد [١٠٩٤ - ١١٣٥ م]
- الراشد [١١٣٥ - ١١٣٦ م]
- المقتفى [١١٣٦ - ١١٦٠ م]
- المستنجد [١١٦٠ - ١١٧٠ م]
- المستضيء [١١٧٠ - ١١٨٠ م]
- الناصر [١١٨٠ - ١٢٢٥ م]
- الظاهر [١٢٢٥ - ١٢٢٦ م]
- المستنصر [١٢٢٦ - ١٢٤٢ م]
- المستعصم [١٢٤٢ - ١٢٥٨ م]

عن الدول الإسلامية ، س . أ بروزورث ، ادنبرج ، ١٩٦٧ .

الأسس الحاكمة فى القرنين

التاسع عشر والعشرين

السلطان العثمانيون

- سليم الثالث [١٧٨٩ - ١٨٠٧ م]
- مصطفى الرابع [١٨٠٧ - ١٨٠٨ م]
- محمد الثانى [١٨٠٨ - ١٨٣٩ م]
- عبد المجيد الأول [١٨٣٩ - ١٨٦١ م]
- عبد العزيز [١٨٦١ - ١٨٧٦ م]
- مراد الخامس [١٨٧٦ م]
- عبد الحميد الثانى [١٨٧٦ - ١٩٠٩ م]
- محمد الثانى الرشاد [١٩٠٩ - ١٩١٨ م]
- محمد الخامس وحيد الدين [١٩١٨ - ١٩٢٢ م]
- عبد الحميد الثانى (اعترف به خليفة وليس سلطانا) [١٩٢٢ - ١٩٢٤ م]

ملوك العربية السعودية

- عبد العزيز [١٩٢٦ - ١٩٥٣ م]
- سعود [١٩٥٣ - ١٩٦٤ م]
- فيصل [١٩٦٤ - ١٩٧٥ م]
- خالد [١٩٧٥ - ١٩٨٢ م]
- فهد [١٩٨٢ - الآن]

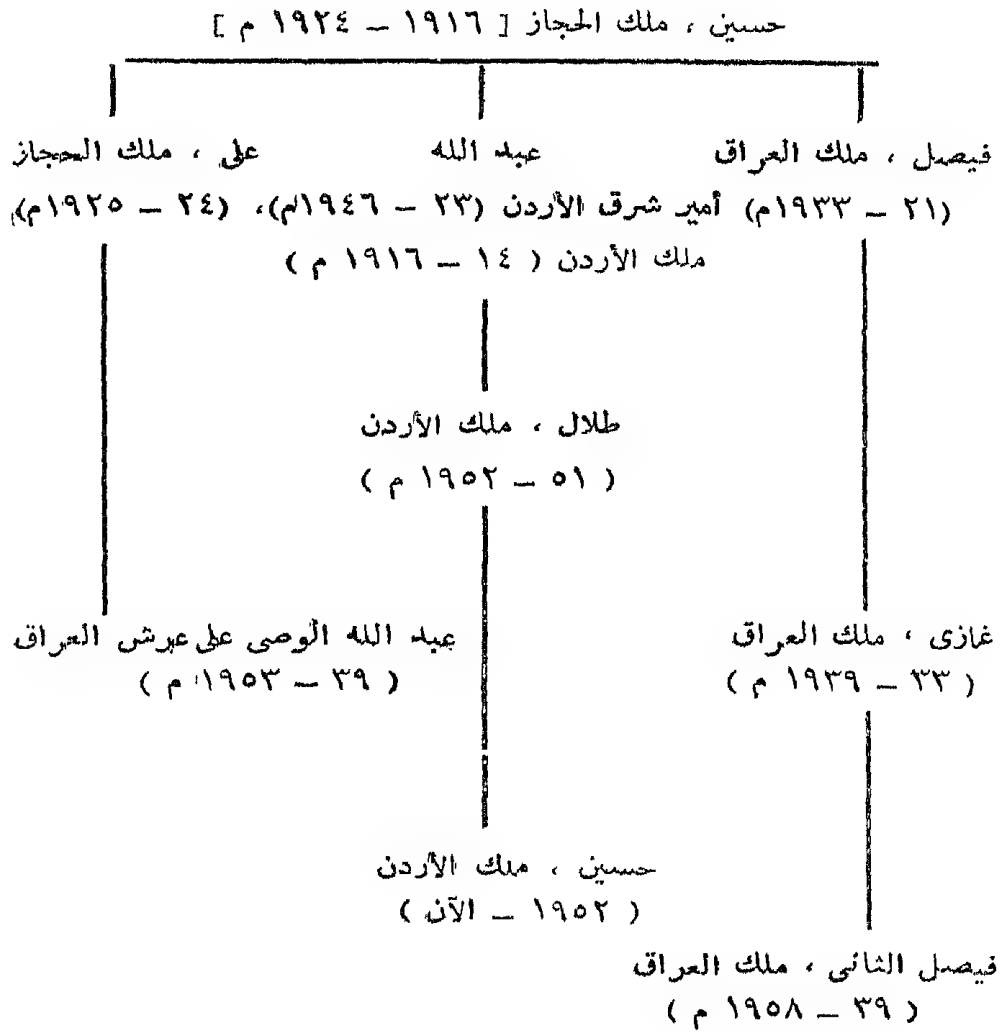
أسرة محمد علي

- محمد علي ، والي مصر [١٨٠٥ - ١٨٤٨ م]
- إبراهيم ، وال [١٨٤٨ م]
- عباس ، وال [١٨٥٤ - ١٩٤٨ م]
- اسماعيل ، خديو [١٨٦٣ - ١٨٧٩ م]
- سعيد ، وال [١٨٥٤ - ١٨٦٣ م]
- توفيق ، خديو [١٨٧٩ - ١٨٩٢ م]
- عباس حلمي ، خديو [١٨٩٢ - ١٩١٤ م]
- حسين كامل ، سلطان [١٩١٤ - ١٩١٧ م]
- فؤاد الأول ، سلطان ، ثم ملك [١٩١٧ - ١٩٣٦ م]
- فاروق ، ملك [١٩٣٦ - ١٩٥٢ م]
- فؤاد الثاني ، ملك [١٩٥٢ - ١٩٥٣ م]

العلويون في المغرب

- سليمان ، سلطان [١٧٩٦ - ١٨٢٢ م]
- عبد الرحمن ، سلطان [١٨٢٢ - ١٨٥٩ م]
- محمد ، سلطان [١٨٥٩ - ١٨٧٣ م]
- عبد العزيز ، سلطان [١٨٩٤ - ١٩٠٨ م]
- يوسف ، سلطان [١٩١٢ - ١٩٢٧ م]
- الحسن الثاني [١٩٦١ - الآن]

الهشميميون



الهوامش

الهوامش الواردة في هذا الكتاب ثم اختصارها الى الحد الأدنى ، حيث أنها لم تتعد الإشارة الى النصوص المباشرة ، الا أن قليلا منها أشار الى مراجع نقلت مادتها بلا تصرف ، وكلما تيسرت لي ترجمة انجليزية يعتمد عليها أخذت منها مباشرة أو استعنت بها في الترجمة .

المقدمة :

- (١) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، (القاهرة) ، ص ٣٣ .
- (٢) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .
- (٣) ابن خلدون ، التعريف بآيين خلدون ، م.ت. الطنجي . (القاهرة ١١٥١) . ص ٢٤٦ .

الفصل الأول :

- (١) R. B. Serjeant « Haram and Hawta » A.R. Badawi
- (٢) البستاني وآخرون : المجاني الحديث ، الجزء الأول ، (بيروت ، ١٩٤٦) ، ص ١٠٣ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ١١٢-١١٣ .
- (٤) نفس المرجع ، ص ٨٨ .
- (٥) A. Guillaume « The life of Mohamad » (London 1955).
- (٦) قرآن كريم ، ٩٦ . ٨٥١ .

الفصل الثاني :

- (١) The formation of Islamic art » Grabar (New Haven 1973)
- (٢) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ ، تحقيق م. إبراهيم ، ج ٧ ، (القاهرة ، ١٩٦٦) ، ص ٤٢١ - ٤٢١ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ٦١٤-٦٣٢ .
- (٤) الخطيب البنداري ، تاريخ بغداد ، الجزء ١ ، (القاهرة ١٩٣١) ، ص ١٠٠ .

الفصل الثالث :

- (١) R. W. Bulliet « Conversion to Islam in Medieval Period » (Cambridge, Mas).
- (٢) أبو الطيب المقتبى ، ديوان ، تحقيق ع. عزام ، (القاهرة ١٩٤٤) ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ٢٢٢-٢٤٥ .
- (٤) عمرو بن بحر الجاحظ « النبل وذم الكبر » (لندن ١٩٦٩) .
- C. Pellat : The life and works of Jahiz (London, 1969), p. 33.
- (٥) محمد أبو ریحان البيروني ، تحقيق ماللهند ، (حيدر آباد ، ١٩٥٨) ص ٥ .
- (٦) المرجع نفسه .
- (٧) المرجع نفسه .
- (٨) كتاب « الصينية في الطب » ، ص (١٢) .
- (٩) المشاعر الدينية في مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، مجلد ٤٣ (١٩٨٠) .

الفصل الرابع :

- (١) J. Crone & M. Hinds, God's Caliph Cambridge, 1986.
- (٢) القرآن الكريم .
- (٣) محمد بن ادريس الشافعى ، الرسالة ، تحقيق محمد شاكر ٢٧٢ ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- (٤ - ٥) القرآن الكريم .
- (٦) أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- (٧) محمد بن على الترمذى ، كتاب خاتم الأولياء ، (المراجع : لعله خطأ مطبعي أو أن الأمر القيس على المؤلف ، فلا نعلم للترمذى كتاب بهذا الاسم) .
- (٨) الأصبهاني ، حلية الأولياء ، مجلد ١٠ ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٧٩ .
- (٩) يعقوب بن اسحق الكندى ، فى الفلسفة (فى رسائل الكندى الفلسفية لأبى رضا ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- (١٠) أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة ، عيون الألبا فى طبقات الألبا ، (بيروت ١٩٧٩) ، جزء ١ ، ص ٤٣ . (ليس له مقابل فى المتن ، ولعله خطأ مطبعي - (المراجع) .
- (١١) A. I. Sabra The Scientific Enterprise (London 1976).

الفصل السادس :

- (١) انظر R. M. Adams « Land Behind Baghdad », Chicago 1965.
- (٢) انظر : م. بریت « ابن خلدون وتعريب شمال أفريقيا » .
- (٣) انظر : L. Abul-Lughod « Veiled Sentiments », (Berkely 1986).

الفصل السابع :

- (١) ابن الحاج ، المدخل ، (القاهرة ١٩٢٩) ، جزء ١ ، ص ٢٤٦-٥ .
- (٢) قرآن كريم ، ٤٠ : ٤٠ ، ١٦ : ٩٧ .
- (٣) انظر R. Le Tourneau « Fes avant le protectorat » (Casablanca 1949).
- (٤) انظر « رحلة » محمد بن عبد الله بطوطة .

الفصل الثامن :

- (١) انظر : لابيديوس « المدن الاسلامية فى أواخر العصور الوسطى » ١٩٦٧ .
- (٢) انظر : Burgoyne, Richards « Mamluk Jerusalem » (London 1987).
- (٣) انظر : لطائف المتن والأخلاق « الامام الشعراوى .
- (٤) قرآن كريم ، ٥ : ٥٩ .
- (٥) « الدولة والحكومة فى العصور الاسلامية المتوسطة » . لامبتون (أكسفورد : ١٩٨١) .
- (٦) نصيحة الملوك للغزالي ، (طهران ١٩٧٢) .
- (٧) انظر : نظام الملك « كتاب الحكومة » (لندن ١٩٧٨) .
- (٨) انظر . المرجع نفسه . Ibid.

الفصل التاسع :

- (١) قرآن كريم ٣ : ١٠٥ .
- (٢) انظر . جيلوم « حياة محمد » ، ص ٦٥١ .
- (٣) انظر : Grunebaum « Mohammadan Festivals » (NY, 19٤1).
- (٤) انظر . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٥٣ .
- (٥) قرآن كريم ٣ . ٩٧ .
- (٦) قرآن كريم ٩ . ١٢٧ .
- (٧) Moslem Devotions C. Padwick, (London 1961).
- (٨) قرآن كريم ، ١٢ : ١٠١ .

الفصل العاشر :

- (١) انظر : ابن أبي زيد القيرواني ، « الرسالة » بيرشر .
- (٢) انظر . Udovitch « Partnership and Profit in medieval Islam »
- (٣) انظر : نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية .
مجلد ٤٢ ص ٢٩ (١٩٧٩)
- (٤) انظر : « Burgoyne « Mamluk Jerusalem » ص ٧١ - ٧٢ .
- (٥) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنبا ، جزء ٣ ، ص ٤٢ - ٣٤٤ .
- (٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، تحقيق صليبة وعياد ، الطبعة الثالثة ، (دمشق ١٩٣٩) ، ص ١٢٧ .
- (٧) الغزالي ، نيسل التفرقة بين الاسلام والزنادقة ، تحقيق س . دنيا ، (القاهرة ، ١٩٦١) ، ص ٢٠٢
- (٨) احياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، الكتاب الثاني (القاهرة ١٩١٦) ص ٥٢ .
- (٩) الغزالي ، المنقذ ، ص ١٢٢ .
- (١٠) الغزالي ، احياء ، الجزء ٣ ، الكتاب ١ ، مجلد ٢ ، ص ١٧ .

الفصل الحادي عشر :

- (١) الحسين بن عبد الله ابن سينا « حياة ابن سينا » W. Gohlman
- (٢) قرآن كريم ٢٤ : ٣٥-٣٩ .
- (٣) قرآن كريم ٣ : ١٩١ .
- (٤) محمد بن أحمد بن رشد ، فصل المقال ، تحقيق ج . ف . حوراني ، (لندن . ١٩٥٩) .
- O. Yahia, Histoire et classification De L'Oeuvre d'Ibn Arabi (Damascus 1964).
- (٥) نفس المرجع ، ص ١٧ .
- (٦) محيي الدين بن عربي ، شجرة الكون ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٤٥ .
- (٧ - ٨) أحمد بن تيمية ، مجموعات الرسائل الكبرى (القاهرة ، ١٩٠٥) جزء ١ .
ص ٣٠٩-٧ .
- (٩) انظر : O. Yahia Vol. 1, p. 13.

الفصل الثاني عشر :

- (١) أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ديوان ، تحقيق له البستاني ، (بيروت ١٩٥١) ،
ص ٢٩-٣٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٩-٨٠ .

(٣) محمد بن عبد الملك بن طليل ، حى بن يقظان ، تحقيق صليبة وعياد ، الطبعة الخامسة ، (دمشق ١٩٤٠) ، ص ١-١٩٢ .

(٤) أبو الفرج الأصبهاني ، كتاب الأغاني ، (بيروت ١٩٥٥) ، جزء ١ ، ص ٩٤-٢٩٨ .

(٥) الغزالي ، احياء ، جزء ٣ ، كتاب ٨ ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٤٩ .

(٨) ابن خلدون ، ص ٢٨ .

(٩) ابن خلدون ، ص ٣ - ٤٩٤ .

اقرأ في هذه السلسلة

جورج داهموس
سبع معارك فاصلة في المصراع
الوسطى

د. لينواير تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية إزاء مصر

د. جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السنة

بيير البير
الصحافة

د. غبريال وهبة
الر الكوميديا الإلهية لداغتي
في الفن التشكيلي

د. رمسيس عروس
لأب الروس قبل الثورة
الباشقية ويعدها

د. محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز في عالم
متغير

فرانكلين ل. بارمر
الفكر الأوربي الحديث ٤ ج

شوكوت الربيعي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي

د. محي الدين أحمد حسين
الكتشنة الأسرية والإبناة الصغير

ج. دادلي اندرو
نظريات الفيلم الكبري

جوزيف كورنراد
مختارات من الأدب القصص

د. جرهان دورشنر
حياة في الكون كيف نشأت
واين توجد

ماتلة من العلماء الأمريكيين
مباشرة الدفاع الإستراتيجي
حرب الفضاء

د. السيد عليوة
إدارة المصراعات الدولية

د. مصطفى عباس
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والحديثين

مختارات من الأدب الياباني
الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة

بيل شول واسبنيت
القوة النفسية للأمرام

د. صفاء خلوصي
فن الترجمة

رالف ثي مانلو
تولستوي

فيكتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من الملفي

فيرنر هيرنبورج
لجزء والكل « محاورات في مضمنا
الفيزياء الذرية »

سنتي هوك
التراث القامض - ماركس
والماركسيون

د. ع. ادينكوف
فن الأدب الروائي عند تولستوي

هادي نعمان الهيتي
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه
وسائطه »

د. نعمة رحيب العزاوي
أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً

د. فاضل أحمد الطائي
أعلام العرب في الكيمياء

جلال العنصري
فكرة المسرح

هنري باربريس
الجميع

د. السيد عليوة
صنع القرار السياسي في
منظمات الإدارة العامة

حاكوب برونولسكي
التطور الحضاري للإنسان

د. روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتي ثير
تربية النواجن

١٩ سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القديمة

د. ناعوم بيترونييتس
التحل والطب

متراند رسي
أحلام الإعلام وقصص أخرى
ي. رادو نكايانم جابوتسكي
الاكترونيات والحياة الحديثة

أليس هكسلي
نقطة مقابل نقطة

ت. و. فريمان
الجغرافيا في مائة عام

رايموند وليمز
الثقافة والمجتمع

د. ج. فوريس و. ج. ديكنستور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليسترديل راي
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الإنجليزية

لويس فارجادس
المشهد إلى الفن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د. قدرى حفنى وآخرون
الإنسان المصري على الشاشة

أولج فولكف
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية في السينما

ديفيد وليام ماكدرال
مجموعات النقر - صيانتها
تصليتها - عرضها

مزيو الشران
الموسيقى تعبير نفسي ومطلق

د. محسن جاسم الموسوي
مصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الإنسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة - الإنجليزية
والترانسية

د. عبد المطلب شعراوي
المسرح المصري المعاصر
أصله وديانته

أنور السداوي
على محمود طه الشاعر والإنسان

جابريل باير تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة	روى روبرتسون الهيرويين والايين والرهما في المجتمع	د. كولمان الاساطير الاغريقية والرومانية
أنتوني دى كرسيس وكينيث هيموج اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	دور كاس ماكليتون صور افريقية • نظرة على حيوانات افريقيا	د. توماس ا. هاريس التوافق النفسي - تحليل المعاملات الانسانية
درايت سوين كتاية السيناريو للسينما	هاشم النحاس نجيب محفوظ على الشاشة	لجنة الترجمة . المجلس الاعلى للثقافة الدليل الببليوجرافى روائع الاداب العالمية ج ١
راميلسكى م. س الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السفين)	د. محمود سرى طه الكومبيوتر في مجالات الحياة	روى آرمن لغة الصورة في السينما المعاصرة
مهندس ابراهيم القرضاوى أجهزة تكييف الهواء	بيتر لورى المخدرات حقائق نفسية	ناجى متشيو الثورة الاصلاحية في اليابان
بيتر رداى الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بريس فيدوروفيتش سيرجيف وظائف الاعضاء في الالف اليسام	بول هاريسون العالم الثالث غدا
جوريف دامموس سبعة مؤرخين في العصور الوسطى	ويليام بير الهندسة الوراثية للجميع	ميكايل المي وجيمس لفلوك الانقراض الكبير
س. م. يورا التجربة اليونانية	ديفيد الدرترن تربية أسماك الزينة	آدامز فيليب دليل تنظيم المتاحف
د. عاصم محمد رزق مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	أحمد محمد الشنوانى كتب غيرت الفكر الانساني	ميكتور مورجان تاريخ النقود
جرونالد د. سمبسون ومرمان د. أندرسون العلم والطلاب والمدارس	جون . ر. بورر وميلتون جولدينجر الفلسفة وقضايا العصر ٢ ج	محمد كمال اسماعيل التحليل والتوزيع الاوركستراالى
د. انور عبد الملك الشارع المصرى والفكر	ارنولد توينبى الفكر التاريخى عند الاغريق	امر القاسم الفردوسى الشاهنامه ٢ ج
ولت وتيمان روستر حوار حول التنمية الاقتصادية	د. صالح رضا ملاحق وقضايا في الفن التشكيلى المعاصر	بيترتون بورتر الحياة الكريمة ٢ ج
فرد . س. هيس تبسيط الكيمياء	م. م. كنز وأخرون التغذية في البلدان النامية	جاك كرابس جرينوير كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر
جون لويس بوركهارت العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية في عهد محمد على	جورج جاموف بداية بلا نهاية	محمد فؤاد كوبرلى قيام الدولة العثمانية قوى بار
الان كاسبيار التذوق السيلمانى	د. السيد طه السيد أبو سديرة الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى	القنديل للسينما والتليفزيون تاجور شين بن . ج. وأخرون مختارات من الاداب الاسيوية
سامى عبد المعطى المخطوط السياحى في مصر بين النظرية والتطبيق	جاليليو جاليليه حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج	ناصر حسرو علوى سفرنامه
فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج البذور الكونية	اريك موريس والان مر الارهاب	نادين هورديمر وجريس ارجو- وأخرون سقوط المطر وقصص اخرى
حسين حلمى المهندس دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) المسميتماسق التليفزيون ٢ ج	سيرل النريد أختاتون	أحمد محمد الشنوانى كتب غيرت الفكر الانساني ٧ ج
	ارثر كيستلر القبيلة الثالثة عشرة ويهود الدم	جان لمويس يورى وأخرون فى التقليد السيلمانى الغربى
		العلمانيون فى أوروبا بول كولز

موديس بير براير
صناع الخلود

زيجمونت هين
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلي سميث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة
مصر ٢ ج.

ريتشارد شاحت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الاوستا المقدس

الحاج يونس المصري
رحلات قارتما

هربرت ثيلر
الاتصال والمهينة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكولز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
من النقد السينمائي الامري

بفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اورمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج.

موسى سراج واحسرو
السينما العربية من الخليج الى
المحيط

هانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج.

باسر محمد الحرار
ماستريخت

انزار كريم الله
من هم اللقار

ج. س. هريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ ج.

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الادب الهندية

لوريتر تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عطيموف
الشموس المتفجرة
اسرار السوبر توبا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الازهر فى الف عام

ستيفن رانسيان
الحملات الصليبية

ه. ج. ويز
معسلم تاريخ الانسانية
٤ ج.

جوستاف جرونباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيع
رحلة ييوتون الى مصر والحجاز
٣ ج.

جلال عبد الفتاح
المكون ذلك المنهج
ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج.

بادى اونيمود
الهوية - الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلو مالبينوفسكى
السحر والعلم والدين

ادم متز
الحضارة الاسلامية

هانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د. عبد الرحمن عبد الله الشيع
موميات رحلة هاسكو - اجاما

ايغرى شاتومر
كوننا المنمذ

سودارو
الفلسفة الجوهرية

مارتن هار كرغل
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبد مباحر
البحرية المصرية من محمد على
للمساعات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
من المايه والبانترمي

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام ه. ماثيوز
ما هي الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النظم الامريكى

جورج سستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ ج.

بانكو لافرين

الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عملا الله

الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الامريكى

هارى ب. ناش
الحمر والبياض والسود

جوزيف م. يوجن
فن الفرقة على الافلام

كريستيان ديروى ثويلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف يدهام
يوجن تاريخ العلم والحضارة
فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. ه. جيمر
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الامير رودولف الى الشرق
٣ ج.

مالكوم براندبرى
الرواية اليوم

وليم مارسلين
رحلة ماركو بولو ٣ ج.

هرى بيربين
تاريخ اوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيير
نظرية الادب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عطيموف
العلم وافاق المستقبل

روالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثنا عن عالم افضل

فرمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم
والتكنولوجيا

روبرت سكولز وآخرون
الهياكل الفكرية للعلماء

ب. س. بيلين
النهضة الحديثة للمكان والزمان

ص. هوراد
أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا

و. هارنولد
تاريخ الشرق في آسيا الوسطى

فلاديمير تيرمانيدو
تاريخ أوروبا الشرقية

جابريل جارسيا ماركيو
الجنرال في المتاهة

هنري برجسون
الشمس

د. مصطفى محمود سليمان
للزوال

م. و. ثريج
تفسير الهندس

أ. ر. جرنس
الحضارات السامية

ستيفن موسكاتي
الحضارات السامية

د. ألبرت هوراني
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
حب العربي المكتوب بالفرنسية

و. هوراد
كائنات مائة على مصر

جيمس هنري برستد
تاريخ مصر

بول داهيز
المقارنات الثلاث الأخيرة

جوزيف وهاري فيلدمان
دينامية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفيلينية

أرنست كاسيرو
في المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشس
ومسيسي الثاني

جان بول سارتر وآخرون
مقارنات من المسرح العالمي

روزالد ، وجاك يانسن
الطفل المصري القديم

نيكولاس ماير
شركاء هولمز

ميجيل دي ليبس
الغفران

جوسيب دي لونا
موسوليني

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرؤوف الجميل
مقارنات من الشعر الإسباني

السيد مصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتي

ممدوح عطية
البرقعة القوي الإسرائيلي
والأمن القومي العربي

د. ليوبوسكاليا
الحب

أيفور أيفانسن
مجموع تاريخ الأدب الإنجليزي

ميربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الغين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادي والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء في خدمة الإنسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراغة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
أنطون بروكتر

أزرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٥١٨٨

ISBN — 977 — 01 — 5187 - 4

يتناول حوراني في كتابه هذا، تاريخ الشعوب العربية، واستطردات ضرورية للعالم الإسلامي غير العربي، بحيدة وموضوعية، وقد يختلف معه القارئ في بعض تحليلاته، لكنه لا يسعه إلا أن يقدم جملة في التوثيق والتحليل، وفي هذا الجزء الأول ينتهي حوراني في سرده التاريخي حتى قبيل قيام الدولة العثمانية، ليتابع عرضه بعد ذلك في الجزء الثاني من قيام الدولة العثمانية حتى العصر الحاضر متعرضاً لوقائع تاريخية ذات أهمية خاصة كحرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧، على ما لا يخفى على القارئ من أهمية هذه الفترة.

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com